عالم الفكر

الاتصال البيولوجي

التحرير الاعلامي

وسائل الاتصال الحديثة

سيكولوجية الاتصال

المجلد الحادي عشر - العدد الثاني - يوليو - اغسطس - سبتمبر ١٩٨٠

عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشارى العدوانى
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة اشهر عن وزارة الاعلام فى الكويت * يوليو – اغسطس – سبتمبر ١٩٨٠
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية – وزارة الاعلام – الكويت : ص ٠ ب ١٩٣

المحتويات

الاتصال

التمهيد ... بقلم مستشار التحرير ... ٣
بيولوجيا الاتصال ... الدكتور يوسف عز الدين عيسى ... ١٣
وسائل الاتصال الحديثة ... الدكتور طه محمود طه ... ٥٥
سيكولوجية الاتصال ... الدكتور طلعت منصور ... ١٠٣
ماهية التحرير الاعلامى ... الدكتور عبد العزيز شرف ... ١٦١

• • •

شخصيات وآراء

نظرية الخيال عند جاستون باشلار ... الدكتور محمد على الكردى ... ١٩٩

• • •

مطالعات

النصوص والاشارات ... الدكتور احمد ابو زيد ... ٢٣٥

• • •

من الشرق والغرب

اضواء جديدة على ملاح فاسكو دى جاما ... الدكتور محمد عبد العال احمد ... ٢٥٥

• • •

صدر حديثا

سياسة الاتصال ... الدكتور محمود ابو زيد ... ٢٧٥
ميكانيكا العقل ... الدكتور عبد المحسن صالح ... ٢٨٣
اينشتين ... الدكتور محمود احمد الشربينى ... ٢٩٧

الدراسات التى تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم

الاتصـــال

التمهيد

يستشهد كثير من علماء السياسة والعلوم الانسانية بملاحظة طريفة صائبة أبداها تاليران Talleyrand من أن الانسان يستطيع أن يفعل أشياء كثيرة جدا بالسيف الا أن يجلس هو نفسه عليه . وكان تاليران يقصد بذلك أنه يستحيل على اى نظام من نظم الحكم أن يقوم ويستمر فى الوجود معتمدا فقط على ممارسة العنف والقهر ، وكبت الرأى الاخر ، ومحاولة القضاء على القوى المعارضة ، وانما الامر يتطلب على العكس من ذلك تجاوب الناس مع نظام الحكم وتفهمهم لفسفتة وأهدافه ، وخضوعهم (الطوعي) للسلطة ، وتقبلهم للنظم الاجتماعية والسياسية السائدة فى المجتمع واقناعهم بها . اى أن المسألة تستلزم من ناحية تنازل الافراد انفسهم عن قدر من (فرديتهم) نتيجة للفهم والوعي وادراك أهمية التماسك الاجتماعي ، مثلما تستلزم من الناحية الاخرى ادراك القادة والزعماء حقوق تلك القوى المعارضة فى التعبير عن رأيها ، ثم محاولة التغلب عليها عن طريق الحوار والاقناع وليس عن طريق القهر أو العنف ، الذى قد يتعرضون هم أنفسهم له اذا تغيرت الاوضاع . اذ ليس ثمة ما هو اقسى على المرء من أن يجد نفسه فى وضع لايتاح له فيه حرية التعبير عن رأيه وفكره فيما يدور حوله من أحداث تؤثر فى حياته بشكل مباشر .

ومع ذلك فالظاهر أنه كان يوجد دائما وفي كل أنواع المجتمعات الانسانية خلال جميع مراحل التاريخ نوع ما من الرقابة على الافكار والآراء ومظاهر السلوك ، وأن عملية

(الاتصال) بين أفراد المجتمع الواحد ، وكذلك أساليبه ووسائله وقنواته كانت هى أيضا تخضع دائما لعنصر من التوجيه والتقييد والتحكم . ولا ترجع هذه التحديدات فقط الى ما قد يفرضه أصحاب القرار من شروط وقيود على (مادة الاتصال) ــ أى نوع المعلومات التى يمكن تناقلها ، والموضوعات التى تباح مناقشتها ، وانما قد تأتى هذه القيود أيضا من (أداة الاتصال) ذاتها ، أى من اللغة التى تستخدم فى الحديث وتوصيل مادة الاتصال (المعلومات) . فاستخدام اداة اتصال (لغة) معينة بطريقة معينة ، بل وانتقاء كلمات والفاظ ومصطلحات معينة بالذات من تلك اللغة لاستخدامها فى مواقف معينة بالذات ، تساعد مساعدة فعالة اما على الابقاء على الاوضاع والقيم السائدة فعلا فى المجتمع ، أو على ادخال قيم وأفكار جديدة يراد لها أن تذاع وتنتشر وتسود بين أفراد المجتمع ، بحيث يرفضون كل ما قد تحمله اليهم أداة اتصال أخرى (لغة والفاظ وتراكيب مختلفة) وهكذا . وهذا معناه فى آخر الأمر أن اللغة من حيث هى أداة اتصال تعتبر عاملا أساسيا ووسيلة هامة من عوامل ووسائل التماسك والتضامن والتكامل فى المجتمع ، وذلك اذا عرف ذلك المجتمع كيف يستخدمها بالطريقة التى تخدم ذلك الهدف ، ولكنها فى الوقت ذاته قد تكون اداة لاشاعة البلبلة والفرقة فى المجتمع ، وبالتالى تكون عاملا ووسيلة من عوامل ووسائل التخلخل والتفكك والاضطراب اذا هى استخدمت بطريقة أخرى ، بقصد تحقيق ذلك الهدف أيضا . وهذا هو السبب فيما يذهب اليه العلماء والكتاب من ضرورة توفير حرية التعبير عن الفكر وابداء الرأى عن طريق أدوات ووسائل الاتصال المختلفة التى تعتمد فى المحل الاول على الكلمة المنطوقة أو المكتوبة ، وما يتبع ذلك من تبادل الآراء ، بل وأحيانا التقاء وجهات النظر ، على اعتبار ان ذلك هو خير ضمان لاستمرار التماسك والتضامن والتكامل فى المجتمع ، وليس فقط خير وسيلة لاستمرار نظام الحكم على ما يعتقد البعض أن هذا وحده هو ما كان يقصده تاليران من عبارته . فعبارة تاليران اذن تذهب الى آفاق أبعد وأوسع مما توحى به لأول وهلة ، لانها تعنى فى آخر الأمر **أن حرية الاتصال هى العامل الأساسى فى التماسك الاجتماعى .**

وكما يقول كلاوس موللر Claus Mueller فى كتابه القصير القيم عن « سياسة الاتصال » فان قدرة الانسان على « صنع » الكلمات وصياغة الرموز التى تمثل ظواهر عالمه الخارجى وعالمه الداخلى على السواء هى أهم الخصائص التى تميز الانسان عن بقية الكائنات . ففى محاولته فهم البيئة التى يعيش فيها وحل الغازها يصوغ الانسان انساقا رمزية أو لغات

يمكنه عن طريقها « بناء هذه العملية » ــ حسب تعبير موللر ــ ونقلها الى الآخرين . فالكلمات تمد الانسان بقوالب يصب فيها أفكاره ومفهوماته وتصوراته ، مثلما تزوده برموز تعبر عن معتقداته وقيمه ... ولكن على العكس من بعض الرموز الاخرى التى لا تتضمن سوى معانى محددة وثابتة كالأرقام أو الاعداد مثلا ، فان الكلمات تحتمل كثيرا من التأويلات التى تختلف من شخص لآخر ، مثلما تختلف باختلاف الظروف والاوضاع . وهذا هو ما يعطى الكلمات خطورتها واهميتها فى عملية الاتصال ... اللغة اذن ، وباختصار هى أداة الاتصال الرئيسية فى المجتمع الانسانى ، لأنها هى الوسيلة الاكثر فعالية فى تمكين الفرد من الدخول فى علاقات وتفاعلات اجتماعية مختلفة ، مثلما هى اداته الرئيسية فى عملية التكامل مع الثقافة التى ولد فيها ، اى أن اللغة التى يكتسبها الفرد اثناء عملية التنشئة الاجتماعية هى الاداة الاساسية فى عملية التنشئة أو التطبيع الاجتماعى ذاتها . وهذا لا يعنى بحال أن جميع أفراد المجتمع يفهمون اللغة السائدة فى ذلك المجتمع بنفس الطريقة ونفس الدرجة . اذ على الرغم من أنهم جميعا يتعلمون لغة المجتمع التى تتألف من الفاظ معينة ، والتى لها قواعدها المعروفة وقواميسها التى تضم مفرداتها ، وتحدد بدقة معانى هذه المفردات ، فان ثمة عوامل اجتماعية واقتصادية وسلالية كثيرة تؤدى الى تفاوت أفراد المجتمع فى ادراكهم للغة وفى طرائق استخدامهم لها . وبذلك فاننا نستطيع أن نقول مع موللر ان (لغة) الفرد هى بمثابة « رقيب داخلى » يتدخل فى تحديد ورسم علاقاته بالناس ، بقدر ما هى « واسطة لفظية » ــ أو « تجربة وسيطة » ــ يستخدمها فى توصيل آرائه وأفكاره وانفعالاته ، ومن هنا كانت قدرة الفرد على الاتصال تتوقف الى حد كبير على حصيلته من المفردات والتراكيب اللغوية .

ولكن السؤال الذى يطرح نفسه علينا بعد هذا كله ، والذى كان يمكن أن نبدأ به هذا التمهيد هو : ماذا نقصد بالاتصال ؟ ... وليس ثمة ما يدعونا الى الدخول فى متاهة التعريفات ، فالكلمة جديدة نسبيا ، وعلم الاتصال هو أيضا جديد ، وكما هو الحال بالنسبة لكثير من المصطلحات المستحدثة فى العلوم الاجتماعية والانسانية والمستمدة أساسا من العلوم الطبيعية فان العلماء لم يتفقوا حتى الآن على تعريف واحد للكلمة ، ولذا فقد يكفى هنا أن نقول أن «الاتصال» هو **العملية** التى يتم بمقتضاها تكوين العلاقات بين أعضاء المجتمع (بصرف النظر عن حجم هذا المجتمع وطبيعة تكوينه) وتبادل المعلومات والآراء والافكار والتجارب فيما بينهم . والواقع ان ثمة اجتماعا بين العلماء على اعتبار الاتصال **عملية** أساسية فى حياة المجتمع ، وان كل ما يتصل بانتقال الافكار والمعلومات من فرد لآخر أو من جماعة لأخرى يدخل ضمن هذه العملية ، سواء أكانت هذه الافكار والمعلومات ذات طبيعة اجتماعية أو ثقافية أو علمية ، وسواء أكانت تتصل بالناس انفسهم أو بالبيئة (العالم الخارجى) الذى يعيشون فيه ، أو حتى بتجربة الفرد نفسه مع نفسه ، وفى هذه الحالة الأخيرة تكون عملية الاتصال باطنية أو داخلية تماما ، بحيث يتم الاتصال بين الفرد وذاته كما هو الحال حين يقلب الفرد فى ذهنه أفكاره وآراءه الخاصة ، أو

حين يدرس ذاته ويضعها موضع التحليل والنقد والمحاسبة والمؤاخذة . فكأن كل عناصر الثقافة التى يمكن نقلها ــ أو توصيلها ــ من فرد لآخر أو من جماعة لأخرى أو من جيل لآخر تؤلف مادة الاتصال ، ومن هنا كنا نجد ادوارد هــول Edward T. Hall فى كتابه عن « اللغــة الصامتة The Silent Language » يقول أن « الثقافة اتصال » على اعتبار ان العادات والتقاليد والتراث والخبرات والقيم والمعارف المختلفة كلها تتنقل بين الاشخاص والجماعات والأجيال ، وهذا الانتقال او النقل والتوصيل هو ما يعطيها صفة الاستمرار والبقاء فى الوجود. ومن هنا أيضا كان معظم العلماء والمهتمين بدراسة الاتصال يعطون جانبا كبيرا من اهتمامهم لدراسة اللغة ، بما فيها اللغة الصــامتة (الحــركات والاشارات والايماءات .. الخ) واستخداماتها باعتبار اللغة هى اداة الاتصال الرئيسية واداة نقل الثقافة وتوصيلها مثلما هى ــ فى الوقت ذاته ــ جزء من الثقافة . وهذا هو ما أخذناه فى الاعتبار من قبل فى مقال لنا عن (حضــارة اللغة) ظهر فى العدد الخاص بموضوع « الفكر واللغة » من هذه المجلة حين ذكرنا أن الانســان الذى يتفرد باللغة من دون الكائنات الأخرى أقام حضارته على أساس اللغة ، وانه لولا اللغة لما قدر لمثل هذه الحضارة أن تقوم (انظر عــالم الفكر ، المجلد الثاني ، العدد الاول ، ابريــل ــ مايو ــ يونيو ١٩٧١) .

وعلى الرغم من الحداثة النسبية لعــلم الاتصال فانه علم شديد التعقيد ، يستمد اصوله ومسائله من عدة علوم أخرى لعل اهمهــا هى العلوم الاجتماعية وعلم النفس وعــلم اللغــة والسياسة ، فضلا عن كثير من التأثيرات الواضحة فيه من العلوم الطبيعية . الا أن (الاتصــال) ذاته كعملية كان بغير شك ملازما لنشأة المجتمع الانسانى ، وان كانت عمليــة الاتصال ومادته تتخذان بطبيعة الحال أشكالا عديدة مختــلفة تتفق ومختلف مراحل التطور الاجتماعى والذهنى والثقافى للجنس البشرى . فالى جانب (الكلام) كانت الجماعات المبكرة ــ ولا تزال بعض الجماعات البدائية حتى الآن ــ تلجأ الى اساليب قد تبدو ساذجة وبسيطة ولكنها تخفى وراءها بغير شك انساقا متكاملة من القواعد والاشارات والرموز التى لها معان واضحة فى أذهانهم ، حتى يمكن ارسال الرسائل (مادة الاتصال) بها ، مثــل قرع الطبول ، أو اشعال النيران ، أو ارســال اشارات الدخان ، وما الى ذلك . ومن الصعب قبول النظريات التى تذهب الى أن الانسان الاول لم يكن يعرف اللغة المنطوقة او الكلام ، وهى نظــريات كانت تشــيع فى بعــض الكتــابات الانثربولوجية المبكرة . ولكن ليس من شــك فى أن اللغات المبكرة كانت بسيطة للغاية نظــرا لبساطة الحياة ذاتها وسذاجتها وكذلك بساطة (مادة الاتصال) أى المعلومات والافكار التى كان يراد توصيلها . ولكن الذى ظهر متأخرا نسبيا هو اللغة المكتوبة .

ومهما يكن من أمر الاختلاف فى الرأى حول وجود أو عدم وجود لغة منطوقة لدى الانسان الاول أو الانسان المبكر ، فان اللغة بالمعنى الذى نفهمها به ــ وبخاصة الكلام ــ هــي الاداة الرئيســية للاتصال على ما سبق أن ذكرنا ، وذلك عــلى أساس ان الكلمات ليست الا رموزا تدل عــلى

أشياء معينة ، وبذلك فهى تختلف عن مجرد الاصوات التى تصدر بغير قصد ولا تحمل ـ فى بعض الاحيان على الاقل ـ معنى محددا . وبقدرما يملك الانسان ناصية اللغة يكون فى امكانه خلق الاتصال وتوصيل ما يدور فى ذهنه من أفكار وآراء أو ما يريد نقله من معلومات للآخرين. بل ان اللغة هى الوسيلة التى تمكن الفرد من التوحد مع الثقافة التى ينتمى اليها ، والارتباط عضويا بالمجتمع الذى يعيش فيه . وليس ادل على صحة ذلك من الصراع القائم الآن فى بعض الدول المتقدمة مثل كندا وبلجيكا نتيجة للاختلافات اللغوية بين قطاعات المجتمع المختلفة . ففى هاتين الدولتين بالذات نجد أمثلة حية للأقليات التى تعتقد ان ثقافاتها ، وبالتالى كياناتها ذاتها ، مهددة بخطر الزوال والاندثار ، نظرا لأن تعليم لغاتها الخاصة يحتل مركزا ثانويا بالنسبة للغة الاساسية السائدة فى الدولة . كذلك مما له دلالته فى هذا الصدد ما تلجأ اليه بعض المجتمعات للتعبير عن معارضتها للسياسة التى تنتهجها ازاءها بعض الدول الأخرى ، فتحرم تدريس لغاتها فى مدارسها ، أو تحرق كتبها ومجلاتها ومنشوراتها المختلفة ، وهذه عملية رمزية تعبر عن الرفض والقطيعة عن طريق القضاء على (اداة الاتصال) بين الجانبين . ومثل هذا الاجراء الرمزى ليس قاصرا على مجتمعات العالم الثالث أو المجتمعات المستضعفة فى ثورتها على الدول الاستعمارية ، وانما كثيرا ما تلجأ اليه الدول الغربية ذاتها وفى مواقف لا تنم عن الضعف . وخير مثال لذلك هو ما لجأت اليه فرنسا وبلجيكا بعد الحرب العالمية الاولى من منع تدريس اللغة الالمانية فى مراحل التعليم العام فى مناطق الالزاس Alsace ومالميدى Malmedy لكى تقضى على أداة الاتصال (اللغة الالمانية) مع جمهورية فايمار Weimar :

• • •

ولكن اذا كان الاتصال عملية قديمة قدم المجتمع الانسانى ، واذا كانت هذه العملية اتخذت أشكالا مختلفة واستخدمت أساليب و (أدوات) للاتصال متنوعة تتفق مع درجة تقدم المجتمع ، كما تختلف باختلاف مادة الاتصال ذاتها ومدى بساطتها أو تعقدها ، فان الظروف والملابسات والاوضاع العامة التى سادت العالم منذ بداية القرن العشرين بوجه خاص ، وما ارتبط بهذه الاوضاع من مظاهر التغير الكبرى التى تتمثل الى حد كبير فى زيادة الاتجاه نحو التحضر وظهور المدن الكبرى ، والتحول نحو التصنيع والتحديث فى مختلف مجالات الحياة ، وما ارتبط بهذا كله من تقدم هائل فى العلوم والتكنولوجيا وتعقد العلاقات الانسانية وتشعبها وتشابكها ، قد استوجبت كلها حدوث تغيرات جذرية ضخمة فى مجال الاتصال . وقد نجم هذا التغير فى المحل الاول عن ازدياد الشعور بضرورة (الاتصال) بالجماهير الواسعة العريضة المتباينة ليس فقط داخل المجتمع الواحد ، بل فى العالم ككل . ولذا كان من الضرورى ادخال تعديلات وتحسينات

ضخمة على وسائل وأساليب الاتصال القديمة، ثم استحدثت وسائل وأساليب جديدة تتفق مع الاحتياجات الجديدة والاهداف البعيدة التى يراد تحقيقها . فكأن التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى مر بها العالم اذ منذ بداية هذا القرن كانت من أهم الدوافع على العمل على تطوير وسائل الاتصال الجماهيرى، وان كانت هذه الوسائل ذاتها كثيرا ما يستعان بها فى تحقيق مزيد من التغير فى المجتمع . والمهم على أية حال هو أن المجتمع الحديث المعقد يعتمد اعتمادا كبيرا على أساليب ووسائل الاتصال الجماهيرى - التى كثيرا ما يطلق عليها اسم الاعلام الجماهيرى - فى نقل (مادة الاتصال) التى يراد توصيلها الى الجماهير العريضة وعلى نطاق أوسع بكثير من كل ما عرف خلال التاريخ. وتقوم بهذه العملية مؤسسات ضخمة (قد تكون هى الدولة ذاتها) مستعينة بأجهزة متطورة وفعالة (الصحافة والاذاعة والتلفزيون والسينما وغيرها) لنشر تلك المواد الاتصالية . ومن هنا جاءت أهمية وخطورة هذه الوسائل التى تفيد بغير شك فائدة كبرى من تقدم العلم وتطبيقاته فى مجال تكنولوجية الاتصال .

ولقد حاول موريس جانوفيتز Morris Janowitz - وهو من كبار العلماء المهتمين بدراسة الاتصال - أن يحدد فى مقاله عن The Study of Mass Communication أهم وظائف الاتصال الجماهيرى فذكر ثلاث وظائف أساسية هى : نقل تراث المجتمع من جيل لآخر ، وجمع المعلومات التى تساعد على مراقبة البيئة والاشراف عليها ، ثم المساعدة على ترابط مختلف أجزاء المجتمع فى وجه التغيرات الهائلة التى تطرأ على تلك البيئة . وقد تبدو هذه (الوظائف) غريبة بعض الشيء ، أو على الأقل غير مألوفة للكثيرين ممن يتصورون أن لوسائل الاتصال الجماهيرى وظائف وأهدافا أخرى غير هذه ، مثل الدعاية السياسية والترويج للمذاهب والايديولوجيات والافكار المتعلقة بنظام الحكم القائم ، أو حتى الترويج لأنواع معينة من النشاط الاقتصادى عن طريق الاعلان ، وذلك فضلا عن توفير بعض مواد التسلية والترفيه الراقية المفيدة . وربما كانت هذه الوظائف الثلاث التى ذكرها جانوفيتز هى فى نظره «الوظائف النهائية » أو الوظائف « العليا » التى ينبغي لوسائل الاتصال الجماهيرى ان تعمل على تحقيقها فى آخر الأمر . الا أن اختلاف وجهات النظر وتعددها حول هذا الموضوع خليق بأن يكشف لنا عن مدى أهمية الاتصال الجماهيرى فى حياة الفرد والمجتمع ، وتنوع بل وتغاير وتباين المجالات التى يمكن ان يفيد فيها . وهذا كله يعنى فى آخر الأمر ان أية محاولة لدراسة الاتصال الجماهيرى يجب أن تعطى كثيرا من الاهتمام لدراسة وفهم النظم التى تصوغ عمليات الاتصال، والسياسات التى تهدف اليها ، والآثار المترتبة عليها ، ومدى اقتناع الجماهير بما يقدم لهم من مواد ومعلومات .

وهذه مسألة لها أهميتها بغير شك، ويعطيها الدارسون لمشكلات الاتصال الجماهيرى ما تستحقه من عناية، نظرا لما تتعرض له (مادة) الاتصال ذاتها من تشويه وتحريف وتأويلات مفرضة فى كثير من الاحيان، وذلك الى جانب تدخل بعض نظم الحكم تدخلا سافرا فى تحديد المادة التى يمكن (توصيلها) وفرض قيود على مناقشة مشكلات ومسائل معينة، وقصر المناقشات على الموضوعات التى لا تشكل خطرا على كيان السلطة الحاكمة . ولقد ذكرنا من قبل ان المجتمعات المختلفة عانت الشىء الكثير فى كل مراحل التاريخ من مختلف صور واشكال الرقابة على الاتصال، ولا تزال الرقابة تفرض على وسائل الاتصال الجماهيرى فى المجتمع الحديث، وتتخذ هذه الرقابة أشكالا متجددة دائما، ولا يشذ عن ذلك حتى تلك المجتمعات التى تزعم أنها بلغت الذروة فى اتاحة الفرصة للتعبير عن الرأى فى حرية مطلقة ودون أية قيود. وقد يمكن ادراك مدى خطورة الرقابة وانتشارها اذا نحن اعتبرنا (الاتصال الموجه) نوعا من الرقابة المستترة التى تضفى عليها السلطات الحاكمة طابع الشرعية، اذ عن طريق هذا التوجيه يمكن لتلك السلطات أن تتدخل فى كل وسائل الاعلام الجماهيرى، بل وفى نظام التعليم الرسمى وتوجيهها كلها وجهات معينة بالذات تخدم أهدافا محددة تتفق مع أهداف ومصالح تلك السلطات ذاتها . ويتعرض الفرد العادى فى حياته اليومية لهذا النوع من الاتصال الموجه الذى يؤثر بالتأكيد بطريقة أو بأخرى فى تشكيل تفكيره وسلوكه وقيمه . بل الاكثر من ذلك هو أنه حتى فى الحالات التى لا تخضع فيها المعلومات أو مواد الاتصال الجماهيرى لأى توجيه متعمد يؤدى الى تشويه الحقيقة وتحريفها فان هذه المعلومات كثيرا ما يطرأ عليها بعض التغيير و (التلوين) غير المقصود أثناء عملية النقل أو التوصيل . ويتوقف حجم هذا التشويه :

أولا — على قدرة الشخص أو الأشخاص الذين يقومون بعملية النقل والتوصيل (الارسال) على استيعاب المادة وفهمها فهما صحيحا دقيقا، ثم على الأسلوب الذى يتبعونه فى الاتصال والتوصيل ومدى كفاءتهم وقدرتهم على استخدام أداة الاتصال (اللغة) سواء أكانت مكتوبة أو منطوقة أو حتى لغة صامتة (الاشارات والحركات والايماءات وما اليها) . كذلك تتوقف :

ثانيا — على الشخص المستقبل ذاته وقدرته على استيعاب الرسالة (مادة الاتصال) وتتبعها بدقة ومدى اهتمامه بها وقدرته على تأويلها بطريقة سليمة، وهى عملية تتأثر بتجربته السابقة وخلفيته الثقافية العامة، بل وأيضا خلفيته فى المجال الخاص الذى تنتمى اليه تلك الرسالة والمعلومات التى تتضمنها، ثم باهتمامه الشخصى بهذا النوع من المعلومات بالذات .

ولكن مع التسليم بأهمية الدور الذى تلعبه وسائل الاتصال الجماهيرى أو الاتصال الجماعى فى حياة الفرد والمجتمع فان الكثيرين من العلماء الذين درسوا أثر هذه الوسائل دراسة حقلية

يرون ان ثمة شيئا غير قليل من المبالغة والمغالاةفى تقدير هذا الدور ، وبخاصة حين يصل الأمر الى تأثيرها فى المعايير الاخلاقية والاتجاهاتوالقيم السلوكية والدينية ، بل ان بعض هؤلاء العلماء يتشككون فى قدرة هذه الوسائل على خلقانطباععام او صورة معينة لدى الجماهير عن القـادة والزعماء السياسيين انفسهم الذين يســخرونتلك الوسائل لخلق صورة مثالية لهم فى اذهـان الناس . وبقول آخر فان نجاح وسائل الاتصالالجماهيري فى ذلك هو نجاح محدود نسبيا ، اوعلى الأقل هو اضعف واهون واضأل بكثير مما يعتقدالكثيرون . والواقع ان عددا من كبار العلماء من امثال لاسويل Lasswell وهوفلند Hovland ولازارزفلد Lazarsfeld وبركوفيتز Berkowitz وباندورا Bandura توفـروا على دراســة اثرالاتصال الجماهيرى على قطاعات كبيرة منالناس فى عدد من المجتمعات المحلية فى امريكا بالذات ،وقد استمرت هذه الدراسات مدة طويلة مـن الزمن تقرب من نصف قرن ، وقد انتهى معظمهاالى نتائج عكسية تماما ، اذ تبين منها انه لا توجد شواهد مؤكدة تثبت فاعلية وعمق هذه التأثيراتعلى الناس . وهذه فى حد ذاتها نتائج طيبة ، لأنها تعنى أن الطـرف (المســتقبل) ـ اىالجماهير ـ لا تتقبل كل ما يقدم اليها بغيرمناقشة أو نقد ورفض ، وان كان هذا لا يعنى فى الوقتذاته انكار كل تأثير لتلك الوسائل على الناس .

بل ان الأمر يذهب الى ابعد من هذا بكثير،اذ تتعرض وسائل الاتصال الجماهيرى لكثـير من حملات الهجوم والنقد والتشكيك ، وربمـاكانت اشد هذه الحملات عنفا واكثرها ضراوة هى تلك التى يشنها « المثقفون » أو « الصـفوةالمثقفة » المختارة فى مختلف المجتمعات بمـا فى ذلك المجتمعات المتقدمة ، الذين يرون انه علىالرغم من كل ما يقدمه الاتصال الجماهيرى أو (الاعلام) للسامع أو المشاهد أو القارىء منمواد علمية وثقافية فانه مسئول فى آخر الأمر مسئولية مباشرة عما أصــاب المعـايير الثقافيةوالفكرية والاخلاقية والسلوكية على السواء من تدهور وانحطاط . فالاتصال الجماهيرى يخاطبفى المحل الاول « الرجل الجماهيرى » أو «الانسان الجماهيرى» ويقدم له بالضرورة ثقافة جماهيرية،وفى ذلك قضاء على الثقافة الرفيعة الحقـة ، وبالتالى قضاء على الحضارة الانسانية الراقيــةكلها . وهذا الموقف الذى يقفه المثقفون فى الوقت الحاضر يختلف اختلافا كبيرا عن موقفهم فىبدايةهذا القرن ، حين كانوا يأملون أن تسهم أساليب الاتصال الجماهيرى ووســائل الاعــلام فى نشرالثقافة **الرفيعة** بين الجماهير وعلى نطاق أوسع بكثير مما يصل اليه الكتاب أو المجلة الراقية ،بل انهم كانوا يتوقعون أن تسهم هذه الوســائل والأساليب اسهاما فعالا فى نشر التعليم والارتفاعبمستواه ، مما يؤدى فى آخر الأمر الى ارتفـاع المستويات الفكرية ، وهذا أمر لم يتحقق تماما،بل الملاحظ هو عكس ذلك ، اذ انحرفت هــذه الوسائل بحيث أصبحت تقدم (مواد اتصالية)على درجة عالية من التفاهة والضحالة وتعتمد

على الاثارة والتشويق بدلا من العمق . ولقد كانت نتيجة هذا كله هو ظهور (المجتمع الجماهيرى) ــ وهى الصفة التى يحب الكثيرون من علماء الاتصال والاجتماع والانثربولوجيا أن يصفوا بها المجتمع الحديث ، وهو مجتمع تنعدم فيه الخصائص والمميزات الثقافية الفردية التى يعطيها المثقفون والمفكرون أهمية بالغة .

ومع صحة هذه المآخذ والانتقادات الا انه لا يمكن أن نعزوها الى وسائل الاتصال الجماهيرى فى ذاتها أو من حيث هى كذلك ، بقدر ما يمكن ردها الى القائمين على هذه الوسائل والمسئولين عن اختيار (مواد الاتصال) التى تقدم عن طريقها. فالأمر يتوقف الى حد كبير على السياسة التى توضع منذ البداية لتوجيه هذه الوسائل ، والميادين التى يراد استخدامها فيها ، والمستوى العلمى والثقافى للذين يضعون هذه السياسة وينفذونها ، وعلى مدى فهمهم للدور الذى يجب أن تضطلع به فى ترشيد الفرد والثقافة والمجتمع. ومع أن (رموز) وسائل الاتصال الجماهيرى و (رسائله) تقدم فى الاصل (للاستهلاك الواسع)ــ حسب تعبير جانوفيتز ، فان هذا يجب أن لا يكون مانعا أو عائقا عن الاهتمام بنوعيتها ومستوياتها . وعلى اى حال فان الخلاف لايزال قائما حول اذا ما كان ينبغى على وسائل الاتصال الجماهيرى ان تقدم **ما تحب** الجماهير الواسعة العريضة أن تقرأه وتشاهده وتسمعه . **وما يجب** قراءته ومشاهدته وسماعه ، مستهدفة مثالا معينا ينبغى الاقتراب منه بقدر الامكان .

• • •

ومهما يكن من شيء ، وعلى الرغم من كل ما قيل عن الدراسات والبحوث التى أجريت عن أساليب ووسائل الاتصال المختلفة ، وعلى الرغم من كثرة ما كتب وما نشر فى هذا المجال ، فلا تزال هناك ميادين أخرى كثيرة ومتنوعة تحتاج للدراسة والبحث . وبعض هذه الميادين لم يمس حتى الآن وبخاصة فى العالم العربى ، وهى ميادين ومجالات خليقة بأن تجذب اهتمام الباحثين نظرا لأهميتها وعلاقتها المباشرة بحياة المجتمع ومستقبله ومصيره . فالبحوث التى أجريت حتى الآن فى العالم العربى قليلة وضحلة فى معظمها ، وتعالج فى الاغلب مشكلات جزئية أو فرعية وفى غير كثير من التعمق .

وبعد ، فمنذ حوالى نصف قرن مضى ، وبالذات فى عام ١٩٣٢ كتب هارولد لاسويل جملة قصيرة ولكنها عميقة وذات دلالة لأنها تلخص بوجه عام كل فلسفة الاتصال ومجالات البحث فيه ، اذ يقول عن عملية الاتصال بعامة ، والاتصال الجماهيرى بخاصة ، انها تدور حول « من يقول ؟ وماذا يقول ؟ ولمن يقول ؟ ولماذا يقول ؟ » ولقد كانت هذه العبارة ، منذ صدرت،

ولا تزال حتى الآن ، تعتبر هى المبدأ الذى يوجه معظم البحوث فى مجال الاتصال . لانها تقدم أربعة أبعاد للمشكلة ينبغى البحث فيها فى اية دراسة متعمقة . وهذه الابعاد هى :

اولا ـ البحث عن طبيعة الشخص المرسل او المؤسسة او المنظمة التى تقوم بعملية الاتصال، او طبيعة تكوينها وتنظيمها وسياستها .

ثانيا ـ البحث فى محتوى (الرسالة) للتعرف على نوع المعلومات او (مادة) الاتصال التى تتضمنها .

ثالثا ـ دراسة طبيعة المرسل اليه او المستقبل سواء أكان فردا يتلقى رسالة من شخص آخر ، أو كان هو جمهور القراء أو المستمعين او المشاهدين اذا كانت اداة الاتصال هى الصحافة أو الاذاعة أو التلفزيون والسينما ، وتركيب هؤلاء (المستقبلين) ومدى التجانس أو التباين والتفاوت والاختلاف بينهم فى الخصائص الفكرية والثقافية .

رابعا واخيرا ـ دراسة التأثيرات التى يراد احداثها فى المستقبلين ، والى اى مدى امكن تحقيق ذلك ، ونوع الاستجابة ورد الفعل عليها . . فليست المسألة اذن هى مجرد تأثير وسائل الاعلام او الاتصال فى الجماهير ، وانما هناك جانب آخر كثيرا ما يغفله الباحثون وهو تأثير هذه الجماهير ذاتها فى وسائل الاعلام ، واستجابة هذه الوسائل لهم . وهذه كلها أمور لا تزال بحاجة الى مزيد من البحوث الميدانية العميقة حتى يمكن فهم رسالة وسائل الاتصال وبالذات الاتصال الجماهيرى ووظيفتها ، لكي يمكن وضع سياسة ممكنة التنفيذ بما يحقق خير المجتمع .

★ ★ ★

بيولوجيا الاتصال

يوسف عزالدين عيسى *

الاتصـــال البيولوجي قـــد يكون اتصالا كهربائيا أو كيميائيا داخل جسم الحيوان ، وقد يكون اتصالا ينتج عنه توالي الاجيال او تواصل الاجيال لضمان استمرار بقاء النوع . وقـد يكون اتصال الافراد المختلفة من الحيوانات بعضها ببعض .

الاتصال الكهربائي :

يتم الاتصال الكهربائي عن طريق الجهاز العصبي . ويشـــتمل الجهـــاز العصبي على : الجهاز العصبي المركزى (المخ والحبل العصبي او الحبل الشوكي) ، والجهاز العصبي الطرفي ويشمل الاعصاب الصادرة من المخ (الاعصاب المخية) واعصاب الحبل الشـــوكي والجهاز العصبي الذاتي AUTONOMIC ويتركب مـن الجهاز العصبي الســـمبيتي SYMPATHETIC والجهاز الباراسمبتى PARASYMPATHETIC

ويحتوى مخ الانسان الذى يزن نحو ثلاثة أرطان على نحو عشرة آلاف مليون خلية عصبية تبعـــا لتقدير العالم الامريكي « ناثان كلاين » NATHAN KLINE وتوصف الخلايا العصبية بأنها خلايا ارستقراطية ، اذ تختلف في شكلها وتركيبها عن باقي خلايا الجسم . (شكل ١) ، فهي لاتنقسم كما تنقسم معظم الخلايا . فعدد خلايا المخ عند ولادة الانسان لايزيد خلية واحدة عند وفاته ، ولذا فان الخلايا التي تتلف او تموت فى المخ مع مرور الزمن أو لاى سبب آخر لايحل محلها خلايا اخرى كما يحدث فى خلايا الجلد ، مثلا ، الدائمـــة التجدد عـــن طريق الانقسام . وكما يحدث أيضا فى خلايا الـــدم الحمراء التي تموت ويحل غيرها كل نحو مائة يوم وفى عديد مـــن خلايا الجســـم الاخرى . ويموت من خلايا مخ الانسان يوميا بعد سن العشرين نحو خمسين ألف خلية . ويوجد نحو مائة مليون خلية عصبية فى البوصة المكعبة .

(*) الاستاذ الدكتور يوسف عزالدين عيسى استاذ بقسم علم الحيوان بكلية العلوم بجامعة الاسكندرية بجمهورية مصر العربية . وهو الى جانب بحوثه العلمية العديدة فى مجال تخصصه ، ذو انتاج أدبى غزير فى مجال القصة والروايـة والدراما المسرحية والاذاعية والتلفزيونية والفيلم السينمائى والمقال . ولقد نشرت له مجلة « عالم الفكر » ثلاث مقالات غير هذا المقال .

والجهاز العصبى فى معظم الحيوانات العديدة الخلايا جهاز اتصال سريع ، حيث تنتقل التعليمات من احد اجزاء الجسم الى اجزاء اخرى على شكل دفعات عصبية NERVE IMPULSES. وهو جهاز شديد التعقيد تركيبا ووظيفة . ويختلف فى تركيبه ووظائفه فى الحيوانات المختلفة ، ولو انه قد توجد بعض التركيبات والوظائف المشتركة .

ففى حيوان اولى دقيق الحجم وحيد الخلية (اى يتركب جسمه من خلية واحدة) مثل الاميبا او البرامسيوم وغيرهما لا يوجد جهاز عصبى او اعضاء للحس بالمعنى المفهوم فى الحيوانات الراقية ، ولكن على رغم من ذلك نجد مثل هذه الحيوانات تستجيب للمؤثرات المختلفة . فحيوان الاميبا ، وهو يعيش دائما فى الماء ، يسرع مبتعدا عن المواد الكيميائية الضارة ، ويستجيب للضوء الشديد ، ويتحوصل عندما تنضب المياه التى يعيش فيها حيث يتكور ويفرز حول نفسه قشرة ، ويظل كامنا داخل هذه الحوصلة مهما طال الزمن حتى تعود المياه الى مجاريها ، فيذيب حوصلته ويخرج منها ويستأنف حياته المعتادة .

وفى حيوان جوفمعوى مثل الهيدرا HYDRA وهو صغير الحجم اسطوانى الشكل عديد الخلايا لا يزيد طوله عن بضعة مليمترات ، ويعيش ايضا فى الماء ، يتكون جهازه العصبى من شبكة اسطوانية الشكل من الخلايا العصبية ، تتصل خلاياها العصبية بالخلايا العضلية والخلايا الهاضمة . وتصل من الخلايا العصبية اشارات الى الخلايا العضلية تأمرها بالانقباض او الانبساط ، كما تصل الى الخلايا الهاضمة لتأمرها بافراز الانزيمات الهاضمة . ولا يوجد لهذا الحيوان مخ. ويتدرج الجهاز العصبى فى الرقى حتى يصل الى قمة رقيه وروعته فى الانسان .

ففي الانسان ، وفى غيره من الفقاريات ، نجد المخ محفوظا داخل جمجمة سميكة الجدار . ويتكون من انسجة ليفية هشة . وتمتد من كل خلية من خلايا المخ شعيرات دقيقة توصل كل خلية بالاخرى ، ولكن اطراف شعيرات الخلايا المجاورة لا تتلامس. وتمر نبضات كهربائية داخل هذه الاعصاب كما يسرى التيار الكهربائى داخل الاسلاك المعزولة . ويمتد من المخ حبل شوكى حتى نهاية العجز. وهذا الحبل الشوكى محفوظ ايضا داخل سلسلة من الفقرات العظمية ذات تجويف يمتد بداخله الحبل الشوكى . وتوجد فى الفقرات ثقوب تمتد من خلالها اعصاب الى الجهات المختلفة من الجسم تتلقى شتى انواع الاحساس ، وتوصل هذا الاحساس الى الجهاز العصبى المركزى ، وتتلقى من الجهاز العصبى المركزى اوامر فورية استجابة لهذه المؤثرات .

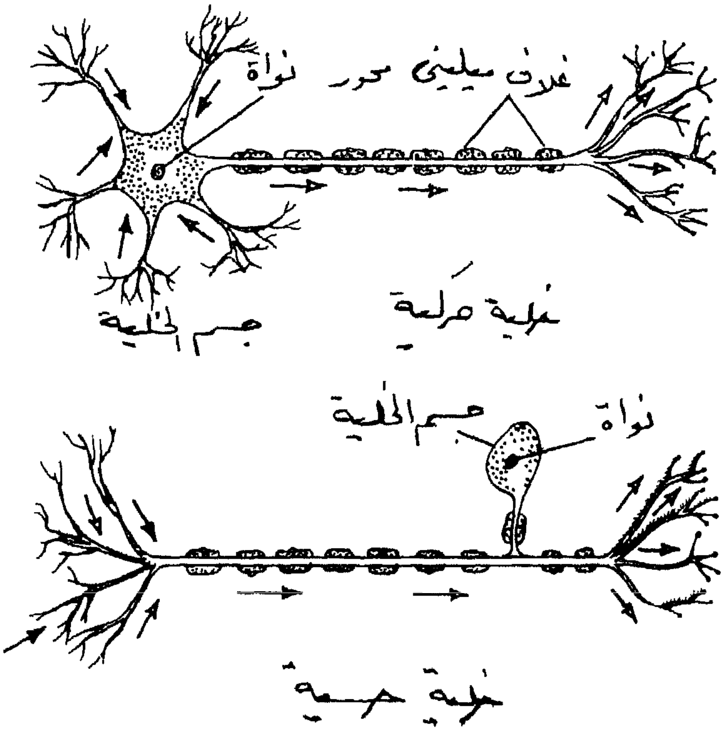
غلاف ميليني
محور
نواة
جسم الخلية
خلية محركة
نواة
جسم الخلية
خلية حسية

(شكل ١)

ويمتد من المخ نفسه اعصاب يوجد منها عشرة الى اربعة عشر زوجا فى الفقاريات. اما عدد الاعصاب التى تمتد من الحبل الشوكى فى الحيوانات المختلفة فيتراوح عددها بين عشرة ازواج في بعض البرمائيات الى اكثر من خمسمائة زوج فى بعض الثعابين . ويوجد فى الانسان اثنا عشر زوجا من الاعصاب تمتد من المخ ، وواحد وثلاثون زوجا من الاعصاب تمتد من الحبل الشوكى .

الخلايا العصبية وكيفية اتصالها .

قد لا يتصور البعض ان للخلايا العصبية وظائف غير توصيل الدفعات العصبية . فلقد لوحظ وجود بعض الخلايا العصبية التى تفرز مواد كيميائية فى الدم فى بعض شعب الحيوانات. وتوجد فى بعض الاجهزة العصبية خلايا اخرى تسمى الغراء العصبى NEUROGLIAL CELLS وهذه الخلايا لا تسهم فى توصيل الدفعات وتشكل نحو تسعين فى المائة من خلايا مخ الانسان من حيث العدد ، ويبلغ وزنها نصف وزن المخ . وهذه الخلايا تحيط وتدعم الخلايا العصبية التى تنقل الدفعات العصبية ، وما تزال وظائفها الاساسية غامضة . ويظن بعض العلماء ان هذه الخلايا تلعب دورا في التغذية والذاكرة وتنظيم الخلايا العصبية الاخرى .

والخلايا العصبية التى توصل الدفعات العصبية NEURONS تختلف فى شكلها وحجمها . وتتركب هذه الخلايا من اجزاء ثلاثة : جسم الخلية SOMA الذى يحتوى على النواة ، ويمتد من جسم الخلية شعيرات دقيقة تسمى دندريتات DENDRITES ، وهذه تحمل السيال العصبى او الدفعات العصبية IMPULSES نحو جسم الخلية ، ويمتد أيضا من جسم الخلية ليفة عصبية طويلة تسمى المحور AXON تحمل السيال العصبى من جسم الخلية وتنتهى بتفرعات دقيقة تشبه تفرعات غصن الشجرة ولذا يطلق على هذه التفرعات اسم التفرعات الشجرية الطرفية TERMINAL ARBORIZATIONS شكل (١) . وتفرعات الخلايا العصبية لاتتصل ببعضها اتصالا مباشرا ، ولكن توجد بينها مسافة قصيرة للغاية تسمى « التشابك العصبى » SYNAPSE

القوس العصبى الانعكاسى NEURAL REFLEX ARC (شكل ٢ ا و ب)

يؤدى القوس العصبى الانعكاسي وظيفة هامة ، وهى رد الفعل المباشر لاشارة يفهم منها تعرض احد اعضاء الجسم لخطر مفاجىء . والحركات الانعكاسية العصبية عبارة عن استجابات اوتوماتية عندما يتعرض الجسم لمؤثر معين . وعندما يدق الطبيب بمطرقته اسفل عظمة الركبة تجد القدم يتحرك اوتوماتيا ، واذا سلط على العينين ضوء قوى مفاجىء فان فتحة حدقة العين تضيق اوتوماتيا . واذا وصل الطعام الى الامعاء نجد العصارات الهاضمة تفرز تلقائيا . تحدث جميع هذه الاشياء بدون الرجوع الى المخ لتلقى الاوامر . ويمكن تشبيه استجابة الخلايا العصبية لمثل هذه المنبهات بالجندى المكلف بحراسة منطقة عسكرية ممنوع الاقتراب منها

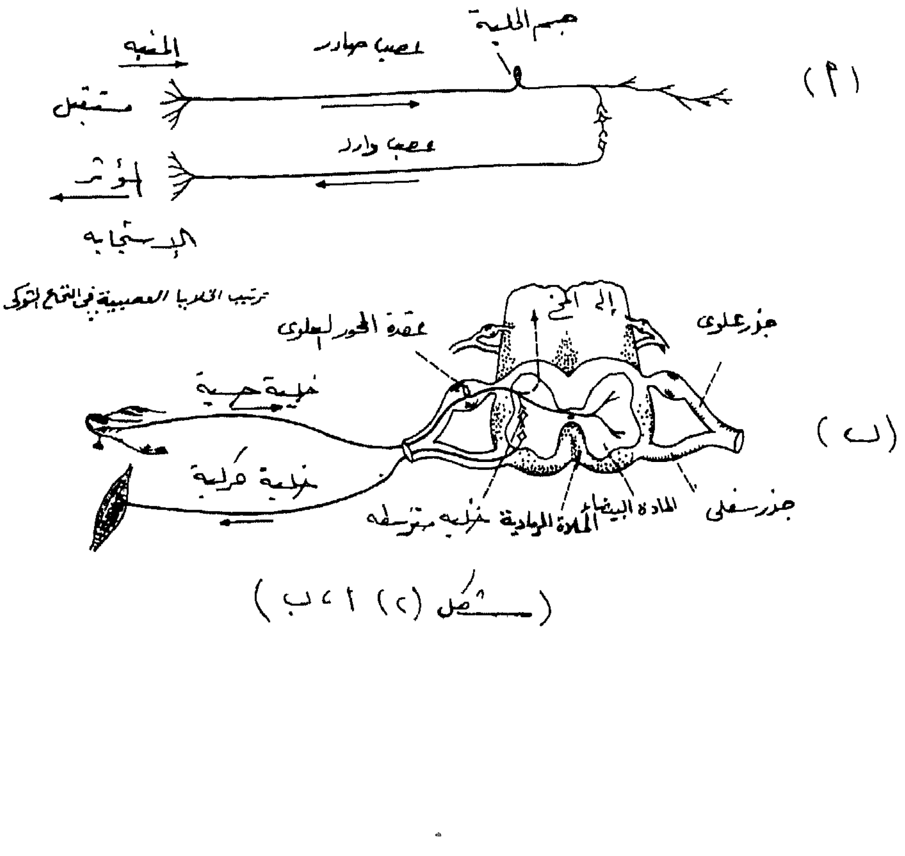
جسم الخلية
المنبه
عصب صادر
(أ)
مستقبل
عصب وارد
المؤثر
الاستجابة
ترتيب الخلايا العصبية في النخاع الشوكي
إلى المخ
عقدة الجذر العلوي
جذر علوي
خلية حسية
(ب)
خلية حركية
جذر سفلي
المادة البيضاء
المادة الرمادية
خلية متوسطة

(شكل (٢) أ ، ب)

وارتيادها . اذ انه فى هذه الحالة سيقوم باطلاق الرصاص على اى شخص غريب يحاول دخول المنطقة دون الرجوع الى القيادة العليا . ولا يعنى هذا ان المخ لا يعلم شيئا عن هذه الاستجابات التلقائية ، او انه لا يبذل اى مجهود للسيطرة عليها ، ولكن المقصود ان الانسان لا يشعر بانه يفكر فى هذا الامر ، اذ يحدث بدون ادنى تفكير.

فاذا لمس شخص موقدا ساخنا باصبعه فان المخ لا ينتظر تقدير الموقف والتفكير فيه ، بل سرعان ما تؤمر عضلات الذراع بدفع اليد بعيدا عن موطن الخطر . ويحدث هذا الانعكاس فى سرعة قصوى عن طريق اعصاب الحبل الشوكى. وبعد فترة قصيرة تتلقى اجزاء المخ الواعية اشارة اخرى عن الحروق التى اصابت اليد ، وربما سارع الشخص فى هذه الحالة الى وضع اصبعه فى فمه . ومن الواضح ان الحركة الثانية تكون اقل سرعة ، ويؤديها الشخص بارادته وتفكيره. ان حركة رد الفعل اللاارادى تدفع اليد بعيدا عن موطن الخطر .

وفى جميع ردود الفعل الانعكاسية التلقائية نجد ان اعضاء الحس والخلايا العصبية والجهاز العصبى المركزى والاعضاء المستجيبة للاحساس مشتركة معا في سلسلة من التفاعلات حيث تنبيه لاعضاء الحس . بعد ذلك تنبعث رسائل خاصة على هيئة نبضات كهربائية عن طريق خلايا عصبية حسية واردة AFFERENT NERVES الى الحبل الشوكى ، وهو جزء من الجهاز العصبى المركزى كما ذكرنا . وللخلايا العصبية الحسية محاور عصبية (الياف عصبية) تمتد من عضو الاحساس الى جسم الخلية العصبية الكائن بجوار الحبل الشوكى . وبناء على ذلك فينبغى ان نتصور ان الليفة العصبية الممتدة من مركز استقبال اللمس فى القدم لا بد ان يبلغ طولها عدة اقدام . والليفة الممتدة من جسم الخلية العصبية نحو الحبل الشوكى قصيرة نسبيا وتنتهى بتفرعات شجرية فى الحبل الشوكى . وهذه التفرعات تتشابك مع خلايا عصبية صغيرة داخل الحبل الشوكى ، وتسمى الخلايا العصبية الموصلة CONNECTOR NERVES. وهذه الخلايا الموصلة تتشابك بطرفها الاخر مع الخلايا العصبية التى تحمل المؤثرات خارج الحبل الشوكى ، وهى الخلايا الصادرة EFFERENT NERVES، ان الخلية الموصلة تقع بين خليتين عصبيتين ، احداهما واردة من مركز الاحساس والثانية صادرة الى مركز الاستجابة لهذا الاحساس (شكل ٢ أ و ب) . وعندما تنشط الخلايا الصادرة بطريق مباشر او غير مباشر بواسطة الخلايا الموصلة ، فان هذه الخلايا العصبية الصادرة تنظم الاستجابة فى الاعضاء المستجيبة لهذا التنبيه مثل الغدد والعضلات (شكل ٢) . والخلايا العصبية الصادرة التى تحمل التأثير فى حالة اتصالها بالعضلات الهيكلية (التى تحرك العظام فى الهيكل العظمى) تسمى الخلايا الحركية MOTOR NEURONS لانها هى التى تؤثر فى العضلات وتجعلها تحرك الهيكل العظمى فتبعد اليد عن النار فى حالة لسع اليد بالنار ، او تبعد القدم عن الدبوس الذى يوخزه عن طريق اعصاب الحبل الشوكى ، دون انتظار لتلقى تعليمات من المخ .

ولقد بدأ التفكير في رد الفعل الانعكاسيالعصبى عن طريق عالم الرياضيات الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت فى القرن السابع عشر . فلقد ذكر ان وحدة الفعل فى الجهاز العصبى هى الانعكاس العصبى. وكان يقصد بذلك ان التنبيه،مثل سقوط ضوء على العين،يحدث دفعةعصبية نحو المخ تنعكس الى الخلف من المخ من خلال اعصاب الى عضلات فى الذراع او فى اماكن اخرى حيث تحدث الاستجابة للتنبيه .

ومن اوائل من اثبت ذلك عن طريق التجربةاحد هواة الدراسة البيولوجية وهو ستيفن هيلز STEPHEN HALES (الذى اكتشف ايضا ضغط الدم) . لقد وجد هيلز ان فى الامكان اتلاف مخ ضفدعة بأية وسيلة دون اتلاف الاستجابة للمؤثرات . اى ان الاستجابة للمؤثمرات لا تزول بل تظل باقية بعد اتلاف المخ . اذ لو وضعت قطعة من الورق مغموسة فى الخل فوق ظهر هذه الضفدعة التى اتلف مخها فان الضفدعة تدفع هذه الورقة بعيدا عنها بدقة بالغة باحدى ارجلها الخلفية. وهذا يدل على وجود مصدر للاحساس والاستجابة لهذا الاحساس خارج نطاق المخ . واذا اتلف الحبل الشوكى لاحدى الضفادع بادخال سلك فى العمود الفقرى المحيط بالحبل الشوكى فان الاستجابة لمثل هذه المؤثرات تتوقف نهائيا، وهذا يدل بوضوح على ان هذه الاستجابة تحدث عن طريق الحبل الشوكى وحده بلا اية مساعدة من المخ .

وحدث ان احد الضباط اصيب بقذيفة اتلفت حبله الشوكى بين الضلعين الخامس والسادس ومع ذلك احتفظ بقدرته على تحريك ذراعيه . ولكنه عجز عن تحريك ساقيه وفقد احساسه بهما . وعندما وخز احد اصابع قدمه بدبوس انحنت ساقه عند الركبة وجذبت القدم الى الخلف .

ومنذ ذلك التاريخ تراكمت معلومات جديدة عن الانعكاس العصبى . فلقد اكتشف علماء التشريح بعد ذلك المسار الحقيقى للدفعة العصبية فى الانعكاس العصبى اللاارادى ، وادركوا ان العصب قبيل دخوله فى الحبل الشوكى يتفرع الى فرعين : جذر ظهرى (خلفى فى حالة الانسان) وجذر بطنى (امامى فى حالة الانسان) ، وان الجذر الامامى يشتمل على عقدة عصبية . واتضح من ذلك انه اذا قطعت الجذور العصبية الخلفية المحتوية على الاعصاب المتصلة بالرجل فان الرجل فى هذه الحالة تفقد الاحساس ، ولكنها لا تصاب بالشلل . واذا قطعت الجذور العصبية الامامية وحدها فان الرجل تصاب بالشلل ولكنها لا تفقد الاحساس . واستنتجوا من ذلك ان الجذر العصبى الخلفى ذو خلايا حسية ، بينما الجذر العصبى الامامى يشتمل على خلايا حركية .

ومما هو جدير بالذكر ان التيار الكهربائى يسرى فى اتجاه واحد داخل الخلية العصبية الواحدة . فالخلايا الحسية تسرى فيها الكهرباء من مكان الاثارة او التنبيه نحو الحبل الشوكى . ما الخلايا العصبية الحركية فيسرى فيها السيال الكهربائى فى اتجاه مضاد من الحبل الشوكى الى العضو المستجيب . اى ان هذه الاعصاب تشبه الطرق التى تسير فيها السيارات فى اتجاه واحد.

ويوجد خطان تشريحيان فى الفقاريات فيمايتعلق بخط سير الخلايا العصبية الصادرة . **النمط الاول** هو الذى سبق ذكره فى حالة الخلاياالعصبيةالحركية التى تحرك العضلات . وفى هذه الحالة تمتد ليفة عصبية واحدة خارج الحبل الشوكى وتتصل بعضلة من عضلات الهيكل العظمى . ولهذه الخلايا محور قصير يمتد من جسم الخلية وينتهى بتفرعات دقيقة . ويقع المحور القصير هذا وتفرعاته فى الحبل الشوكى ومحور طويل يمتد الى العضلة .

اما **النمط الثانى** فيوجد فى الجهاز العصبى الذاتى AUTONOMIC الذى يسيطر على الانشطة اليومية للاعضاء الداخلية حيث توجد خليتان صادرتان فى سلسلة تحملان عادة التعليمات من الجهاز العصبى المركزى الى الفدد والقلب وعضلات الاعضاء الداخلية ، وتتقابل الخليتان العصبيتان فى تشابك عند كتلة من النسيج العصبى تسمى عقدة عصبية تقع فى مكان قريب من الجهاز العصبى المركزى . وينقسم الجهاز العصبى الذاتى الى قسمين : الجهاز الباراسمبتى والجهاز السمبتى . وفى الجهاز الباراسمبتى تكون الخلية العصبية الاولى طويلة نسبيا والثانية قصيرة ، وبهذا تتقابل الخليتان بالقرب من العضو المستجيب للتنبيه او داخل العضو ، اما فى حالة الباراسمبتى فيحدث العكس . وهذا يؤدى الى وجود العقدة العصبية بعيدة نسبيا عن العضو المتسجيب للتنبيه ، حيث تتقابل كل من الخليتين العصبيتين المتشابكتين . ويوجد عدد من العقد العصبية للجهاز العصبى السمبتى على جانبى الحبل الشوكى وتتصل ببعضها بواسطة خلايا عصبية تسير موازية للحبل الشوكى .

ومعظم الأحشاء مزودة بألياف عصبية سمبتية وبارا سمبتية . وفعل احدهما ينبه العضو ، بينما الآخر يحد من نشاطه . وتنظيم ضربات القلب من الممكن اتخاذها مثالا لذلك ، اذ عندما ينبه القلب عن طريق العصب الحائر (وهو جزء من الجهاز الباراسمبتى) يقل نشاط القلب . وعندما تصل الى القلب ومضات من الجهاز العصبى السمبتى يزداد نشاطه وتسرع دقاته . وجميع الاعضاء الداخلية منظمة بطريقة مماثلة .

وحتى عهد قريب كان من المعتقد ان الأحشاء لاتخضع لارادة الحيوان . ولم يكن من المعتقد امكان تدريبها لسيطرة الارادة . ولكن بعض التجارب المثيرة تضطرنا لتغيير هذا الاعتقاد . فلقد ثبت ان الانسان وغيره من الحيوانات من الممكن ان يتعلموا كيف يزيدوا او يخففوا من دقات قلوبهم وتغيير ضغط دمهم وتوسيع وتضييق اوعيتهم الدموية وانقباضات أمعائهم ومعدل ادرار بولهم . وهاهى تجربة نموذجية صممت لمعرفة ما اذا كان الفأر من الممكن تدريبه لتغيير عدد دقات قلبه :

لقد وصلوا لجسم الفأر عدة أقطاب كهربائية ELECTRODES لتسجيل دقات قلبه . كان الفأر يكافأ عندما يتغير معدل دقات قلبه نحو الزيادة أو نحو النقص تبعا لارادة العلماء الذين يجرون التجربة ، وذلك بتنبية مراكز البهجة والسرور فى مخه . كانوا يجعلون الفأر يدرك وقت حدوث تغيير دقات القلب وذلك عن طريق علامة ضوئية او احداث نغمة معينة . فاذا استجاب استجابة صحيحة قاموا بتنبيه مراكز البهجة فى مخه . وبهذا امكنهم ايجاد مجموعتين من الفئران ، كلا

المجموعتين تستجيبان لمؤثر واحد ، ولكن احدى المجموعتين تكون استجابتها على هيئة زيادة معدلات دقات القلب ، بينما المجموعة الثانية تستجيب بخفض معدل الدقات . وأمكن بالتدريب احداث نتائج نوعية للغاية ، حيث تمكنت الفئران من توسيع أوعيتها الدموية فى احدى الاذنين دون الأخرى . وهذا يجعلنا نتساءل عما اذا كان فى الامكان تدريب الحيوان لتصحيح بعض العيوب التى المت بأعضائه نتيجة لمرض من الامراض .

الدفعة العصبية NERVE IMPULSE

يتكون الاتصال فى الجهاز العصبى فى الحقيقة من مساحتين : الدفعة العصبية التى تسرى فى الخلية العصبية ، ونقل الدفعة العصبية عبر المسافة الضيقة التى تفصل بين تفرعات الخلايا العصبية ، تلك المسافة التى أطلقنا عليها اسم « التشابك العصبى SYNAPSE » .

ولفهم طريقة سريان الدفعة العصبية فى الخلية العصبية ينبغى ان نعلم انه فى جميع الخلايا يوجد فرق فى الجهد الكهربائى بين السطحين الداخلى والخارجي للغشاء الخلوى المحيط بالخلية . هذا الجهد الكهربائى قد يمكن قياسه بواسطة قطبين دقيقين وجهاز لقياس الفولت (شكل ٣) . اذا وضع القطبان معا خارج الخلية او داخل الخلية فان مؤشر قياس الكهرباء لايسجل أى انحراف ، وهذا يدل على عدم سريان الكهرباء . ولكن المؤشر ينحرف اذا وضع أحد القطبين داخل الخلية والثانى خارج الغشاء الخلوى . وهذا الفرق فى الجهد الكهربائى يتراوح بين عشرة ومائة مليفولت . وفى جميع الحالات تكون الشحنة الكهربائية داخل الخلية سالبة والشحنة خارج الخلية موجبة . وهذا دليل على وجود ذرات وجزيئات ذات شحنات كهربائية سالبة داخل الخلية بالنسبة للسوائل خارج الخلية . وعند تنبيه طرف أحد الأعصاب فان التفاعل يسرى خلال العصب عن طريق فرق فى التركيب الكيمائى بين الجزء الداخلي والجزء الخارجي للعصب . وكما هي الحال فى البطارية الكهربائية فان الفرق بين هذين المركبين الكيمائيين يحدث تيارا كهربائيا كيميائيا يقوم بتوصيل الدفعة العصبية . وتنتقل الاشارات العصبية على هيئة دفعات كهروكيميائية ELECTROCHEMICAL واذا كان مثل هذا الجهد الكهربائي سائدا فى جميع الخلايا الحية ، الا انه فى الخلايا العصبية والعضلية على جانب كبير من الاهمية فهو لازم لكي تؤدى هذه الخلايا وظيفتها . وقياسه فى الخلايا العصبية والعضلية أسهل من قياسة فى الخلايا الأخرى . فمن السهل قياس هذا الجهد فى حيوان الحبار SEPIA حيث ان محور الخلية العصبية فى هذا الحيوان طويلة نسبيا ، ويبلغ قطره مليمتر فى حين ان قطر محور الخلية العصبية فى الثدييات (ومنها الانسان) لايزيد عن عدد قليل من الميكورنات (الميكرون يساوى ١/١٠٠٠ من المليمتر) . ومحور الخلية العصبية فى حيوان الحبار يعتبر مناسبا لاجراء هذه التجربة ، لأنه علاوة على كبر حجمه ، فهو محاط بغلاف من النسيج الضام من الممكن ازالته بسهولة . ومن حسن الحظ ان خواص الخلية العصبية فى الحبار لاتختلف عنها فى الثدييات .

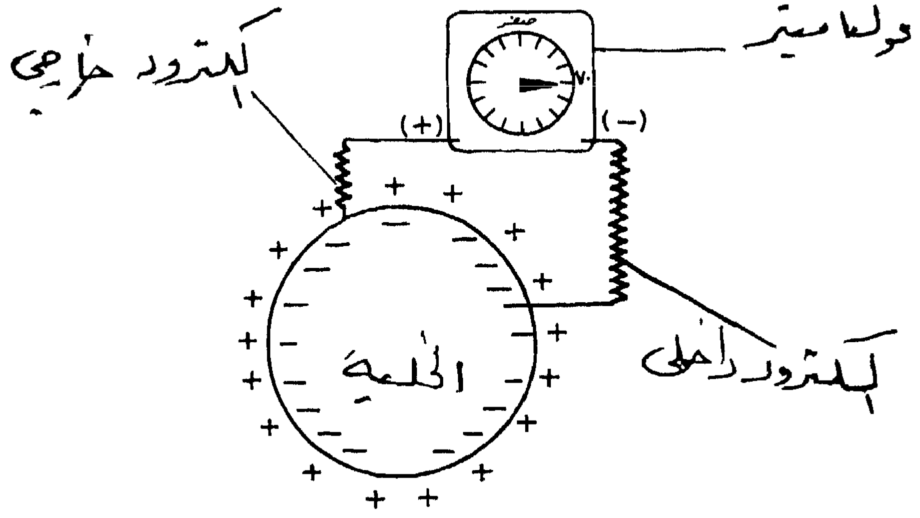

(شكل ٣)

ولم يكشف العلماء عن مصدر تلك الكهرباءالا منذ نحو ثلاثين عاما ، حيث اثبتوا ان الجهد الكهربائي المستقر فى الخلايا ينشأ نتيجة فرق فى تركيز ذرات وجزئيات معينة مشحونة بالكهرباء تسمى ايونات IONS . وتتكون الايونات عندمايصبح عدد الالكترونات (الحاملة لشحنات كهربائية سالبة) اكثر أو اقل من عدد البروتونات (**الحاملة لشحنات كهربائية موجبة (فى الذرة .** وبناء على هذا فان ايونات الصوديوم (+ NA)تحمل شحنة كهربائية موجبة لأن ذرة الصوديوم فقدت احد الكتروناتها فأصبح بها بروتون زائدعن عدد الكتروناتها . وأيون الكلور—CL يحمل شحنة سالبة لأن ذرة الكلور حصلت على الكترون زائد . وفقد الكترون والحصول على الكترون (عملية التأين) IONIZATION شائعة فى حالةبعض المواد المذابة فى محاليل . والعدد النسبى للأيوناتالسالبة والموجبة يحدد الشحنةالكهربائيةفى السوائل داخل الخلايا وخارجها ، وهذا قد يعطى فكرة عن منشأ الكهرباء فى الخلية الحية .

وفى معظم محاور الخلايا العصبية للفقاريات يوجد تركيب معقد . هذه الخلايا العصبية مغطاة بمادة دهنية تسمى ميلين MYELIN . والميلين يكون جزءا من الغشاء الخلوى فى خلايا معينة تسمى خلايا شوان SCHWAN CELLS . وتلتف خلايا شوان هذه حول محور (ليفة) الخلايا العصبية مكونة لفافة جيلاتينية عازلة لا يمكن ان تخترقها الايونات بسهولة (شكل ٤) . وعلى مسافات تبلغ نحو مليمتر واحد توجد انفصالات فى الغشاء الميلينى MYELINSHEATH . وهذه الانفصالات تسمى عقد رانفييه NODES OF RANVIER . ويحدث التوصيل الكهربائي فى الخلايا العصبية المحاطة بالميلين بسرعة تبلغ عشرين ضعفا بالنسبة لسرعة التوصيل فى الخلايا العصبية غير المحاطة بالميلين . وتقفز الشحنات الكهربائية عبر كل عقدة من عقد رانفييه .

والمسافة القصيرة التى تفصل الخلايا العصبية المتجاورة والتي اطلقنا عليها اسم « التشابك العصبى » ربما تعتبر أهم جزء فى الجهاز العصبى ، فهذا هو المكان الذى تؤثر فيه خلية عصبية على خلية عصبية اخرى . وتتفرع امتدادات الخلية العصبية على هيئة تفرعات شجرية على جانبى المسافة التى تسميها « التشابك » . والتفرعات عند نهاية المحاور أو عند نهاية الدندرايتات DENDRITES قد تصل الى أرقام مذهلة . فلقد وجدوا الف وثلاثمائة تفرعا عند نهاية محور واحد . ويوجد تشابك عصبى SYNAPSE بين كل فرع من تفرعات هذه الخلية وتفرعات الخلية المجاورة ، وقد تتشابك ايضا مع تفرعات عدة خلايا ، وهذا يجعل تتبع المسار الكهربائي من خلية الى اخرى صعبا للغاية. وتوجد طرق مختلفة للتشابك العصبى ، وفى شكل (٥) نرى نوعين من انواع هذا التشابك حيث نشاهد فرعين من التفرعات العديدة لخليتين عصبيتين متشابكتين وبينهما مسافة ضئيلة تجعلهما غير متلامستين .

وانتقال التيار الكهربائي من خلية عصبية الى خلية اخرى عبر التشابك العصبى يخضع لتأثير مواد كيميائية من شأنها ان تمنع مرور التيار أو تسمح بمروره . اى اننا يمكن تشبيهها بمفتاح النور الكهربائي فى منازلنا الذى نضغط عليه فينير المصباح الكهربائي ثم نضغط عليه

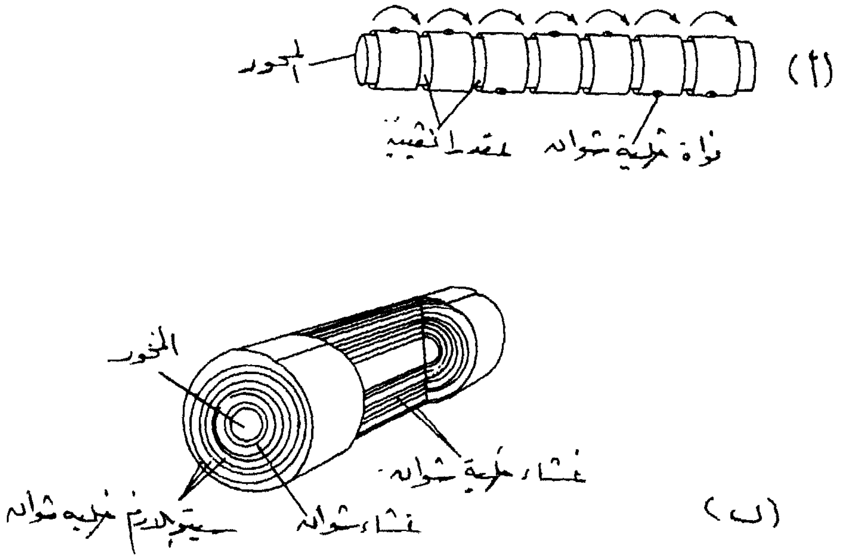
(أ)
المحور
عقد التشعب
نواة خلية شوان
(ب)
المحور
غشاء خلية شوان
سيتوبلازم خلية شوان
غشاء شوان

(شكل ٤)

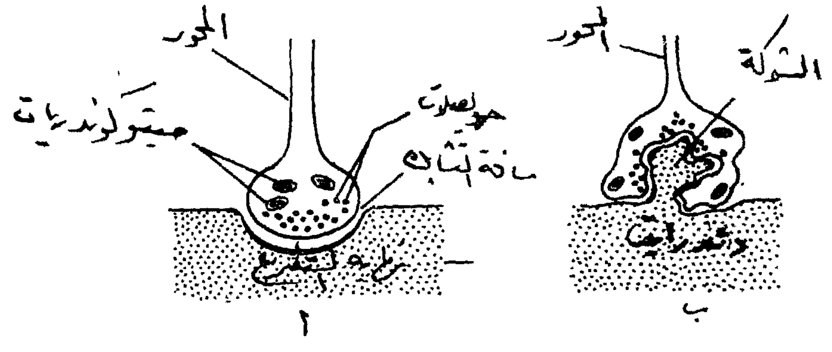
المحور
ميتوكوندريات
حويصلات
أ
المحور
الشوكة
ب

(شكل ٥)

فى اتجاه آخر فنقطع الدائرة الكهربائية ويطفأ المصباح . واذا كانت المواد الكيميائية التى تهيمن على مرور وعدم مرور التيار الكهربائي من خلية عصبية الى اخرى تسير سيرا طبيعيا فى المخ ، فان المخ فى هذه الحالة يكون فى حالة توازن ، فيبدو الانسان طبيعيا . ولكن اذا طرأ خطأ نتيجة اضطرابات كيميائية من شأنها ان تمنع مرور التيار عندما يكون من الطبيعى ان يمر ، فان اضطرابا يعترى المخ ، وقد يعزى مرض الاكتئاب الى هذا الخلل فى المواد الكيميائية التي تنظم مرور التيار او عدم مروره . ولذا نجد ان مرض الاكتئاب قد يشفى عن طريق تناول مواد كيميائية تصحح الاضطراب الكيميائي فى هذه الاماكن ، ولو اننا لا نعلم حتى الآن كنه هذا التغيير الذى يؤدى الى اعادة تنظيم مرور التيار عبر التشابك العصبى .

بيولوجيا الاتصال فى أعضاء الحس

تعتبر اعضاء الحس SENSE ORGANS امتدادا للجهاز العصبى . فالخلايا الحسية تستقبل الاحساس وتنقل المعلومات الى الجهاز العصبى المركزى عن طريق الخلايا العصبية على هيئة دفعات كهربائية . والانفعال بالمؤثرات طبيعة عامة فى جميع الحيوانات . فاذا تلامس حيوان اولى وحيد الخلية مثل الاميبا مع قطرة من الماء المالح المركز ، او فوجىء بضوء شديد فانه سرعان ما ينسحب مبتعدا . وهذا يدل على أن حيوان الاميبا قد أحس بقطرة الملح وبالضوء الشديد اللذين يحاول تجنبهما . وبهذا نجد جهاز استقبال وجهاز استجابة للانفعال فى خلية واحدة دون حاجة الى وجود شبكة من الاعصاب.

واعضاء الحس : العيون والآذان وبراعم الذوق فى اللسان ما هى سوى خلايا متخصصة ذات حساسية لبعض المؤثرات دون الاخرى .وتستخدم وسائل عديدة لاستجلاء اسرار أعضاء الحس . فدراسة التشريح العام لهذه الاعضاء الى جانب دراسة انسجتها عن طريق الميكروسكوب الالكترونى تمدنا بمعلومات هامة تميط اللثام عن أسرار هذه الاعضاء . كما ان ملاحظة سلوك الحيوان ذات أهمية خاصة لدراسة أعضاء الاحساس .

ولاثبات أهمية دراسة سلوك الحيوان لمعرفة وظيفة عضو الاحساس فسوف نناقش باختصار تجربتين : احداهما أجريت على ذبابة والثانية على اخطبوط .

من المعروف أن للذبابة اعضاء احساس للذوق موزعة على الجسم على هيئة شعيرات . وعديد من هذه الشعيرات توجد على الارجل .وعلى ذلك ففى امكان الذبابة ان تذوق طعم الاشياء عن طريق ارجلها . أى ان الشعيرات التى على أرجلها تقابل اللسان عندنا فى القدرة على التذوق . ولاختبار حساسية الذبابة للسوائل السكرية من الممكن اتباع الطريقة الآتية : نخدر الذبابة بواسطة غاز ثانى اكسيد الكربون .وبعد تخديرها ذلك التخدير المؤقت نقص اجنحتها من أعلى بقطعة من الشمع على طرف عصا . وبذلك يمكننا حمل الذبابة المتصقة بطرف العصا . وعندما تفيق الذبابة من التخدير يمكننا ان نجعل ساقها تلمس قطرة من الماء ، وعندما يحدث ذلك فان الذبابة عادة تدلى خرطومها فى الماء وتشرب ، اذ ان الماء يثير اعضاء

الاحساس الكيميائية الكائنة فى شعيرات الساق . وعندما تأخذ الذبابة كفايتها من الماء فانها لن تدلى خرطومها فى الماء مرة اخرى . ولكن اذا استبدل الماء بمحلول من السكر فان الذبابة فى هذه الحالة تحاول معاودة الشرب . فاذا أبعدناها عن المحلول السكرى قبل ان تتمكن من الشرب وقربناها بعد ذلك من محلول الماء فانها تمتنع عن الشرب ، وتحاول الشرب مرة أخرى اذا قربناها من محلول السكر ، لان رجلها التي تغمسها فى المحلول قبل محاولة الشرب توصل اليها الاحساس بأن هذا محلول سكرى وليس ماء صرفا . اى ان الذبابة عن طريق عضو الاحساس الذى فى شعر الساق أمكنها التمييز بين الماء القراح والمحلول السكرى .

ومن الممكن تدريب الحيوانات لتمدنا بمعلومات هامة عن اجهزتها الحسية . فلنفرض أننا نرغب فى معرفة قدرة الاخطبوط على تمييز رؤية الاشياء المختلفة . هل يمكنه مثلا التمييز بين دائرة ومثلث ؟ وللاجابة عن هذا السؤال ينبغى ان نستفيد من حقيقتين معينتين وهما : ان الاخطبوط يهوى أكل سرطان البحر CRAB ولكنه فى الوقت نفسه لا يحب ان تصدمه لمسة كهربائية .

فاذا احضرنا سرطانا مربوطا فى عصا وغمسناه فى حوض من الماء به اخطبوط وانزلنا مع السرطان صورة لرمز من الرموز ، فى احدى المرات يكون الرمز عبارة عن مثلث وفى مرة اخرى يكون الرمز دائرة . من الطبيعي ان الاخطبوط سوف يتقدم لالتهام السرطان بمجرد غمسه فى الماء . ولكن من الممكن ان نمنعه عن التهام السرطان اذا أزعجناه بصدمة كهربائية عن طريق لمسه بسلك مكهرب . فلنفرض أننا اطلقنا عليه الشحنة الكهربائية فى حالة غمس السرطان والدائرة ، وتركناه يأكل السرطان دون ازعاجه بصدمة كهربائية فى حالة غمس السرطان والمثلث . وبعد اعادة هذه التجربة عدة مرات مستعملين المثلث فى بعض التجارب والدائرة فى المرات الاخرى ، فاننا اذا وجدنا الاخطبوط ينزع نحو تجنب اكل السرطان عندما يرى معه الدائرة ، ويقبل على التهامه عندما يكون معه المثلث ، فاننا فى هذه الحالة نستنتج ان لهذا الحيوان القدرة على التمييز بين الدائرة والمثلث . أما اذا لم نلاحظ اى تغيير فى سلوكه فى الحالتين فاننا لا نستطيع الجزم بأن الاخطبوط لم يميز بين الدائرة والمثلث ، اذ أن أمورا عديدة ينبغى ان تؤخذ فى الاعتبار ، فالصدمة الكهربائية قد تنفر الاخطبوط من الاقتراب نحو السرطان فى الحالتين فيعزف عن التهامه .

وبالاضافة الى الطرق التشريحية والسلوكية لدراسة الاجهزة الحسية ، فان الطرق الالكتروفسيولوجية ELECTROPHYSIOLOGICAL كثيرا ما تستخدم . فى هذه التجارب من الممكن قياس النشاط الكهربائي للمخ ، او رؤية الذبذبات الكهربائية لاعضاء استقبال الاحساس والخلايا الحسية . واستخدام الاقطاب الكهربائية الدقيقة تمكننا من متابعة شفرات الخلايا العصبية CODING التى تحدث عندما تنبه هذه الخلايا . وفى بعض الحالات يمكننا الاجابة عن اسئلة مثل : ما هو الفرق بين نمط PATTERN الدفعة العصبية عندما تنبه ساق الذبابة بالماء وعندما تنبه بمحلول سكرى ؟

اساسيات فى وظائف اعضاء الاحساس

تتعرض أعضاء الاحساس فى الحيوانات المختلفة لمؤثرات عديدة تنفعل بها اعضاء احساسها فى البيئة التي تعيش فيها هذه الحيوانات . وبما ان أعضاء الاحساس والاجهزة العصبية تختلف فى الانواع المختلفة للحيوانات فمن الطبيعي ان يختلف ادراكها للدنيا التي نعيش فيها عن ادراكنا نحن لها . فالخفاش الذى يعتمد على الاصوات ذات التردد العالى لكى يتبين طريقه فى الظلام الدامس ، والنحلة التي ترى لونا لا نراه نحن وهو الاشعة فوق البنفسجية ، والكلب الذى يمكنه اقتفاء أثر أى حيوان عن طريق الرائحة وحدها ، والسمكة الكهربائية التى فى امكانها ادراك المجال الكهربائي المحيط بها ، كل هذه الحيوانات المتباينة من المحقق انها تعيش فى دنيا حسية تختلف عن الدنيا التي نراها ونشعر بها من خلال اعضائنا الحسية . ورؤيتنا للدنيا المحيطة بنا يتوقف على اعضاء احساسنا ويحدد عن طريقها ، كما يتوقف على مدى كفاءة الجهاز العصبى المركزى فى الحيوانات المختلفة والخبرة التي تكونت لديها .

وعلاوة على ذلك فاننا لو فى استطاعتنا ادراك منبه معين فاننا لا نستطيع استيعاب شتى انواع الاحاسيس التى تنطلق نحو جهاز احساسنا . اذ اننا قد نركز اهتمامنا نحو أحاسيس معينة دون الاخرى . وهناك تجربة شيقة اجراها احد العلماء على طيور النورس . فلقد قام جريفيث سميث GRIFFITH SMITH بدراسة اربعة انواع من هذه الطيور فى كندا ولاحظ انها تميز الطيور التي من نوعها عن طريق تباين اللون بين العين والراس . لكل نوع من الانواع الاربعة حلقة عين تختلف فى لونها عن حلقات عيون الانواع الاخرى . وعندما قام بصباغة هذه الحلقة بألوان مختلفة ولاحظ تقابل الذكر والانثى للتزاوج ، وجد ان الانثى تختار الذكر الذى يتشابه تباين لونى حلقتى عينيه ورأسه . مع حلقتى عين الانثى وراسها . وعندما قام بتغيير الوان حلقات العيون بصبغها بصبغات مختلفة أمكن خداع هذه الطيور فتقابلت انواع مختلفة من الذكور والاناث للقيام بعملية التزاوج التي من المفروض انها لا تتم الا بين انثى وذكر من النوع نفسه .

تقسيم اعضاء الحس

من الممكن تصنيف اعضاء الحس تبعا لموضعها ، هناك اعضاء حس خارجية EXTRORECEPTORS مثل العين تستقبل التنبيه من البيئة الخارجية ، واعضاء حس داخلية ENTORCEPTORS التي تدرك التغييرات داخل الجسم مثل درجة الحموضة وتركيز الايونات وتوتر العضلات وغيرها .

ولكن اعضاء الحس تصنف عادة تبعا لوظيفتها ، أي حساسيتها لنوع معين من انواع الطاقة ، كيميائية او ميكانيكية او كهرمغناطيسية ELECTROMAGNETIC ، وهذا التصنيف من شأنه ان ننظر الى اعضاء الحس على انها : اعضاء حس كيميائية CHEMORECEPTORS او ميكانيكية MECHANORECEPTORS أو ضوئية PHOTORECEPTORS أو حرارية THERMORECEPTORS أو اعضاء استقبال الالم PAIN RECEPTORS . ولا يعنى

هذا ان اي عضو من اعضاء الحس لا ينقل سوى نوع واحد من انواع الطاقة ، ولكنه يعني ان عضو الحس حساس لشكل من أشكال الطاقة اكثر من الاشكال الاخرى . فالعين ، ولو انها مهيأة لغرض معين وهو توصيل الرؤية الى المخ ، الا انها فى الوقت نفسه تشعر بالالم عن طريق مستقبلات الضوء .

نوعية التنبيه العصبي .

يأتي التنبيه للاعضاء الحسية اما عن طريق الضوء او الصوت او الذوق او اللمس أو الشم . فعن طريق تنبيه براعم الذوق فى اللسان كهربائيا يحدث الشعور بالذوق . وتتوقف نوعية التنبيه بوجه عام على المكان فى المخ الذي يصل اليه العصب الصادر . فالبيانات الضوئية تحمل الى الفص البصري فى المخ OPTIC LOBE فى الحيوانات او القشرة البصرية فى الانسان VISUAL CORTEX والبيانات الصادرة عن مستقبلات الرائحة فى الانف تحمل الى الفص الشمي OLFACTORY LOBE وهكذا . والتنبيه المباشر للقشرة المخية عن طريق قطب كهربائي ELECTRODE يؤدى الى احساس نوعي . والاحاسيس من اصابع القدم او العينين او الكتفين كائنة فى مناطق معينة بالمخ .

الانماط الكهربائية وقوة التنبيه

تعمل خلايا الاستقبال العصبية فى محيط محدود . فالاذن غير حساسة لجميع الاصوات ، كما ان العين ليست حساسة لجميع موجات الضوء . وقبل ان تستجيب الخلية العصبية لا بد من الوصول الى درجة معينة من التنبيه . عندهذه المرحلة يحدث اختلاف موضعي فى الجهد العصبي للغشاء الخلوي فى الخلية العصبية . واذا انفعلت الخلية المستقبلة بالقدر الكافي فان جهدا كهربائيا يتكون فى التفرعات الشجرية للخلية العصبية الحسية ، وهذه الدفعة الكهربائية العصبية تسير فى الخلية العصبية حتى تصل الى الجهاز العصبي المركزي .

ويتوقف عدد الدفعات العصبية المحمولة عبر الخلية العصبية على قوة التنبيه . فالتنبيه الضعيف يسبب دفعات عصبية قليلة ، والمنبهات القوية تسبب عديدا من الدفعات IMPULSES والجهاز العصبي المركزي قادر على ادراك نمط الدفعة العصبية قبل الاستجابة للرسالة الواردة اليه .

الاستقبال الكيميائي

اعضاء الاحساس الكيميائية حساسة لتغير تركيز مواد كيميائية معينة . وبعض اعضاء الحس الكميائية توجد داخل الجسم والبعض يمكننا رؤيتها خارج الجسم . واعضاء الاحساس الكيميائية الداخلية ذات اهمية قصوى ، اذ تدرك التغيرات التي تطرأ على سوائل الجسم . وعندما تنقل المعلومات الى المخ عن درجة الحموضة وتركيز ثاني اكسيد الكربون والاكسجين والسكر والاملاح فانها تدفع للحركة انماطا عصبية انعكاسية REFLEX PATTERNS تتولى ضبط عمليات التنفس والاخراج والطعام والشرب لكي تحافظ على بقاء كيمياء الدم فى الحدود التي يحتملها الجسم .

اما اعضاء الاحساس الكيميائية الخارجية فانها تحافظ على اخطار الحيوان عن وجود وموضع الطعام والمواد الكيميائية الضارة بالصحة، فهي لازمة لبقاء الحيوان . واعضاء الحس الكيميائية ليست معقدة ، ففي معظم الاحيان تؤدي احدى التفرعات الشجرية فى الخلية العصبية وظيفة عضو الاستقبال للمؤثر الكيميائي . وفى حالات قليلة تؤدى خلايا وظيفة استقبال المؤثر الكيميائي ، وبرعم الذوق الكائنة فى السنة الثدييات (ومنها الانسان) نموذج لذلك. فاعضاء استقبال الاحساس فى لسانك او لساني ليست خلايا عصبية ، بل مستمدة من خلايا طلائية EPITHELIAL CELLS (شكل ٦) . ويوجد عدد من هذه الخلايا فى تجاويف متناثرة على اللسان وتمتد منها خارج اللسان اهداب دقيقة . وعندما تنبه هذه الخلايا بواسطة وجود مواد كيميائية معينة فى سوائل الفم ، فان اغشية هذه الخلايا يزول عنها الاستقطاب . واذا كان التنبيه شديدا لدرجة كافية فان خلايا الذوق هذه تؤثر على خلايا عصبية مجاورة لتوصيل الرسالة الى منطقة المخ المتخصصة للتذوق .

ولبراعم الذوق هذه حساسيات كيميائية مختلفة ولو انها متشابهة فى التركيب . فالجزء الامامي للسان اكثر حساسية للاشياء الحلوة ، والجزء الخلفي حساس للمواد المرة . والجانبان حساسان للاشياء ذات المذاق الحامض SOUR . ويصحب الذوق دائما شم رائحة الشىء الذي نذوقه . وحاسة الشم عندنا اقوى من حاسة الذوق عشرة آلاف مرة ، ولو أنها تبدو ضعيفة اذا قورنت بحاسة الشم عند الكلاب .

وبخلاف براعم الذوق فى الانسان نجد ان معظم المستقبلات الكيميائية فى الحيوانات عبارة عن خلايا عصبية حسية . ويدرك الانسان رائحة الاشياء بواسطة خلايا العصب الشمي المدفون فى بطانة الممر الانفي العلوي . عندما تنبه هذه الخلايا كيميائيا عن طريق الرائحة تنطلق الدفعات العصبية على امتداد الخلايا الى المخ . وكما هي فى براعم الذوق ، توجد خلايا ذات حساسيات مختلفة للمواد الكيميائية ، ولكن لا توجد فوارق ظاهرية فى التركيب . وفى بعض انواع الذباب يوجد عند قاعدة كل شعيرة من الشعيرات الموجودة على الارجل واجزاء الفم من خمس الى عشر خلايا عصبية وجميعها ، فيما عدا واحدة منها ، مستقبلات كيمائية (شكل ٧) ، علاوة على خلية عصبية اخرى حساسة لحركة الشعيرة.

المستقبلات الحسية الميكانيكية .

الخلايا الميكانيكية حساسة للتغيرات الميكانيكية . وهذه الخلايا الحسية تسهم فى تنظيم عديد من الاحداث الداخلية والخارجية مثل :السمع وضغط الدم واللمس وتوتر العضلات والتوازن وتيارات المياه والهواء . وتتفاوت هذه الاجهزة الحسية الميكانيكية فى درجة تعقدها . كثير منها عبارة عن خلايا عصبية اولية تقع داخل انسجة تكون عرضه للالتواء . والبعض الاخر عبارة عن أعضاء معقدة مثل اذن الثدييات .

ومعظم الخلايا الحية تكون عرضة للالتواء والبعض الاخر مثل العضلات والخلايا العصبية قادرة على الاستجابة للمنبهات التي تسبب ازعاجا للحيوان .

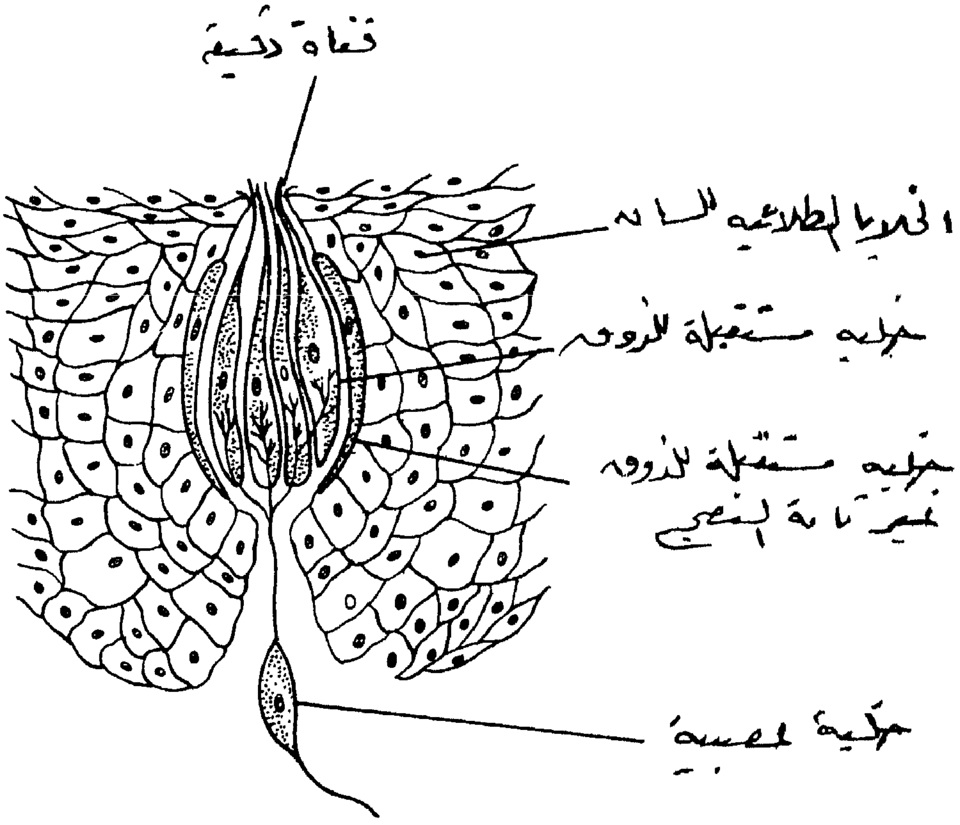
قناة دقيقة
الخلايا الطلائية السائدة
خلية مستقبلة للذوق
خلية مستقبلة للذوق غير تامة النضج
خلية عصبية

(شكل ٦)

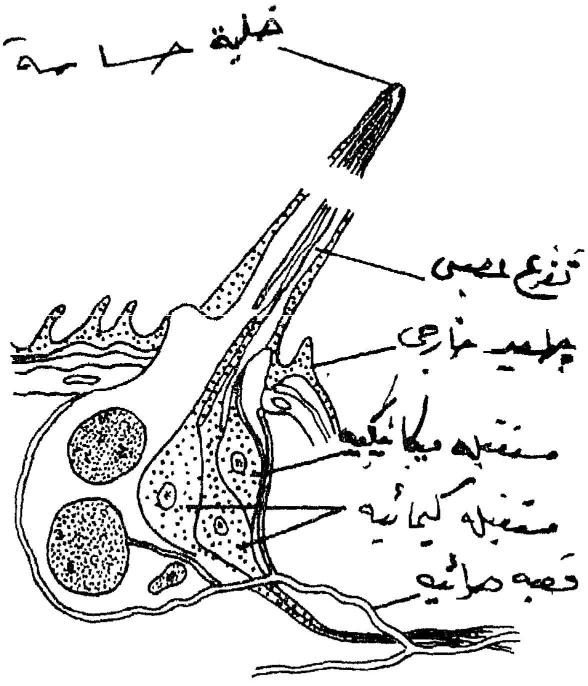
خلية حساسة
تفرع عصبي
جليد خارجي
مستقبل ميكانيكي
مستقبل كيميائي
قصبة هوائية

(شكل ٧)

وتركيب الشعيرات الحساسة فى الذبابةواضح فى شكل (٧) . يوجد فى كل شعيرة من هذه الشعيرات مستقبل ميكانيكي على شكل خليةعصبية حسية . والمستقبل الميكانيكي الكائن عند قاعدة الشعيرة نجده فى وضع مناسب للاستجابةعند كل انثناء للشعيرة . ولمعظم الحشرات شعيرات من هذا النوع منتشرة على اجسامهاتعمل كأعضاء حساسة للمس . وفى بعض الاحيان توجد شعيرات مماثلة تستجيب لذبذبات ذات ترددمعين وتستخدم للسمع .

وتوجد المستقبلات الميكانيكية فى جلدالفقاريات مع مستقبلات الالم ومستقبلات درجة الحرارة . ففي الثدييات ، مثلا ، توجد اطرافعارية لخلايا عصبية حول قاعدة الشعرة وتستخدم للاحساس باللمس بينما تحيط بعض الخلاياالعصبية بالاوعية الدموية ويبدو انها تستخدم كمستقبلات للالم .

وتوجد مستقبلات لانبساط وانقباضالعضلات فى الفقاريات واللافقاريات ، وتكون على هيئة اطراف خلايا عصبية وتنبه عندما تنبسطالعضلة او تنقبض ، كما توجد مستقبلات للاحساس فى اعضاء أخرى بالجسم مثل الامعاءوالرئتين والاوعية الدموية تخضع لحركات دورية .

اعضاء التوازن

تعتبر اعضاء التوازن فى الحيوانات اعضاءمستقبلة ميكانيكية MECHANORECEPTORS تستجيب للجاذبية الارضية . وفى امكان هذهالاجهزة ان تدرك اي تغير فى وضع الحيوان . وهي عبارة عن غرفة يملؤها سائل وتحتوي علىحبيبات من الرمل او حبيبات جيرية . وتضغط هذه الحبيبات بحكم كثافتها على احد جوانبالغرفة لوضع الحيوان وتتحرك من جانب الى آخر داخل الغرفة تبعا لحركة الحيوان . والغرفةمبطنة بخلايا حسية ذات أهداب دقيقة ، وهذه الخلايا تنبه عن طريق الحبيبات التي تضغطعليها حيث تنشأ دفعات عصبية فى الخلايا العصبية المتصلة بها . ويدرك الجهازالعصبي مكان الخلايا العصبية المرسلة للاشارة ، وبذا يدرك وضع الحيوان فىهذه اللحظة . واذا أجريت عملية جراحية على أحد الحيوانات مثل الأخطبوط وازيل منهعضو التوازن فان الحيوان يتخبط ويدور حول نفسه ويفقد الحركة السليمة .

ولحيوان الجمبرى عضوان للتوازن يقعانأسفل كل من قرنى الاستشعار الصغيرين . ويتصل تجويف هذا العضو بالخارج عن طريقفتحة ، وتوجد بداخل الفجوة حبيبات دقيقة من الرمل ترسو على شعيران دقيقة . والجمبرىيغير جلده عدة مرات فى اثناء نموه ، وعندما يتخلص من جلده عند الانسلاخ فان بطانة عضوالتوازن ، وهي متصلة بجدار الجسم ، تنسلخ هي ايضا وتخرج حبيبات الرمل مع هذه البطانةالمنسلخة ويصبح التجويف فى هذه الفترة خاليا من الحبيبات . وفى هذه الحالة يلتقط الجمبرىبمخالبه بعض حبيبات من الرمل من قاع المياه التى يعيش فيها وينثرها فوق رأسه بحركةغريزية حيث تنفذ بعض الحبيبات الى تجويف عضو التوازن . فاذا وضعنا الجمبرى فىمحتوىمائى عقب الانسلاخ مباشرة ووضعنا فى قاع المحتوى المائى برادة حديد بدلا من الرمل ؛ فانالحيوان سوف يأخذ بمخالبه بعض هذه

البرادة ويلقى بها فوق رأسه كما يفعل فى حالةوجوده فى البحر ، فتدخل الفجوة فى هذه الحالة بعض حبيبات برادة الحديد بدلا من حبيبات الرمل . فاذا أحضرنا قضيبا مغناطيسيا وقربناه من ظهر الحيوان ، فان حبيبات برادة الحديد تنجذب الى أعلى بعد أن كانت راسية على السطح السفلى للفجوة . فى هذه الحالة نجد أن الجمبرى ينقلب ويعوم وسطحه الظهرى متجه الى أسفل .

آذان الفراشات والجراد وصياح الخفافيش

بعض الخفافيش قادرة على تبين طريقها فى الظلام الدامس عن طريق اصدار أصوات عالية التردد لا تستطيع اذن الانسان التقاطها وتسمع الخفافيش الى صدى هذه الاصوات المنبعث من اية عواقب فى طريقها فتعمل على تجنبها . ولقد وضع العلماء فى احدى تجاربهم عددا كبيرا من الخيوط ممتدة عبر غرفة مظلمة اظلاما تاما واطلقوا فى الغرفة عددا من الخفافيش التى ظلت تطير جيئة وذهابا فى انحاء الغرفة المظلمة دون أن تصطدم بأى خيط من الخيوط .

وبعض الفراشات ، وهي من الوجبات الغذائية المحببة للخفافيش ، فى امكانها سماع أصوات الخفافيش التى لا نسمعها نحن ، وبهذا يمكنها أن تنجو من افتراس الخفافيش لها . فاذا سمعت احدى الفراشات صوت الخفاش خافتا ، دل هذا على بعد المسافة بينهما ، وعند ذلك تسرع الفراشة بالطيران فى الاتجاه المضاد لمصدر الصوت . واذا كان الصوت قويا وهذا يعنى قرب الخفاش ، فان الفراشة وجهازها العصبى وقدرتها على التقاط صرخات الخفاش . وهذه الدراسة على جانب من الاهمية لان اذن الفراشة مكونة من خليتين عصبيتين فقط ، وفى الامكان فحصها بسهولة عند استجابتها للصوت . وهذا التركيب البسيط للاذن يختلف اختلافا كبيرا عن تركيب الاذن المعقدة التى نجدها فى الفقاريات .

وللفراشة اذنان واحدة على كل جانب من الجسم (شكل ٨) . وتتكون هذه الاذن من غشاء طبلة مرن يبدو على سطح جدار الجسم يلتقط ذبذبات الهواء . وتوجد غرفة مليئة بالهواء تقع خلف طبلة الاذن مباشرة . وتوجد خيوط من الانسجة مشدودة عبر هذه الغرفة ومثبتة بطبلة الاذن ، وتوجد بداخل الخيوط خليتان عصبيتان احداهما اكثر حساسية للصوت من الاخرى . ويحدث تنبيه للخليتين العصبيتين عندما يتذبذب غشاء الطبلة وتحمل الدفعات العصبية مباشرة الى الجهاز العصبى المركزى عبر الخلايا الحساسة للصوت . وفى امكان الفراشة عن طريق ذبذبات الهواء لطبلتى اذنيها معرفة الاتجاه الصادرة منه اصوات الخفافيش .

أذن الفقاريات

تشتمل اذن الفقاريات فى الحقيقة على ثلاثة أعضاء للاحساس مجتمعة معا . واحد للسمع واثنان للتوازن . واحد عضوى التوازن يعطى معلومات فيما يتعلق بحركة الجسم أو الراس . والثانى يعطى معلومات عن اتجاه الراس بالنسبة للجاذبية فى حالة السكون . والأذن الداخليه للانسان مثال لذلك (شكل ٩) .

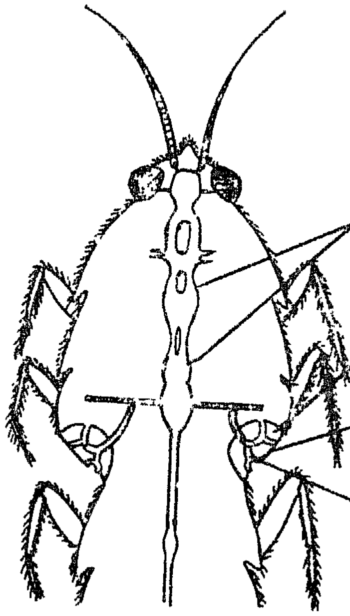

(شكل ٨)

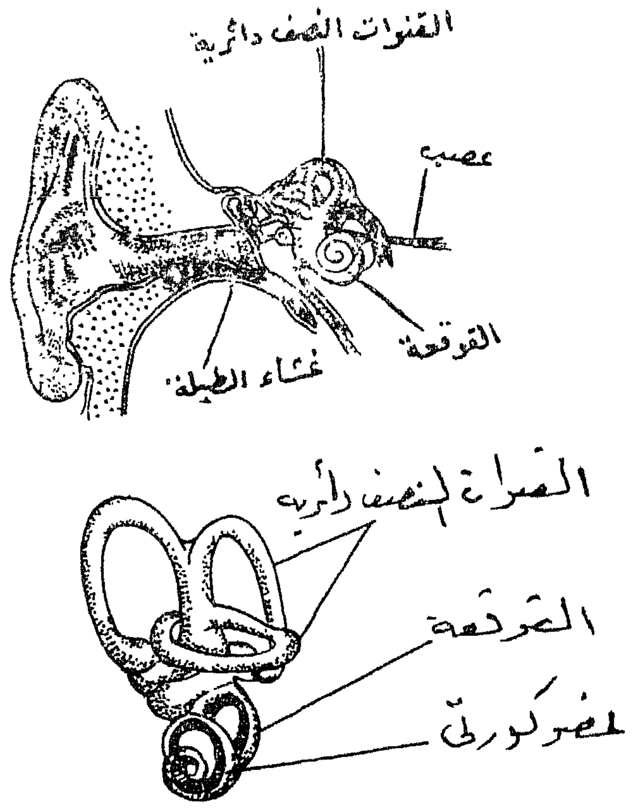
القنوات النصف دائرية
عصب
القوقعة
غشاء الطبلة
القنوات النصف دائرية
القوقعة
عضو كورتي

(شكل ٩)

والفقاريات قد تعيش فى الهواء أو فى الماء . وفى الحالتين نجد ان الموجات الصوتية سواء انتقلت عن طريق الهواء أو الماء تجعل غشاء طبلة الأذن يتذبذب . وهذه الذبذبات ينبغي ان تحرك سائل داخل تجويف عظمى يطلق عليه فى بعض الاحيان اسم « القوقعة COCHLEA . لانها تشبه القوعة فى شكلها . وتذبذب هذا السائل يؤثر بدوره على خلايا ذات أهداب تنبه الخلايا العصبية التى فى العصب السمعى .

ففى حالة الاسماك تمر الذبذبات من الماء الذى تعيش فيه الى الجسم مباشرة حيث أن الكثافة متساوية تقريبا فى الاثنين . أما فى حالة الفقاريات التى تعيش فى الهواء فينبغى أن تحول الذبذبات الضعيفة التي يحدثها مصدر الصوت فى الهواء الى ذبذبات فى السائل داخل القوقعة . والتحول من ذبذبات هوائية الى دفعات كهربائية يبدأ عند غشاء طبلة الاذن. وهذا الغشاء قد يكون عند سطح الجلد كما فى الضفدعة أو عند قاع قناة فى الاذن . ولمعظم الثدييات اذن خارجية خارج قناة الاذن تجمع الذبذبات الصوتية بينما الطيور والزواحف محرومة من هذه الحلية الخارجية . وأول خطوة من خطوات عملية السمع هى تحويل الموجات الهوائية الى ذبذبات فى غشاء طبلة الأذن .

والخطوة التالية لعملية السمع ، وهى تحويل ذبذبات طبلة الاذن الى ذبذبات فى السائل الذى فى الاذن الداخلية ، يحتاج الى عملية تقوية تقوم بها عظام الاذن الوسطى الواقعة بين طبلة الأذن والقوقعة . ويوجد فى الانسان ، ثلاثة عظام فى الاذن الوسطى هي : المطرقة والسندان والركاب . ولكن فى الفقاريات الاخرى من ذوات الاربع فلا توجد سوى عظمة واحدة فى العادة . هذه العظام تنقل الذبذبات من طبلة الاذن الى غشاء فى القوقعة يسمى النافذة البيضاوية OVAL WINDOW . وعندما يتذبذب هذا الغشاء تتحرك سوائل القوقعة بنفس التردد .

وتحدث تقوية الصوت فى الاذن الوسطى بطريقتين:

(١) تعمل عظيمات الاذن الوسطى كرافعة حيث تكون النقطة الثابتة لهذه الرافعة فى العظيمة الوسطى (السندان) . فى حين ان العظيمة المتصلة بطبلة الاذن ، وهي المطرقة ، ذات ذراع أطول من ذلك الذى فى الناحية الاخرى من نقطة الارتكاز (شكل ١٠) . وهذا يعنى أن عظيمة المطرقة تتحرك حركة محدودة ولكن بقوة كبيرة .

(٢) والشىء الاهم فى تقوية الصوت هو كون مساحة الطبلة اكبر بكثير من مساحة النافذة البيضاوية ، وعلى ذلك فان دفعة صغيرة فى غشاء طبلة الاذن تترجم الى حركة كبيرة لغشاء النافذة البيضاوية . وتتصل الاذن الوسطى بالأنبوبة المسماة » قناة استكيوز EUSTACHIAN TUBE التى تتصل بتجويف الفم ومن شأنها أن تجعل الضغط متساويا على جانبى طبلة الاذن .

وكل من مارس رياضة صعود الجبال لابدانه شعر بالفرق بين الضغط على جانبى طبلة الاذن عندما يرتفع بعيدا عن سطح الأرض ،وكذلك فى حالات الاصابة بنوبات البرد والزكام عندما تقفل الافرازات المخاطية قنوات السمع .

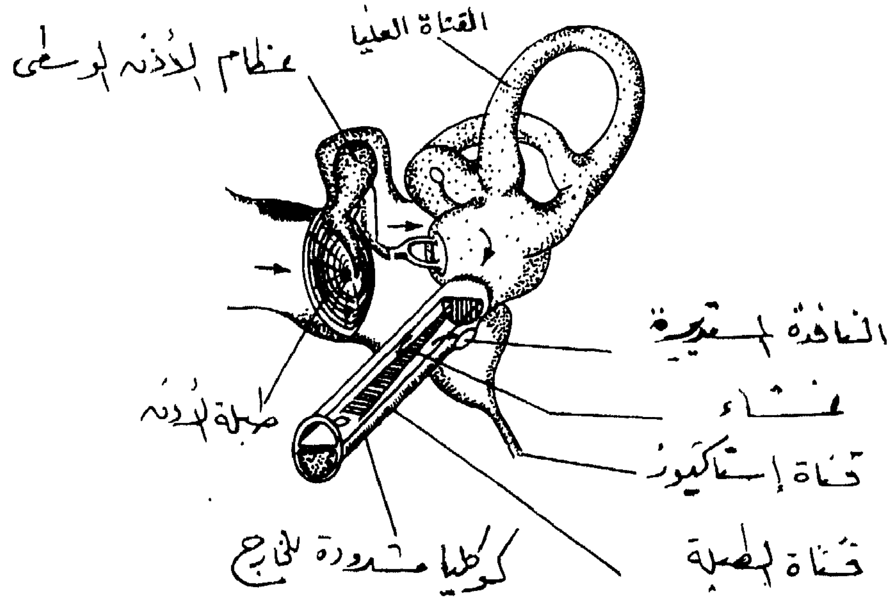
القناة العليا
عظام الأذنه الوسطى
النافذة المستديرة
غشاء
قناة إستاكيوس
طبلة الأذنه
كوكليا ممدودة للخارج
قناة الطبلة

(شكل ١٠)

وفى أثناء الخطوة التالية فى عملية السمع نجد ان السوائل التى فى القوقعة تحدث تنبيها للخلايا الحسية ذات الاهداب بطريقة غير مباشرة يكون من شأنه تكون جهد نشط فى الخلايا العصبية للعصب السمعى . والتركيب الداخلى لقوقعة الاذن الداخلية فى الثدييات شديد التعقيد ولكن من الممكن فهمه اذا تصورنا ان لفائف القوقعة قد شدت لتصبح مستقيمة . فنجد أن القوقعة مكونة فى الحقيقة من ثلاثة أنابيب متوازية (شكل ٩) . القناة المتوسطة مليئة بسائل هو الاندوليمف ENDOLYMPH والقناتان الاخريان مملئتان بسائل أقل لزوجة هو البريليمف PERILYMPH . وهاتان القناتان منفصلتان عن بعضهما بواسطة القناة المتوسطة MEDIAN CANAL فيما عدا الجزء الطرفى للقوقعة . وبناء على ذلك فان البريليمف متصل فى القنوات الثلاث . وخلايا استقبال السمع المسماة الخلايا الشعرية HAIR CELLS تقع داخل القناة المتوسطة كجزء من تركيب يسمى عضو كورتى ORGAN OF CORTI (شكل ٩) . وعند قاعدة عضو كورتى يوجد غشاء يسمى الغشاء البازيلارى BASILAR MEMBRANE يمتد بطول القناة المتوسطة . ويوجد أربعة صفوف من الخلايا الشعرية عند قمة عضو كورتى . وأهداب الخلايا الشعرية مدفونة فى غشاء يسمى الغشاء التكتورى TECTORIAL MEMBRANE وعندما تنبه سوائل القوقعة بواسطة ذبذبات صوتية فان اختلاف الحركة فى الغشائين البازيلارى والتكتورى تحرك ميكانيا بعض الخلايا الشعرية وتجعلها ترسل دفعات عصبية الى المخ عن طريق العصب القوقعى COCHLEAR NERVE وتوصل قوة الذبذبات الى قناة الطبلة TYMPANIC CANAL . وعند نهاية قناة الطبلة يوجد غشاء آخر يسمى النافذة المستديرة ROUND WINDOW . وهذا الغشاء يدفع الى الخلف والى الامام عن طريق ذبذبات السائل . وتحدد الذبذبات الواردة أى اجزاء الغشاء البازيلارى يستجيب وأى الخلايا الشعرية نشطت . واذا اجتازت السائل موجات صوتية احدثتها نغمات او اصوات عالية فان أكبر تحرك أو ازاحة للغشاء البازيلارى تحدث بالقرب من قاعدة القوقعة . والنغمات الاقل قوة تؤثر فى مناطق تمتد من قاعدة القوقعة حتى منطقة متوسطة . والامواج الصوتية الطويلة ذات الانغام المنخفضة تنشط الغشاء بطوله . وبذا نجد تحليلا تقريبيا للنغمات الصوتية عن طريق الاستجابة الفيزيائية PHYSICAL RESPONSE للغشاء . ولكن ذلك لا يفسر قدرتنا على التمييز بين الانغام المختلفة وبخاصة اكثر النغمات انخفاضا وما زلنا فى حاجة الى مزيد من البحث العلمى قبل أن نعرف عن يقين كيف تميز الاذن النغمات المختلفة . كما اننا ما زلنا غير قادرين على توضيح كيفية تحليل الاذن لاصوات بدرجات متباينة من القوة . ومن المحتمل ان الخلايا الشعرية المختلفة ذات حساسية متفاوتة حيث تستجيب بعضها عندما تكون الانغام خافتة وتستجيب خلايا اخرى عندما تكون النغمات عالية . ومن المحتمل أن الاصوات العالية تنبه أيضا بعض الخلايا الحسية لترسل دفعاتها العصبية بسرعة اكثر .

ولتحقيق التوازن فى حالة حركة الجسم توجد ثلاث قنوات نصف دائرية SEMICIRCULAR متعامدة مع بعضها (شكل ٩ وشكل ١٠) . ولكل قناة انتفاخ عند احد طرفيها حيث يوجد عدد كبير من الخلايا الهدبية تتصل بها خلايا عصبية . ويوجد داخل القنوات سائل يتحرك من جهة الى أخرى فى حالة حركة الحيوان . ولوجود هذه القنوات النصف دائرية فى مستويات ثلاثة مختلفة فان الاجزاء المتنفخة منها تنبه بطرق مختلفة تبعا لنمط المشي فى الحيوان . والتكيف للجاذبية الارضية يحدث فى غرفة فى الاذن الداخلية تسمى يوتريكيولاس UTRICULUS تقع عند قاعدة القنوات النصف دائرية وتتصل بالقنوات الثلاث المتعامدة . فى هذه الغرفة توجد مجموعات من الخلايا المستقبلة للاحساس متصلة اتصالا وثيقا بخلايا عصبية . وتمتد أهداب الخلايا الحسية فى الغرفة مدفونة فى طبقة جيلاتينية . وتستقر فوق سطح هذه الطبقة الجيلاتينية حبيبات جيرية OTOLITHS تقابل حبيبات الرمل فى جهاز توازن الجمبرى . وبهذا نجد فى هذه الاذن جهازا يشبه جهاز التوازن فى الجمبرى . وتغيير وضع الرأس يسبب ازاحة الحبيبات الجيرية محدثا نمطا جديدا من الضغط فوق الخلايا المستقبلة الهدبية الكائنة تحت هذه الحبيبات الجيرية .

وتتصل باليوتريكيولاس UTRICULUS غرفة أخرى مليئة بسائل تسمى ساكيولاس SACCULUS وتتفرع القوقعة، التى سبق ذكرها من الساكيولاس . وتوجد مجموعات من الخلايا فى كل غرفة . وتستخدم الخلايا الهدبية التي فى القوقعة للقيام بعملية السمع ، كما ذكرنا . والقوقعة قصيرة نسبيا فى الطيور والتماسيح وليست حلزونية . اما فى الزواحف والبرمائيات والاسماك فلا توجد قوقعة . ومن الطريف أن الخلايا الهدبية للاذن الداخلية تشبه تماما مستقبلات الاحساس الميكانيكي لجهاز الخط الجانبي فى الاسماك ويرقات البرمائيات . هذه الخلايا المستقبلة للاحساس تلتقط ذبذبات الماء وهذا ما يجعلنا نظن ان الاذن الداخلية قد تكون نتيجة تطور جزء متخصص فى جهاز الخط الجانبي الحساس فى الاسماك .

مستقبلات الضوء PHOTORECEPTORS

تغمر الشمس بالضياء الكوكب الذى نعيش عليه ، ذلك الضياء الذى تستخدمه النباتات لتنمو وتنتج الثمار . كما تستخدم الكائنات الحية تعاقب الليل والنهار وتعاقب الفصول لتوقيت دورات حياتهم فازدهار النباتات وهجرة الطيور والتحركات اليومية للكائنات الحية الدقيقة تنظمها الشمس كما ينظم الانغام قائد الفرقة الموسيقية . ويستخدم الضياء للتنظيم والتوصيل : للنحل لكي يهتدي الى الازهار، وللحيوانات المفترسة لتعثر على فرائسها ولطيور النورس لتحصل على ازواجها ، وللناس لتقرأ كتابا أو تشاهد فيلما سينمائيا .

ويمكن تصور الضوء على هيئة حزم من الوحدات يغلق عليها فوتونات PHOTONS أو على شكل موجات متحركة ذات أطوال متباينة . والجزء المرئي من الضوء لا يمثل سوى قدر ضئيل لاشعاعات كهرمغناطيسية ELECTROMAGNETIC يطلق عليها الطيف SPECTRUM يتفاوت فى طول موجاته بين أشعة جاما ذات الموجات الدقيقة التي تحسب بأجزاء من المليون من المليمتر وموجات يبلغ

طولها عدة اميال . والضوء الذى تراه العين البشرية يتراوح فى طول موجاته بين أربعمائة الى سبعمائة نانومترات (النانومتر جزء من بليون من المتر) . وجميع الاشعاعات الكهرمغناطيسية ، بصرف النظر عن اطوال موجاتها ، يمكنها السير فى الفراغ بسرعة مائة وستة وثمانين الف ميل فى الثانية . وبهذه السرعة يصل ضوء الشمس الى الارض التي نعيش عليها فى ثماني دقائق .

ويسير الضوء فى خط مستقيم ، الا اذا اعترضه شيء . فى هذه الحالة فانه اما ان يمتص او ينعكس او يسير خلال العائق الذى اعترض مساره . وهذه العمليات الثلاث تحدث فى مستقبلات الضوء . فاذا اصطدمت الاشعة الضوئية بصخرة فان الصخرة تمتص بعض الطاقة الضوئية وتستخدم هذه الطاقة فى رفع درجة حرارة الصخرة بينما تنعكس باقي الطاقة الضوئية والاشياء المختلفة تمتص وتعكس موجات ضوء مختلفة . فاذا وقع على عيوننا ضوء منعكس فان بعضه يدخل العين حيث تمتصه خلايا حسية . وامتصاص الضوء فى هذه الحالة يتسبب فى بدء سلسلة من الاحداث الكيميائية التي تؤدى الى دفعات عصبية يتم توصيلها الى المخ .

عندما يقع الضوء على قرنية العين وسوائلها وعدستها فانه ينكسر طبقا للمبادىء الاولية لعلم الضوء . العدسة المحدبة به تجعل الاشعة الضوئية تتجمع بينما العدسة المقعرة تجعل الاشعة تتباعد عن بعضها . وكلما ازداد تحدب العدسة ازداد انكسار الاشعة الضوئية التي تنفذ منها . وقرنية العين وعدستها تعملان كعدسة محدبة . والاشعة الضوئية المتوازية الواقعة على عدسة محدبة تنكسر وتتقارب من بعضها حتى تتلاقى فى نقطة خلف العدسة تسمى البؤرة . وعند هذه البؤرة تكون صورة المرئيات فى اقصى درجات وضوحها . واذا كان تحدب العدسة قليلا فان البؤرة فى هذه الحالة تكون أكثر بعدا من العدسة عما اذا كان التحدب كبيرا . والعيون فى تركيبها المثالي تقع بؤرة الضوء الذى يمر من خلال عدستها فوق الشبكية الموجودة فى قاع العين . فاذا تكونت الصورة امام او خلف سطح الشبكية فان الصورة فى هذه الحالة تكون غير واضحة المعالم لان الاشعة الساقطة على سطح الشبكية تكون منتشرة وغير محددة .

استقبال الضوء بدون عيون

تتفاوت مستقبلات الضوء بين أعضاء مفرطة فى البساطة واعضاء شديدة التعقيد . والخلايا بوجه عام حساسة للضوء . فحيوان الاميبا ينفعل بالضوء الشديد على الرغم من ان جسمه مكون من خلية واحدة لايوجد بها جهاز عصبي او أية اعضاء متخصصة لاستقبال الضوء . وفى الحيوانات عديدة الخلايا نجد ان الخلايا العصبية اشد حساسية للضوء من خلايا الجسم الاخرى . وجلد عديد من الحيوانات نصف شفاف حيث تتعرض للضوء خلايا عصبية فى الجلد . والحساسية الجلدية للضوء أكثر شيوعا فى الحيوانات المائية منها فى حيوانات اليابسة التي يغطى جسدها الريش او الشعر او جلد سميك . وفى دودة الارض نجد بعض الخلايا الحساسة للضوء منتشرة فى جدار جسم الدودة ، وهذه الخلايا تميز النور والظلام وتوصل هذا الاحساس الى الجهاز العصبي .

ومن الممكن ان يؤثر الضوء على الجهاز العصبي مباشرة دون أن يمر من خلايا مستقبلات للضوء . فضوء النهار يؤثر على تناسل الطيور . اذ تحت الظروف الطبيعية العادية فى الحقل يزداد

حجم خصى الطيور زيادة ضخمة قبيل التزاوج وتعود بعد التزاوج الى حجمها الطبيعي . فاذا أحضرنا بعض الطيور فى المعمل حيث يمكن التحكم فى الاضاءة فمن الممكن ان نحدث فى هذه الطيور حالة التزاوج فى غير الفصل من فصول السنة الذى يحدث فيه فى الطبيعة . وقد نتصور ان شعور الطائر بتغيرات الضوء فى المعمل حدث عن طريق عينيه ولكن الامر ليس كذلك . فلقد اتضح ان الطيور المعصوبة عيونها والمحجوبة تماما عن الضوء تستجيب للضوء نفس الاستجابة من حيث التأثير على حالتها التناسلية ، ويبدو فى هذه الحالة ان بعض الضوء يتمكن من المرور من خلال ريش الرأس والعظام الرقيقة لجمجمة الطائر وينفذ مباشرة الى الجهاز العصبي المركزي .

عين اليوجلينا EUGLENA

من بين الحيوانات وحيدة الخلية لانجد أية اعضاء متخصصة لاستقبال الضوء الا فى السوطيات فاذا أخذنا حيوان اليوجلينا مثالا لذلك نجد عند الطرف الامامي لهذا الحيوان الذى يعيش فى الماء امتدادا بروتوبلازميا طويلا يسمى السوط FLAGELLUM وعن طريق حركات هذا السوط فى الماء يتحرك الحيوان . وبالقرب من قاعدة السوط توجد مجموعة من الحبيبات برتقالية اللون مع احمرار تسمى البقعة العينية STIGMA ، وهي ليست المستقبل الحقيقي للضوء ولكنها تستخدم كحاجب يظلل أحد جانبي المستقبل الحقيقي للضوء الواقع عند قاعدة السوط . وبما ان البقعة العينية تظلل جانبا من جانبي قاعدة السوط فانها تكون وحدة مستقبلة للضوء تشعر الحيوان بالاتجاه فى اتجاه معين يجذب اليوجلينا . وعندما يتغير اتجاه أثناء حركته فى الماء . والضوء الخافت المنبعث من الضوء يغير الحيوان اتجاهه نتيجة لذلك ، اذ ان اليوجلينا تتحرك فى الماء حركة حلزونية وطرفها الحامل للسوط متجهة الى الامام . وتدور اليوجلينا حول محورها الطولي . وطالما اتجهت اليوجلينا نحو مصدر الضوء فان مستقبل الضوء يظل دائما مواجها للضوء . فاذا تغير مكان مصدر الضوء فجأة عند دوران اليوجلينا فان البقعة العينية سوف تحجب الضوء عن مستقبل الضوء الحقيقي عند نقطة معينة فى أثناء الدوران . عندذلك تدرك اليوجلينا ان الضوء محجوب عنها فتغير وضعها حتى يظل الضوء واقعا على مستقبل الضوء بشكل مستمر .

العيون البسيطة

لعدد كبير من الحيوانات عديدة الخلايا مستقبلات للضوء معقدة التركيب يطلقون عليها اسم « العيون البسيطة » . وتتكون هذه العيون من مجموعة من الخلايا الحساسة للضوء تكون غالبا فى فجوة فى الرأس ومحمية بطبقة من الخلايا ذات الحبيبات . وقد توجد لها عدسة لتجميع الضوء . ووظيفة مثل هذه العيون محدودة حيث تقتصر على الشعور بالنور والظلام ولا يمكنها تكوين صور للمرئيات . وتوجد مثل هذه العيون فى الحشرات وبعض الحيوانات الأخرى مثل دودة البلانيريا PLANARIA (وهى من الديدان المفلطحة) . وتتصل محاور الخلايا الحساسة فى دودة البلانيريا بخليتين عصبيتين تمثلان المخ . وهذه الدودة قادرة على ادراك مصدر الضوء . وتوجد عيون بسيطة أكثر تعقيدا مثل تلك الموجودة فى أحد أنواع القواقع حيث يوجد غطاء من النسيج فوق العدسة هو « القرنية » CORNEA وهذه القرنية والعدسة يعملان معا على تركيز الضوء على طبقة الخلايا المستقبلة للضوء التى يمكن اعتبارها شبكية . ولا يكون معرضا

للضوء سوى جزء من الخلية الحسية . وتخترق أطراف الخلايا الحسية طبقة من الخلايا ذات الحبيبات ، بينما تقع أجسام الخلايا الحسية تحت الخلايا الحبيبية مباشرة . وتتصل محاور خلايا الشبكية بالجهاز العصبي المركزى .

توجد شعب فى المملكة الحيوانية نتميز بوجود عيون يصفونها بأنها مركبة COMPOUND مثل شعبة الحيوانات الرخوة MOLLUSCA وشعبة المفصليات ARTHROPODA وشعبة الحيوانات ذات الحبل الظهرى CHORDATA، فى هذه العيون نجد مسافة بين العدسة والخلايا الحساسة للضوء (التى) تقابل الشبكية فى عيوننا) . وهذه المسافة تسمح للضوء بتكوين بؤرة . وقد توجد فى الحشرة الواحدة عيون بسيطة الى جانب العيون المركبة . وتتركب كالعيون المركبة فى الحشرات من عدد كبير من الوحدات يتراوح عددها بين عدد قليل كما فى عيون بعض انواع النمل الى ألفين (٢٠٠٠) فى حشرة الرعاش DRAGONFLIES وتتكون كل وحدة من هذه الوحدات من عدد الخلايا الحساسة فى كل وحدة يختلف فى الانواع المختلفة .

والخلايا الحساسة للضوء فى العيون المركبة عبارة عن خلايا عصبية متحورة ملتفة حول محور مركزى . والوحدات الموجودة فى كل عين مركبة مرتصة بجوار بعضها وتبدو مثل فصوص البرتقالة اذا شطرناها الى نصفين بعرض البرتقالة . الحافة الداخلية لكل خلية حساسة تعتبر منطقة شديدة التخصص تحتوى على انابيب دقيقة تسمى رابد ومير RHABDOMERE وفى بعض العيون المركبة تكون الرابدوميرات مفصولة عن بعضها بتجويف مركزى وفى البعض الاخر تندمج مع بعضها مكونة قضيبا مركزيا يسمى رابدوم RHABDOME. والضوء المسلط على الرابدوم بواسطة القرنية والعدسة تنبه الخلايا البصرية (الشبكية) الحساسة للضوء فتحدث شحنات كهربائية تنتقل الى المخ عن طريق محاور عصبية . وبما ان العدسات فى هذه الحالة مثبتة فى مكان معين ولا تستطيع ان تتحرك او تغير تحدبها . فان الصور المرئية بالعيون المركبة فى المفصليات لا ترى صورا واضحة . الا اذا كان الشىء المرئى على بعد معين من العين . وهى ترى المرئيات على هيئة نقط متراصة مختلفة الظلال ، وكل نقطة من هذه النقط منقولة عن طريق وحدة من وحدات العين المركبة .

العيون الشبيهة بالة التصوير

يوجد هذا النوع من العيون فى ارقى تركيبة فى عين الانسان وباقي الفقاريات وفى الحيوانات الرخوة وبعض الحيوانات الاخرى . وتتشابه الى حد كبير عين الانسان وعين الاخطبوط (شكل ١٢) . فى الحالتين نجد قرنية شفافة وطبقة عضلية هى القزحية ويوجد ثقب فى وسط القزحية هو انسان العين PUPIL ينظم كمية الضوء التى تدخل العين . وفى الاثنتين توجد غرف بها سوائل فى الجزء الامامي والجزء الخلفى . الامامى هو السائل المائي والخلفى هو الجسم الزجاجى. والسائل والعدسة والقرنية تختص بانكسار الاشعة الضوئية حيث تتجمع الصورة على الخلايا المستقبلة للضوء فى مؤخرة العين .

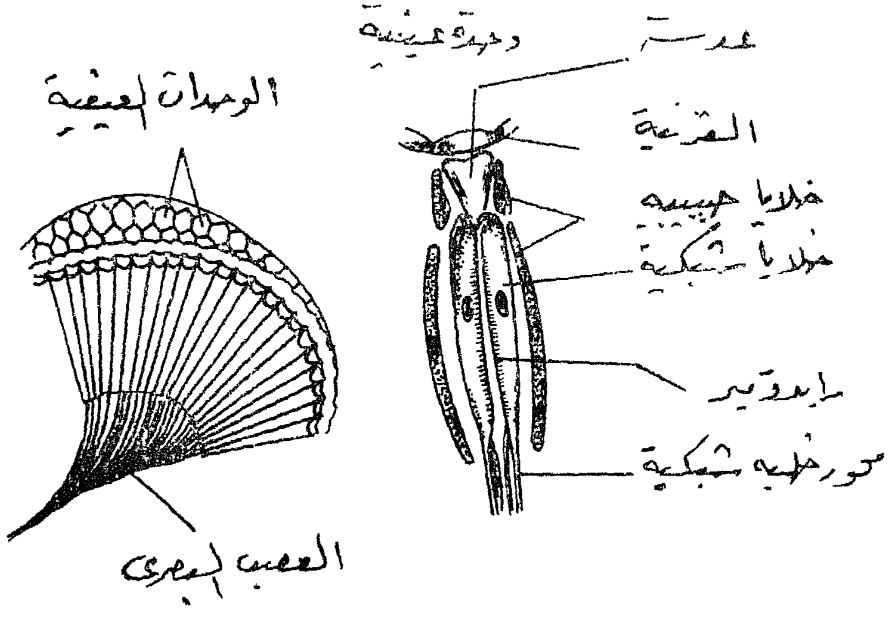
الوحدات العينية
العصب البصري
وحدة عينية
عدسة
القرنية
خلايا صبغية
خلايا شبكية
رابدوم
محور خلية شبكية

(شكل ١١)

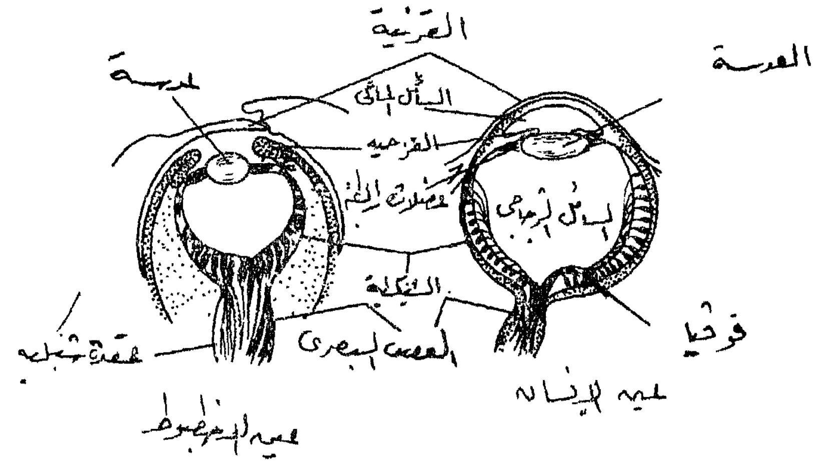
القرنية
العدسة
عدسة
السائل المائي
القزحية
السائل الزجاجي
الشبكية
العصب البصري
طبقة شبكية
عين الإنسان
عين الأخطبوط

(شكل ١٢)

والعين مستديرة تقريبا ويوجد عند مقدمها انتفاخ بسيط . **والعين لا تنمو كثيرا مع نمو** الجسم ، ولهذا تبدو عيون الاطفال كبيرة بالنسبة الى حجم وجههم ، لان الوجه يزداد كثيرا في الحجم بعد ذلك اما العين فلا تتغير كثيرا فى الحجم .

ويطلق اسم الشبكية RETINA على الجزء من مستقبل الضوء فى الجزء الخلفى من العين . ويوجد فى العين البشرية نوعان من الخلايا المستقبلة للصورة فى الشبكية يختلفان في الشكل وهما العيدان RODS والمخروطات CONES (شكل ١٣) . والحكمة فى اختلافهما فى الشكل غير معروفة ، ولكنهما يحتويان على حبيبات تمتص موجات ضوئية ذات اطوال مختلفة . والحبيبات البصرية كائنة على طبقات من الاغشية عند طرف الخلية ويسمى هذا الجزء الطرفى **القطعة الخارجية** . والعيدان حساسة للضوء الخافت وهى المسئولة عن الرؤية فى النور الضئيل . اما الخلايا المخروطية فهى التى تستقبل الالون . ويوجد فى شبكية العين البسرية اكثر من مائة مليون من العيدان وستة ملايين من المخروطات . وتتكون شبكة عين الانسان من طبقتين من خلايا العصبية . بالاضافة الى الطبقة المستقبلة الضوء (شكل ١٣) . وتتشابك خلايا العيدان والمخروطات مع طبقة اخرى من الخلايا تسمى الخلايا العصبية ذات القطبين BIPOLAR NEURONS وهذه الخلايا ذات القطبين تتشابك بدورها مع خلايا الطبقة العقدسة GANGLION LAYER وتتصل المحاور العصبية AXONS لهذه الخلايا بالمخ على هيئة حزمة عصبية هى التى نطلق عليها اسم العصب البصرى OPTIC NERVE وتوجد اتصالات جانبية متعددة بين الخلايا العصبية فى هذه الطبقات وعلى الاخص فى الخلايا العصبية المتصلة بخلايا العيدان . وقد يتصل عدد كبير من خلايا العيدان بخلية واحدة ذات قطبين . وتوجد في عيون بعض الخفافيش نحو الف (١٠٠٠) من العيدان متصلة بخلية عصبية واحدة وبهذا يتضاعف الاحساس . وهذا ما يجعل عيون الخفافيش ذات حساسية شديدة للضوء الخافت . وشبكة عيون الفقاريات ليست مصممة بالطريقة التى قد يتصورها الانسان ، اذ ان طبقة العيدان والمخروطات لا تواجه الضوء مباشرة . فالخلايا العقدية هى الاقرب الى عدسة العين . وملايين الخلايا المتدة من الخلايا العقدية تمر فوق سطح الشبكية وتتقابل معا فى نقطة معينة ثم تتحد معا وتغوص فى الشبكية على هيئة عصب بصري يتصل بالمخ شكل ١٢ . وعند النقطة التى يتكون فيها العصب البصرى لا توجد اية خلايا مستقبلة للضوء فينتج عن ذلك نقطة عمياء فى هذا المكان . ونتيجة لهذا التنظيم فان الضوء يتخذ المسار التالى فى عيون الفقاريات : ينفذ من خلال القرنية ثم السائل المائي ، ثم ينفذ من انسان العين فالعدسية ويمر خلال السائل الزجاجي ويصل الى الخلايا العقدية للشبكية ، ثم الى الخلايا ذات القطبين ثم الى العيدان والمخروطات . وعندما تنبه هذه الطبقة الاخيرة (العيدان والمخروطات) عن طريق الضوء الواصل اليها فانها تحدث دفعات كهربائية ترتد الى الخلايا ذات القطبين والطبقة العقدية لتصل في النهاية الى القشرة البصرية فى المخ . وعلى عكس ذلك نجد ترتيب طبقات الشبكية فى الاخطبوط والحبار (شكل ١٢) حيث نجد مستقبلات الضوء هى اول

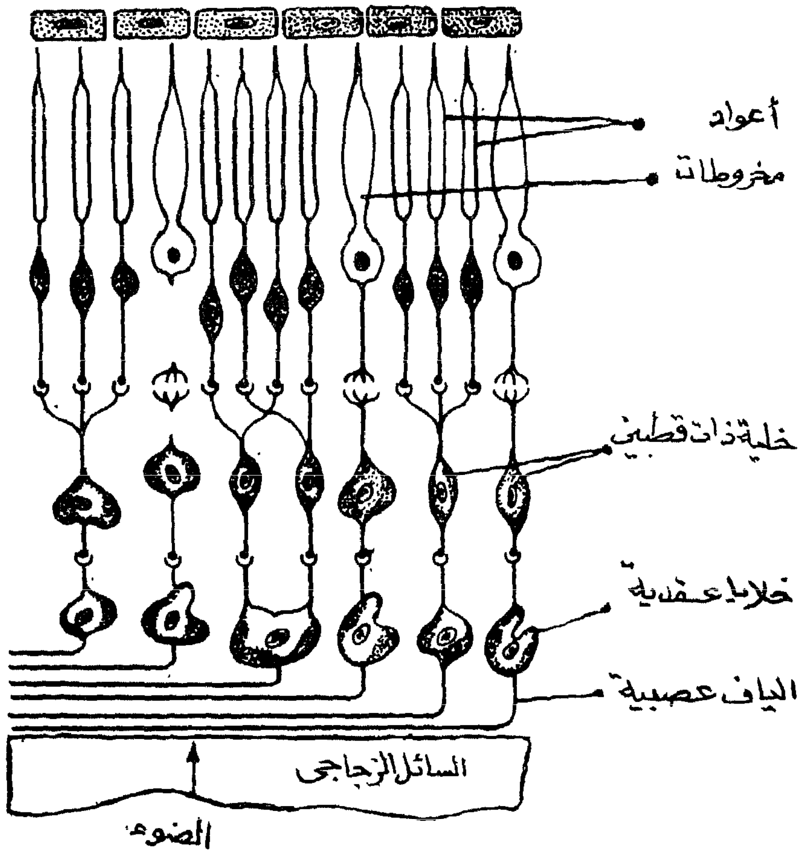
أعواد
مخروطات
خلية ذات قطبين
خلايا عقدية
الياف عصبية
السائل الزجاجى
الضوء

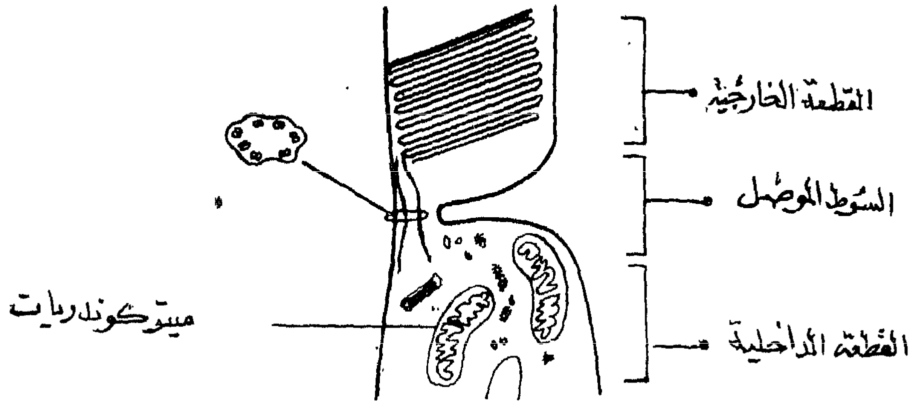
القطعة الخارجية
السوط الموصل
القطعة الداخلية
ميتوكوندريات

(شكل ١٣)

ما يستقبل الضوء ،ونجد محاور الخلايا تخرجمن الجزء الخلفي للشبكية . وسبب الوضع المعكوس فى حالة الفقاريات غير معروف حتىالآن .

الاتصال الكيميائى

الهرمونات

الغدد التى نجدها فى الحيوانات المختلفةعبارة عن خلايا مفردة او مجموعة من الخلايا ذات تركيب خاص ووظيفة معينة . وهى تقومبانتاج مواد يحتاج اليها الجسم . ومعظم الغدد تصب محتوياتها من خلال قنوات ويطلقعليها في هذه الحالة اسم الغدد ذات الافراز الخارجى . فالغدد اللعابية والكد لهما قنواتتحمل الافرازات الى اجزاء من الجهاز الهضمى ؛ بينما نجد ان الاثداء وغدد العرق تفرغ افرازاتهامن خلال فتحات على سطح الجسم .

بالاضافة الىذلك توجد غدد عديمةالقنواتتفرغ افرازاتها فى الدم مباشرة حيث تحمل تلك الافرازات عن طريق الدم الاجزاء المختلفةمن الجسم . هذه هى « الغدد ذات الافراز الداخلى »ENDOCRINE GLANDSويطلق عليها ايضا اسم الغدد اللاقنويةDUCTLESS GLANDS او الغدد الصماء ، اما افرازاتها فهى المعروفةباسم « الهرمونات » HORMONES وكميات ضئيلة من هذه الافرازات ذات تأثير كبيرعلى عديد من وظائف الاعضاء المختلفة فى الجسم حيث تقوم اما بتنبيه أو بتعويق تكوين ونموونشطة الانسجة المختلفة والتأثير على سلوك الحيوان .

والهرمون مادة كيميائية تقوم بتخليقهاالغدد ذات الافراز الداخلى وتصب افرازاتها فى الدم حيث تصل الى أماكن بعيدة فى الجسملتباشر مفعولها. وقبل الدخول فى شرح أساسيات عمل الهرمونات ينبغي ذكر بعض الطرق التي يلجأاليها علماء الغدد الصماء لتتبع وظائفالهرمونات. فلنفرض أن احد العلماء توقع وجود افرازهرمونى فى عضو من الاعضاء ، فانه يلجأ الى عمليات جراحية لاستئصال هذا العضو فى أحدحيوانات التجارب وملاحظة النتائج التى تترتب على ازالة هذا العضو . فاذا حدثت تغيرات معينةنتيجة لازالة العضو أو تلفه عن طريق المرض فان العالم فى هذه الحالة يعيد الى الجسم ذلك العضوعن طريق الجراحة او عن طريق حقنه فى دم الحيوان الذى استؤصل منه العضو . فاذا عادالحيوان بعد ذلك الى حالته الطبيعية فان العالم الذى يجرى التجربة يصبح فى امكانه ادراك أنالعضو المستأصل عبارة عن غدة لاقنوية تقوم بافراز هرمون معين . كما يصبح فى استطاعتهتحديد وظيفة هذا الهرمون . وعندما يعرف التركيب الكيميائي للهرمون فان تخليقه صناعيافى المعمل يصبح أمرا مستطاعا .

ومعظم أنشطة الهرمونات تتآزر معا . ولذافى امكاننا تصور وجود جهاز هرمونى مترابط شامل ، مثل وجود جهاز عصبى متصل ببعضه . ويعمل الجهاز الهرمونى بالتعاون مع الجهاز العصبى لتنظيم وظائف الاجزاء والاعضاء المختلفةبالجسم . ويمكن تمثيل الترابط بين الجهاز

الهرمونى والجهاز العصبى بما يحدث فى أحـد المصانع الكبرى حيث يكون البت السريع فى الامور الفنية عن طريق العمال فى اثناء العمل مناظر الدفعات الكهربائية فى الجسم ، بينما التنظيمات والتخطيط الذى يحدث للمدى البعيد والسياسة العامة للمصنع تتولاها الهيئة العليا من المديرين وهذه تناظر عمل الهرمونات فى الجسم ، ويوضح ذلك ، التعاون بين الجهاز الهرمونى وأجزاء مـن الجهاز العصبي . ومعظم الهرمونات ذات وزن جزيئى خفيف وتنعذ بسهولة لاحداث استجابات سريعة . ولقد أثبتت التجارب ان الهرمونات ليست نوعية بالنسبة للحيوان . فالهرمونات المستخلصة من أحد الحيوانات من الممكن أن تؤثر على حيوانات أخرى . فهرمون الادرينالين مثلا ، ذو تأثير على الحيوانات وحيدة الخلية PROTOZOA ومنها الأميبا والبراميسيوم والقشريات CRUSTACEA (ومنها الجميرى والكابوريا) الى جانب تأثيره هونفسه على الانسان والفقاريات الأخرى . ولايقتصر الأمر على ذلـك ، فالهرمونات المستخلصة مـن حيوانات من الممكن أن تؤثر على بعض النباتات . فهرمون الاوكسين AUXIN ، وهو هرمون النمو فى النباتات يؤثر على اليوجلينا . وبعض الهرمونات المستخلصة من الحيوانات تساعد على نمو أطراف جذور النبـاتـات . وقد توجد فى اللافقاريـات هرمونات لانظير لها فى الفقاريات والعكس صحيح ايضا .

هرمونات الفقاريات

تختلف الغدد اللاقنوية فى تركيبها وفى وظائفها . بعضها عديد الخلايا مثل الغدة الدرقية والبعض الآخر وحيد الخلية مثل الغدد الهاضمة التى تبطن الامعاء . ومن بين الغدد عديدة الخلايا نجد أن الغدة فوق الكلوية ADRENAL GLAND وكذلك الغدة النخامية PITUITARY GLAND كل واحدة منهما فى الحقيقة غدتان تجمعتا معا على هيئة غدة واحدة . فالغدة فوق الكلوية ذات نخاع داخلى وقشرة خارجية . كل منهما يفرز هرمونات مختلفة ومستمدتان من أنسـجة جنينية مختلفة . والامر كذلك فى الغدة النخامية التى نجدها مكونة من جزئين متميزين مستمدان أيضا من أنسـجة جنينية مختلفـة وتفرزان هرمونات مختلفة . والبنكرياس عبارة عن غدتين ، احداهما ذات قناة والأخرى لاقنوية ، والغدة اللاقنوية هذه على هيئـة أنسـجة متناثرة فى البنكرياس وتسمى جزر لانجرهانز ISLETS OF LANGERHANS وهذه الخلايا تفرز هرمونى الانسيولين والجلوكاجون اللذين ينظمان منسوب السكر والأيض METABOLISM . والجزء ذو الافراز الخارجي مـن البنكرياس يفرز انزيمات هاضمة تصب فى المعى الدقيق عن طريق قناة .

وبعض الخلايا العصبية المتخصصة تعتبر غددا لاقنوية (صماء) . هذه الخلايا العصبية المفرزة تفرز مواد كيميائية تنبعث مـن أطراف محاورها AXONS وتلقى بها فى تيار الدم . وتوجد هذه الخلايا العصبية المفرزة للهرمونات فى اللافقاريات والفقاريات على السواء . والخلايا العصبية المفـرزة للهرمونات فى أسـفل المهـاد HYPOTHALMUS فى مخ الفقاريات تسيطر على افراز هرمونات الغدة النخامية ، وبهذا فانها تنظم بشكل مباشر أو غير مباشر افراز معظم هرمونات الجسم .

الغدة النخامية :

تتصل الغـدة النخاميـة بالمنطقـة المسـماة« أسفل المهاد » فى المخ عن طريق عنق رفيع (شكل ١٤) . وتتكون الغدة النخامية من ثلاثة فصوص. الفص الخلفى مستمد من نسيج عصبى ، والخلايا العصبية المفرزة التى نجد أجسامها مدفونـة فى**منطقة المـخ المسـماة « تحت المهـاد » وتصنع** هرمونات ، وهذه الهرمونات تهاجر علـى هيئةحبيبات افرازية خلال محور الخلية وتصل الى الفص الخلفى للغدة النخامية حيث تنساب فى الدم . ويحدث الافراز عندما يسرى جهد كهربائي عبر الخلية العصبية . وفى معظم الثدييات يفرزالاوكسيتوسين OXYTOCIN والفازوبريسين VASOPRESSIN من الفص الخلفى . والاوكسيتوسين يساعد على انقباض الرحم فى أثناء عملية الولادة وهو ضرورى لانبثاق اللبن من الغددالتديه .

والفصان الأمامى والمتوسط للغدة النخاميةغير مستمدين من خلايا عصبية ، اذ أنهما يتكونان فى الجنين من سقف الفم الجنينى . ولا تمتد خلاياعصبية افرازية داخل MEDIANINTER (الهرمون المتوسط) ، وهذا الهرمون يجعل جلدالاسماك والبرمائيات وبعض الزواحف قاتم اللون وذلك عن طريق تنبيه الحبيبات الملونة التى فىالخلايا فتجعلها تنتشر . والفص الأمامى للغدة النخامية يفرز ستة هرمونات على الاقل وهذه**تؤثر على نمو الجسم وتكوين اللبن فى ثدى الانثى** وتسيطر على غدد صماء عديدة أخرى مثل الغدةالدرقية والكظر (الغدة فوق الكلوية) والمناسل GONADS

والهرمونات المفرزة من الفصين الامامي والمتوسط للغدة النخامية تسيطر على افرازهـا هرمونات عصبية افرازية من تحت المها تسمى« عوامل الانطلاق » RELEASING FACTOR ، وهذه يقوم بتكوينها خلايا عصبية مفرزة تقـع بأكملها داخل « تحت، المهاد HYPOTHALAMUS وتدخل « عوامل الانطلاق » فى شبكة دموية تسمى« الجهاز الباني النخامى PITUITARY PORTAL SYSTEM الذى يتصل بالفصين الامامىوالخلفى للغدة النخامية . ويمر الدم مباشرة مـن مجموعة من الشعيرات الدموية فى « تحت المهاد »خلال أوعية دموية قصيرة ليتصل بشبكة أخرى من الشعيرات الدموية فى الغدة النخامية (شكل ١٤) .

والجهاز النخامي التحت مهادى ذو أهميةكبرى ، اذ يعزى اليه معظم الأنشطة الفسيولوجية الكبرى . ولا تقتصر اهميته على عدد وتنوع الوظائف التى يقوم بها ، ولكن تكمن أهميته ايضا فى كونه يمثل المكان الذىيتقابل فيه الجهازانالعصبىوالهرمونى . وفى هذا المكان تتم ترجمة الدفعات العصبية الى رسائل كيميائية . وللأهمية القصوى للغدة النخاميـة فلقد وضعها الله فى حصن حصين فى قاع الجمجمة . وتسمى أحيانا بالغدةالرئيسية أو المهيمنة على جميع الغدد اللاقنويـة MASTER GLAND تأثيراتها العديدة على**عمليات الجسم وعلى وظائف الغدد اللاقنوية الاخرى .** واختلال افرازات الفص الامامى للغدة النخاميةينتج عنه العملقة المرضية حيث يظل الانسان ينمو فى الطول نموا مطردا حتى يصبح عملاقا ذا طولخارج معدل طول البشر وقد ينتهى هذا المرض بوفاة المريض .

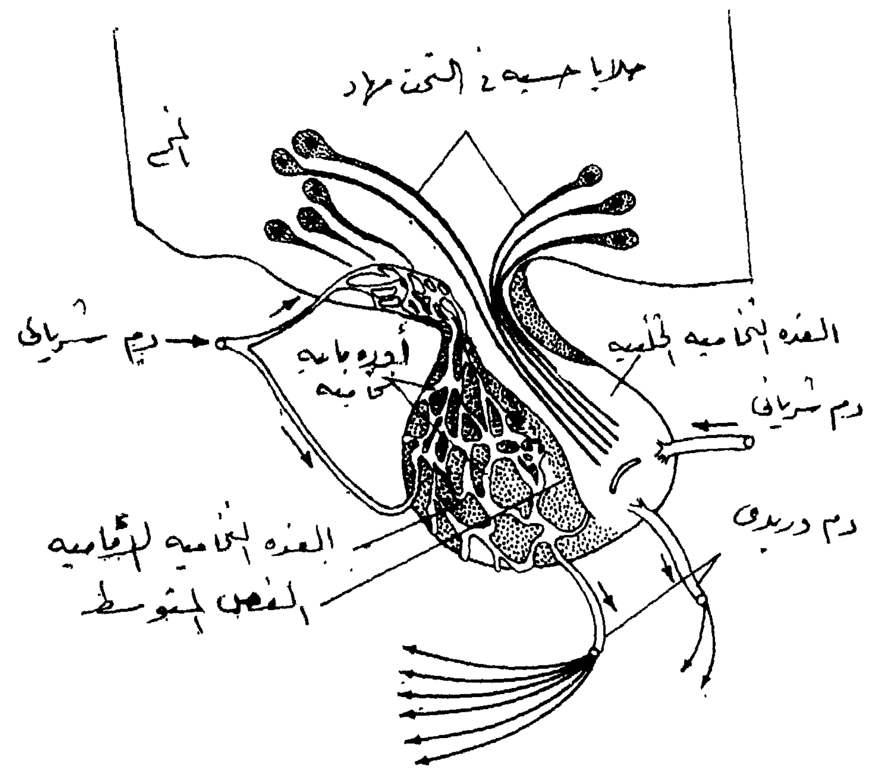
خلايا حسية في التحت مهاد
المخ
دم شرياني
أوردة بابية
نخامية
الغدة النخامية الخلفية
دم شرياني
دم وريدي
الغدة النخامية الأمامية
الفص المتوسط

(شكل ١٤)

أساسيات عمل الهرمونات

نوعية الفعل الهرمونى

يحدث تأثير الهرمونات باحداث استجابة فى عضو بعيد عن مصدر الافراز يسمى « العضو الهدف »TARGETO RGAN. والتحكم العصبى والهرمونى ذو تأثير نوعى ، ولكن الجهازين يرسلان تأثيرهما بطريقتين مختلفتين : فالجهاز العصبى يعمل كجهاز الهاتف (التليفون) او التلغراف (البرق) حيث تبعث الرسائل عبر خطوط مباشرة (هى الأعصاب) من نقطة الى أخرى . اما الجهاز الهرموني فيعمل كجهاز الارسال فى محطة الاذاعة حيث تنبعث الرسائل فى كل مكان ومع ذلك فان عددا معينا من البشر يمكنهم « فهم » الرسائل والاستجابة لها . فالارسال الاذاعي المنبث باللغة اليابانية مثلا، لايفهمها الذين لايتكلمون أو لايفهمون سوى لغات أخرى كالعربية أو الفرنسية أو الانجليزية . وبالمثل ، فان الهرمون المنطلق عن طريق الدم فى جهات مختلفة من الجسم ، يؤثر على خلايا خاصة . فجزيئات الهرمون الكيميائية يجب ان تتلاءم مع مستقبلات معينة أو تتشابك مع جزئيات انزيمات بطريقة خاصة قبل أن تحدث التأثير . فكل هرمون يؤثر على خلايا معينة ولا يؤثر على الخلايا الاخرى . وهذه الخلايا الاخرى قد تتأثر بهرمون آخر . ان تأثير الهرمونات نوعى بالنسبة للاجزاء أو الاعضاء المختلفة للجسم . فعامل انطلاق هرمون النمو لايؤثر الا على خلايا خاصة فى الفص الامامى للغدة النخامية الذى يفرز هذا الهرمون (هرمون النمو) ولا يؤثر على أية خلايا اخرى . وتوجد هرمونات معينة تحدث تأثيرا عاما بالنسبة للجسم . فالانسيولين المنبعث من البنكرياس يزيد من قدرة معظم الخلايا على امتصاص الجلوكوز من الدم . وبعض الهرمونات ذات تأثير سريع بينما البعض الآخر قد تنقضى فترة من الزمن قبل ملاحظة تأثيرة . وعلى سبيل المثال عندما يفرز الغدة الكظرية (فوق الكلوية) هرمون الادرينالين فان دقات القلب تسرع ، وتنقبض الشرايين الدقيقة التى فى الجلد والامعاء خلال ثوان . وعلى النقيض من ذلك ، عندما تفرز الغدة الدرقية هرمون الثيروكسين فان احداث التأثير قد يحتاج الى أيام .

تواصل الأجيال

تواصل الأجيال جيلا بعد جيل فى جميع الكائنات الحية عن طريق التكاثر . والتكاثر قد يتم بوسائل مختلفة ولكن الهدف فى جميع الحالات هو بقاء النوع فلا تزول الكائنات الحية من الوجود . والطريقة السائدة فى التكاثر هى اتصال الذكر بالانثى فى عملية جنسية ينتج عنها اندماج الخلية الذكرية (الحيوان المنوى) بالخلية الانثوية (البويضة) فتتكون الخلية الملقحة التي تنقسم انقسامات متتالية حتى يتكون الكائن الحى .

وقد يحدث التكاثر دون التقاء بين ذكروانثى . ففى الحيوانات الاولية وحيدة الخلية يتكاثر الحيوان بطريقة غاية فى البساطة، اذ ينقسم كل حيوان الى حيوانين ، ويطلق على هذا الانقسام اسم « الانقسام الثنائى البسيط » . فحيوان الاميبا يتكاثر بهذه الطريقة وكذلك بفعل البراميسيوم على التكاثر بالانقسام الثنائي البسيط فانه قادر أيضا على التزاوج حيث يتلاصق

حيوانات من هذه الحيوانات ويتبادلان الانوية فيصبح احدهما وكأنه الأنثى والآخر وكأنه الذكر. وبعد تبادل الأنوية واندماج النواتان معا فى كل حيوان منهما ، ينفصل الحيوانان وتنقسم النواة انقسامين متتالين ويصحب انقسام النواة انقسام الحيوان نفسه طوليا فيتضاعف كل حيوان ويصبح أربعة حيوانات نتيجة لهذين الانقسامين . (١)

أما فى الغالبية العظمى للحيوانات عديدة الخلايا فلا بد من اتصال جنسى بين الانثى والذكر حيث تندمج نواة الحيوان المنوى مع نواة البويضة لانتاج البيضة الملقحة ، وهو ما يطلق عليه « التكاثر الجنسي » .

وتتكون الخلايا التناسلية داخل اعضاء يطلق عليها اسم « المناسل » . فالحيوانات المنوية تتكون داخل خصية الذكر والبويضات تتكون داخل مبيض الانثى . وقد تجتمع الخصية والمبيض فى حيوان واحد كما هى الحال فى معظم الديدان المفلطحة وفى دودة الأرض وغيرها . فى هذه الحالة يوصف الحيوان بأنه خنثى . وفى بعض انواع الاسماك وبعض الحيوانات الرخوة نجد ان المنسل الواحد ينتج حيوانات منوية وبويضات بالتناوب .

والحيوانات المنوية والبويضات تختلف فى الحيوانات المختلفة فى الشكل والحجم . فالبويضة كروية أو بيضوية الشكل وغير متحركة وقد تحتوى على مح لتغذية الجنين . واكبر البويضات حجما توجد فى سمك القرش اذ يبلغ قطر الواحدة منها ١٤٠ الى ١٨٠ مليمترا . بينما نجد ان قطر بويضة انثى الانسان نحو ١٥ر٠ مليمترا .

والحيوانات المنوية متحركة ولديها القدرة على السباحة فى السوائل ، وهي عادة جنطية الشكل وأصغر بكثير فى الحجم من البويضات . ويبلغ طول الحيوان المنوى فى الانسان نحو ٥٢ الى ٦٢ ميكرون (الميكرون جزء من الف من المليمتر) وحجم الحيوان المنوى بالنسبة للبويضة فى الانسان هو ١ الى ١٩٥٠٠٠ (واحد الى مائة وخمسة وتسعين الفا) ويمكن ان يوضع فى احدى القبعات العالية TOP HATS عدد من بويضات انثى الانسان يبلغ عدد جميع سكان الكرة الارضية فى الوقت الحالى . والحيوانات المنوية التى تماثلها فى العدد من الممكن وضعها فى الكستبان الذى يوضع فى طرف الاصبع عند الخياطة !

ومن المعروف انه فى أنوية خلايا جميع الكائنات الحية سواء اكانت حيوانات أو نباتات ، يوجد عدد ثابت من الكروموسومات CHROMOSOMES ويختلف عددها فى الانواع المختلفة . وعدد هذه الكروموسومات فى خلايا جسم الانسان ستة وأربعون كروموسوما . وعندما تتكون الحيوانات المنوية والبويضة فى المناسل يختزل الى النصف عدد هذه الكروموسومات فى كل من الحيوانات المنوية والبويضة فيصبح ثلاثة وعشرون كروموسوما . وعند التلقيح ، حيث تندمج نواة الحيوان المنوى بنواة البويضة ، تتكون الملقحة ويعود عدد الكروموسومات الى العدد الاصلى

---

(١) تعمدت تبسيط طريقة التكاثر التزاوجي للبرامسيوم ، اذ انها اعقد من ذلك ، لان جسم حيوان البرامسيوم المكون من خلية واحدة يحتوى على نواتين بدلا من نواة واحدة . وهذه صفة عامة لطائفة الهدبيات التى ينتمى اليها البرامسيوم .

الموجود فى جميع خلايا جسم الانسان فيصبح ستة واربعون كروموسوما ، وهو مجموع كروموسومات الحيوان المنوى والبويضة (٢٣ + ٢٣) ويطلق على الخلية الملقحة اسم الزيجوت ZYGOTE وتشتمل عملية التلقيح على دخول نواة الحيوان فى البويضة (حيث يترك ذيله الطويل الرفيع خارج البويضة) ، الى جانب عمليات فسيولوجية تحدث فى كل من الحيوان المنوى والبويضة . ولا يلقح الحيوان المنوى عادة سوى بويضة انثى من نفس نوعه . وعملية التلقيح تنبه الزيجوت لكي يبدأ سلسلة من الانقسامات بطريقة تسمى « الانقسام غير المباشر » حيث يوجد فى كل خلية من الخلايا الناتجة عن الانقسام ستة واربعون كروموسوما فى حالة الانسان . وتوجد على الكروموسومات ما يسمى بالجينات GENES التى تحمل عوامل الوراثة . ووجود نصف عدد الكروموسومات من الاب والنصف الثاني من الام يهيىء الفرصة لوراثة بعض الصفات من الاب واخرى من الام . وتدل التجارب على ان الجزء الخارجي للبويضة يفرز مادة هى الفيرتيليزين FERTILIZIN تجذب نحوها الحيوانات المنوية . ولا يوجد فى الجهاز التناسلى للانثى سوى بويضة واحدة ينجذب نحوها عدد هائل من الحيوانات المنوية التى تتسابق لدخول البويضة ، ولكن حيوانا منويا واحدا هو الذى يفوز بتلقيح البويضة حيث تندمج نواته مع نواة البويضة .

والتلقيح قد يكون خارجيا او داخليا فهو خارجى فى بعض الحيوانات وداخلى فى حيوانات اخرى . ففى حالة التلقيح الخارجى قد تطرح الحيوانات المنوية والبويضات فى الماء الذى تعيش فيه الحيوانات كالاسماك وبعض الحيوانات الاخرى . او قد يوجد الذكر والانثى قريبين من بعضهما عندما تخرج الحيوانات المنوية والبويضات . او قد يتعانق الذكر والانثى وتخرج الحيوانات المنوية والبويضات الى الخارج فى هذه اللحظة حيث تتم عملية التلقيح كما يحدث فى الضفادع .

أما فى حالة التلقيح الداخلى فقد يلقى الذكر حزما من الحيوانات المنوية فى قاع بركة أو مجرى من الماء ويؤخذ واحد او اثنان منها داخل الحوصلة المنوية كما فى حالة السلمندر . او قد يدخل الذكر الحيوانات المنوية داخل مهبل الانثى لتلقح فيما بعد البيض فى القناة التناسلية للانثى كما يحدث فى الديدان الخيطية NEMATODA وبعض الحيوانات الرخوة والمفصليات وبعض الاسماك وجميع الزواحف والطيور والثدييات. والتلقيح الداخلى ضرورى لحيوانات اليابسة ، اذ أن الحيوانات المنوية لا بد لها ان تعوم فى وسط سائل وهذا لا يتوافر فى هذه الحالة الا داخل الجهاز التناسلى للانثى .

التلقيح الصناعى

قد يكون التلقيح صناعيا لا طبيعيا . فى هذه الحالة قد نحصل على حيوانات منوية من احد الذكور ونضعها فى مهبل الانثى لاحداث الحمل . وتستعمل هذه الطريقة كثيرا لبعض الثدييات الاليفة التي نعنى بتحسين نتاجها حيث يمكن توصيل عدد كبير من الحيوانات المنوية التى نحصل عليها من احد الذكور الذى يتميز بصفات مرغوب فيها ونلقح بها عشرات من اناث هذه الحيوانات بدلا من قصرها على عدد قليل منها كما يحدث فى التلقيح الطبيعي . وبهذا

تنقل الصفات المطلوبة الى عدد كبير من الاناث فينتج بذلك تحسين نسل هذه الحيوانات . والحيوانات المنوية التي نحصل عليها بهذه الوسيلة من الممكن ان تشحن فى السفن الى اماكن بعيدة لاستخدامها لهذا الفرض . ونحو سبعة ملايين من الابقار تلقح تلقيحا صناعيا كل عام فى الولايات المتحدة . ومن الممكن ايضا تحت رعاية طبية استخدام التلقيح الصناعى فى الانسان فى حالات خاصة مثل عقم احد الازواج او عندما يتعذر الحمل الطبيعي لاى سبب من الاسباب .

أنواع خاصة من التكاثر

قد يحدث التكاثر فى بعض الحيوانات عديدة الخلايا دون حاجة الى التقاء الانثى بالذكر ، ويسمى هذا التكاثر بالتكاثر البكرى PARTHENOGENESIS يوجد مثل هذا التكاثر فى بعض الحشرات كالمن والتربس THRIPS وبعض الخنافس وعديد من النمل والنحل والدبابير وبعض الحيوانات القشرية . فللمن (قمل النبات) APHIDS دورات ينتج فيها اناثا ، دون تلقيح فى فصلي الربيع والصيف ، وبعد ذلك تأتى دورة بها ذكور اناث عن طريق التكاثر البكرى وتتزاوج الاناث والذكور بالطريقة العادية وتضع الاناث بيضا ملقحا يفقس لتخرج منه اناث فى الربيع التالى وتستمر هذه فى التكاثر البكرى . وتنتج ملكة النحل بيضا ملقحا تخرج منه اناث قد تصبح ملكات او شغالة ، ولكنها تضع ايضا بيضا غير ملقح تخرج منه ذكور .

وقد تنتج يرقات بعض الحشرات يرقات اخرى ، وهذه اليرقات الجديدة تنمو وتنتج يرقات اخرى . وبعد بضع دورات تكمل اليرقات نموها وتتحول الى عذارى ثم الى حشرات تامة النمو يلقح فيها الذكر الانثى بالطريقة العادية . ثم يتوقف النمو فى اليرقات الناتجة عن هذا التلقيح فلا يتعدى الطور اليرقى حيث تنتج هذه اليرقات يرقات اخرى . . . وهكذا .

وقد تفشل بعض يرقات السلمندر فى بلوغ الطور الكامل فتتكون فيها أعضاء تناسلية وتتزاوج فيما بينها وكأنها حيوانات تامة النمو وتنتج بيضا ملقحا . والبيض التام النمو غير الملقح لبعض قنافذ البحر والضفادع وحيوانات اخرى من الممكن تنبيهه بوسائل خاصة فنجعله يتصرف وكأنه بيض ملقح لينتج حيوانات عن طريق التناسل البكرى دون حاجة الى ذكر . والتنبيه قد يكون عن طريق الحرارة او الاحماض العضوية المخففة او بوضع البيض فى ماء به أملاح ذات تركيز معين او اذا وخزنا بيض الضفادع بابرة أو دبوس .

وقد يفقس بيض بعض الحشرات ليخرج من البيضة الواحدة أكثر من حشرة وهذا يقابل التوائم المتماثلة فى الانسان . وفى الحشرات غشائية الاجنحة HYMENOPTERA (ومنها النحل والدبابير) انتج بعض البيض جنينا واحدا . بينما انتجت البيضة الواحدة فى بعض الاحيان نحو الف جنين !

اتصال الحيوانات ببعضها

قد يحدث اتصال بين افراد النوع الواحد من الحيوانات او اتصال بين الانواع المختلفة اما عن طريق الرائحة او الصوت او الرؤية . ولقد كتبت عن هذا الموضوع مقالا بعنوان « لغة الحيوان » نشر بالعدد الثانى من المجلد السابع لمجلة « عالم الفكر » عام ١٩٧٦ .

المراجــع

BIOLOGY by CLYDE HERREID

GENERAL ZOOLOGY by GAIRNER B. MOMENT

ZOOLOGY by COCKRUM AND MCCAULEY

INSECT HORMONES by V.J.A. NIVAK

AN INTRODUCTION TO ANIMAL BEHAVIOUR by AUBEREY MANNING

FROM SAD TO GLAD by NATHAN KLINE

STUDIES IN INVERTEBRATE BEHAVIOUR by S. M. EVANS.

GENERAL ZOOLOGY by STORER & USINGER.

THE CELL by JOHN PFEIFFER and THE EDITORS OF LIFE.

ANIMAL BEHAVIOUR by DETHIER and STELLERA

ALL ABOUT THE HUMAN BODY by BERNARD GLEMSER

أسرار الحياة : تاليف أناتولى شفارتز ، ترجمةزكريا فهمي .

مشكلات تعير العلم : تاليف سرجون آرثر طومسونترجمة زكريا فهمي .

جولة عبر العلوم : تاليف ج.ن. ليونـارد . ترجمـةالسيد المغـربـى .

رسالة من المخ : تاليف حاتم نصر فريد .

★ ★ ★

وسائل الاتصال الحديثة
وأبعاد جديدة لانسان القرن العشرين

طه محمود طه

استاذ الادب الانجليزى بجامعة الكويت
استاذ الادب الانجليزى السابق بجامعة عين شمس

١ ـ الوسائل : ماهي ؟

يقول مارشال ماكلوان (١) : « ان الكلمة المنطوقة تستثير الحواس الخمس فى المستمع بشكل درامي » . وفى استفتاء عن الاذاعة قال أحد المستمعين : « اني أعيش فعلا داخل الراديو وانا أستمع اليه . ان من السهل علي الاندماج مع الراديو اكثر من اندماجي مع كتاب» . ولبرتولت برشت قصيدة يقول فيها :

أيها الصندوق الصغير ، احتضنتك وانا أبغي الفرار

لكي أصون صماماتك من الدمار ،

حملتك من بيت الى سفينة ، ومن سفينة الى قطار

حتى يواصل أعدائي حديثهم لى باستمار ،

ألم" ، ألم" هو أبداً به النهار ،

وهو آخر شيء فى ليلى ، عن حلاوة الانتصار ،

وعن همومي وقلقي . عدني الا تخيب رجائي الحار ،

وتصمت فجاة ، الى الابد ، دون انذار .

انالاستماع للراديو أو مشاهدةالتلفزيون أو قراءة كتاب ــ وكلهاصور منتكنولوجياالعصر الحديث ــ يعني بالضرورة احتضانها كما يقول لنا برشت . ويواصل الانسان الحديث

---

(١) McLuhan M. : Understanding Media , London 1970 p. 298.

تطوير هذه الوسائل ويتطور بها ، يحبها وتبادله الحب بتلبية رغباته. وتحقيق أمنياته . « ويصير الانسان ... كالنحلة فى عالم النبات حاملا اللقاح فى عالم الآلة يساعدها على التوالد والانتاج الجديد المستمر » . (٢) هذا ما يطلق عليه التطور الجديد فى عالم وسائل الاتصال . ووسائل الاتصال قديمة قدم الطبول البدائية والايماءات واشارات الدخان . وكان تطورها فى بادىء الأمر بطيئا ، ولكنها خطت خطوات سريعة فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، وها نحن نشاهد ذروتها الآن ، وما خفى كان أعظم .

البداية: ولكي ندرك مداها ومغزاها علينا أن نلم بخطوات تطورها بشكل مختصر . ففى عام ١٧٧٦ عندما أعلنت الثلاث عشرة ولاية أمريكية استقلالها انتقلت أخبارها للناس بوساطة الكلمة المنطوقة (شفاهيا) ، وكان معظم الامريكيين من الأميين . كانت المطبوعات قليلة جدا يشتريها قلة تقرأ من الناس . وكانت الصحف تقرأ بصوت عال فى البارات والحانات . لم تكن المطبوعات صحفا بالمعنى الذى نعرفه اليوم ، بل كانت تتكون من أربع صفحات صغيرة حروفها ملطخة بحبر الطباعة وتصدر أسبوعيا واحيانا دون انتظام . وغالبا ما كانت تبدأ كمشروع فردى ملك رجل واحد ــ الطباع . وبمطبعة خشبية يدوية وصندوق للحروف وما يلزم من ورق يصبح مستعدا لطبع ما يرى من أخبار ونشرها. كانت المادة الصحفية تتكون من مقالات القراء ورسائلهم وبعض الاعلانات ، ولها جمهور يتراوح ما بين ٥٠٠ الى ٨٠٠ مشترك . لم يكن لديه ما يكفيه لا من الورق ولا من الآلات السريعة ليطبع نسخا اكثر ، فقد كانت وسائل الطباعة التى استعملها جوتنبرج عام ١٤٥٦ هى السائدة ، ولم يكن هناك ما يدعو لتغييرها .

فى عام ١٨٤٠ بدأت الاعلانات تغزو المجال الصحفى ، ولمدة طويلة احتلت اعلانات الادوية (خاصة دواء السعال والمروخ ودهان الروماتيزم) مساحة كبيرة ، وجنى منها متعهد الاعلانات ربحا لا بأس به . واثناء الحرب الاهلية استغلت وزارة الخزانة هذه الصحف للترويج لبيع سندات الحرب . ومع زيادة عدد المهاجرين والازدهار النسبى فى الصناعة ، وافتتاح مدارس جديدة زاد عدد القراء . وظهر الكارتون الملون المصور ليجتذب مئات الآلاف من القراء . ومع نهاية القرن التاسع عشر اخذت الصحف ترسل مندوبيها للبحث عن الاخبار والاعلانات بدلا من انتظار الانباء تأتي اليها . واختفت « الصحافة الشخصية » وحلت محلها صحافة محايدة ضخمة . وساعدت الآلات الجديدة على نمو العملاق المصور ، وانتشرت المطبوعات التخصصية من صحف ومجلات وكتب .

---

(٢) Ibid. p. 46

الصورة المتحركة : اثار الانجيل المطبوع بطريقة جوتنبرج من حروف طباعة متحركة العجب فى المانيا أول ما ظهر ، وفى ايطاليا ادهش الناس اختراع آخر . كان هذا الاختراع الايطالى لعبة لا تمت بصلة من قريب أو من بعيد لأى وسيلة جديدة فى الاتصال أو نشر الأخبار والمعلومات . أفاد ليوراندو دافينشى أنه اذا دخلت حجرة مظلمة فى يوم مشمس فى أحد حوائطها ثقب صغير أمكنك مشاهدة انعكاسات العالم الخارجى من أشياء ثابتة ومتحركة على الحائط المقابل للثقب . وظهر هذا الاختراع فى كتابه **السحر الطبيعى** الذى أصدره جيوفانى باتيستا ديلا بورتا عام ١٥٥٨ . وبعد سنوات أصبح معروفا أنه لو وضعت عدسة بدلا من الثقب لساعدت على توضيح وتحديد الصورة . جمهورنا الموجود اليوم فى دار للعرض السينمائى يشبه الجمهور الذى كان يشاهد هذه الصور المنعكسة من خلال ثقب فى الحائط فى الماضى ، مع فارق واحد : وهو أن الصورة القديمة كانت مقلوبة . وصندوق التصوير الحديث كان يسمى الحجرة المظلمة ، والمجموعة التى تشاهد هذه الصور المتحركة فى الصندوق تشبه الأسرة فى العصر الحديث وهى تشاهد التلفزيون .

وجاء الطلب لهذه الصورة فى أوائل القرن ١٩ بعد أن تطورت علوم الكيمياء ونجح تحميض الافلام وطبعها . فلزمن طويل كانت الصورة أو اللوحة الزيتية على الحائط رمزا للارستقراطية والمكانة الاجتماعية ، وكانت نوعا من **الاعلان** عن الذات . وكان من الطبيعى أن يرغب التاجر الثرى أو العامل اليدوى الذى أصبح صاحب مصنع متواضع فى اقتناء هذا الرمز للمنزلة الرفيعة فى المجتمع . ففى مطلع القرن التاسع عشر كان الطلب على هذه الصورة ينمو بشكل ملفت للنظر . واتجه الفنان لويس داجير Louis Daguerre (١٧٨٧ – ١٨٥١) الى الكيميائى جوزيف نيبس Joseph Niepce (١٧٦٥ – ١٨٣٣) وحصل بمعاونته على أول صورة فوتوغرافية عام ١٨٣٨ . واستمر التعاون بين الكيميائى والفنان حتى أصبح فى عام ١٨٥٠ اكثر من ٧٠ من استوديوهات التصوير فى مدينة نيويورك وحدها . وفى عام ١٨٦٠ استعملت الكاميرا فى الحرب الاهلية الامريكية وشاركت فى اثراء عمل المراسل الصحفى . وفى عام ١٨٧٠ تراهن محافظ كاليفورنيا ليلاند ستانفورد بأن الحصان الذى يسرع العدو ترتفع أرجله الأربعة عن الأرض فى لحظات معينة دفعة واحدة . ولكي يثبت ذلك لجأ الى ادوارد مايبردج Maybridge الذى وضع سلسلة من آلات التصوير فى صف واحد بطريقة تسمح بتصوير الحصان فى تتابع سريع وهو يمر بكل واحدة منها . واثبتت الصور صحة نظرية ليلاند وكسب الرهان . وفى عام ١٨٨٠ تمكن من أن يعكس هذه الصور على شاشة للعرض وأطلق على آلته اسما غريبا Zoopraxiscope « آلة عرض حركات الحيوانات » . ولم يكتب لطريقة العرض النجاح ، فقد كانت تتطلب عددا كبيرا من آلات التصوير . (٣)

فى عام ١٨٨٩ سمع توماس أديسون عن انتاج جديد طوره جورج ايستمان : وهو عبارة

---

(٣) Giedion S. : Mechanization takes Command, London, 1970 pp. 20-23.

عن شريط طويل من الفيلم الخام بدلا من لوح واحد لكل لقطة ، وارسل فى طلب احدها ، وبعد اشهر اخترع اديسون ما اطلق عليه Kinetoscope – الصورة المتحركة والتى نعرفها بالسينما اليوم : نوع من صندوق الدنيا. وسرعان ما خاطبت الصور المتحركة قلوب المهاجرين الجدد فى أمريكا وساعدتهم على تأقلمهم فى وطنهم الجديد . وكان من العناوين المهمة للافلام فيما بين عام ١٩٠٤ ، ١٩١٤ : « معالجة البطالة بالسينما » ، « المواطن الصالح بالصور المتحركة » ، « الصور المتحركة فى الكنيسة وخارجها » « الصور المتحركة تزيد الانتاج » وهكذا .

تطور جديد فى صناعة السينما : حتى عام ١٩٠٨ كانت الكاميرا ثابتة تلتقط المناظر عن بعد أو من مسافة متوسطة دون التوكيد على **التفاصيل** ، وكان المشاهدون يرون صور المناظر والممثلين كما لو كانوا على خشبة المسرح. وفجأة وفى أثناء أحد المناظر اتت لقطة قريبة ، لتملأ اطار الشاشة ، فأحدثت ضجة بالغة واثارت اهتمام النظارة بفعاليتها المفاجئة : وولد تكنيك **اللقطة القريبة** . وتعتبر **اللقطة القريبة** فى عالم الاتصال محاولة لاشراك **الجمهور فى علاقات** حميمية مع **الممثلين** والابطال فى الفيلم . وسرعان ما امتلأت الافلام باللقطات القريبة. وبدا الجمهور يتعرف على تفاصيل تقاطيع وجوه **الممثلات** بدقة ـ الحواجب ، العيون ، **شكل الأنف والشفتين**. ولا عجب أن أسطورة **النجم السينمائى بدات** بعد اكتشاف المخرج جريفيث لأهمية اللقطة القريبة . وتبع ذلك تطور آخر : ففى الماضى كان يعلن عن الافلام بأسمائها فى العناوين الضخمة على دور **العرض وفى الملصقات** ، **أما الآن فقد** تصدر اسم **النجم أو النجمة** المانشيت **العريض**: مارى بيكفورد فى فيلم كذا . ووقع تشارلى تشابلن عقدا عام ١٩١٧ بمبلغ ٦٧٠٫٠٠٠ **دولار** فى العام ، وأصبحت هوليود عاصمة للسينما .

وتطورت آلات التصوير والعرض من ٣٥مم الى ١٦ مم ، بل طرح فى الأسواق آلات للعرض من مختلف القياسات ٢٨ ، ٢٢ ، ٢١ ، ١٧٫٥ ، ١٦ ، ١٥ ، ١١ ، ٩٫٥ مم **وأدى ذلك** الى خلل بل وشلل فى حركة البيع ، الى أن تم الاتفاق عام ١٩٢٣ على ١٦ مم . **ودخلت بعض** الادارات الحكومية والهيئات والمؤسسات ميدان الانتاج السينمائى . ولكن **مع هذا الازدهار فى** عالم السينما كوسيلة من وسائل الاتصال لم يحدث أن انخفض الاقبال على **القراءة والمطبوعات**، بل صدرت **مجلات** سينمائية **جديدة** تعلن عن الافلام وتروج لها **وبدات الصحف التى كانت** تخشى منافسة السينما فى بادىء الأمر فى الاعلان عن أخبار الممثلين لتجتذب عددا أكبر من القراء. وجاء الفيلم الناطق عام ١٩٢٦ ثم الملون ثم السينماسكوب والتلفزيون والمايكروفيلم ليسهل خزن المعلومات ، ومن بعده الفيديو والشريط الممغنط .

الاشارات السلكية واللاسلكية : اشتمل كتاب **السحر الطبيعى** على وصف للتلغراف ، واقترح جيوفانى باتيستا تركيب جهاز لارسال الاشارات باستعمال المغناطيسية ، **وتسلى بهذه** الفكرة بعض المتحمسين ولكنها ظلت مجرد حلم لتحققه فيما بعد المعرفة المتنامية بعلوم الفيزياء والحاجة الملحة لوجوده . وجاءت المعرفة والحاجة فى القرن ١٩، وأمكن عن طريق الكهرومغناطيسية الوصول الى اختراع التلغراف . وقد عجل بهذا الاختراع انتشار الانتاج والتوزيع بالجملة،

بل وجعله من الضرورى . فلم يكن هناك فن قبل أبدا تلك الحاجة الملحة لهذه السرعة فى ارسال واستلام الرسائل لمراكز الانتاج والتوزيع البعيدة . فأينما كانت مراكز الصناعة والانتاج وجد الناس انهم يعتمدون على ما يجرى فى أماكن بعيدة : مراكز الموارد الطبيعية ، الاسواق المالية ، أسواق التوزيع الخ . وتطلب هذا النوع من الاتصال السريع (البرقى فيما بعد) أكثر من حامل رسائل على ظهر حصان ، أو رسالة فى رجل الحمام الزاجل ، أو مظروف فى عربة بريد فى قطار بخارى . **لقد أصبح الاتصال السريع مسأله حياة أو موت .**

هكذا تمهد الطريق لوصول صامويل مورس وهو من أوائل المهتمين بالاتصال ، وكان واحدا من عمال التصوير بطريقة داجير فى عام ١٨٣٠ ، وفى عام ١٨٤٤ دق على مفتاح مورس أول رسالة من واشنجتون الى بالتيمور ، وأصبحت أيام « الحصان الاكسبريس » The Pony Express والحمام الزاجل معدودة . وسرعان ما أخذت الأسلاك التلغرافية العلوية تمتد من مدينة الى أخرى ــ بمحاذاة خطوط السكك الحديدية فى أغلب الاحيان ــ بل وامتدت الكابلات تحت سطح الماء . وأصبحت الاسلاك التلغرافية تنتشر كجهاز عصبى يعتبره كثير من المفكرين وكأنه حدث بيولوجى فى غاية الاهمية ، يشبه الى حد كبير انتشار قرون استشعار الكترونية تحتضن الكرة الارضية الآن ، تسبر أغوار الفضاء وتصل الى ما هو تحت الأرض .

التلغراف والصحافة : وبظهور التلغراف ظهرت الصحافة الحديثة التلغرافية فى أسلوب تصميم صفحتها الأولى التى تتكون من خليط من الاخبار القصيرة المتنوعة لا يوحدها سوى تاريخ الصدور : عرس ينتهى بمعركة : العريس يحتجز والعروس تبكى : الجدة ، ٥٩ ، تحصل على الثانوية العامة : تقدم احدى عينيها لزوجها الضرير : فتاة ، ١٢ سنة ، تفوز بسيارة ، ولكنها لن تقودها ، هذا بالاضافة مثلا الى الاخبار السياسية والطقس وحكمة اليوم الخ . أما الصفحة التقليدية (فى جريدة الاهرام مثلا) فتختلف اختلافا كبيرا عنها فى جريدة الأخبار . كذلك فى الرسم ، ظهر فى مطلع القرن المذهب الانطباعى عند سيورا الذى لجأ الى الرسم بالتنقيط Pointillisme . والصور التى رسمها سيورا ومونيه ورنوار تشبه الى حد كبير الصور المرسلة باللاسلكى ، وتظهر فى الصحف وبعض المجلات ، والصورة التى تظهر على شاشة التلفزيون من حيث تركيبها من نقط وشرط (شكل ١) وتختلف فى تكوينها عن الصورة الفوتوغرافية .

ولحق التلفون بالتلغراف : ما أن حل عام ١٨٧٦ الا وكان **اسكندر جراهام بيل** يشرح للناس كيف يمكن لهذه الأسلاك أن تحمل الصوت ، بالاضافة الى النقط والشرط فى اشارات المورس التلغرافية . وتعاون التلغراف والتلفون على سرعة انتشار التوسع الجغرافى للعمل والانتاج والتوزيع ، ومن ثم أخذا يولدان ضغطا جديدا لمزيد من وسائل الاتصال . وسارت هذه الضغوط فى اتجاهات مختلفة . أوصل أديسون ابرة الى التلفون وأخذ يدرس امكانيات حفظ ذبذبات الصوت ، أولا ، على لوح من القصدير وأخيرا من الشمع حتى يمكن اعادة استعماله . ووجد مجالات لتطوير اختراعه فى المجالات التجارية والتعليم .

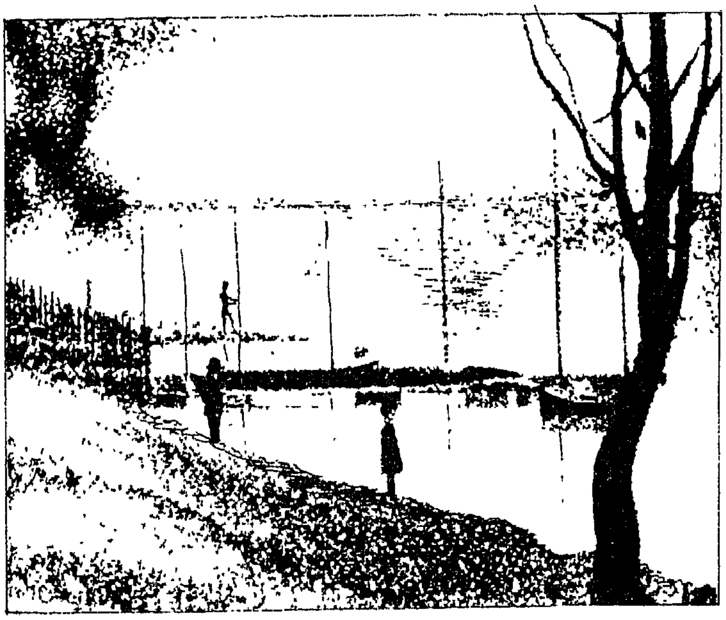

(شكل ١)

وفى عام ١٨٩٦ اكتشف ماركونى أن شفرة التلغراف يمكنها أن تلف حول العالم دون أسلاك او كابلات ، وسرعان ما تمكن الكلام أيضا من الدوران حول العالم . وبدأت التجارب على الموجات اللاسلكية فى كثير من الدول .

الراديو : لم تكن المحطات التى انشئت فى بادىء الأمر للارسال والاستقبال اللاسلكى تهدف الى بث برامج اذاعية للترفيه والتثقيف . كانت شركات الشحن تستعمل هذه الاجهزة لتوجه سفنها المحملة بالموز وغيره الى أسواق مربحة حسب قانون العرض والطلب ، وذلك بالاضافة الى النشرات الجوية . وكان الراديو يستعمل ايضا بين وحدات الجيش لنقل المعلومات والأوامر والتنسيق بين الوحدات فى الدفاع والهجوم . ولكن الحرب العالمية الاولى أبرزت امكانيات الراديو فى مجالات أخرى : عمليات الانقاذ فى عرض البحر ، التجسس ، اكتشاف الهربين ، توجيه الطائرات الى اماكن الرحالة المفقودين ، تبادل الرسائل بين الجزر . ولكن الى ذلك الحين لم يفطن أحد الى امكانيات الراديو الترفيهية ، أو فى اذاعة الأخبار ، أو فى الاعلان والاتصال بالملايين ، الا فى خيال قلة من الناس . وبينما دفعت متطلبات التصنيع والتجارة والانتاج بالراديو فى اتجاه معين ، اتجه بعض الحالمين الى آفاق أخرى .

ففي عام ١٨٧٧ وبعد اختراع التلفون ، نشر أحد رسامى الكاريكاتير رسما عنوانه «أهوال الهواتف» او خطيب المستقبل وهو يزعق فى ميكروفون ليسمع صوته (عن طريق الأسلاك فى ذلك الوقت) فى لندن وباريس ودبلن وجزرفيجى وسان فرانسيسكو وبيكين وبوستون وغيرها من العواصم والمدن الامريكية ومدن العالم كله . وبالطبع لم يأخذ الناس هذه الرؤية الكاريكاتيرية على محمل الجد (شكل ٢) . وكان على العالم أن ينتظر حتى عام ١٩١٢ ، وكان ديفيد سارنوف بجوار جهازه اللاسلكى عندما وصلت أخبار اصطدام السفينة تايتانيك بجبل من الثلج . وفى عام ١٩١٦ ارسل هذا الرجل الى رؤسائه خطابا يقول فيه :

« لقد خطرت لى فكرة استعمال الراديو منزليا ... والفكرة هى جلب الموسيقى الى المنزل بطريق الراديو ... فيمكن تصميم الراديو على شكل صندوق موسيقى مزود بمفاتيح تلتقط موجات مختلفة الطول ، يمكن تشغيلها بالضغط عليها . وهذه الطريقة يمكن استغلالها فى مجالات اخرى وعلى سبيل المثال : الاستماع الى محاضرات فى المنزل ، وستكون فى غاية الوضوح كذلك يمكن بث نشرة عن أهم الاحداث القومية ، كما يمكن لنتائج مباريات البيسبول ان تذاع على الهواء ... هذا الاقتراح سيكون له اهمية خاصة بالنسبة للمزارعين وغيرهم ممن يسكنون فى اماكن نائية .

كانت هذه الافكار نوعا من الأحلام فى عام ١٩١٦ . وحتى فى عام ١٩١٩ عندما تشكلت هيئة RCA لم يكن هدفها « الموسيقى ... المحاضرات ... أو الاحداث القومية » — كلا . كان هدفها هو مراسلات واخبار الشركات الكبرى للانتاج والاعمال التجارية . وتكونت شركات اخرى لمثل هذه الاهداف : جنرال الكتريك ، وستنجهاوس ، أميريكان تلفون آند تلغراف . كان للراديو فوائده فى نقل المراسلات ولكنه اتهم بانتهاك السرية . فقد أخذ الشبان يتسلون به ،

THE DAILY GRAPHIC

39 & 41 PARK PLACE.

VOL. XIII. NEW YORK, THURSDAY, MARCH 15, 1877 NO. 134[illegible]

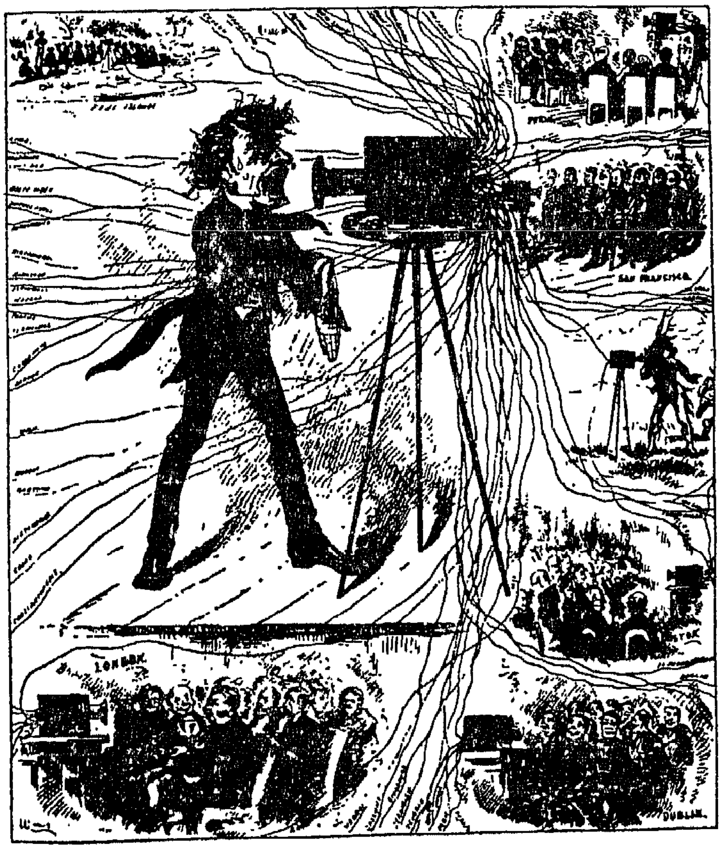

بعضهم يلهو به والبعض الآخر يصنعه . واخذوايستمعون لكل شيء يلتقطونه « من الهواء » بل واخذ بعضهم يشترك فى عملية البث ذاتها .

وكان واحد منهم ، وهو **فرانك كونراد** ،يتسلى ببث رسائله من جهاز ارسال صنعه بنفسه ووضعه فى الجراج ـ محطة ٨ اكس كمن بيتزبيرج لاختبار مدى وقوة الارسال بينما يعاونه صديقه فى مكان آخر . كان كونراد يقرأمن كتاب أو يتكلم بصوت عال أو يضع اسطوانة على الجراموفون ويكرر هذا عدة مرات . ولم يمض وقت طويل حتى أخذ يتسلم رسائل عديدة من مستمعين يوجهون اليه النقد فى اختياره الموسيقى ، ومن آخرين يطلبون اعادة بعض المقطوعات الموسيقية ، وأحيانا كان بعضهم يقترح عليه أسماء بعض الاسطوانات . وساعدت الرسائل كونراد على تحديد مدى جهاز ارساله واخذ يشجعهم بتلبية رغبات **ما يطلبه المستمعون.**

وانتشرت أجهزة الراديو ، واشترى الناس منها الآلاف بملايين الدولارات بين عامى ١٩٢٠ / ١٩٢١ ، ولم تستطع مصانع الراديو تلبية كل الطلبات . وزاد عدد محطات الاذاعة وساعات الارسال ، ولكن محطات الاذاعة حتى ذلك الوقت لم تفكر فى بيع أوقات للبث للدعاية التجارية والاعلانات ، مع أنها انشئت فى باديء الأمر بهدف تجارى . فقد كان فى استطاعة اى محل تجارى أو فندق أن يشترى جهاز ارسال متواضع وبعض الاسطوانات ، ويضعه مع مكبر فى حجرة صغيرة ، ثم يزرع هوائيا للبث فوق السطح ليشارك فى هذه اللعبة الظريفة المربحة . وما عليه سوى أن يوظف فنيا لصيانة الجهاز وتشغيله وتشغيل الاسطوانات وقراءة الأخبار ، وربما يستضيف أحد الهواة ليقرأ قصيدة أويحكى قصة . كانت الاذاعة غير رسمية ومفتوحة تماما كالصحف الاولى التى تحدثنا عنها .

كان الاستماع يجرى دون تنسيق . وافترضت كل محطة من المحطات ان المستمعين يجلسون بجوار جهاز الاستقبال يعبثون بمفاتيحه وينتقلون من محطة الى أخرى . ولم تعبأ أى محطة بالاهتمام بالبرامج أو بمواعيد الارسال . كان كل مذيع يأمل أن يشد انتباه مستمعيه الذين يجوبون الفضاء يتنصتون على محطته . ومن وسط الضوضاء المنبعث من الراديو والتشوش والتداخل وضعف الصوت وأحيانا تلاشيه ، قد تنشأ علاقة صداقة بينه وبين جمهوره . وربما ، فى يوم ما ، وبعد شهر ، قد يصل مسافرفى اجازته الصيفية ليقف بسيارته امام هذا الفندق أو ذلك المتجر ويدخل على صاحبه منفرج الاسارير ليقول له « لقد التقطنا محطتكم عدة مرات فى الشتاء الماضى وقد حضرت الآن لأقول لكم هالو ! »

وانتشرت محطات البث الاذاعى ، وارتفعت هوائيات الارسال من وكالات بيع السيارات ، والادوات الزراعية والناشرين واصحاب المصانع والبنوك ومحلات بيع الملابس والاثاث المنزلى والمطاعم والمسارح ومنتجات الألبان . ودخلت الجمعيات الدينية فى هذه المنافسة ، ألم يقل السيد المسيح (لوقا ١٢ / ٣)

« لذلك كل ما قلتموه فى الظلمة يسمع فى النور وما كلمتم به الأذن فى المخادع ينادى به على السطوح . »

وبدأت الجمعيات والمؤسسات التعليميـــةفى انشاء محطاتها على أمل أن يشد الراديو انتباه الجيل الجديد بعيدا عن التفاهات التى كانت تذاع . وبدأ البث التعليمى فى الكلية والجامعة بحماس فى بادىء الأمر على أمل أن يحضر بعض الاساتذة الى الاستوديو لالقاء محاضرة ، ولكن الحماس فتر فيما بعد . كذلك واجهت المحطات التجارية بعض المشاكل ، فقـد أصـدر اتحاد المؤلفين والملحنين والناشرين والمغنين فى أمريكا عام ١٩٢٢ تحذيرا : من الآن فصاعدا على محطات الارسال أن تدفع عن حق الاداء العلنى . وكان لزاما على كل محطة أن تحصل من الاتحاد على ترخيص سنوى بعد دفع مبلغ معين .وتذمـر أصحاب المحطات ولكن الاتحاد كسب القضية . لهذا أعلنت محطة WEAF فى نيويورك عن بيــع وتأجير زمن الارسال ، وفعلا بدأت ببيع وقت البث للاعلان عن بيع أراض للاستثمار فى لونج آيلاند . وانتشرت هذه الفكرة مما حدا بوزير التجارة هربرت هوفر الى توجيه النقد « لهـذا الجهاز التعليمى العظيم » لأنه انحرف عن رسالته السامية بالترويج للبضائع والسلع ، ولكن دون طائل . وبينما كان يعلن ذلك ، وبطريق الاذاعة والراديو ، كانت هذه الاجهزة الاعلامية ذاتهـــا تبيع أوقات البث للاعلان عن معجون الأســـنان والسيجار والســـجائر والحـــلويات واللبان .

الراديو والاعلان : كان الاعـــلان الاذاعى هادئا فى بادىء الأمر ، ولكن ذلك الحال لم يدم طويلا . وبدأ بعض المذيعين فى تطوير أسلوب مميز صاحب الترويج لبضاعة معينة ، وتوصل بعضهم الى أسلوب يتميز بالهمس والالفة والمودة (مازال هذا الاسلوب يستعمل الى يومنا هذا) حـــتى أصبحوا أصدقاء للملايين . وأصبحت الاعلانات جزءا لا يتجزأ من حوار الناس اليومى كبـــارا وصغارا . وتعددت وسائل جذب المستمعين :المستمع الذى يرسل غطاء علبة المنتوج الفـــلانى ومعه اسمه وتاريخ ميلاده سيقرأ له المنجـــم المشهور فلان الفلانى طالعه فى الراديو . وبدا الاستماع للراديو يتخذ نمطا جـــديدا . كف المستمعون عن العبث بمؤشر الراديو من محطـــة لأخرى على غير هدى ، وبدأوا فى تطوير علاقات ولاء لبعض المحطات ، وأصبح بعض المـــذيعين والمغنين من المشـــاهير — وظهر اصطلاح « معبود الجماهير » فى الراديو كما ظهر فى السينما . وصار لهذه الوثنية الجديدة وترويجها قيمـــة تجارية . وتأسست شركة NBC عام ١٩٢٦ ومن بعدها شركة CBS عام ١٩٢٧ وعن طريق شبكة كل واحدة منهما كان يمكن الاعلان فى عدة محطات فى وقت واحد فى صفقة واحدة مع الشركة الأم .

وفى ســـنوات الكساد اختـــفى الثودفيل والمسرح الترفيهى والغنائى ، وفى عديد من المدن أفلست الشركات المسرحيـــة واقفلت النوادى الليلية وقلت الحفلات الموسيقية . ولكن مـــاذا حدث للراديو ؟ كان الناس الذين اختفوا مـــن المسارح والنوادى والحفلات فى منازلهم يستمعون للراديو . والعائلات التى فقدت سياراتها لمـــا توقفت عن دفع الاقســـاط ، وكذلك أقســـاط الثلاجة أو المكنسة الكهربية وبعض قطع أثاث المنزل — وربما توقفت عن شراء مقرراتها اليومية من لبن وزبد — واصلت دفع أقساط الراديو . **كان الراديو وسيلتها للاتصال بالعالم الخارجى ، بالبشر .**

كان أكبر دليل على قوة الكلمة المذاعة ماحدث فى انتخابات الرئاسة ، فقد كانت معظم الصحف تعارض انتخاب روزفلت ، ولكنه فازعلى خصمه هربرت هـــوفر ، ويقـــال ان فوزه

بالرئاسة يرجع غالبا الى تمكنــه من استغلال الاذاعة . وكان لظهور هتلر فى المانيا ما يؤكد من جديد قوة الاذاعة والراديو وفعاليتها فى التـأثير على الجماهير العريضة .

يقول مارشال ماكلوان :

« لم يكن من باب الصدفة ان السناتور ماكارثي لم يمكث سوى فترة قصيرة بعد أن لجأ الى التلفزيون (بدلا من الصحافة) . ولم تدر الصحافة ولا ماكارثي بما حـدث . التلفزيون وسيلة اعلام باردة . انه يرفض الشخصيـات الساخنة والقضايا الساخنة ورجال الصحافة الساخنة ... لو كان التلفزيون منتشرا علىٰ نطاق واسع أيام حكم هتلر لاختفى هتلر بسرعة . ولو ظهر التلفزيون أولا (قبل الراديو) لما كان هناك هتلر ابدا . وعندما ظهر خروتشوف على شاشة التلفزيون فى أمريكا كان مقبولا أكثـر من نيكسـون ، كمهرج ورجل ظريف . لقد أظهـره التلفزيون ككرتون مضحك . أما الراديو فهـو وسيلة اتصال ساخنة وتأخـذ الشـخصيات الكارتونية بجد . ان مستر خروتشوف فى الراديو سيكون موضوعا آخر . » (٤)

مع كل هذا لم يستطع الراديو أن يجتذب الجميع . ومع تزايد عدد الزاعقين والهامسـين من المذيعين ، والاغانى الاعلانية ، والمسلسـلات الصباحية وبرامج الاطفال العنيفة ثم مسلسلات الجريمة والعنف والرعب والغموض ، وبعد ذلك المسابقات والفوازير وجرب حظك وسين جيم الخ ، أصبح الراديو وبرامجه هدفا للنقـد بل والسخط والاحتقار . ولم يكترث معدو البرامج ولكنهم شعروا بنوع من القلق . وفى عام ١٩٣٠ اتخذت مجالس محطات الاذاعة الكبرى لنفسـها برنامجا حازما والتزمت بقواعد معينة وزادت من مصروفاتها على البرامج التعليمية والتثقيفية لصالح الجمهور . وكانت هذه الأنشطة المتعددة لا تكفلها شركات تجارية ، ومنها الاوركسـترات السيمفونية والمسرحيات الكلاسيكية والمسلسلات الوثائقية والندوات والمناظرات والأخبار العالمية وبرامج اذاعية أخرى خاصة . ومن جهة أخرى نشأ خلاف بين الصحافة والمحطات الاذاعية للحد من مدى المسموح به لمحطات الاذاعة فى تغطيـة الأخبار المحلية والعالمية .

ولما بدأ هتلر فى تهديد أوروبا أمكن لبرامج الاذاعة ان تشد انتباه عدد كبير من المستمعين زاد مع نشوب الحرب العالمية الثانية . ومع الانتاج الحربى فى امريكا فرضت الحكومة ضريبة على الدخول والارباح العالية للشركات بلغت ٩٠٪ وكنتيجة لذلك اخذت هذه المؤسسات تصرف مبالغا ضخمة ، كان من المفروض ان تدفـع كضرائب ، على الاعلان الحضاري حتى تظل اسماء هذه الشركات حية فى اذهان الناس لفترة ما بعد الحرب ، عندما تبدا هذه الشركات فى العـودة الى انتاجها المدني . وتبارت هذه المؤسسات فى احتضان هذه النشاطات الثقافية وكفلت هذه المؤسسات فرقة السيمفونية وفرقة نيويورك فيلهارمونيك اوركسترا . وبدا الادباء والشعراء يقتحمـون استوديوهات الاذاعة بمسرحيات شعرية وعلى راسهم ارشيولد ماكليش وستيفن فينسبنت . وحظي الراديو بمكانة ادبية مرموقة منذ نهايـة الحرب العالمية الثانية .

---

(٤) Understanding Media. p. 299.

ثم جاء التلفزيون : كان التلفزيون في خلفية الصورة والراديو يواصل تقدمه ، اولا ، كمجرد فكرة ، وبعد ذلك كجهاز في مختبر او معمل . ومع نهاية العشرينات اجريت عليه تجارب كثيرة وبدا البث التجريبي في اوائل عام ١٩٣٦ في استوديوهات كئيبة كان على الممثلين والممثلات فيها وضع احمر للشفاة ، كما حتمت المشاكل الفنية ، بلون ارجواني ! وبدا الارسال عام ١٩٣٩ وسرعان ما توقف لاندلاع الحرب وتحولت المصانع للانتاج الحربي للاجهزة الالكترونية . وظل التلفزيون حيا حبيسا لفترة . وبعد الحرب ، وكان التقدم العلمي قد قفز خطوات كبيرة نحو تحسين الارسال والاستقبال ، خرجت شركة آر سي ايه بجهاز يقلل الحاجة الى الاضاءة الشديدة في الاستوديوهات وبالتالي من الماكياج المرعب للممثلين والممثلات ومن درجة الحرارة العالية . وكانت الحانات والبارات اول من روج للتلفزيون ومن بعدها جمهور المشاهدين . وفي يوم وليلة اصبح التلفزيون هو الوليد المدلل ، يتدافع اصحاب الاعلان للوصول الى الجماهير عن طريقه .

وارتفعت هوائيات اجهزة التلفزيون في كل مكان ، كما اعيد تصميم حجرات المعيشة واحتل التلفزيون مكانا مرموقا في المنزل كانت تحتله فيما مضى المدفأة التي تلتف حولها الاسرة التماسا للدفء واستعدادا للسمر . وبدخول التلفزيون ظهرت طاولات متحركة تحمل صواني العشاء (التلفزيوني) المجهز سلفا ، وظهرت في الاسواق وجبات جاهزة ، هذا بالاضافة الى اجهزة اخرى مكملة له كالفيديو والشرائط المتنوعة وشاشات التكبير والهوائيات بهوائياتها التي توجهها لالتقاط برامج من محطات نائية .

وانزعج المعلمون والمربون . ففي احصائية ظهر ان بوليس مدينة نيويورك قد رصد (في اسبوع واحد في يناير عام ١٩٥٣) ما وصل الى ٣٤٢١ اعتداء او تهديدا بالعنف ، بمعدل ١٥ اعتداء في الساعة اثناء فترة عرض برامج العنف والجريمة في التلفزيون . لكن ازدهار التلفزيون استمر ومعه الاستماع الى الراديو . وكان يعتقد ان الراديو والتلفزيون سيعملان على الاقلال من حب تعلم القراءة والكتابة ـ ولكن الذي حدث ان الراديو والتلفزيون ـ بعرضهما لاعمال ادبية ـ زادا من بيع الكتب والاقبال على اقتنائها . وكان الاعتقاد السائد في بادىء الامر هو ان نشرات الاخبار في الاذاعة والتلفزيون ستقلل من اهمية قراءة الاخبار في الصحف ولكن الذي حدث هو انها حفزت الناس على مطالعة الجرائد طلبا للمزيد منها . وازدهرت مجلات الاذاعة والتلفزيون مع ازدهار هذه الوسائل الاعلامية الجديدة ، كما ساعد التلفزيون هوليود على الازدهار بعد فترة ركود قصيرة .

ما ان انتصف القرن الا واصبح من الواضح ان كل وسيلة للاعلام ـ راديو ، تلفزيون ، مطبوعات ، مسرح ، سينما ـ تعمل على اثراء وزيادة مبيعات زميلاتها . ففي الولايات المتحدة كان اكثر من ١٠٠ مليون يذهبون الى السينما كل اسبوع ، وكان الامريكيون يشترون الكتب بمعدل ٧٥٠ مليون كتاب في السنة ، ويوزع اكثر من ٣٫٥ مليون نسخة من الدوريات ويقال ان كل رجل وامراة وطفل في امريكا كان يستهلك اكثر من ٥٠٠ رطل من الورق في العام . وكان التلفزيون يشد انتباه المشاهد لمدة ثلاث ساعات يوميا في المتوسط .

الاعلان : دعونا نلقي نظرة على اعلان قديم ظهر فى ١٦ يناير ١٧٨٩ فى مجلة NEW YORK DAILY ADVERTISER يقول الاعلان :

اصواف امريكية

وصلتنا حديثا من مصانعنا فى هارتفورد بعض قطع الاجواخ الفاخرة التي يمكن الحصول عليها باسعار معقولة من جليرت افرنجهام ، رقم ٤٤ شارع واتر — فى لونين مدخن ورمادي .

وقد يبدو هذا الاعلان لاول وهلة لمصمم الاعلانات الحديث ساذجا بسيطا يخلو من عناصر شد الانتباه او اثارة المشاعر . ولكن اذا وضعنا هذا الاعلان الساذج البسيط فى اطار حضاري كبير فلن يغيب عنا سره : **لقد كانت الاقمشة الصوفية الفاخرة نادرة فى ذلك الوقت** . لم يكن الانتاج بالجملة قد ظهر الى حيز الوجود . وعلى مدى العصور كان الطلب دائما اكثر من العرض الى درجة ان المشتري هو الذي كان دائما ينشد البائع ، ولم تكن البضائع او السلعة هي التي تبحث عن مشترين لها ، لهذا لم يكن من الضروري لصاحبنا جلبرت افرنجهام ان « يزعق » معلنا عن « اجواخه الفاخرة » فى راديو او فى تلفزيون . فمجرد وجود البضاعة لديه كان فى حد ذاته اعلانا كافيا له . فبعد قراءة هذا الاعلان ارسل جورج واشنجطون رئيس الولايات المتحدة الى احد الجنرالات فى نيويورك يطلب منه شراء مايكفي من هذا القماش لصنع بدلة له حالا ، « وفيما يختص باللون فسأترك ذلك لذوقك » . كان من الممكن لتاجر الاقمشة فى عام ١٧٨٩ ان يعرف وبسهولة النتائج التي سيجلبها اعلانه الذي دفع فيه ٣ شلنات . أما المنتج فى العصر الحديث فيدفع خمسين الف دولار لاعلان ملون فى احدي المجلات وهو غير متأكد من النتائج . وبالرغم من ذلك عليه ان يواصل الاعلان عن منتوجه اذا اراد لبائعيه المتجولين الحصول على عقود بيع من المشترين .

الى الان يتحير اصحاب المشروعات الصناعية الكبرى عندما تزيد مبيعات سلعة من السلع بشكل ملحوظ بينما تظل اخرى كاسدة . هل العيب فى السلعة ذاتها ؟ ام فى الاعلان ؟ هل يصل الاعلان الى المشتري الخطأ ؟ هل تعني السلعة لبعض المشترين مالا تعنيه للاخرين ؟ وتساوي الاجابة عن هذه الاسئلة الملايين . ونرى صاحب المشروع يلجأ الى عالم الاجتماع ويحصل منه على معلومات عن هذا القطاع من المجتمع — ماذا يسمع ويشاهد ويقرأ ويشتري ويفضل الخ . ليستغل كل هذه المعلومات ، ولكنه يريد ان يعرف المزيد فتراه يذهب الى عالم النفس ، الى الدوافع المحركة الى سيكولوجية الفرد يسبر اغواره . وفى النهاية نجد ان صاحب العمل يحاول الاتصال بجمهور لايراه ، وندرك ان مشاكل الاتصال فى تزايد مستمر ، تنمو مع نمو الانتاج الضخم .

وكما ان لوسائل الاتصال المختلفة اهميتها فى توزيع السلع والمنتجات ، فان لها اهمية اخرى وهي نشر الافكار والتشجيع على تداولها . ان وسائل الاتصال تعتبر امتدادا طبيعيا لانشطة الثورة الصناعية . ومن اهم ملامح وسائل الاتصال عامة .

١ ــ كمية الانتاج : من كلمات وصور واصوات .

٢ ــ التوزيع الجغرافي الواسع : ولا فائدة للانتاج الضخم بدونه .

٣ ــ منافذ اسواق التجزئة : محطات التلفزيون والراديو ، الصحف والمجلات . المسارح . المكتبات، النوادي، المدارس، ومن خلالها تغازل وسائل الاتصال الجمهور وتخطب وده. عندما كان القماش غالي الثمن فى الماضي كانت الكتب كذلك نادرة . وكان الناس يبحثون عن الكتب ويقراونها بنهم ، اما اليوم فعلى السلعان تعثر على المشتري وتبحث عنه وعلى الكلمة ان تبحث لنفسها عن قارىء . ويتزايد الانتاج الضخم وتنوعه زادت مشاكل الاتصال حتى بين الافراد فى عالم كثرت فيه وسائل الاتصال وتنوعت . ولا ادل على أهمية الاتصال **حتى** بين **الأفراد** من ظهور كتاب ديل كارنجي **كيف تكسب الاصدقاء وتؤثر فى الناس** . (٥)

٢ ــ الاتصال : كيف ؟

قدمنا بايجاز شديد صورة لتاريخ وسائل الاتصال ، وهي ثمرة لملحمة الثورة الصناعية ، وقصة الاجيال التى طورت وسائل الانتاج الضخم للكلمات والصور والاصوات ونجحت فى توصيلها لاكبر عدد ممكن من البشر على هذه الكرة الارضية . وقد يكون عدد المستقبلين كبيرا أو صغيرا لا يتعدى المائة . ومن بين من نجحوا فى الاتصال بأعداد قليلة كثيرون كانوا يأملون فى الوصول الى اعداد اكبر ، ولكن هناك فئة اخرى، قليلة ، كانت تحاول الاتصال بمجموعة صغيرة وذلك لهدف معين ، فهناك احيانا اسباب قوية تدعو للاتصال باعداد قليلة معينة . ومع ذلك يظل الهدف المنشود هو الوصول الى اعداد كبيرة .

ويذهب بعض من حاولوا الوصول الى جمهور عريض وفشلوا الى انك لا تستطيع الوصول الى هذا الجمهور الا عن طريق المبتذل والرخيص ــ ولكن تاريخ الاتصال الجماهيري لا يثبت ذلك بالدليل القاطع . فاذا كان كتاب الشيخ The Sheik (٦) من اكثر الكتب رواجا فى العشرينات فكذلك كان كتاب موجز التاريخ The Outline of History للمؤلف هـ.ج ويلز H. G. Wells واذا كان فيلم **الحب يغزو قلب آندى هاردى** Love Finds Andy Hardy قد اكتسح الافلام الاخرى فقد حقق الفيلم التاريخ **حياة أميل زولا** Life of Emile Zola نجاحا منقطع النظير فى الثلاثينات . واذا كان كتاب **صدق أولا تصدق** Believe it or not أحسن كتاب للجيب فى الاربعينات فكذلك كان كتاب الجيب لمجموعة القصص القصيرة Pocket Book of Short Stories

---

(٥) Carnegie Dale : How to Win Friends and Influence People, New York, 1936.

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٦ وتصدر منه طبعات جديدة تباعا آخرها عام ١٩٧٨ .

(٦) صدر عام ١٩٢١ والتجته هوليود ، ومن بعده فيلم ابن الشيخ The Son of the Sheik **ولعب رودولف فالينتينو الدور الرئيسى .**

واذا كان جاكي جليسون Gleason من نجوم التلفزيون فى الخمسينات فكذلك كان موريس ايفان Maurice Evans فى أدواره التلفزيونية فى **هاملت ومكبث لشكسبير**.
واليوم اذا كانت افلام بوني ام والسوبرمان ودراكولا محببة الى نفوس الصغار والكبار فكذلك نرى اهتماما بالافلام الوثائقية والتسجيلية وحلقات **تقدم الانسان والحرب السرية والحرب العالمية الثانية** (وكلها عرضت على شاشة تلفزيون الكويت) ؛ هذا بالاضافة الى رواج كتب الدين والتراث والحضارة والتاريخ . ان تاريخ وسائل الاتصال يؤكد لنا ان الاصالة والجدية ليستا حاجزا يمنعنا من الاتصال بشرائح عريضة من الجماهير .

والان آن لنا ان نسأل ، ما الذي يشد الجمهور ؟ ما هو السر الذي يجعل الناس تحرص على شراء كتاب معين او الالتفاف حول جهاز التلفزيون ؟ هل هو الترفيه والاسترخاء بعد عناء يوم عمل شاق طويل ؟ واذا كان الترفيه او الترويح عن النفس هو السبب — فما هو الترفيه ؟ ما هي التسلية ؟ ولماذا نقول « لمجرد الترفيه والتسلية » ؟ فالام التي تنادى على ابنها خمس أو ست مرات ليترك كتاب الرسوم المتحركة وميكي ماوس وسوبرمان ليأتي لتناول عشائه ، والتي تكون قد نادت على زوجها اربع مرات ليترك مكانه أمام التلفزيون وهو يشاهد ممثله الكوميدى المفضل أو مباراة فى كرة القدم قبل أن يستمع لندائها ، والتي ترى ابنتها تبدد مصروفها أسبوعا بعد اخر على مشاهدة الافلام السينمائية لدراكولا مصاص الدماء او فى شراء الكاسيت ، والتي هي ذاتها — الام — ولمدة شهرين كانت تتبع مسلسلا فى الراديو ، هي تؤدى اعمالها المنزلية ، وربما ذات مرة تركت الدجاجة فى الفرن تحترق وهي لاتدرى . هذه المرأة تعلم جيدا ان القوة التي تشدهم جميعا لوسائل الاتصال هذه كلها لايمكن ان يطلق عليها انها « مجرد » وسائل للترفيه . انه احساس يصل أحيانا بالفرد الى حد « الالزام » ، « القسر » أو « الاكراه » . ولا يمكن بأى حال من الاحوال اعطاء تفسير « معقول » لهذه القبضة الحديدية التي تمارسها القصة الجيدة او البرنامج او الفيلم الجيد على المشاهدين او القراء الا باللجوء الى تفسيرات علم النفس ونظرية العقل الباطن واللاشعور . فيقول علماء النفس ان الاحباط يبدأ مبكرا ولا تتلاشى الرغبات المكبوتة ولكنها تختفي في العقل الباطن وتظل فيه كشحنة او طاقة تنتظر الانطلاق مالم تروض أو تشبع . وتراكم الاحباطات ، كما يقول فرويد ، يولد ضغطا هائلا قد يؤدى الى مخاطر يراها عالم النفس فى الاحلام المزعجة عندما يغفو الرقيب الواعى وتتسلل هذه الرغبات المكبوتة الى السطح . ونتغلب على الاحباط بقدرتنا على التخيل ، وهو نوع من التصنع والتظاهر ، ومن هنا تكون جرثومة الفنون والاداب والاشباع الذى يأتي عن طريقها . فالتخيل أسلوب معالجة عن طريقه نحيد الاحباط وننفس عن المكنونات ، صمام أمن يخفف ضغوط الكبت الى حد ما . والتخيل او التصنع هذا أسلوب جيد ، ان نجح ، أما اذا فشل فقد يؤدى الى نتائج عكسية ففي المستشفيات العقلية كثيرون يعيشون فى هذه العوالم الخيالية ، عوالم ذهبوا ليعيشوا فيها الفترة ولم يستطيعوا العودة منها . التخيل او التقمص لا بأس به ، ولكن بقدر فمثله مثل الكبت ، لا هو صالح تماما ولا هو ضار تماما .

الاتصال والتقمص : Communiction & Identification

يمكن للتقمص أن يعمل كصمام الأمن الذي يتم عن طريقه تصريف بعض من الكتب المتولى والعواطف المحبوسة . والكلمة المكتوبة والأفلام السينمائية والتلفزيونية والبرامج الإذاعية هى **المفتاح** الذى يفتح أبواب العواطف ، أما العواطف فهو فرهنا الجمهور من مستودعات عواطفه الخفية . اذا بكى المشاهدون ، فانهم لا يبكون من أجل البطل أو البطلة ، بل من أجل أنفسهم (قارن أرسطو ونظرية التطهر فى المأساة) ، وإذا ضحكوا فهم لا يضحكون لأن البطل قد تخلص من توتره وتعادل الضغط خارجه وداخله ، بل لانهم تخلصوا من توترهم . من هذا نرى أن النجاح الذى يحققه عمل فنى معين يجب ان يعكس بطريقة ما تلك الصراعات الموجودة فى العقل الباطنى لاعداد كبيرة من الناس .

وهنا نتساءل: ما هى الهواجس التى تستبد بمعظم الناس ؟ ونجد ان أولها **المحظورات** ، ويعتبر الوالدان اول مصدر لهذه المحظورات التى تتشكل فى السنوات الأولى من نمو الطفل . وقد تتراكم المحظورات حتى يصبح الأب - مثلا - رمزا لهذه المحظورات وفيما بعد قد يحل رجل الشرطة او المدرس او الرئيس المباشر فى العمل محله ، وتتحول اليهم بالتالى كل نزعات الفرد العدوانية . وقد تجد هذه النزعات العدوانية لنفسها مخرجا فى الرياضة العنيفة او فى الهوايات او فى العمل ويظل الفرد مسيطرا عليها . ويقول لنا علماء النفس ان هناك عددا كبيرا من الناس يظل نهبا لهذه الصراعات الداخلية التى تفصح عنها اللغة فى بعض المواقف عندما نسمع : « لقيه رذيجنى يا رجل » ، « انه يقتل القتيل ويمشى فى جنازته » ، « هذا الممثل موتنى من الضحك » ، « لقد قتلت الموضوع بحثا » . فعندما بدأت جريدة Sun فى نيويورك فى عام ١٨٣٣ فى تقديم صورة حية لمحاكمات المجرمين من قاعة الجلسة — ممثل الادعاء ، الدفاع ، الشهود ، المحلفين — زادت مبيعاتها بشكل ملحوظ واستجاب الاف من القراء لها . وعندما بدأت السينما فى أيامها الاولى — أفلام تشارلى تشابلن خاصة — فى عرض الصراع القائم بين الشرطى والمتمول ، أو العسكر والحرامية ، لاقت نجاحا منقطع النظير ما زلنا نلمح استمراره الى الآن . وعندما أذيعت دراما الروايات البوليسية فى الراديو وجدت الملايين تتابعها بشغف . وهنا قد يخطر ببالنا سؤال : مع من توجد المشاهد ؟ اى شخصية تقمص ؟ المجرم ، ممثل الادعاء ، الشرطى ، المتمول ، القاتل ، القتيل ، القاضي ؟ سؤال محير . ولكن من الممكن للمشاهد او المستمع ان يتقمص اى شخصية حسب تركيبه النفسى ، وقد نجد اجابة مرضية فى بعض كتب الاطفال او فى افلام الصور المتحركة عندما يتقمص الاولاد شخصية حيوان — فيل (جامبو) ، كلب (اجو) ، كلبة (لاسي) ، غوريلا (كنج كونج) . وهكذا ليس هناك قاعدة ثابتة لهذا التقمص . المهم فى العمل الفنى ان يشد انتباه جمهور كبير عن طريق معالجة صراعات عاطفية مشتركة بطريقة مرضية .

وثانيها : **القوة المطلقة** ، ويحس بها الطفل بعد ولادته عندما تلبى كل طلباته . ولكن سرعان ما يضعف هذا الاحساس ويلجأ الطفل الى استعمال اشارات صوتية وحركات لجذب الانتباه وعندما يزداد وعيه بما حوله يزداد احساسه بعجزه ويدرك ان من حوله قادرون على الأداء ولديهم القوة لفعل اى شىء . فوالده يرفعه وينقله من مكان لآخر ويوفر له العديد من الطلبات .

ويكبر الصبي ويحس انه على ابواب تحقيق حلم، ويكتشف فجأة ان الاب ليس لديه قوة مطلقة، فما هو الا صورة لما رسمه الطفل فى ذهنه له منذ نعومة اظفاره . ويبدأ الطفل فى كراهية والده فى عقله الباطن ، ويصير الطفل رجلا وابا وتستمر الدورة التى تتأرجح بين العجز والقوة وتكون هاجسا آخر يتطلب (كهاجس المحظورات) متنفسا نراه فى معظم ابطال المسلسلات والافلام الذين لا يخطئون ابدا ، فنراهم فى الرجل الخارق الذى لا يقتل ابدا وينتصر على اعدائه دائما (لاحظ المسلسل الكارتونى **الرئيس الخارق** وفيلم **سوبرمان** الذى عرض مؤخرا فى الكويت) .

وتنتابنا ونحن نشاهد مثل هذه الافلام عواطف متباينة ـ اعجاب واشمئزاز فى ان واحد وهى من علامات التضوج العاطفى ، وقد لا يكون اعجابنا بالرجل الخارق لقوته البدنية ، بل لقوته الذهنية ، لذكائه ، ولهذا قد نجد بطلنا الخارق فى شرلوك هولمز أو فى كولومبو او فى كوجاك وحاليا فى الصحفى فى مسلسل الهدف . وهذه القوة المطلقة هى التى تدفعنا للتجاوب مع بعض الاعلانات : السجائر ، سيارات السباق ، الملابس الفاخرة ، الحبوب المقوية وربما التدليك وحمامات سونا والبخار .

وسائل الاتصال الجماهيرية هذه التى تستطيع تسخير هذه الطاقات المكبوتة الهاجسية التى تستبد بالفرد فى استطاعتها خلق ابطال بين يوم وليلة ـ ابطال فى السياسة وفى الصحافة وفى الفن وفى السينما وفى المسرح . ففى داخل الانسان تكمن قوى خفية تدفعه دائما الى البحث عن بطل ، عن قائد ، عن مخلص يستطيع أن يحمل عنه عجزه ليتصل به الى بر الامان والارض الموعودة فعلها هتلر عن طريق ابواق دعايته وعلى رأسهم جوبلز . واذا كان لوسائل الاتصال ان تخلق ابطالا بين يوم وليلة ، ففى استطاعتها كذلك ان تحطمهم فى غمضة عين . واكثر من نجم سينمائى انطفأ بريقه فجأة واكثر من بطل طواه النسيان ، لان هذا النوع له اقدام من خزف ، لان هذا النوع ظل حيا فى لا وعى الجمهور طالما هو مرتبط بامالهم ، وطالما ظلت هذه الامال حية يستمر تعلقهم به . فقوة هذا الهاجس كقوة هاجس المحظورات ، يمكن ان تعمل على مستوى الحب او مستوى الكراهية .

وثالثها : **الاحساس بالامن والطمأنينة** ، فمسلسلات اللقطاء والهاربين والمطاردين والمتسكعين والمتسولين والحروب التى تزعزع الطمأنينة وتهدد الاستقرار فى نفس الفرد وبين افراد الاسرة والمجتمع الواحد هى الاخرى سلاح ذو حدين . ويستغلها أصحاب الاعلانات التجارية فى الغرب للترويج لبضاعة معينة ولتكن العطور مثلا او مستحضرات التجميل ـ وكأن الاعلان يقول للمشاهد ومن طرف خفى : اذا اردت ان تكون كالاخرين فاستعمل هذه الكولونيا ـ فالاعلان يهدد استقرار المشاهد من هذه الناحية على أمل أن يسارع المشاهد بشراء هذه الكولونيا . ويحاول مصمم الاعلان ان يجعلك تحس بالخزى والعار ان انت لم تستعمل هذا الرشاش (لمزيل رائحة العرق) وانت فى المكتب ، وانت فى الباص الخ . الا يحسن بنا مثلا ان نعلن عن فوائد النظافة بوجه عام كالاستحمام او الوضوء قبل الصلاة .

هذه الهواجس ـ ومنها الموت ، المرض ، الخوف من الجرائم ، الشيخوخة ، الفاقة ، العوز ، الفقر ، كبر السن (مع ظهور التجاعيد ، خاصة عند السيدات) ـ وهى التى تساعد عند اثارتها فى الفرد على بيع بوالص التأمين على الحياة ، والمضاربة وفوائد البنوك وتنشيط الحملات

الانتخابية وبيع المبيدات الحشرية والمطهرات والكريمات واجهزة الرشاقة وحبوب الفيتامينات. والصابون ومساحيق الغسيل . فالنضال ضد الاحساس الغامض بعدم الاستقرار اهم بكثير عند معظم الناس من النضال ضد الوسخ والقذارة . والمعلن عن الصابون ـ سواء المستعمل فى الحمام او فى الغسالة يعرف ذلك جيدا ويستغل معرفته باستغلال الاتجاهين : الخوف من الوسخ ـ الاحساس بعدم الاستقرار والقلق . ومعظم الاعلانات تدور حول الحمام (النظافة لابعاد شبح المرض او الموت) والمطبخ (الطعام عماد الحياة ضد الموت) (حرية التنقل والحركة) .

قد يستطيع كثير منا ان يرى هذا البحث اللارادى عن الطمأنينة والاستقرار كسبب من اسباب نجاح رواية او مسرحية او مسلسل تلفزيونى او فى اجتماع دينى ، ولكنهم قد يجدون صعوبة فى ادراكه فى عمل كوميدى كالذى يعرض فى تلفزيون الكويت ـ القافلة المرحة او مسلسل الامهات ـ ويعتقد ان من يشتغلون بالضحك واضحاك الجماهير تنحصر مهمتهم فى التسلية والترويح . ولكن علماء النفس يقولون لنا ان النكتة والموقف الكوميدى لهما جذور فى اللاوعى ، وان الضحك على أنفسنا صمام أمن ضد الاحباط ، وشر البلية ما يضحك ، فالضحك عكس الاحباط ، ومواقف الكوميديا الناجحة والهزلة مماثلة التراجيديا . وعلى سبيل المثال : الاقلام التى تعرض للتسلية على شاشات الخليج ، وهى مقتطفات من الافلام الصامتة القديمة Laff-a-bits الذي نراه فيها يتأرجح على حافة سطوح منزل وهو على وشك السقوط يجعلك تنفجر من الضحك ولكننا نصرخ جزعا من الخوف اذا ظهر نفس المنظر فى فيلم بوليسي او فى فيلم مأسوى . فالعواطف والانفعالات المبذولة فى الحالتين واحدة . ويحلل ماكس ايستمان فى كتابه **الاستمتاع بالضحك** كيف ان الاحباط الناجح للاحباط يبدد الاحباط فى تلك الثوانى التى نستمتع بالنكتة او الموقف الكوميدى فيها ، ويؤكد لنا ذلك فرويد (٧) فى كتابه **النكت واللاوعى**، فقبل الانطلاق التشنجى لما نطلق عليه « الضحك » يحدث ما يلى اولا : نتهيأ نفسيا لاستقبال شيء ما . ثانيا : ونحن نحاول الوصول الى ما نريد نجد انه اختفى ليحل محله شيء اخر لا نتوقعه . والى هنا ونحن نسير على الدرب المألوف الذى يوصل للاحباط . ولكن فى اللحظة التى يتم فيها هذا الابدال نلاحظ شيئا : ان البديل يحمل مفاجأة لنا ، عبارة عن جائزة ، مكافأة . ونجد ان هذه المكافأة افضل مما كنا نريد الوصول اليه ، وفى لحظة الاحباط نجد ما يعوض خسارتنا بما هو افضل. **فالنكتة اذن تحرر من الكبت ، ومن التوتر .**

ان نجاح وسائل الاتصال يعتمد فى المقام الاول على قدرتها على استغلال عواطف الانسان الكامنة وانفعالاته . ونراها تنجح على نطاق واسع وبين افراد جمهور عريض لانها تستجيب للعواطف المكبوتة فى لاوعى اعداد كبيرة من الناس . وقد ثبت انه حينما نجحت وسائل الاعلام فى كسب جمهور كبير كان السبب هو أسلوب الاتصال الذى وفر للمستقبل اسباب انطلاق انفعالاته وعواطفه عن طريق **التقمص** .

---

(٧) Freud, S. : Jokes and their Relation to the Unconscious, London, Routledge and Kegan Paul, 1966 pp. 103-104 & p. 73

متى ينجح التقمص : يلجأ الانسان التقمص بغية الحصول على مكافأة . ففى قراءة الروايات ومشاهدة المسرحيات والافلام السينمائية والتلفزيونية نشعر بسنوح الفرصة لتجنب المحظورات التي لانجرؤ على البوح بها او التعامل معها ، او نحاول كسب معارك خسرناها من قبل، او اصلاح ما ارتكبنا من أخطاء فى الماضي ، اومداواة جراح قديمة ، او فرصة لنخرج من جلدنا لنعيش للحظات كما كنا نشتهى . وفى وسيلة الاتصال الناجحة يؤشر الموقف فى الرواية او العنوان الصحفى او العمل الفنى الى الجائزة الممكنة . واحيانا قد يكون العكس هو الصحيح ، كأن يبدأ الفيلم مثلا بمواقف تهدد الزواج والحياة الاسرية او الوظيفة او السمعة . ولكن هذه المواقف تتضمن دعوات لاعادة تجربة المواقف التى انهزمنا فيها ، لاننا نعرف ان فى ذلك فرصة لاعادة النظر ، واو بعد فوات الاوان ، فى اسباب هزيمتنا ، هذا الاتصال يعطينا فرصة ثانية وعن طريق الاتصال نعيد تركيب التجربة وننظم ما كان يتسم بالفوضى . فصدمات الفن التى تهددنا وتقلقنا دعوات لابراء الجراح . واذا نجح التقمص فى عملية الاتصال هذه ، فهل كان المطابقة فى الزمان والمكان واعمار الشخصيات بتفاصيلها اهمية تذكر ؟ يعتقد البعض أن التقمص يكون على اشده اذا كان هناك توافق فى الزمان والمكان والسن ، ولكن الاداة غير كافية . فيمكن لطفل فى مدينة معينة ان يتقمص شخصية طفل فى نفس المدينة ، ولكن الطفل يستطيع ايضا أن يتقمص شخصية جندى رومانى أو رجل فضاء أو لاعب كرة قدم أو أحد سكان الاسيكمو . ولم يجد الناس فى بلدان العالم صعوبة فى تقمص شخصية الفلاح الصينى فى قصة **الارض الطيبة** وفى الفيلم فيما بعد . ففى كل واحد منا جزء من شخصية والتر ميتى (٨) . وقد يصعب التقمص ان لم تكن تفاصيل الاحداث واضحة . ومع وسائل الاتصال الحديثة أصبحت المسافة عنصرا مهملا ، بل وهناك فوائد لتخيل انفسنا فى أماكن بعيدة فى الزمان والمكان ، وقد يساعد البعد فى الزمان والمكان على التخلص من الكبت ، ومن هذا النوع من الافلام The West Story الذى قام ببطولته بول براينر ومسلسل ١٩٩٩ الذى عرضه تلفزيون الكويت **وآلة الزمن لويلز** .

ومن المثير للانتباه انه عند اختيار الافلام التدريبية التي تعرض على الجنود خاصة قبل المعركة وجد محللو النتائج ان معظم الجنود قد تقمصوا شخصية **المدرب** لا شخصية الجندى الذى يقوم بالتدريبات . فهل تقمص الجنود شخصية ذات رتبة عالية ؟ لا عجب فى أن معظم شخصيات شكسبير من العيار الكبير السامي- الأمير هامليت ، الملك لير ، القائد والملك مكبث، يوليوس قيصر ، عطيل . لقد نجحت مسرحية الكرسي العظيم The Great Chair لأنها تتناول حياة مدير جامعة ومناوشاته مع مجلس الامناء ،لأنها كانت تعبر عن قصة كل انسان وقلقه . واكثر من بائع متجول أو موظف بسيط فى شركة قلق على وظيفته قد استمد لذة عظيمة من الاحساس بالرقى والعظمة من معظم الافلام والمسلسلات والاعلانات وقد يدفع البعض الى الاعتقاد بأن الجمهور دائما يفضل تقمص الشخصيات العظيمة النابوليونية ، ولكن الذى

---

(٨) James G. Thurber : **The Secret Life of Walter Mitty**, 1894.
وقد تحولت الى فيلم سينمائى قام دانى كاى فيه بدور والترميتى الذى يتقمص شخصيات عديدة طالما استهوته فى صباه . ودخلت الكلمة فى قاموس اللغة الانجليزية .

٢٣٩٤

يحدث هل أن الجمهور يتقمص الشخصيات الدنيا كذلك ، فنجاح أفلام تشارلى تشابلن يعتمد على شخصية المتسكع المتشرد ، شخصية توفر مجالا للرثاء للذات . واذا كان عدد الافلام والروايات التى تركز على الشخصيات العظيمة اكثر من الاخرى التى تساعد على تقمص الشخصيات الدنيا فان ذلك يرجع الى ما يفضله منتجو البرامج التجارية وليس الى ما يفضله الجمهور . فالتركيز على تقمص الشخصيات الراقية اكثر ترويجا للسلع الاستهلاكية وبتكرار مقولة أن للاغنياء متاعبهم كالفقراء يعمل على استقرار النظم القائمة . هذا بالاضافة الى أن منظر البطل صاحب الموارد المحدودة وسط ديكورات منزله المتواضع الذى يظهر على شاشة التلفزيون قد يسبب قلقا بالغا لرواج السلع ، فظهوره يسلط الأضواء على السلعة بل على المشاكل الاقتصادية .

مما سبق يتضح لنا أن العلاقة الانسانية هى اهم عنصر فى وسائل الاتصال والاعلان عامة ، وما عدا ذلك ـ السن ، الجنسية ، المكان ، الزمان ، الحرفة ، المركز الاجتماعى ـ يعتبر فى مرتبة ثانوية . ففى جوهر كل تقمص تكمن رغبة ، أمنية ، وصراع الدراما يستغل صراع الامنيات التى نجد بعضها فى الوعى وبعضها الاخر فى اللاوعى . ولكن يتم الاتصال والتقمص فى رواية او مسرحية او مسلسلة لابد أن يحدث هذا التوحد والاندماج فى مراحلها الاولى مع شخصية من شخصياتها على الأقل والا فلن يكون هناك قصة او تفاعل درامى .

ومنذ قرون قال أفلاطون انه من الممكن ان نحكى رواية بطريقتين : اما باسلوب السرد المباشر او باسلوب المحاكاة الدرامية . وقال انه بامكاننا استعمال الاسلوبين معا . ولكن اسلوب السرد المباشر اكثر نبلا من طريقة المحاكاة الدرامية ، وكان يرى انها الطريقة المثلى التى يجب ان يلجأ اليها افاضل الناس . ولكنه اضاف أن الاطفال ومن يقومون على رعايتهم والسوقة من الناس يفضلون اسلوب المحاكاة الدرامية ، وأكثر من هذا نجدهم يستمتعون على وجه الخصوص بمحاكاة السفهاء والأرذال . ففى المدينة الفاضلة كان أفلاطون يرى أن نلجأ للسرد الرصين الهادئ الذى لا يستغل عنصر الاثارة ، ونمنع المحاكاة الدرامية وخاصة محاكاة الباطل (جمهورية أفلاطون ـ الكتاب الثالث) .

هكذا عبر أفلاطون عن مخاوف تردد صداها عبر القرون من بعده ، كما عبر عن الرقابة الصحفية الاستبدادية ، ولكنه كان صادقا فيما يختص بما يفضله الجمهور . ففى عصر النهضة لجأ المسرح الدينى ، كالمسرح اليونانى من قبله ، الى أسلوب السرد والمحاكاة الدرامية . فخرج القساوسة من داخل الكنيسة الى صحنها ليقدموا « الدراما » ـ مناظر مبسطة تصور حكايات من الانجيل وحياة القديسين . وتولى رجال الكنيسة تفسير الدراما وكان النجاح حليفهم الى أن خلق هذا التقليد بعض المشاكل . فقد كان « تصوير » سقوط الملائكة اكثر اجتذابا للجمهور من الاسباب التى ادت الى سقوطهم ، واستحوذ الاشرار على اهتمام النظارة وسرقوا الأضواء من الاخيار ، وتسللت فقرات كوميدية الى المواقف الرئيسية الجادة واصبح الممثل (٨)
« معبود » الجماهير . وفى النهاية عاد القساوسة ـ وقد أصابهم بعض فزع ـ الى منبر الوعظ ، الى الشرح والتفسير والموعظة الحسنة ، الى رصانة السرد .

لنقفز عدة قرون الى الأمام ، الى عام ١٩٣٥ حين رأى الحزب الجمهوري في الولايات المتحدة ان يلجأ **الى الدراما الاذاعية** لكسب عدد أكبر من الناخبين . وأرسل الحزب عام ١٩٣٦ الشبكات الاذاعة الرئيسية يخبرها بقراره لاستغلال الوسائل الاذاعية الحديثة المتاحة الآن في فنون الراديو لبث رسالته . وانزعجت شركة CBS وشركة NBC وتشاوروا في الأمر . وأخيرا أخطرا اللجنة القومية للحزب الجمهوري بأنهما لن يسمحا بالبث الدرامي ، وأرفقا مذكرة توضيحية تتضمن موقفا افلاطونيا . وتقول المذكرة (٩) :

« لا بد أن تكون مناشدة الناخبين مناشدة عقلية لا ترتكز على عاطفة أو انفعال أو تحيز . ونحن نعترف أن المناقشات الحزبية الخطابية قد تشوبها العيوب التي ذكرت آنفا ، ولكن لدينا قناعة بأن الاذاعة الدرامية في الراديو ستدفع بالحملة الانتخابية الى الناحية العاطفية تماما . هذا بالاضافة الى أننا نعتقد أن الأسلوب الدرامي بطبيعته قد ينحو الى زيادة توكيد وابراز حوادث ليس لها أهمية أو مغزى الا من الناحية الدرامية فقط . وقد تتوقف مجرى القضايا القومية لا على الوقائع الموضوعية للمسائل المطروحة للمناقشة بل على مهارات أشخاص الدراما المتصارعين . »

ولأن المحطات الاذاعية المحلية لم تتقيد بسياسة الشبكات الاذاعية ، تمكن الحزب الجمهوري من اذاعة تسجيلات درامية . وبدأت الشعارات الانتخابية فيما بعد والاغاني والالحان المميزة والأصوات الكارتونية تزحف الى البرامج السياسية الاذاعية . واستمر الاتجاه الى استعمال السرد والدراما وعم الاقطار .

دورة وسائل الاتصال : تلاحق وسائل الاتصال الفرد في العصر الحديث أينما كان ، وبغض النظر عن محتوى عقله الباطن نجده على استعداد وبدرجات متفاوتة لاستقبال هذه الرسائل . فعندما أذاع اورسون ويلز برنامج حرب الكواكب عام ١٩٣٨ دفع المئات من منطقة نيويورك الى تحميل سياراتهم والهرب بها من المدينة . لقد كان رد الفعل متأثرا الى حد كبير بتوقعاتهم : كان هذا العام هو العام الذي أثار فيه هتلر أزمة ميونيخ . وعلى مدار الساعة ، يوما بعد يوم ، كانت محطات الاذاعة تبث أخبار التهديدات وتعبئة الجيوش في دول أوروبا . ولم يكن غزو سكان المريخ للأرض الا امتدادا لهذه التوقعات والتخشبات . وهكذا تلعب آمال وأماني ومخاوف اللحظة الحاضرة دورها فيما نسمع ونشاهد من أخبار ، ولها القدرة على تغيير مغزاها وشحنها بأبعاد جديدة . ويتم الاتصال بالفرد اما عن طريق المقابلة وجها لوجه كما يحدث مع البائع المتجول والمحاضر والممثل في المسرح ، أو عن بعد بوساطة أجهزة الاتصال . وفي حالة الاتصال وجها لوجه يكون للذي يصمم الرسالة فكرة ما عن الحالة الفردية النفسية فالبائع المتجول يدرك عندما تفتح له ربة المنزل الباب اذا كانت هادئة أو سعيدة أو مضطربة أو عجوز أو شابة وتمكنه التصرف تبعا لحالتها . والمحاضر والممثل يواديان أدوارهما حسب جماهيرهما . هذا مع التحليل والوصول اليها في حالة التوزيع العالمي للانتاج الضخم الذي يوزع على نطاق

(٩) Political Broadcasts : New York, Columbia Broadcasting System Inc. 1936.

واسع وبوسائل سمعية وبصرية متعددة . ولهذا يلجأ المعلن الى تحضير المستقبل ذهنيا وعاطفيا باستعمال المقدمات والافتتاحيات والالحان المميزة، كنوع من تكييف ردود الافعال ، لما سيتبع ، حتى فى نشرات الاخبار ، فهذه المنبهات تعمل على شد انتباه الجمهور وتهيئة توقعاته ، كما نرى فى العناوين الصحفية المثيرة ، والوان الطباعة ، وتصميمات الرسوم المصاحبة . ومن هذا يتضح أن كل معلومة تنقلها وسائل الاتصال تتكيف عند استقبالها من منطلق انها تبدأ **بحالة شعورية وتوقعية معينة** . وهذه هى المرحلة الاولى فى الدورة .

بعد **التوقع** يأتى **الانتباه** وهو المرحلة الثانية . ولكن كيف نشد الانتباه فى هذا الطوفان من وسائل الاعلام ؟ يمكن أن نلجأ الى عنصر الاثارة المتزايد ــ الالوان الصارخة ، المؤثرات الموسيقية وتطورها المتزايد من الاحادى Mono الى الثنائى Stero الى الرباعى Quadrcphonic ، الصور المجسمة المطبوعة الخ ، أغلفة الكتب ، تغليف السلع وتعليبها . وربما تتولد لدى الجمهور حساسية ضد هذا النوع من الاثارة فيحجم عن الاستجابة لها وهذا ما توصل اليه أحد الباحثين : « أحيانا يمكنك أن تشد الانتباه بأن تكون هادئا » .

وهنا يجب أن ندرك أن شد الانتباه ليس مجرد الاندهاش أو الانبهار ، لأنه وقتى ولحظى، ولكن شيئا آخر : المشاركة . ففائدة الجمهور كمستهلك ليست فى انبهاره بل فى السيطرة عليه واجباره على الفعل والمشاركة . لا يكفى أن أعرف أن محمد على كلاى يستعمل نوعا معينا من الكولونيا بعد الحلاقة ، ولكن يجب أن يدفعنى الاعلان لشراء هذه الكولونيا . وهذا الدور الايجابى للجمهور قد يتطلب منه استكمال الصورة . فقد تظهر صورة جزئية كاريكاتيرية لشخصية معروفة ــ خط يحدد الانف والفك مثلا ، لا أكثر ولا أقل ، ولكنها أكثر فعالية . فالمشاهد يجبر فى هذه الحالة على استكمالها ذهنيا ويضطر للمشاركة الفعالة . (لاحظ صورة المنظر الجانبى لوجه الفريد هتشكوك فى مسلسلاته) ونجد فى (شكل ٣) الرسوم الصينية خير مثال على عدم ابراز جميع التفاصيل وكما يقول المثل الصينى « ان وجدت الفكرة ، قل استعمال الفرشاة » . (١٠) كذلك فى الأدب ، يظهر هذا الاتجاه فى الأسلوب التلغرافى الحديث سواء فى الشعر أو النثر مما يجبر القارىء على ملء الفراغات ، تماما كما يحدث عندما **نشاهد الصورة التلفزيونية غير واضحة المعالم** . وهذه العملية تشبه الى حد ما هواية حل الغاز الكلمات المتقاطعة أو فك الالغاز . وقد نجبر على المشاركة **وملء الفراغ** فى عنوان صحفى : « من هو رجل المخابرات المجهول » ؟ أو من مجرد النظر الى صورة غامضة : سيدة شابة فى الظلام تحفر حفرة فى حديقة منزلها بجاروف كبير . ونبدأ فى رسم حبكة : جريمة قتل ، انها تخفى جثة . أو قد نسمع لحنا جنائزيا او لحن زواج او نوبة بوق للهجوم او الانسحاب وهكذا . وهذه كلها وسائل تثير الانفعالات وتدعو للمشاركة وهى أقوى رابطة للاستحواذ على انتباه الجمهور . ويمكن اعتبار التنبه كمكبر فى العقل . فالاشارات التى تأتى من العالم الخارجى ، أو المؤثرات أو المنبهات ، مهما كانت عالية وقوية لن يكون لها أثر فعال ما لم يدخل هذا المكبر فى الدائرة الكهربية

---

(١٠) Gombrich E.H. : **Art and Illusion**, London, 1968, p. 171

(شكل ٣)

للمخ لتكمل الدائرة ، لتقفل ، وسيزعق المكبر اذا ما مست هذه الاشارات ، ولو برفق ، تلك الاسلاك التى نسميها : الأمل + الخوف . وهكذا **ونحن فى حالة شعورية وتوقعية معينة تثير اشارات داخلة معينة انتباها ، فننقل الى المرحلة الثالثة وهى العاطفة المبذولة .**

هذه الاستجابة للانتباه تشجعنا على بذل مزيد من **العواطف** . وفى أول الدورة فى مرحلة تكييف التوقعات ، كان لأسلوب السرد فوائده . أما فى هذه المرحلة فنجد أن الاسلوب الدرامى هو الأجدى ، أسلوب العرض لا أسلوب القول . ففى مشاهدة العرض ننبذ اهاب شخصياتنا ، ننسى انفسنا . ويتبع رجال الأدب فى الرواية نفس الأسلوب ، فيقول لهم هنرى جيمس « لا تصف ، بل قدم » وكأن الرواية (السرد) قد انقلبت الى مسرحية . لقد رأينا أن أسلوب المواجهة فى الاتصال افضل الى حد ما من أسلوب مخاطبة الجماهير . اما الآن فيمكن القول بأن أسلوب الاتصال الجماهيرى له من المزايا ما لا يستطيع الاتصال وجها لوجه تحقيقه . التوصيل الجماهيرى أكثر فعالية لأنه يجنب المشاهد أو المستمع المواجهة . فالمواجهة تربطنا بذواتنا ، بشخصياتنا ، تثير مكنوناتنا الى أقصى حد . اما الاتصال الجماهيرى فيحفظ لنا عزلتنا واسرارنا، ويتم ذلك والمشاهد أو المستمع فى داره ، فى سريره ، فى سيارته ، فى الحمام أو فى المسرح . لهذا يتم التقمص بدرجة كبيرة . **الى هنا نجد أنه ونحن فى حالة شعورية وتوقعية معنية تثير اشارات داخلة معينة انتباهنا فتلامس مصادر طاقات عواطفنا الخفية لترفع ضغط تيارها** وبهذا نصل الى المرحلة الثالثة : اثارة العاطفة كما رأينا .

فى المرحلة الرابعة من هذه الدورة نصل الى مرحلة **تجميع المعلومات** عن الموضوع . ومن الواضح أن **المعلومات** قد لعبت دورها فى المراحل السابقة ، ولكن العقل الآن ، وقد دفعناه للبحث، يبدأ فى الاستجابة بشكل مثير . فتتضخم بعض المعلومات الوثيقة الصلة بالموضوع يستمدها

العقل من مستودع ذاكرته ، وتبرز وتخرج الى حيز الوجود . كما يصبح لدى العقل طـــاقة متزايدة لجمع معلومات جديدة . فالعقل يجد صعوبة فى استيعاب معلومات جديدة ما لم تكـن متصلة اتصالا وثيقا بحاجاته ورغباته . ولا شيء اسهل من تمثل معلومات مرغوب فيها . ولو نجح الاعلان فيما سبق فسيشترى المشاهد السلعة . ولو نجح العنوان الرئيسى فى جـريدة فسيشترى القارىء الجريدة ويقرأ الخبر لانه يحتاج لهذه المعلومة . ولو نجحت المناظر الاولى فى مسلسل او فيلم فيما سـبق فسيواصل الجمهور مشاهدته . الا تقول ان الكتاب يعرف من عنوانه !

المعلومات ــ وهى المرحلة الرابعة ــ تلعب دورا هاما فى جميع انواع الاتصال ويسـتطيع الكاتب المحنك أن يحرك الجمهور المهيأ ذهنيـا وعاطفيا ونفسيا ويمر به بهذه المراحل : **التوقع، الانتباه ، التعاطف ، المعلومات** . والمعلومات التى تعبر الطريق بين المرسل والمستقبل بطريق الورق او الفيلم او الضوء او الاثير ، لا يتم ادراكهـا وتمثلها الا اذا كانت تشبع حاجات المستقبل ورغباته . وعندما ينشط العقل هكذا ، لا يتوقف عند استقبال المعلومات وجمعـها بل يأخـذ فى **استنباط الافكار وتكوين الآراء** . وهكذا نصـل الى المرحلة الخامسة . فالافكار سواء ظاهرة او باطنة ، واضحة أو خفية ، تلعب دورا هـاما فى الاتصال . فكل رسالة لها تركيب محكم كالمسرحية او الرواية او المقال او الكارتون او الاغنية او الاعلان ، عادة ما يكون لها فكرة رئيسية . وتنقسم الناس الى فريقين ، فريق يعتقد أن الفكرة هى التى تخلق العاطفة وفريق يعتقد أن العاطفة هي التى تخلق الفكرة . وعلى كل حال يبـــدو ان الفعل يتأثر بالفكر والعاطفة معا . ويمكـن تشبيه العلاقة بين الفكرة والعاطفة بنهر وضفتيه ، فالنهر المتدفق هو العاطفة والضفتان الفكرة ، مجرد تنظيم لاحتواء مادة النهر ذاته . ويمكـن للنهر أن يفيض ويغمر الضفتين ولكنهما تتحكمان فى توجيه النهر الى مصبه .

ما ان نصل فى هذه الدورة الى المرحلة الخامسة ، تكوين الافكار ، حتى نكون على استعداد لاداء الفعل . فالدوافع التى توقظهـا وسـائل الاتصـال تتطلب التعبير عنها بطرايق الفعل . وخلال الدورة تسرى فى جلد المشاهد موجات عبر جهازه العصبى تعده للعمل . وقـد ثبت ذلك فى مشاهدى التلفزيون من الصغار ، فيتصبب منهم العرق ويتقمصون بعصبية عنـد انتهاء فيلم رعاة البقر او فيلم المغامرات والعنف وينقض الواحد منهم على الآخر ويتلاكمـون . ولا ادل على قوة التقمص من النتائج التى توصل اليها ماكورث (١١) . فقد أثبتت الكاميرا المثبتة على رؤوس الاولاد وهم يشاهدون التلفزيون ان عيونهم تتبع ردود الافعال على وجوه الشخصيات ولا تتابع الافعال ذاتها . فنجد ان عيونهم لا تحيد عن وجوه الممثلين حتى اثناء مواقف العنف .

وترتكز فعالية الافلام التعليمية على هذه الظاهرة . فالتقمص ينشط الغدد والعضـلات ويعـدها ويحفزها للفعل والحركة الايجابية .

(١١) Understanding Media, p. 309 (Television).

وبعض المواد الاعلامية يحسنها الحديث عنها ، فيكمل التخاول فيها معناها ويزيد من ابعادها . ومثل الضحك والدموع في الكوميديا والتراجيديا — الا اساليب اخرى تكتمل بها المعاني بطريق المشاركة . والفعل الفورى المباشر لا يرضى او يشبع الرغبة فحسب بل يحسم ويثبت المعلومة . وهذا ما تصبو اليه وسائل الاعلان . فغاية ما تريد الوصول اليه هو أن تستعمل ربة البيت الكوبون الموجود على علبة الصابون وتقص المسحوق للغسيل او تداخل علبة التلبية . فاذا فعلت ذلك فستتذكر الاعلان ورسالته وفحواه فهزة الحظية لمشاعر العقل الباطنى فى اعلان ما قد لا تضمن تذكر المشاهد له ، ولكن اذا كان رد الفعل المباشر لهذه الهزة فعلا واعيا فمن المرجح ان يتذكر المشاهد مضمون الرسالة .

وجدنا فى بداية الدورة ما للمواجهة من اهمية فى الاتصال . وفى هذه المرحلة الاخيرة نجد ان المواجهة تلعب الدور الهام مرة اخرى . فيما يقوله الناس يريدهم او يقلل من فعالية الأثر المنشود . لقد انتهت تفصيلات الدراما التى انفعلنا . فالأثر الاخير الذى يخلفه فينا اعلان ما قد يتوقف فى نهاية الامر على ما يقوله لنا البائع المتجول . ويمكن القول ان وسائل الاتصال ليست غاية فى حد ذاتها بقدر ما هى وسائل او وسائط تغذى وسائل الاتصال بالمواجهة وعادة ما يكون اثر وسائل الاتصال وفعاليتها من خلال ما تثيره من حديث وقيل وقال ورد فعل ، فهى تكتسب قوتها من هذه التموجات التى تثيرها فى بادىء الأمر حتى تصبح تيارات فكرية . ومما يؤكد اهمية المواجهة ان البائع المتجول او الوسيط لا يمكن الاستغناء عنه . فبالرغم من تقدم وسائل الاعلام يتزايد عدد الباعة المتجولين ، فوسائل الاتصال ما هى الا القدم التى يحشرها البائع المتجول فى باب المنزل او المكتب ، اما الباقى فيتوقف على شخصيته ولباقته وتفهمه للمواقف . فبدون وسائل الاتصال فانهم يعملون تحت ظروف معوقة ، ومع ذلك فهى لا تستطيع القيام بأعمالهم . ونفس الشيء يمكن أن يقال عن المدرسين ، فقد نادى البعض باستعمال التلفزيون التعليمى والدوائر المقفلة بهدف الاقلال من عدد المدرسين ، وهذا افتراض خطير . فالتلفزيون مثله كمثل السينما والراديو والمطبوعات يجب أن يعتبر وسيلة قوية تغذى وتثرى ما يدور فى قاعة الدرس فيضيفون المعلومات والخلفيات الحضارية التى توفرها وسائل الاعلام كلها لا يستطيع المعلم ولا الطالب الالمام بأطرافها بحضارة هذا العصر ولكن وسائل الاعلام لا يمكنها أن تكون بديلا لهيئة التدريس .

أنواع المواد الاعلامية : تتشابه المواد الترفيهية والاخبارية والاعلانية والدعائية والتعليمية فى اوجه كثيرة ، فكلها توجه المشاعر نحو **الافكار والافعال** ، ولكنها تختلف فيما بينها فى نوعية الفعل المراد تحقيقه ، كما انها تختلف فى نوع المقاومة التى تهدف للتغلب عليها .

فالمادة الترفيهية توجه عواطفنا نحو تدعيم الافكار المسلم بها وفائدتها المباشرة هى الاقلال من التوتر . والفعل النهائي فيها هو تجدد القبول والتسليم بالحاصل . ولا نواجه فيها مقاومة تذكر . **والمادة الاخبارية** تؤكد اهمية المعلومة — ومن وجهة نظرية بحتة ، اى معلومة عن اى حدث جديد ، ولكن اذا كان ولا بد ان يكون للخبر قيمة ، فيجب ابراز الحدث الذى يمس العواطف ويشجع على التقمص ، ولهذا يقابل هذا النوع من الاخبار بمقاومة طفيفة من

جانب الفرد . **المادة الاعلانية** لترويج سلعة أورأى تعول على أهمية الفعل ، فهى توجه العواطف نحو سلع بعينها أو نحو خدمات معينة . وهنا قد تظهر المقاومة من جانب الفرد . ولكن اذا كانت المكافأة واضحة ، واذا كانت السلعة أو الخدمة لا تتعارض مع أفكار مسلم بها ، فقد لا تكون المقاومة كبيرة ، كشراء معجون للاسنان . ولكن عند شراء سيارة جديدة يختلف الأمر . **المادة التعليمية** تدفعنا بطريق خطة عمل آجلة نحو أهداف بعيدة ، فهى توجه عواطفنا نحو البحث الدائب المستمر المنتظم عن المعلومات والأفكار . ولأن المكافأة ليست مباشرة فمن الضرورى فى هذه الحالة مواصلة اعادة توجيه الدوافع القوية لكى يمكن التغلب على المقاومة من جانب الفرد . **المادة الدعائية** تدفعنا الى قبول أفكار جديدة وسلوك جديد . وهنا قد تكون المقاومة على أشدها .

ماذا يحدث للجيل الجديد فى هذا الطوفان من الافلام والمسلسلات والمجلات . فشباب اليوم محاط بصور أبطال تدعوه وسائل الاعلام المختلفة وبشتى الطرق الى تقمصها . وفى لحظة ما يجد الشاب نفسه وقد ارتبط بشخصية سينمائية ، تلفزيونية ، اذاعية ، مدرسية ، روائية ، مسرحية . ولما ينضج يتضح له التكرار فى هذه الانماط فينفصل عنها ليبحث من جديد عن بطل آخر ، دائرة مفرغة ، وأخيرا يواصل البحث على غير هدى لا يدرى ما هو الذى يبحث عنه . طاقة تبدد ، وقوة هائلة تبحث عمن يوجهها تبحث عن اتجاه ، وربما عن جذور . من الذى سيوجه هذا التيار الخفى ؟ ما هى الهواجس التى ستتصلت على من هم بدون اهداف ؟ هذه القوة الخفية تترنح مرة فى هذا الاتجاه ومرة أخرى فى اتجاه معاكس . وتصرف الملايين كل عام فى الطباعة والاذاعة والافلام لتحديد اتجاه لهذه القوة . ويدخل فى هذا الصراع للسيطرة على العقل الجماهيرى عدة آلاف من المنظمات والمؤسسات . لننظر فى الادوات والوسائل التى تلجأ اليها هذه المؤسسات :

١ ــ الصفحة المطبوعة :

« فى البدء كان الكلمة » . والكلمة المطبوعة وسيلة فعالة للوصول الى عقول وقلوب وعواطف الجماهير وبالتالى تؤثر فى الفكر والفعل والسلوك . للصفحة المطبوعة جانب واحد ضعيف ــ انها صامتة تخلو من الصوت ــ ولكن هذا الضعف مصدر قوة لها . فهى الوحيدة من بين وسائل الاعلام التى تمكن القارىء من تحديد سرعة القراءة وايقاعها ، والتمهل واعادة القراءة والتوقف ومعاودة القراءة والتذوق بل وتمزز الكلمات والاستمتاع برنين جرسها . هذا ما تتميز به الصفحة المطبوعة . (وان كان الفيديو وشريط الكاسيت الآن يتنافسان للحصول على هذه المزايا) . وستظل الصفحة المطبوعة ولكثير من الناس (ربما حتى نهاية هذا القرن) هى المصدر الرئيسى للمعلومات (ان لم تقض عليها بنوك المعلومات) . وهناك ضعف آخر فى الصفحة المطبوعة يعتبر مصدر قوة ، فالكلمة المطبوعة تتطلب من القارىء جهدا أكبر من اى وسيلة اعلامية أخرى .

أولا : جهد القراءة ، ولكثير من الناس وبسبب قصور فى التدريب على القراءة السريعة ، يعتبر هذا الجهد مرهقا .

ثانيا : تتطلب القراءة خيالا مستمرا ، ومن يجيد هذا التخيل يكون حصاده من النص أوفر، وبمدى مشاركته فى خلق أجواء النص. فالاستمتاع بالقراءة يتناسب تناسبا طرديا مع القدرة على الاشتراك فى خلق المعانى عن طريق التخيل . ونجد أن فعالية الشعر وقوته تكمن فى هذه اللعبة الطريفة بين الشاعر والقارىء . ولهذا تعتبر الصفحة المطبوعة أفضل وسيلة اتصال بالجمهور المنتبه ، فهي لا تحاول أن تشد الانتباه أو تجتذب ، فالجمهور هنا هو الذى يبحث عن الكلمة . وربما أطلق عليها أفلاطون « وسيلة السرد الرزين » فهي قلما تلجأ الى الأسلوب الدرامى . ومنذ عام ١٨٣٠ زحفت فنون أخرى الى الصفحة المطبوعة ــ فنون درامية كالحوار والرسم والصور والكاريكاتير والالوان ثم الرسوم الهزلية . وهذه الفنون التصويرية توفر مجالات للتعبير عن العواطف عن طريق التقمص . وادى استخراج النسخ الفوتوغرافية وتطور الروتوغراف فى الصحافة والاخبار المصورة بكل ما فيها من طاقات للعرض الدرامى والأبهة والعظمة ، الى البعد بالصفحة المطبوعة الاولى والاقتراب بها من الفيلم السينمائى ، كما يتضح من أساليب الفيلم السينمائية كاللقطة القريبة والبعيدة والمزدوجة . ولكن هذه الفنون التصويرية ساعدت الصفحة المطبوعة فى الدخول فى منافسة مع السينما والتلفزيون . ففى الفيلم وفى التلفزيون تتحرم الصور ، أما فى الصورة المطبوعة فيمكن تثبيت الابتسامة الجميلة التى ترتسم على وجه طفل (وان كانت آلات العرض السينمائى والفيديو هى الاخرى تتميز الان بوجود مفتاح لتوقيف الصورة اثناء العرض) واللحظة الحاسمة فى تسجيل هدف كروى . وهذه الصورة الثابتة يمكن دراستها وقصها والاحتفاظ بها وتعليقها ودراستها والعودة اليها فيما بعد . وعندما يتحرر القارىء والمشاهد من التقيد بزمن محدد للمشاهد (لاحظ جهاز الفيديو الحديث الذى يمكن توقيته آليا لتسجيل برامج لعدة أيام) يمكنه اتخاذ القرار الذى يناسبه .

تنتشر الكلمة المطبوعة عبر قنوات عديدة لكل منها جمهورها وتخصصاتها ، وتحت سيطرتها المطابع والالوان ومساحات الاعلان . وبالاضافة الى وكالات المطبوعات والنشر يجب أن نشير الى المنشورات واللافتات وبطاقات السيارات والملصقات والروزنامات وعلب الثقاب والسجائر والملابس ، فالكلمة المطبوعة لها القدرة على أن تلتصق بأي شيء حتى الهواء ــ طائرات الاعلان التى تكتب بحروف من دخان اسم سلعة على ساحل بحر فى شهر الصيف مثلا تسحب اعلانا يرفرف خلفها .

٢ ــ الفيلم : بدات الافلام بالصور المتحركة ثم أصبحت ناطقة باضافة الصوت . أما الصحافة فقد بدات بالكلمة المطبوعة ثم اضافت الصور . واستطاعت الصحافة الاولى بما لديها من قوة الكلمة أن ترضى الجمهور المتخصص ، واستطاع الفيلم الصامت بما لديه من صور أن يرضى الجمهور العريض . ويجب الا ندهش لهذه الاستجابة الفورية للصور المتحركة (دراما) اذا ما تذكرنا كلمات أفلاطون . ظهر الفيلم الصامت قويا منذ البداية ولكنه عجز عن التعامل مع الافكار ، وبعد اضافة الصوت أصبح من اقوى وسائل الاتصال الجماهيرية . ولكن ظهر فى الفيلم الجديد صراع بين الحركة والكلمة ، وفى صراع من هذا النوع نجد أن الكلمة يجب أن تفشل لانه صراع بين الدراما والسرد ، ولهذا سيطرت الحركة على الفيلم لانها تتعامل مع العقل الباطن وغالبا ما نقول ان سبب نجاح الفيلم يعود الى وجود الحركة فيه Action .

تلعب المعلومات والافكار دورا هاما فى الاتصال خاصة فى الافلام التعليمية والاخبارية والدعائية . وفى هذه الافلام تعتبر زيادة الحرص على توصيل المعلومات والافكار حجر عثرة في سبيل توصيلها . كيف ؟ كلما كثر الشرح والكلام فى هذه الافلام كلما قلت استجابة المشاهد لها . ان **الحركة** هي التي تشد الانتباه ، وتأتي الكلمات (وبقدر) لتبلور الفكرة ، **ولكن لابد أن يصاحب الكلمة فعل وحركة** ، أى لاكلام بدون صور (والاصبح التلفزيون فى مثل هذه البرامج التعليمية والثقافية كالاذاعة) . حتى فى الافلام الاخبارية المصورة ، قد يظهر المتحدث لثوان ثم تختفي صورته ، وقد نسمع صوته دون أن نراه .

بدأت الافلام أول ما بدأت بتقليد اسلوب المسرحيات ، أى تصوير المناظر من مكان ثابت لتظهر الشاشة وكأنها المسرح ذاته أى أن الكاميرا كانت تصور المنظر بأكمله ــ جميع الشخصيات الموجودة على المسرح داخل الكادر . وكان الممثلون فى الافلام القديمة ، كما فى المسرح ، يواجهون الجمهور ، وكانت المناظر تبدأ بدخول الممثلين كما على خشبة المسرح وتنتهي بخروجهم . ولحرصهم على تقليد المسرح ظلت الكاميرا عاجزة عن الحركة السريعة . وأخذت السينما تتحسس طريقها ببطء بتغيير مكان الكاميرا فتصور المنظر من زاوية معينة ثم تنتقل لتصوره من زاوية أخرى . ولم يشعر الجمهور بالدوار أو الحيرة وبدأ يتكيف مع هذا الاسلوب الجديد فى التصوير وفى مشاهدة المنظر الواحد **من وجهتي نظر مختلفتين أو أكثر** . وجاءت فكرة جديدة : في وسط منظر معين تأتي اللقطة القريبة ولو قت قصير جدا . ألم تكن هذه الفكرة مخالفة لطبيعة الاشياء بل ضدها ؟ هذا بالاضافة الى أن اللقطة القريبة تلغى كل ما هو حولها وتركز على مساحة صغيرة ــ الوجه ، العين اليد مثلا . هل تقبل الجمهور ذلك ؟ نعم . لقد تحرر الانسان من قيوده الجسدية . تستطيع العين الان أن تقفز الى أعلى البناية لتشاهد عن كثب وجه الرجل الذى ينوى الانتحار ، وتشاهد الانفعالات التي ترتسم على وجهه . ورحب الجمهور بهذه الحيل السينمائية الجديدة ــ منظر سقف الحجرة من أرضيتها ، ومنظر أرضية الحجرة من سقفها ، منظر الشارع من النافذة ومنظر داخل الحجرة بالاطلال عليها من النافذة . وتمتع الفيلم بحرية كبيرة فى الحركة لم يتمتع بها العرض المسرحي المألوف . وأصبح الفيلم مجموعة من اللقطات المحسوبة بدقة متناهية . ولم **تصبح الاشياء** الموجودة على مسرح **الاحداث** مجرد **أشياء** ، بل أصبحت كالشخصيات فى المسرحية تدخل الكادر فى اللحظة المناسبة لتلعب دورها ثم تختفي . نرى صورة رجل يجلس الى مكتبه ونسلط الكاميرا على شهادة فى اطار على الحائط خلفه فنعرف أنه طبيب ، ونعود ننظر مع الكاميرا داخل منفضة السجائر التي دخنها . وهذه **الاشياء** على المسرح لم يكن باستطاعة المخرج المسرحي ان يبرزها الا عن طريق الحوار . فالكاميرا توفر الكثير من الجهد ، فأقل تشنج أو تقلص عضلي فى الوجه يحمل من المعاني ما تعجز الكلمات عن وصفه ، وتكتسب هذه التقلصات ابعادا عديدة فى نفوس الجمهور كل حسب شدة مشاركته فى استقبالها والاستجابة لها . وعن طريق سلسلة من اللقطات الذكية يمكن اشراك المشاهدين فى استقبالها حتى تصبح كل حركة طفيفة فعلا ضخما .

٣ ــ **الراديو** : لفترة طويلة ظلت الكلمة المطبوعة تتنافس مع الكلمة المسموعة ، الى أن اجتذب الراديو الجمهور العريض والكتاب الجمهور المتخصص . والراديو كالكلمة المطبوعة

لا يقدم صورا توضيحية وانما يوحي للمستمع بها . والراديو لا يحتاج الى معدات للتصوير أو الاضاءة بل له القدرة على اثارة هذه المناظر عن طريق المؤثرات الصوتية . وفى الراديو ، كما فى الكتاب ، يتقبل الناس المذيع أو الراوى بسهولة (فنحن نسمعه ولا نراه) . والراديو هو أساسا وسيلة للسرد ، للحكي . المذيع هو الراوى فى كتاب ولكن مع هذا الفارق . فى الراديو يمكن اضافة أصوات الناس والاشياء ، والموسيقى ، وهي عنصر درامي ، اجتذب الملايين من الناس . ولم يكتف الراديو بأن يكون أداة للسرد بل سعى لتقديم الدراما ووجد الراديو قوته فى أضعف جانب فيه ، لان الراديو هو وسيلة الاتصال الوحيدة التي لا تحتاج للعين . ولهذا يمكنه ان يخدم جمهورا نشطا متحركا : يأكل ، يستحم ، يعمل ، يذاكر ، يتسوق ، يسافر ، يسترخي ، في النور وفى الظلام . وأصبح الراديو رمزا لتصميم وسائل الاتصال المتنافسة على شغل أى وقت فراغ باق للانسان أو شد أى جزء من انتباه تبقى له . وأصبح الراديو هو الرفيق الدائم .

وظهرت اجهزة الراديو الصغيرة ــ فى الالات الحاسبة ، فى ساعات اليد ، فى علب السجائر المعدنية ، فى علب البودرة للسيدات ، فى أقلام الحبر ، فى الزجاجات فى الولاعات ، في أى شيء يمكن تركيبه فيه . وكان من الضرورى اعادة النظر فى برامجه فأنت لا يمكنك أن تستمع الى تمثيلية اذاعية وانت فى طريقك الى المطار . وكان لابد من تصميم برامج قصيرة ، وسرعان ما عاد الراديو الى الاعتماد على الراوى فى جذب الجماهير ــ مقدم البرامج المنوعة ، وما يطلبه المستمعون ، أحسن ٢٠ اسطوانة ، صحافتنا اليوم ، اخترنا لك ، التعليق على الانباء ، على الناصية ، أحاديث دينية ، فنجان شاى الخ . وقل عدد البرامج الدرامية ، وما ثابر منها قصر زمنه وطفى عليه السرد (قراءة القصص القصيرة ومن المسرح الغنائي كما فى صوت أمريكا) . وهذا الاهتمام بالسرد لم يؤثر على جمهور الراديو ، فالراديو يزدهر وينجح كلما كانت برامجه بسيطة سهلة شأنه فى ذلك شأن الكارتون والرسوم المتحركة والقصيدة القصيرة ، تظهر فعاليته كلما اقتصد فى وسائله وهي :

١ ــ **المؤثرات الصوتية** : فالاصوات تخلق صورا ، ولكن صور الاصوات تختلف عن الصور المطبوعة لانها توحي بشيء يحدث ، شيء متحرك . والعين ترى الاشياء الثابتة ، أما الاذن فلا تستطيع تمييز ما تعنيه الاصوات بدقة . فيكفي مثلا صوت الضفادع ليوحي الينا بأن ما سيحدث سيكون فى المساء أو ليلا .

٢ ــ **الموسيقى** : وتستعمل غالبا مع السرد ونادرا مع الحوار . فمع السرد تضيف بعدا دراميا للحدث ، ومع الاغاني الشعبية والالحان الناجحة من العوامل المثيرة للعواطف وبالتالي تؤدى الى التقمص .

٣ ــ **الحوار** كما فى اى وسيلة اتصال اخرى يساعد على المشاركة ، ويمكنه أن يشجع على التقمص واثارة العواطف أكثر من مجرد السرد . ولكن الحوار فى الراديو يفتقر الى شيء هام موجود اصلا فى حوار المسرح والفيلم ــ الرؤية . لهذا يجب ان يسمع الجمهور ما يعنيه على تحديد المكان والشخصيات المتحاورة ليرسم المشهد فى ذهنه . ولهذا يلجأ الراديو الى السرد لتحديد المكان

والزمان ، ويلجأ للحوار لشحن العواطف ، فالسرديوجه العواطف والحوار يثيرها . وقد ساعد المسجل الراديو على العرض الدرامي ومزج الموسيقى بالسرد فى شكل درامي مثير ، خاصة وان المادة المسجلة على الشريط يمكن ترتيبها وانتقائها واعادة ترتيبها وحذف ما نشاء منها . ولكن أهم شيء يتميز به الاتصال الاذاعي فى النهاية هو البساطة التي تعتمد فى المقام الاول على المذيع . والبساطة تعني أيضا الاقتصاد فى التكاليف .

التلفزيون : لايعتبر التلفزيون مجرد راديو+ شاشة ، ولا مجرد سينما فى المنزل ، فحينما شاهد رجال السينما الافلام العادية على شاشة التلفزيون اتضحت لهم أفكار معينة أولها : فى التلفزيون لابد من التركيز على اللقطات القريبة ٢، ــ عليهم الاعتماد على عدد قليل من الممثلين ، ٣ ــ عليهم أن ينسوا الاعتماد على حيل وفنون الاضاءة . وفي الحال حدث فصل بين شركات الافلام التلفزيونية . والتزمت الافلام المسرحية بالشاشة العريضة (سينما سكوب) واهتمت بأبهة المناظر وبانوراميتها وطلبت من الكتاب روايات بها من الادوار ما يكفي لسبعة أو ثمانية أدوار رئيسية . اما التلفزيون فقد أكدت أفلامه على المودة والالفة (اللقطات القريبة الحميمة) والمواجهة والاحاديث الخصوصية والحوار ، وطلب من الكتاب روايات بها مالايزيد عن ثلاث أو أربع شخصيات . وكما قال أحد المخرجين فى اذاعة كولومبيا : « التلفزيون مجهر ، وليس كالمنظار » .

كانت الافلام التلفزيونية وليدة هوليود أما التلفزيون الحي أو المباشر فكان وليد نيويورك ، والفرق بين تكنيك عاصمة السينما على الساحل الغربي وتكنيك عاصمة الصحافة والمال على الساحل الشرقي كبير . ولكن تقنيات وأساليب وفنون الافلام تؤثر فى أفلام هوليود التلفزيونية ، اما تلفزيون نيويورك فكان متأثرا برجال الاذاعة والصحافة والمسرح . ولكثير من الناس لم يقدم تلفزيون نيويورك أى اضافة ملحوظة على الافلام المسرحية . ولقد قام التلفزيون الحي أو المباشر شيئا لم يقدمه الفيلم السينمائي : الزمن الفعلي . فلسنوات كانت الوحدة فى الفيلم السينمائي هي « اللقطة » التي اضفت على السينما نوعا من قوة التأثير على المشاهدين بالاضافة الى مرونة هذا الاسلوب فى الاخراج . ولكن هذا المكسب للفيلم كان يقابله خسارة من جانب آخر . فلم يكن الممثل فى الفيلم السينمائى مدركا لدوره **كاملا** فى الفيلم لأنه كان يركز على بضع لحظات من دوره **الكامل** فى كل مرة ، وكان همه ينحصر ، وهذا شيء طبيعي ، فى الوصول الى كمال **اللحظة.** أما ايقاع الفيلم من أوله الى آخره فكان يعتمد على **المخرج** . والمونتير الذى يمكنه اختزال لحظات عديدة فى لقطتين أو ثلاث وتكون النتيجة الابتعاد عن العلاقات الزمنية الفعلية ، وهكذا يصبح للفيلم ايقاعه الزمنى الخاص به .

فى أفلام دور السينما لا يفطن الجمهور لذلك ، فرؤوس الممثلين والأشياء فى الفيلم على الشاشة ضخمة (فما بالك بسينما السيارات) والأصوات مضخمة ، ولهذا لا يمكن مقارنة ما يراه بواقع الحياة سواء من ناحية الحجم أو الايقاع . ولكن على شاشة التلفزيون تقترب رؤوس الممثلين ووجوههم من احجامها الطبيعية الى حد ما والمسافة بين الشاشة والمشاهدين مسافة معقولة ، تكاد تكون المسافة التى بين اثنين فى حديث ودى وجها لوجه ، ونحس بما

هو غير طبيعى من ناحية المسافة والصوت ونقيس ونقارن هذه المؤثرات ، دون وعي منا ، بواقع الحياة . ومع التلفزيون يحس الجمهور بواقعية الواقع ، بحقيقة الحقيقة وبوهم الوهم . وقد اعطت الافلام التلفزيونية الممثل وضعا ايجابيا قلما تسمح به الافلام السينمائية التى كان الممثل فيها اداة فى يد المخرج حتى ولو كان نجما مرموقا .

التلفزيون وليد عصر الالكترون ، عصر فورية الكهرباء . وقد انعكس هذا على اسلوب الاخراج والتمثيل والتصوير التلفزيونى . فبدلا من مصور واحد فى الاخراج السينمائى لديه الوقت لضبط الصورة والزاوية والاضاءة **فى كل لقطة على حدة** ، نرى الاخراج التلفزيونى يستغل امكانيات عدة آلات للتصوير **دفعة واحدة** . وبدلا من المخرج الذى يراجع ويعيد اللقطات على مدى اسبوع أو اكثر نجد ان المونتاج فى الاخراج التلفزيونى يتم **اثناء التصوير** .

على مدى نصف قرن تجنبت السينما ، كما تجنب المسرح ايام شكسبير ، اسلوب السرد. وفى الافلام الصامتة كان « السرد » مطبوعا على الفيلم . ولكن مخرجي التلفزيون وجدوا أن السرد يناسب التلفزيون اكثر من مناسبته للسينما . لأن الوجه الذى يظهر لك على شاشة السينما ليطلب منك التبرع بدمك مثلا وانت جالس فى الصالة لاتستريح اليه نفوس المشاهدين — وجه ضخم مساحته ٢ × ٢ متر ، ولكنه ، على شاشة التلفزيون ، ومهما بلغ حجمه (اكبر حجم لشاشة التلفزيون ٢٦ بوصة) يبدو وجها عاديا ، مألوفا مثل وجوهنا . هذا الوجه « الطبيعى » يمكنه مخاطبتك بنوع من الالفة وانت جالس فى بيتك ، فهو وجه يخاطبك « شخصيا » . من هنا جاءت أهمية السرد فى التلفزيون ، المواجهة . وتعتمد البرامج التى من هذا النوع على شخصية المتحدث . وعندما يكون الوجه وصاحبه مناسبين يمكن للسرد فى التلفزيون أن يكون اقوى من اى وسيلة اتصال اخرى . ونجحت برامج أدب وأدباء ، واوتوجراف ، وغيرها لهذا السبب مع عدم وجود العرض الدرامى . فقد وجه الينا عظماء العالم من أمراء وسياسيين وقادة وكتاب وشعراء وأدباء أنفسهم من خلال الشاشة الصغيرة وأن ظل بعض المخرجين يقحمون فى هذه البرامج الناجحة بعض الاغانى أو مشهد من مسرحية وقد ينهى المقدم برنامجه بسؤال الضيف : ماذا تحب أن ترى أو تسمع ؟ فى هذه البرامج نحب أن نتأمل الوجه الذى طالما رأينا صورته على صفحة رواية رائعة قرأناها ، الوجه الذى لمحناه فى موكب مهيب رسمى ، الوجه الذى طالما سمعنا بصاحبه . نراه عن كثب ونسمع صوته ونتأمله وننفذ الى نفسه وكأننا انفسنا فى حوار شخصى معه فى منزلنا مع فنجان شاى . هنا يساعد السرد وهذا القرب من الشخصية على الاستمتاع بدفئها ، على خلق فعالية درامية تعجز عنها وسائل الاتصال الأخرى . ومثل هذه البرامج توضح لنا الامكانيات الضخمة التى يمكن استغلالها فى البرامج التعليمية .

فى النهاية نسأل : من الذى يخطط ويصمم لكل هذا ؟ افراد ؟ هيئات ؟ مؤسسات ؟ من الواضح وجود طاقم من المتخصصين يعاونه آخرون متخصصون فى كل ميدان — الكتابة ، الرسم ، الاخراج . بالاضافة الى ابحاث علماء النفس والاجتماع والتربويين والفلاسفة . المهم هو وجود مزاج ملائم فى الشعوب يجعلها مفتوحة **ومستعدة** لتقبل الجديد **بحذر** . وهذا تقليد يمنحها حرية البحث عن الحقيقة واحترامها .

فهل من جديد ؟ لننظر الى بعض الأبعــادالجديدة لانسان القرن العشرين .

٣ ــ الأبعاد : الى أين ؟

(١) « تعمل تكنولوجيا الكهرباء والالكترونفى عصرنا هذا على اعادة تشكيل واعادة بنـــاء انماط التوافق الاجتماعى وكل جانب من جوانبحياتنا الشخصية . فهى تجبرنا على اعـــادة النظر واعادة التقييم لكل فكرة ، لكل عمــل ،لكل نظام كنا نسلم به من قبل جدلا . كل شىء يتغير ــ أنت ، وعائلتك ، وجيرانك ، وتعليمك ،ووظيفتك ، وحكومتك ، وعلاقاتك بالآخــرين . وكل شىء يتغير بشكل درامى مثير The Medium is the Message P. 8.

(٢) « أفاد احد مفتشى الصحة العامة. . هذا الاسبوع أن فأرا صغيرا كان فى الغالبيشاهد التلفزيون ، هاجم فتاة صغيرة وقطتها كاملةالنمو . . . لم يصب الفأر أو القطة بسوء ، ونحن نسجل هذه الحادثة هنا لنذكر ان الاحوال علىما يبدو قد أخذت تتغير . »

جيمس ريستون فى جريدة نويورك تايمز٧ يوليو ١٩٥٧

(٢) انتشار حالات هجوم الفئران

على الانسان فى الكويت

« أكد مصدر مسؤول باللجنة العلياالمكافحةالفئران أن من ضمن أهم الاسباب التى استدعت الاسراع بتنفيذ الخطة القومية لمكافحة الفئرانهى انتشار حالات هجوم الفئران على الانسان فى بعض المناطق التى تتميز بكثافة وجود الفئراننظرا لتوافر عوامل ومسببات تواجده .

جريدة السياسة الكويتية : صفحة ٦ :السبت ٢٩ مارس سنة ١٩٨٠ .

يقول مارشال ماكلوان (١٢) ان العــالمالغربى ، وبعد ثلاثة آلاف ســنة من التقــدم الحضارى المتسارع الانتشار والتفرع عن طريقالتقنيات الميكانيكية المجزئة قد بدأ يسعى حثيثا، ومنذ تطور استعمالات الطاقة والكهرباء ، الىالانطلاق فى اتجاه جانب معاكس نحو المركز : تمدد وانبساط يتبعهما الآن تقلص وانقباض . لقد ساعدت سرعة الكهرباء الفائقة على انكماش الكرة الأرضية وتقلصها فى الزمان والمكان حتىأصبحت قرية Global Village ، وبالتــالى زاد وعى الانسان بمسؤوليته الى درجة قصوى. ويمر الغرب الآن بفترة يمكن ان يطلق عليها **عصر القلق** (عنوان قصيدة طويلة ــ ١٩٤٨ ــ للشاعرو . هـ . أودين وهى خليط من الميثولوجيــا والتاريخ القديم واغانى حديثة من صنــــدوقللاسطوانات) ، لأن الثورة الالكترونية الفــورية الجديدة تجبر الفرد على الالتزام والمشـــاركة ،وبعمق ، وبغض النظر عن « وجهة النظر » التى يتبناها . **فوجهة النظر** الخاصة الجزئية مهمــاكان نبل مقصدها لن تفيــد فى عصر الكهــرباء والالكترون الآلى الفورى .

---

(١٢) Mc Luhan M. : Understanding Media, London, 1970 pp. 3.5.

فى عصور الآلة الميكانيكية المتعاقبة سعى الانسان الى بسط جسده بشتى الطرق على سطح هذه الكرة . أما اليوم وبعد ما يقرب من قرن من التكنولوجيا الالكترونية فقد أمكن للانسان من أن ينشر جهازه العصبى المركزى ذاته ليحتضن به الكرة الارضية كلها ، بل وبعض الكواكب الاخرى — ويضغط الزمان والمكان . وبسرعة متزايدة نراه يصل الى المرحلة النهائية لابعاد الانسان وحدوده . وأيا كانت أبعاد هذا الوعى التكنولوجى الالكترونى الشامل الجديد ، لابد من الاشارة هنا الى أن هذا الوعى الشمولى الالكترونى لا يمكن دراسته بمعزل عن المجالات الأخرى التى يستطيع الانسان فيها أن يمد أحد حواسه فى الفضاء ، فأى امتداد لأى جزء من أجزاء جسده — الكساء والملابس للجلد ، والآلات لليدين والقدمين والأسنان ، والعملات ووسائل النقل للساقين والظهر ، والمنظار والمجهر للعينين ، والسماعات للأذنين ، ومكبر الصوت للأحبال الصوتية الخ ... — لا شك يؤثر فى تركيبه النفسى والاجتماعى ككل .

فى عصر الماكينات — التى اخذت تتخلى عن مركز الصدارة — كان يمكن تقبل الحركات والافعال (الميكانيكية) دون أن نهتم بها كثيرا ، فقد كفلت لنا حركتها البطيئة (نسبيا) تأخر ردود الافعال — ان وجدت — نوعا ما . لم يكن مثلا من الضرورى على عامل يشغل آلة قديمة للطباعة أن يكون غاية فى الحرص واليقظة ، أو على سائق سيارة من طراز عتيق لا تتعدى سرعتها الثلاثين كيلو مترا أن تكون ردود أفعاله فورية ، اما الآن فقد تلتهم آلة الطباعة الحديثة العامل ان تشتت انتباهه ولو لجزء من الثانية ، وعلى سائق الطائرة التى تفوق سرعتها سرعة الصوت مرتين او اكثر أن يكون هو ذاته عبارة عن آلة فائقة الحساسية . اليوم ، وفى عصر الثورة الكهربية الالكترونية ، فاننا نجد ان الفعل ورد الفعل يصدران فى آن واحد (نضغط على زر النور فنضىء عشرات المصابيح **فى آن واحد** ، ونضغط على أزرار فى عملية حسابية معقدة فنحصل على الناتج فورا .

يحس الرجل الغربى بأنه يعيش فى عصر القلق لأنه يشعر انه يعيش على مستوى الماضى (تراثه وجذوره وحضارته الميكانيكية) وعلى مستوى الحاضر (الالكترونى الكهربى الفورى الآنى) ، يعيش على مستوى ميثولوجى ومستوى عصرى فى آن واحد — ومن هنا يحدث التمزق . فهو مازال يفكر ويعمل ويتصرف بالاسلوب القديم ، أسلوب عصر ما قبل الكهرباء الذى يجزىء الزمان والمكان . ولقد اكتسب الرجل الغربي من حضارته الميكانيكية القدرة على الفعل دون رد الفعل . فالجراح الذى يتفاعل مع كل عملية جراحية يقوم بها لن يغمض له جفن . لقد تعلم الرجل الغربى فن أداء عمله بمنتهى التجرد والفتور . أما فى العصر الالكترونى ، عندما تصبح شبكة الجهاز العصبى للانسان متصلة تكنولوجيا بالمجتمع البشرى بأسره ، لا يسعنا سوى المشاركة فى نتائج كل فعل من أفعالنا . لقد أصبح من العسير على الرجل الغربى الآن أن يتبنى موقفا محايدا ، لانه اذا أراد أن يعرف ما يجرى فى الولايات المتحدة فعليه أن يعرف ما يجرى فى الشرق الاوسط !

هذه الحيرة الجديدة يقدمها مسرح العبث فى أسلوب درامى عندما يصور لنا المأزق الذى يجد الرجل الغربى نفسه فيه : رجل الأحداث والفعل والحركة الذى يؤدى العمل دون أن يورط نفسه فيه . فبعد مئات السنين من العمل المتخصص والتجرد والامتدادات المتنوعة لجسده ،

فجأة يجد هذا الرجل نفسه يعيش فى عالم قد انكمش وانضغط على نفسه ، وهذا الانكماش يفرض على الفرد نوعا من المشاركة الايجابية ، ومن هنا تظهر حيرته وعبث ما يقوم به .

لهذا لم تعد وجهة النظر الفردية ملائمة لعصر الكهرباء . فالزاوية المحددة التى ترى منها الأمور لم تعد تفى بالغرض ، فهى جزئية متخصصة ، وعلى مستوى بث المعلومات ونشرها سواء بوسائل الاتصال المرئية أو المسموعة أو المقروءة ، لاح فى الأفق الرغبة فى تقديم الصورة المركبة بدلا من الصورة التى من منظور واحد . ويوضح الرسم التالى وجود اكثر من وجهة نظر ، من الامام ، من فوق ، ومن تحت .

وتبع ذلك رواج الكتب والاسطوانات (للموسيقى الكلاسيكية وغيرها) والمجلات التى تقدم مقتطفات ، مختارات ، بدلا من رواية واحدة أو أعمال موسيقية لمؤلف واحد . حتى فى الازياء ، ظهرت أقمشة « مرقعة » بها « رقع » من مختلف الالوان ، وامتدت الصرعة الى الديكورات المنزلية ، والوان الطعام ومشروبات « الكوكتيل » . فاذا كان القرن التاسع عشر هو عصر كرسى رئيس التحرير والمقال الافتتاحى الذى يحمل وجهة نظره ، فالقرن العشرون هو عصر الصفحة الاولى الفسيفسائية المتنوعة . فالكرسى يشجع على الامتداد بالراى والتنظير والتقعيد والعقلنة ، اما الصفحة المنبسطة فهى كنبة المحلل النفسى يتمدد عليها الفرد بكامله ، ولهذا يلجأ اليها المحلل النفسى لانها لا تشجع على ابداء الراى من وجهة نظر خاصة .

ان استعمال اية وسيلة من وسائل الاتصل ـ الكتب ، الراديو ، التلفزيون ، السينما ، الفيديو ، الشرائط المسجلة ، الاعلانات الضوئية ـ وكلها امتداد لحواسنا بطريقة أو باخرى ، للعين ، للاذن ، للجهاز العصبى ، يترتب عليه نمط حياتى ونفسى واجتماعى معين . والآلة بوجه عام ، ما أن تدخل فى حياة مجتمع من المجتمعات حتى تغير من انماط الحياة فيه (١٣) . قد يقول البعض أن الآلة أداة محايدة سواء كانت تصنع السيارات الكاديلاك أو المرطبات . ولكن مايهمنا من أمرها هنا هو ما تفرضه علينا من تغيير فى أنماط الحياة وفى سلوكنا . الم نشاهد فيلم العصر الحديث لشارلى شابلن ورأيناه وهو يعمل على خط التجميع حتى أصبح جزءا من الآلة ذاتها الى أن ابتلعته فى النهاية ؟

ما يهمنا هو النتائج المترتبة على تكنولوجيا الآلة الميكانيكية التى تجزىء العمل على طول خط التجميع قديما . والآن ، ومع ظهور الأتمتة Automation تتضح اهمية التكامل والنظرة الشمولية التى هى فى جوهرها نتيجة من نتائج الثورة الالكترونية الحديثة . فالأتمتة تقضى على الفواصل بين الحضارة والتكنولوجيا ، بين الفن والتجارة ، بين العمل واللهو .

ليست رسالة أى وسيلة من وسائل الاتصال أو أى تكنولوجيا هى مضمونها أو محتواها ، بل هى التغير أو التعديل أو التكيف فى العلاقة أو النسبة أو المعدل أو النمط الذى تدخله فى ميزان الامور الحياتية . فالسكك الحديدية أو القاطرة البخارية ، مثلا ، لم تبرز

---

(١٣) انظر Ginestier Paul : The Poet and the Machine, O.U.P., 1961

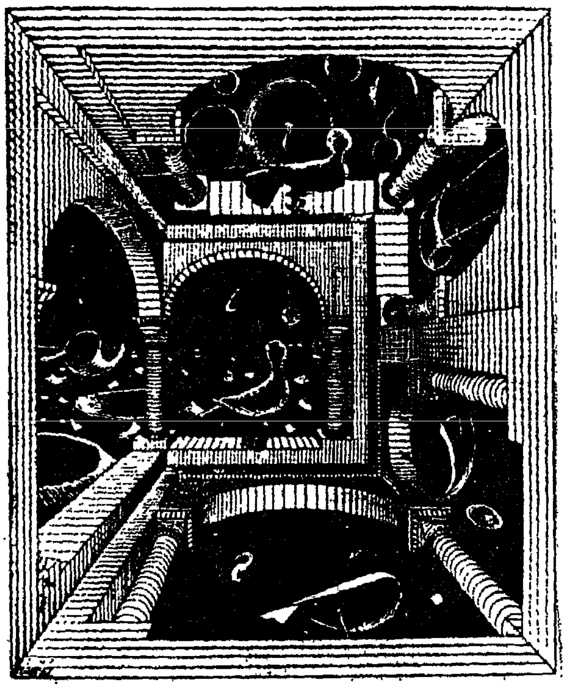

(شكل ٤)

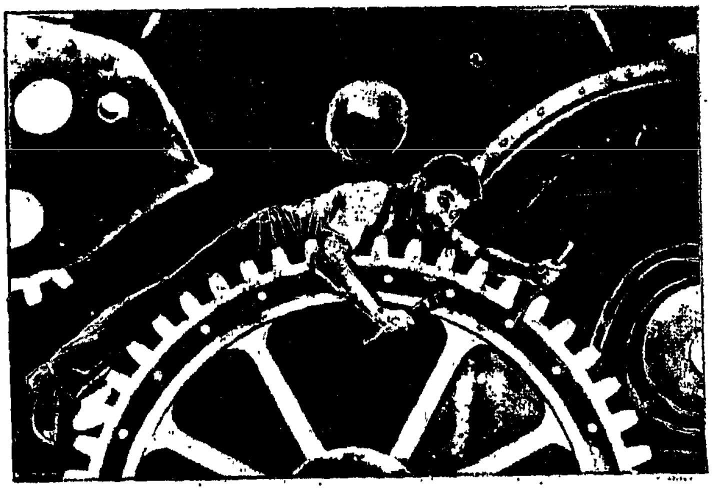

(شكل ٥)

اهمية السرعة، ولم تقدم وسائل للنقل أو عجلات تجرى على قضبان ، أو تربط مكانا بمكان ، ولكنها خلقت أنواعا جديدة من الوظائف ، ومدنا جديدة ، وانماطا حياتية معينة لملء الفراغ (حانات ومطاعم وفنادق وأماكن للتسلية واللهو). ويحدث هذا بغض النظر عن نوع البضائع المنقولة، وبغض النظر عن أماكن امتدادها سواء فى بلد استوائى أو فى بلاد أوروبا . اما الطائرة فتعمل، عن طريق زيادة السرعة وتخطى الحواجز الجغرافية الطبيعية من جبال وبحيرات ومحيطات تعجز السكك الحديدية عن اجتيازها ، على ازالة الفوارق بين المدن بزيادة معدل التغير والتطور ، بغض النظر عن الأغراض التى تستعمل فيها الطائرة .

ونعود الى الضوء الكهربى سواء استعمل فى اضاءة استاد رياضى أو فى اضاءة غرفة للعمليات الجراحية فى مستشفى ، فهو لا يهمنا كثيرا لانه يفتقد « المحتوى » ، « المضمون » ، « الرسالة » . ولا ندرك أهميته الا عندما نراه على لوحة للاعلان فى ميدان عام ، فحينئذ ندرك انه قد كف عن كونه مجرد « ضوء » ليصبح « رسالة » ، « اعلان » فمثله كمثل « الطاقة » ، لا نحس به الا اذا اصبح له « مضمون » . فالتيار الكهربى والطاقة منفصلان تماما عن استعمالاتهما ومع ذلك يقلصان الزمان والمكان فى التعامل البشرى تماما كما يفعل الراديو والتلغراف والتلفون والتلفزيون ، وبالتالى يخلقان نوعا من الاتصال اللاشعورى العميق .

لقد أوضح ديفيد هيوم (١٤) فى القرن الثامن عشر أن مبدأ السببية لا يتوفر لمجرد توالى الأشياء والظواهر ، وكون الشىء يتبع آخر لا يعنى شيئا . فلا شىء يستتبع التتابع سوى التغير . لهذا فان أهم الانعكاسات الفكرية ظهر مع الكهرباء التى قضت على فكرة التتابع أو التوالى أو التعاقب ، وبدأ العالم والأديب والفنان يتحدثون عن التزامن والتواكب والآنية والفورية. ولم تكن الميكنة اكثر وضوحا فى تجزئتها للحركة كما كانت عن اختراع السينما أو **الصور المتحركة**، تلك اللحظة التى نقلتنا نقلة كبيرة من عالم الصور المنفصلة الثابتة للحركة المجزاة الى عالم الحركة المتصلة والعلاقات . فالصورة تعزل ما تصوره وتضع الموضوع فى اطار مكانى محدد دون الروابط الزمانية . وتجىء السينما فى أواخر القرن التاسع عشر وتعمل على ابراز تلاحق الصور وتضيف عنصر الزمان الى المكان ، وأصبح الفن السينمائى قادرا على عرض القريب والبعيد فى الزمان والمكان فى آن واحد . وعملت السينما على الاسراع بالحركة الميكانيكية ونجحت فى نقلنا من عالم التتابع بصورة المتتالية (الصور الفوتوغرافية فى البوم للصور والفانوس السحرى) الى العالم البنيوى المكتمل المتحرك الدينامى . فرسالة التكنيك السينمائى ، بغض النظر عن موضوع الفيلم ، هى نقل المشاهد من عالم التتابع والتوالى والوصلات الى عالم الترابط الخلاق والصورة المتكاملة الشاملة الموحية . ووفرت السينما للمجتمعات الغربية الصناعية عالما وهميا وقدمت لهم أحلاما يمكن شراؤها . وكما يقول جومبريتش فى كتابه Art and Illusion ، كان الوقت

(١٤) Law is an observed custom in the sequence of events, but there is no necessity in custom.

مواتيا لظهور المذهب التكعيبى ، ففى اللوحة التكعيبية تظهر جميع جوانب المنظر او الشكل دفعة واحدة وكأن الرسام يقف فى عدة أماكن فى **آن واحد** ، على اللوحة ذات البعدين ، واختفى أسلوب « المنظور » ، كما فى اللوحة (شكل ٦) لسيزان .

وهكذا لابد من لوحة من منظور واحد (أو وجهة نظر واحدة) يتوهم فيها المشاهد الأبعاد المختلفة ، يقدم الفن التكعيبى لوحة تتصارع فيها المستويات والخطوط والأبعاد والأضواء والالوان وتتطلب اندماجا أكثر من جانب المشاهد . ليس هذا فقط ، بل أصر التكعيبيون على ابراز الداخل والخارج بجوانبه الستة بفرد الشيء بأبعاده الثلاثة على لوحة من بعدين تضحى بقواعد المنظور والنسبة والتناسب فى سبيل ادراك فورى بالشيء ككل من جميع الزوايا ، كما يبدو فى لوحة من الفن المصرى القديم (١٥) (١٤٠٠ ق م) تمثل بحيرة للسمك تحيط بها الاشجار من جوانبها وهو أسلوب فى الرسم ما زال الاطفال يستعملونه الى اليوم . ويقول جومبيريتش « قد نكبح المصرى فنيا ولكننا لن نهزمه ابدا » (شكل ٧) .

وهنا نتساءل : اليس من الواضح أنه فى اللحظة التى يفسح التوالى فيها المجال لهذه الفورية فى الاحساس ، هذه التلقائية فى المشاركة ، هذه الدعوة للاتصال يجد الانسان المشاهد نفسه فى عالم التكوين والتشكيل والمعاونة فى الخلق والابتكار ؟ الم يحدث ذلك فى مجالات أخرى ، فى الشعر والمسرح والفيزياء وفى وسائل الاتصال بأنواعها ؟ لقد تكيفت فى عقل الانسان فصوص انتباه متخصصة وتحولت الى ادراك مجالات متكاملة . فقبل السرعة الكهربية والمجال المتكامل لم يكن من الواضح أن الوسيلة هى الرسالة . كان يبدو أن الرسالة هى المضمون أو المحتوى ، كما كانت عادة الناس عندما يتساءلون : ما هو موضوع هذه اللوحة ؟ ومن الغريب أن بعض اللوحات الحديثة لا تحمل عنوانا لرسالتها وانما يسميها الرسام : عمل رقم ١ أو ٢ ، أو يطلق عليها تكوينات ؟ ومع ذلك فلا احد يسأل ابدا عن موضوع قطعة موسيقية او ما هو موضوع هذه البناية أو هذا المنزل أو هذا الفستان . وفى الرياضيات الحديثة لا يطلب من التلميذ التركيز على « المسائل » او « التمارين » بل يطلب منه تأمل « العلاقات » ، « المجموعات » . الم يلجأ اليوت فى شعره الى الاساليب السينمائية وموسيقى الجاز كما يظهر بوضوح فى « أغنية حب ج . الفريد بروفروك ؟ الم يلجأ تشارلى تشابلن فى حركاته فى الافلام الصامتة الى مركب من خطوات راقص الباليه الرشيقة ومشية المتسكع المتهادية ، كما لجأ تشارل بوايبه الى خلط الانجليزية بالفرنسية وجيمس جويس فى فينيجانز ويك الى نحت لغة خاصة به من ٦٩ لغة ولهجة . ويقول لنا جيرارد مانلى هوبكنز (١٨٤٤ – ١٨٨٩) الشاعر :

« وفيما يختص بهذه السونيت الطويلة تذكر قبل كل شيء ما ينطبق على قصائدى كلها ، وهو انها كتبت لكى تؤدى ، ولكى يكون أداؤها لا عن طريق قراءتها بالعين بل بصوت عال ، على مهل ، وبشاعرية (وليس بنبرة خطابية) ، مع سكنات طويلة ، ووقفات مستأنية عند القوافى

(١٥) Gombrich, E.H. : **The Story of Art**, London, 1972 p. 34 & 446

(شكل ٦)

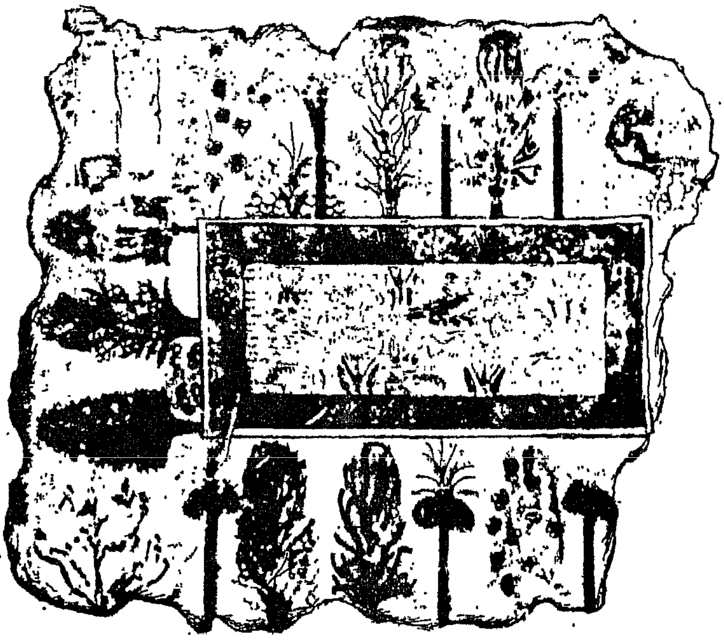

(شكل ٧)

ومقاطع اخرى مميزة ، وهكذا . هذه السونيت يجب أن تنشد ... خذ نفسا عميقا واقرأها بأذنيك ، كما أريد لها دائما أن تقرأ ، فستخرج قصيدتي على أكمل وجه . » (١٦)

... اقرأها باذنيك

تزخر الاعمال الادبية بهذا النوع من انتقال عمل حاسة لحاسة اخرى ومن الغريب ان كثيرا من قراء الادب الغربى الحديث لم يفطنوا الى الحكمة فى الاستغناء عن علامات التنقيط punctuation فى بعض الاعمال الروائية وكلها وسائل ايضاح **بصرية** تعين القارىء على متابعة النص . ان الغرض من حذفها هو اجبار القارىء السلبى على **المشاركة** عن طريق القراءة (باذنه) بصوت عال . كذلك الشعر الحر ، يجبر القارىء على المشاركة باذنه لا بعينه فقط . فعندما تحتار العين ولا تجد مؤشرات مرئية تعينها على القراءة تلجأ للاذن (شكل ٥) .

لا يمر يوم دون أن يتعامل فيه انسان العصر الحديث مع وسائل الاعلام والاتصال سواء على المستوى الفردى (التخاطب) أو المستوى الجماهيري . لا يمر يوم دون أن يكون على مقربة من راديو فى سيارته أو فى جيبه أو فى منزله أو فى الشارع ، ولا يمر يوم دون أن يشاهد برنامجا تلفزيونيا ، ونادرا ما يجلس على كرسى فى المنزل او عند الحلاق او الطبيب الا ويجد مجلة أو جريدة يومية أو كتابا بجواره ، ويجد معظمنا متعة فى قراءة كتيبات الارشادات لتشغيل جهاز منزلى جديد ، وتلتف الاسرة حول جهاز التلفزيون الذى يحتل مركز الصدارة فى حجرة المعيشة ، ذلك المركز الذى كانت تحتله المدفأة فيما مضى فى الغرب . نجلس امامه كما كان الاجداد يلتفون حول الراوى فيما مضى والاولاد حول صندوق الدنيا والحاوى . لا يتحرك انسان العصر الحديث من مكان الى آخر الا ونجده يقرأ الارشادات واللافتات ليلا ونهارا فى الشارع وفى الادارات الحكومية والمطارات ومحطات السكك الحديدية والباصات ، ترشده وتوجهه وتنصحه كما نراه يسمع التعليمات من مكبرات الصوت . ولا يمر اسبوع الا ونراه يشاهد فيلما سينمائيا فى دار للعرض أو فى مدرسة أو ناد أو جامعة .

هل استطاعت كل **وسيلة جديدة** من وسائل الاتصال ــ الطباعة ، الصورة ، الراديو ، التلغراف ، التلفون ، السينما ــ ان تكيف من اسلوب استجابتنا للعالم من حولنا ؟ ان تمارس نوعا من ترويض مدركاتنا الحسية ؟ الاجابة : نعم . سنوجز فيما يلى ما كتبه مارشال ماكلوان تحت عنوان : لماذا لا تستطيع المجتمعات الامية ان تشاهد الافلام السينمائية او الصور الفوتوغرافية دون كثير من التدريب .

« أعد مفتش المرافق الصحية فيلما سينمائيا مبسطا وبأسلوب فنى فى غاية السهولة لارشاد المواطنين فى قرية افريقية الى أسهل السبل للتخلص من القاذورات وخاصة الماء الراكد فى البرك الصغيرة أمام الاكواخ . عرض الفيلم على المواطنين ، وبحركة بطيئة نوعا ما ، حكاية رجل يخرج من كوخه ليرى علبة من الصفيح مملوءة بالماء الراكد فيحملها بعيدا عن الكوخ ويلقى بما

(١٦) John Pick, Ed. **A Garard Manley Hopkins Reader,** O.U.P, London, 1953 p. xxii

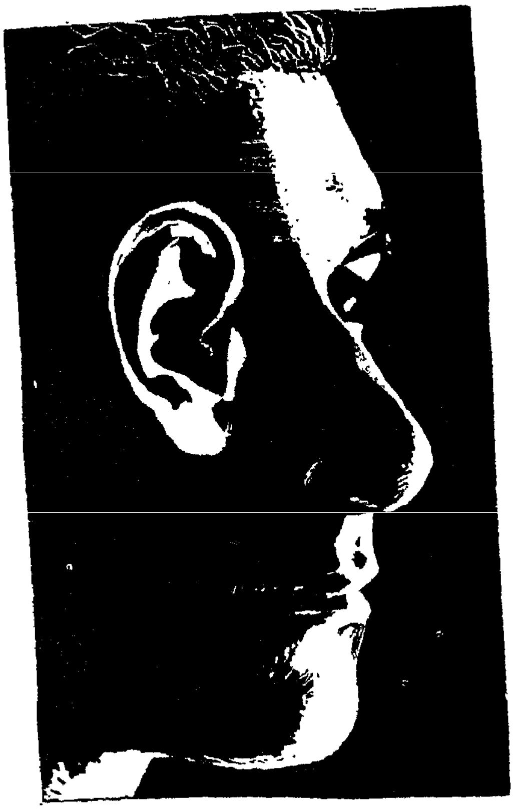

(شكل ٨)

فيها على الارض ويوزع الماء بقدمه لكي لا يكون بركة تساعد على توالد البعوض ثم يضع العلبة الفارغة فى كيس كبير للقمامة على ظهر حمار . كان الهدف من الدرس هو أهمية جمع هذه الأشياء التي تساعد على توالد البعوض فى المياه الراكدة . وتجمع العلب فى النهاية وتدفن فى حفرة . ويستغرق عرض الفيلم خمس دقائق .

كان عدد من شاهدوا الفيلم ٣٠ وكان السؤال التقليدى بعد انتهاء الفيلم : ماذا رأيتم ؟

وجاءت الاجابة المذهلة ومنهم جميعا : رأينا دجاجة ، فرخة . ولما طلب منهم التحدث عن الفيلم وحكايته قالوا انهم رأوا رجلا ولكنهم لم يستطيعوا ان « يجمعوا » من « مفردات الفيلم » قصة « ، « مغزى » ، وانما كانوا طول الوقت ينعمون النظر ويتفحصون « مفرداتها » ، « تفاصيلها » . **اذن ما هى حكاية الفرخة ؟ قال** الخبراء فيما بعد أن الجمهور الذى **تعود** على مشاهدة الصور الفوتوغرافية والافلام السينمائية يركز عينيه عند المشاهدة على نقطة امام الشاشة المسطحة وتبعد عنها لكى يخلق منظورا من ثلاثة أبعاد تكون حدوده اطار الشاعة . وهذا يعنى انه يجب عليك أن « تأخذ » الصورة ككل ، أما هؤلاء الناس فلم يتعودوا على مشاهدة الصور . لم يكتسب الاميون هذه العادة التي تبوئر العينين عند نقطة خارج الصورة وأمامها لتلم المنظر بأكمله . انهم « يقرأون » الصورة كما نقرأ نحن الصفحة المطبوعة ـ كلمة بعد كلمة ، وسطرا بعد سطر . فهم لا يكونون وجهة نظر « منفصلة » عن الشيء المرئي ، بل نرى عيونهم مع الشيء . والعين فى هذه الحالة تبعد عن مجال « المنظور » وتدخل فى مجال « الملموس » .

ومن جانب آخر كشف الفيلم عن مدى من تكيفوا مع أسلوب مشاهدة الصور والافلام ومن لم يتكيفوا . هذه الدجاجة التي دخلت فجأة فى اطار الفيلم من الناحية اليمنى ولمدة ثانية واحدة أثارت الانتباه لانها دخلت « دون مبررات » . كذلك اللقطات البانورامية سواء العمودية او الافقية كانت محيرة ناهيك عن اللقطات القريبة والبعيدة Close-up-telescopic . كان هؤلاء الناس يعتقدون أن المناظر هى التي تتحرك وليست الكاميرا او تركيب العدسات ذاتها فالفيلم الذى نشاهده يبدأ بصورة للمدينة من فوق ثم تتسلل الكاميرا الى احد المنازل وتدخل من النافذة الى حجرة المعيشة مثلا ومنها تنزل الدرج الى الشارع ـ هذا الفيلم يحير من لم يتعود على هذه الحيل السينمائية التي اكتسبنا القدرة على استيعاب فنونها على مر السنين . (١٧)

مما سبق يتضح أن وسائل الاتصال الحديثة تمارس على المدركات الحسية قوى ترويضية وتكيفية وبشكل فعال . ولقد قطعنا الى يومنا هذا شوطا لا بأس به فى عصر الالكترون والأتمتة يعادل الشوط الذى قطعه القرن السابع عشر فى عصر الطباعة والميكنة . ويتعرض العقل الغربى لنفس الهزات الفكرية ولوساوس وهواجس عصر القلق وعدم الاستقرار مثلما عاش العقل

---

(١٧) McLuhan, M. : **The Gutenberg Galaxy**, London, 1969, pp. 3739.

الاليزابيثي فى عالمين فى آن واحد . (تبين **دكتورفاوست** لمارلو هذا الخليط بين العصور الوسطى وعصر النهضة) وكذلك العصر الفيكتورى الذىعبر ماثيو آرنولد (١٨٢٢ – ١٨٨٨) **عن حيرته بقوله « نهيم بين عالمين ، أحدهما ميت ،والاخرعاجز عن أن يولد . » ولكن ، بينما استطاع** الاليزابيثيون ان يصلوا الى توازن قلق بين تجربةالعصور **الوسطى بتنوعها المختلط الشمولى وفردانيتها الجديدة ، نرى** انسان العصرالحديث **(والانسان الغربى على وجه الخصوص) يعكس النمط الاليزابيثى . فهو يواجه تكنولوجياالكترونية كهربية تجعل من هذا التفرد على** ما يبدو فكرة عتيقة **وتشجع بل وتؤكد** الترابطيةالشاملة المتكاملة .

اليوم يعيش الرجل الغربى فى فترةيسميهافورستر فى روايته **رحلة الى الهند** شفق الرؤية المزدوجة Twilight of the double vision فترة من تاريخ حضارته تتصارع فيها حضارتان مختلفتان وكانت تباشير هذا الصراع واضحةفى كتاب شبينجلر **تداعى العالم الغربى** **The Decline of the West** ١٩١٨ . فالحضارةالغربية الحديثة حضارة منضدة مطبوعة ،علمية، تعتمد على الملاحظة (العين) والرصد (التسجيل) والتخصص (التجزئة) ، وحضارته القديمة (والشرقية عامة) تعتمد على المشافهةوالوسائل السمعية (الأذن) ، فهى حدسية ، شمولية ، متكاملة ، مترابطة عضويا . وفى عصر الالكترون والاتصال الكهربى الذى بدأ يخلف عصر الطباعة والميكنة نقابل بعض الملامح والتنظيمات الجديدةللعلاقات البشرية والتعبير فى قوالب شفاهية / سمعية كالاذاعة والشرائط المسجلة والاسطوانات(وتعليم اللغات بالاسطوانات) . ليس هذا بالأمر الذى يصعب ادراكه ولكنه يتطلب مناعادة النظر فى أساليب تفكيرنا كما يوضح لنا الفيلم التعليمى السابق عن البعوض والفرخة . فمثل هذه التغيرات فى أساليب وعينا وكيفية ادراكنا لماهية الأشياء كثيرا ما يتأخر الاحساسبها لاستمرار تأثرنا بأساليب ادراكنا القديمة وطول تكيفنا لها . فنحن ننظر مثلا الى انسانالعصور الوسطى على أنه انسان متأخر متخلف حضاريا ونعتبر انفسنا أبناء العصر الحديث ،بينما يعتبرنا احفادنا وربما أولادنا «دقة قديمة» مع اننا نعيشفى القرن العشرين ، فنحن، بالنسبةلهم ، لم نع اطلاقا تلك الخطوات الهائلة التى قفزها عصرنا فى الخمسين سنة الأخيرة .

الانسان ، من بين - يفانه الكثيرة ،حيوانيصنع الآلات . ونراه دائما مشغولا بمد واحدة او اكثر من حواسه . فتوير الاسلحة يبدأبالأسنانوينتهىبالقنبلة الهيدروجينيةوالصواريخ الذرية ، والملابس بديل لاهابة ولكنها تمتدلتشمل المنزل والمجتمع السكنى واجهزةالتكييف المركزى وكلها ، الى حد ما ، امتداد لجهازالانسان البيلوجى فى جسده للتحكم فى درجة حرارته . الأثاث فى المنزل يكمل الجلوس والقعودوالنوم وهكذا . ونأتى لبعض الآلات كالمنظار والمجهر والراديو والتلفون والتلفزيونواللاسلكىوالتلغراف والكتاب كلها وسائل تحمل الصوت والصورة عبر الزمان والمكان ، وكلها أمثلة لهذهالأبعاد المادية للانسان . حتى العملة سواء

الورقية أو المعدنية هى بعد آخر من أبعاداختزان الجهد والعمل . ووسائل النقل هى الاخرى ابعاد جديدة للانسان فشبكات المواصلات والنقـل من شاحنات وبواخر وطائرات امتداد لنا وتقوم بما كنا نقوم به فى الماضى على ظهورنا واقدامنا . ان كل ما صنعه الانسان يمكن النظر اليه على أنه امتداد لما كان يقوم به الانسان فى الماضى بجسده أو بعضو متخصص من جسده . واللغة استعارة بمعنى أنها لا تختزن التجربة الانسانية فحسب بل وتترجمها من صيغة أو شـكل او مظهر الى آخر . فيمكن مثلا لحاسة معينة أن تستقبل رسـالة خاصـة بحاسة أخرى فنحن نقيس درجة الحرارة مثلا (وحاستها اللمس) بمؤشر لدرجة الحـرارة (نراه بالعين) وكذلك الوزن . وكلنا نذكر العين السحرية فى اجهـزة الراديو القديمة وكنا عن طريقها نضبط المحطات (بالعين) بدلا من ضبطها ، كما كان يحدث من قبـل ، بالأذن . وميكانيكي السـيارات الذى يستعمل الان عدادات متخصصة لضبط تزامن الاشتعال عن طريق العين بعد أن كان يعتمد فى ذلك على اذنه المتمرسة . وورقة عباد الشمس (عن طريق العين) تفرق لنا بين الحامض والقلوى (حاسة الذوق) . فحواسنا ليست نظما أو دوائر مقفلة ، ولكن من الممكن ان تتحول الواحدة منها ، وبطرق عديدة ، الى الأخرى . الم نر على شاشة تلفزيون الكويت فى فيلم علمى تلك السيدة الروسية وهى ترى بأطراف أصابعها ؟ ومسلسل آخر يرى الأعمى فيه بمسام جلده . وتلجأ ادارة المخابرات المـركزية الامريكيـة الى الاستفادة من درجة التركيز الفائقة لدى العميان فى تفسير الاصوات المسجلة على الاشرطة التى يعجز المبصرون عن القاء اى ضوء عليها كمـا تستعين بمن يقدرون على ترجمة حركات الشفاة (بالعين) عن بعد دون سماعها .

لقد ظلت معظم التكنولوجيات الميكانيكية القديمة فى القرون الثلاثة الاولى للتصنيع نظما مقفلة ، لا يقدر نظام منها على الانفتاح على الاخر . اما الان ومع انفتاحها مع الثـورة الالكترونية الفورية الجديدة فقد أصبح من الممكن للحـواس كلها أن تعمل فى نظام أو مجال متكامل شـامل يتطلب من الفرد وعيا شاملا متكاملا بها . فعندما كانت التكنولوجيات بطيئة فى الماضى . وبعضها منفصل عن الآخر ، كانت بحكم تصميمها نظمـا مقفلة ، محددة . اما الان فقد تغير الحال وأصبح المرئى والمسموع والمتحرك يعملون بشكل فـورى وعلى نطاق واسع يشمل سطح الكرة الأرضيـة وأجزاء من الفضاء حولها .

هناك اذن اتجاه ملحوظ ، سواء فى عـلم الفيزياء الحديثة أو الرياضيات أو الادب ، أو التصوير او الرسم أو النحت ، الى ادراك القصور فى كل ما تقدمه هذه العلوم والفنون والآداب عندما تزنق نفسها فى عوالم مقفلة وتتقيد بمـا يطلق عليه « وجهة النظر » سواء كانت علميـة أو أدبية أو فنية . ففى الرواية الحديثة يضـع الكاتب نفسه على عدة مستويات زمانية ومكانية ويتنقل من الوصف الخارجى للشـخوص الى الغوص فى أعماقهم عن طريق تسجيل تيار الوعى

(١٨) Hall, Edward : The Silent Language, New York, 1959, p. 79.

فيهم . وفى التصوير اخترعنا عدسة عين السمكة بعد العدسة ذات الزاوية الواسعة ، وتستطيع العدسة الاولى أن تلم المنظر على مدى ١٨٠ درجة . وفى التلفزيون نستعمل عدة آلات تصوير فى آن واحد . وفى السينما كانت تعرض علينا لقطات متتاليه من العرض القادم فيما مضى . اما الآن فتقسم الشاشة الى مربعات كرقعة الشطرنج ليظهر عليها ودفعة واحدة مناظر مختلفة من الفيلم الذى سيعرض . حتى على مستوى مفردات اللغة تظهر فى الانجليزية الكلمات المنحوتة بشكل متسارع يفوق كثيرا سرعة ظهورها فى العربية وكذلك الكلمات المختصرة . فمن افطار + غداء فى الانجليزية نجد كلمة Brunch من Skirt + Skort = Skort, Breakfast + Lunch ومن الكلمات بل والعبارات المختصرة Dr. Mr p.m. UN. N.A.T.O. ولم ننجح فى العربية الا فى اختصار كلمة دكتورالى د . وصفحة ص . وتلفون ت ، وقبل الميلاد الى ق . م . وميلادية : م وهجرية : هـ . وقدكنا سباقين فيما مضى فى هذا المضمار كما فى البسملة والحوقلة والعبشمى والحيعلة والصهصلق والصلدم .

لم تعد الحبكة (وهى من شد الوثاق ، والمحبوك هو المحكم) فى الرواية بحوادثها المتسلسلة المتتالية هى ما يسعى اليه كتاب القصة الحديثة ، ولم تعد القواعد الارسطية الصارمة (الوحدات الثلاث) التى تتحكم فى سرد الاحداث من بداية الى وسط الى خاتمة هى ما يحرص عليه كتاب الرواية . لقد أصبح لدينا الآن فن جديد ينفتح فى خاتمته وينشعب ولا تنتهى فيه القصة بوضع نقطة بل علامة استفهام او تعجب ، ولا المسرحية بنزول الستار فى الفصل الاخير . هذا الأدب الجديد بحبكته الغريبة وتسلسل حوادثه العفوى المفاجىء يسبب للقارىء والمشاهد نوعا من الازعاج لأنه يخرج قطار فكره عن خط سكته الحديدى الذى يشبه تسلسل حروف الطباعة على السطر ، كذلك التقديم والتأخير فى الزمان والمكان ، وفى أساليب السرد المختلفة ، وفى اختلاف أبعاد المنظور فى الرسم الحديث ، وفى الايقاعات المتنوعة فى الموسيقى الحديثة بل وفى اختفائها احيانا ، كلها أساليب تحير القارىء او المستمع او المشاهد .

هناك اذن تحول ملموس فى هذا القرن من التكنولوجيات الميكانيكية الى أخرى الكترونية تساعد على نوع من الانتكاس فى تطورها من حركة طردية الى حركة تجاذبية ناحية المركز . ومع ذلك نلاحظ اننا مازلنا نتحدث عن الانفجار السكانى والتوسع فى التعليم . فكلمتا « انفجار » و « توسع » توحيان بحركة طاردة مركزية الى الخارج مع انه ليست الزيادة فى أعداد الناس فى العالم هى التى تخلق اهتمامنا بالسكان . الكوارث والمجاعات والأمراض والزلازل والفيضانات كانت موجودة دائما . اذن ما هو السبب فى اهتمام المجتمع الدولى بها فى الآونة الاخيرة . ما سبب اهتمام اليونيسكو (تشكلت عام ١٩٤٦) بالدول النامية ؟ كانت المجتمعات النامية هذه فى القرن التاسع عشر تسمى « عبء الرجل الأبيض » ، وكانت افريقيا قارة سوداء بكرا ، حديقة حيوانات كبرى يفد اليها رجل الغرب ببندقية فى سفارى للمغامرة والمتعة والاسترخاء (والنهب) ، ثم يعود الى موطنه بعد فترة لا يحمل معه من ذكريات سوى جلد نمر أو سن فيل ، وربما بعض الصور الفوتوغرافية فماذا حدث ؟ . حقيقة الأمر الآن هى أن كل فرد فى هذا المجتمع البشرى ــ مجتمع الكرة الارضية ــ يحس بجاره ، وقد يكون جاره هذا فى قارة

أخرى . فجأة ، ومع هذه الثورة الالكترونيةفى وسائل الاتصال ، وجد كل فرد من أفراد هذا المجتمع الدولى نفسه يعيش عن قرب من الآخرين: السمر والصفر . فهو يراهم ويحس بهم . صحيح ان الكثافة السكانية ارتفعت بسبب الزيادة فى أعداد البشر ولكننا نحس بهذه الكثافة أكثر من قبل وبشكل مختلف بسبب الثورة الالكترونية فى وسائل الاتصال . كذلك فى التعليم: ليست الزيادة فى اعداد من يرغبون فى التعلم فقط هى التى تخلق الازمة بل لأن اهتمامنا الجديد بالتعليم يتبع مسارا جديدا يتجه ناحية **العلاقات** بين المعارف ، ناحية ما يعرف الآن بالمعارف المترابطة أو المتصلة Border-line or Interdiscilpinary Sciences كطب الفضاء ، والهندسة الطبية Medical Engineering والبيوتكنولوجى وفيما سبق Astro-physics, Bio-chemistry Psycho - Linguistics كانت العلوم فيما مضى تدرس الواحد منها بمعزل عن الآخر ، أما الآن فقد تطلبت الحقول المشتركة الجديدة أقساما وتخصصات جديدة مما أضعف سلطات الاقسام القديمة الى حد ما كتذويب الفروق بين الطبقات واضمحلال القوميات القديمة واعادة تشكيلها واستقلالها ، تحت تأثير الثورة الالكترونية ، فى تجمعات جديدة (الأحلاف العسكرية والسوق الاوربية المشتركة وهيئة الامم المتحدة واليونسكو الخ) . ان عصر الاتصال الالكترونى يدفعنا الى الاحساس بالبشرية كلها. والفرق بين التطور الميكانيكى والتطور الالكترونى كالفرق بين نظام خطوط السكك الحديدية ونظام أسلاك دوائر كهربية. فالنظام الاول يتطلب محطات بداية ونهاية ومراكز مدنية كبيرة واستعدادا خاصا للشحن والتفريغ والتخزين (للركاب والبضائع والقاطرات) . اما القوة الكهربية فقد تتوفر فى مزرعة ريفية او فى ناطحة سحاب أو فى جناح فى فندق فخم أو فى خيمة فى البر ، فهى تجعل من أى مكان **مركزا** بل ولفوريتها تجعل الانتقال من هذا المركز الى المحيط والاتصال به أمرا ميسورا : فهى اذن تشجع اللامركزية ولا تتطلب تجمعات كبيرة . ويقول لنا سيجفريد جيديون (١٩) فى كتابه سيطرة الميكنة أنه منذ بداية القرن العشرين أخذت الفلسفة الميكانيكية للعالم تتدهور . وعجزت فلسفة نهاية القرن التاسع عشر التى اهتمت بدقائق التفاصيل عن ايجاد حل لادماجها . ويحاول القرن العشرون أن يعيد بناء فلسفة علمية متكاملة مجالها التوازن بين المعارف المتاحة كلها . واليوم سواء فى الفيزياء أو الطب أو الاقتصاد أو العلوم السياسية ترى هذه النظرة الشمولية ، وفى الصناعة تحل الأتمتة محل التجزئة على خطوط التجميع وتعمل على ربط خطوات الانتاج ربطا عضويا فى مجمع الانتاج الضخم ، كما يحل الشريط الكهربى الممغنط محل خط التجميع . وفى عصر بنوك المعلومات والمنتوجات المبرمجة تبدأ السلع ذاتها فى اتخاذ شكل المعلومات ، تترجم الى «رسائل». الا يطلق على الصفقات أيا كان حجمها Package deal؟

ولو أن هذا الاتجاه لا يظهر بوضوح الا فى السلع الاستهلاكية كالسجاير وادوات التجميل والصابون (وهو مزيل لأدوات التجميل !) . ويأتي هنا دور الفنان الذى نفاه

---

(١٩) Giedion, S. : Mechanization takes Command, London, 1970 pp. 717. 719.

أفلاطون من جمهوريته والذى حرم من **السلطة** لفترة لتجنده كبرى شركات الانتاج للترويج لسلعها ، كما استغل رجال الحرب علماء الذرة فى اختراع القنابل الذرية والاسلحة الفتاكة .

يقول المزمور (١١٥) :

أصنامهم فضة وذهب عمل أيدى الناس ،

لها أفواه ولا تتكلم ، لها أعين ولا تبصر

لها آذان ولا تسمع ، لها مناخر ولا تشم

لها أيد ولا تلمس ، لها أرجل ولا تمشى

ولا تنطق بحناجرها ، مثلها يكون صانعوها

بل كل من يتكل عليها .

يقول المزمور أن الانسان الذى يسمح للآلة باستعباده يصير مثلها . ولقد ترجم الشاعر الصوفى بليك (١٧٥٧ — ١٨٢٧) وكان يجيد الرسم والحفر ، هذه النظرية فى **الاتصال** الذى يؤدى الى « الانقفال » أو « الانغلاق » Closure عندما يقول لنا :

اذا تغيرت حواس الادراك ، تبدو الأشياء المدركة

وكأنها تتغير

اذا انغلقت حواس الادراك ، تبدو مدركاتها

وكأنها تنغلق هى الأخرى .

ماذا كان الشاعر بليك يعنى بذلك ، لقد ثبت ان الأصوات العالية تساعد على حشو الاسنان بدون الم ! يضع المريض على اذنيه سماعتين ويزيد بواسطة مفتاح من شدة الصوت الى أن يتلاشى احساسه تماما بالألم من آلة الثقب . هنا عندما نختار حاسة واحدة (السمع) للتنبيه الشديد ، أو نعزل حاسة واحدة أو « نستأصلها » بواسطة اى نوع من انواع التكنولوجيا نجد أن باقي الحواس تضمر ، يصيبها الخدر . وحسب فلسفة بليك يتسلل الحذر الى تكنولوجيات العصر الالكترونى بشكل حثيث ما لم نحذر منها . فعصر القلق هو عصر وسائل الاتصال الالكترونى وعصر العقل الباطنى واللاوعى ، هو عصر الفتور والضجر واللامبالاة وعصر المسكنات وحبوب الهلوسة ، وعصر الاثارة والجريمة وافلام الرعب والعنف والاغتصاب . ومع ذلك هو عصر وعينا باللاوعى ، عصر الادراك الفورى الشامل لما يدور حولنا ، عصر الاحساس الوجودى والمشاركة بعمق ، عصر الالكترون والكهرباء — وقد يكون عصر استنارة جديد .

بعض المراجع

أولا ــ تاريخ وسائل الاتصال :

1— Eder Josef Maria : **History of Photography**, New York Columbia W.P. 1945.

2— Mc Murtie Douglas C. : **The Book** : The Story of Printing and Bookmaking O.U.P. 1942.

3— White Paul : **News on the Air**, New York 1947.

4— Willis Edgar : **Foundations in Broadcasting** : Radio and Television O.U.P.

ثانيا : سيكولوجية الاتصال :

1— Bryson Lyman (Ed.) **The Communication of Ideas**, New York 1948.

2— Wiener Norbert : **The Human Use of Human Beings : Cybernetics and Society**, Boston 1950.

ثالثا : الوسائل :

1— Bettinger Hoyland : **Television Techniques**, New York 1957.

2— Eisenstein Sergei : **The Film Sense**, New York 1947.
The Film Form New York 1949.

3— Frey Albert : **Advertising**, New York 1957.

4— McLuhan M. : **The Mechanical Bride** : Folklore of Industrial Man London 1947.

رابعا : ابعاد الاتصال :

1— Kepes Gyorgy : **The Language of Vision**, Painting Photography Advertising-Design Paul Theobald and Co. 1969.

2— Mc Luhan M. & Quentin Fiore : The Medium is the Message London 1970.

* * *

سكيولوجية الاتصال

طلعت منصور

مدرس علم النفس بجامعة الكويت

مقدمة :

تتسم الحضارة الانسانيه المعاصرة بالثورة العلمية التكنولوجية وما تنطوى عليه من تغير وتقدم متعاظمين يتفرد بهما هذا العصر الذى يرنو الى حضارة القرن الحادى والعشرين . فهذه الحقبة الفريدة من تاريخ الانسان هي عصر التكنولوجيا الراقية ، وعصر المعلومات والتفجر المعرفى ، وعصر التلاحم العضوى الوظيفي بين الانظمة العلمية المختلفة ، وعصر توالد انظمة علمية جديدة نتيجة لهذا التلاحم ، وغير ذلك من مظاهر تعاظم التغير والتقدم المستمرين .

هذه التغيرات بدورها قد انعكست على الاتصال بعملياته وتكنولوجياته ووسائطه ، حتى أننا لنستطيع أن نسمي هذه الحقبة أيضا بـ ((**عصر الاتصال**)) . فالتكنولوجيا المعاصرة قد اختزلت الانعزال العقلي المعرفى للناس الى الحد الادنى ، وأدت الوسائل الحديثة للاتصال والمواصلات الى الاسراع بنشر المعلومات الى الحد الذى نستطيع معه فى المستقبل غير البعيد أن نتوقع أنه لن يوجد فرد أو جماعة سوف يكون فى مقدورها الهرب من تلك التأثيرات التي سوف تتلاحق عليها من كل صوب اتصالي .

تتضح تلك الحقائق من أنه ابان العقد الاخير قد ازداد تدفق البحوث العلمية الخاصة بالاتصال الانساني بمعدل مذهل . يعزى هذا التدفق الى الاستخدام المتسع لمصطلح « اتصال » ، والى الاهتمام المتزايد ببحوث الاتصال من جانب انظمة علمية عديدة . ففي دراسة التطورات التي جرت

فى هذا الميدان يمكن أن نحدد أكثر من عشرين نظاما علميا أكاديميا يوفر المضمون والطريق للبحث فى بعض جوانب التفاعل الانساني (١) .

فالعلوم الطبيعية تسهم فى دراسة الاتصال عن طريق مجالات فنية مثل السيبرنطيقا ونظرية المعلومات ونظرية النظم . أما العلوم الاجتماعية فتحتضن الاهتمامات الشاملة لأصحاب الانثروبولوجيا الذين يعرفون الثقافة على أنها اتصال ، ولأصحاب علم النفس الاجتماعي الذين يحددون العلاقات بين نشاط الفرد والجماعة كعملية اتصالية ، ولعلماء اللغة الذين يصفون بحوثهم فى بنيوية اللغة على أنها جانب من علم الاتصال . وثمة اتجاهات أخرى تلك التى تأخذ بنظام العلاقات المتبادلة بين العلوم المعنية interdisciplinary فى دراسة الاتصال ، وفى مقدمتها علم النفس والاجتماع والاتصال الكلامي والعلوم السياسية والصحافة وغيرها كثير . وبالاضافة الى ذلك ، تسهم العلوم الانسانية ـ وخاصة علماء البلاغة والفلسفة ـ فى تزويد التفاعل الاتصالى الانساني بتراث غنى من التقاليد والتعاليم . من الواضح ، اذن ، أن مايعرف بـ « علم الاتصال الانساني » ليس على الاطلاق بنظام علمي واحد . فالاتصال الانساني هو بالدرجة الاولى موضوع للبحث والتنظير العلميين (٢) .

ورغم الانجازات العلمية المدهشة ، فان ميدان الاتصال الانساني لم يتوصل الى اقرار حدود أو مجالات محددة له بدقة (٣) . ويمكن ان نعزو ذلك الى نقص التكامل بين النظريات فى هذا الميدان . وقد يتضح ذلك أيضا من الحقائق التالية : فهناك خمس وعشرون تصورا مختلفا لمصطلح « اتصال » يجرى استخدامه فى البحث فى هذا الميدان (٤) ، وقد ظهر فيما ينشر من كتب ودراسات خمسون وصفا مختلفا للعملية الاتصالية . (٥) وعلاوة على ذلك ، فان ثمة تصورات نظرية من شأنها أن تحد المحاولات الكثيرة لتكوين نموذج عام للاتصال . فمنذ أن نشر « شانون وويفر » (١٩٤٩) نموذجهما الرياضى عن الاتصال ، ظهر أكثر من خمسة عشر نموذجا مختلفا فى تفسير الاتصال .

من الواضح ، والحال هكذا ، انه حينما يختفى تصور للاتصال الانساني يلقى قبولا عاما ، يكون من غير المستغرب أن يتعرض ميدان كهذا للكثير من النقد على انه « يتضمن قدرا متزاحما

1. Krower, F.H. The present state of experimental speech-communication research. In P. Ried (ed.), **The frontiers in experimental speech communication research,** Syracuse, New York, 1966, p. 21.
2. Schramm, W. Communication research in the Unites States. In **The Science of human Communication.** New York, 1963.
3. Thayer, Lee. Communication : concepts and perspectives. Washington, 1967.
4. Thayer, Lee. On theory building in communication : some conceptual problems. **Journal of Communication,** 13 (1963) 216-235.
5. Bettinghaus, E. **Message preparation : The nature of proof** : Indianapolis : 166, p. 31
6. Shannon, C., & Weaver, W. **The mathematical theory of communication.** Urbana, 1949.

من الحقائق والمبادىء ، وعلى أنه » ... غابة من المفاهيم غير المترابطة ... وحشد من البيانات التجريبية (الامبيريقية) غير المنظمة ، والعقيمة غالبا ... (٧)

والواقع أن البحث فى ديناميات الاتصال الانسانى ينبغي أن يرتكز على محورين رئيسيين : أولهما ـ المعرفة المتكاملة التى تأخذ بنظام العلاقات المتبادلة بين العلوم المعنية بالاتصال، وثانيهما ـ تمايز البحث فى الاتصال بمحاولات معينة مثل تكنولوجيا الاتصال ، بيولوجيا الاتصال ، سوسيولوجيا الاتصال ، سيكولوجيا الاتصال ، وغير ذلك من نواحى الاتصال المختلفة التى تستلزم دراسات متعمقة تتوفر عليها علوم متخصصة . وهذان المحوران ينبغي أن يتفاعلا فيما بينهما ، ليعمق بعضهما الآخر ، وليثريا البحث فى الاتصال من جوانبه المختلفة ، وصولا الى التكامل النظرى للاتصال كظاهرة مركبة متشابكة الأبعاد والمكونات .

● ● ●

المدخل السلوكى لدراسة الاتصال : يسعى علماء الاتصال خاصة الى البحث عن القوانين السلوكية التى تحكم الاتصال الانساني . وهم بذلك يهدفون الى اقرار النظام الذى فى سياقه يتواتر سلوك الأشخاص المرسلين والمستقبلين فى مواقف اتصالية معينة . (٨) والاتصال ـ سلوكيا ـ شرط ضرورى لتناقل المعلومات ولتنسيق نشاطات الافراد والجماعات، حيث أن ثمة خطوطا معينة للاتصال فى أية جماعة تميل الى الرسوخ والاستقرار فيما يعرف بشبكات الاتصال Communication nets (٩) ويمكننا بذلك أيضا أن نعتبر النظام الاجتماعي كمجموعة من المواقع المترابطة فيما بينها بواسطة قنوات الاتصال . Communication channels (١٠) .

ويسلم المدخل السلوكى فى دراسة التفاعل الانساني أن الناس حينما تتواصل فيما بينها ، فانها تفعل ذلك بطريقة كلية . فالأحداث الاتصالية تتضمن الشخص الكلى . ويعنى هذا أن السلوك الاتصالى لايمكن اعتباره كشيء متميز تماما عن محددات السلوك عامة : كالادراك ، التعلم الحاجات والدوافع ، والانفعالات ، الاتجاهات ، المعتقدات ، القيم ، المعنى ، الرسائل ، المواقف الاجتماعية ، الخ .

الاتصال الانساني ، اذن ، ليس عملية احادية مفردة ، ولكنه مركب من العمليات ـ اى مجموعة من القوى المعقدة المتواترة التى تتفاعل فى مجال موقفى دينامي . بل ان اى نشاط يؤثر

7. Wastley, B., & McLean, M. **A conceptual model for communication research. Journalism Quarterly**, 34, (1957) 31-38.
8. Miller, G.A. **Speech communication : A behavioral approach.** Indianapolis, 1966.p. 26.
9. Coleman, J.C. **Psychology and effective behavior.** New York : Scott, Foresman, Co., 1969, p. 277.
10. Lindgren, H.C. **An introduction to social psychology.** New York : Wiley, 1973, p. 326.

فى الاتصال الانساني هو فى حد ذاته مركب من عناصر متفاعلة فيما بينها . ولنأخذ ، على سبيل المثال ، أحد مستويات التفاعل الاتصالى وهو نشاط الجهاز العصبى المركزى . وفى ذلك يقرر الباحثون فى علم النفس العصبي « أن نظريات التفاعل بين النيرونات العصبية ينبغي تناولها ليس على أساس نشاط خلايا فردية ، ولكن على أساس العلاقات الكتلية بين الخلايا العصبية . وحتى أبسط نمط من السلوك انما يتطلب نشاطا متكاملا لملايين النيرونات العصبية .. بل اننا لنعتقد غالبا أن كل خلية عصبية فى لحاء المخ قد تستثار فى كل نشاط ... أما السلوك الفارقى فيتحدد بواسطة تجمع خلايا تعمل مع بعضها أكثر مما يتحدد بواسطة الخلايا التى تسهم فقط فى نمط سلوكى معين (١١) .

فاذا أضفنا هذا التعقد الهائل لنشاط الجهاز العصبي الى العمليات الاخرى ـ النفسية والاجتماعية والجسمية وغيرها من العمليات ـ امكننا أن ندرك مدى تعقد القوى التى تكمن وراء عمليات الاتصال الانساني .

● ● ●

مفاهيم أساسية : لكى نساعد القارىء على حسن التوجه فى الدراسة الحالية ، من المفيد أن نعرض لبعض المفاهيم الاساسية التى يذخر بها البحث فى الاتصال ، وخاصة مفهوم الاتصال ووظائفه ، وكذلك جهاز الاتصال فى الانسان .

أ ـ مفهوم الاتصال : لاشك أن مقدرة الانسان على انطلاقية حركته وتعدد **براعاته** (Versatility capacity) تبدو أكثر وضوحا وأهمية فى مقدرته على الاتصال . وفى ذلك **يقول** الفيلسوف الاجتماعي الامريكي « جورج هربرت ميد » أن « أهمية ما نطلق عليه مصطلح « اتصال » **تكمن فى الحقيقة بأن الاتصال يوفر نوعا من** السلوك الذى فيه قد يصبح الكائن الحى أو الفرد موضوعا لنفسه (an object to himself) . فحينما لا يسمع الفرد نفسه فحسب ولكن يستجيب أيضا لنفسه ، وحينما يتحدث الى نفسه ويجيب عليها مثلما يجيب عليه الشخص الآخر ـ فى هذه الحالة يكون قد تكون لدى هذا الفرد سلوك يصبح فيه موضوعا لنفسه . (١٢) ومن الطبيعي ان يكون موضوعه لنفسه هو الانا أو الذات أو الهوية التي يتميز بها فى تواصله مع الآخرين . ولأهمية هذه المقدرة الانسانية ، ينبغي تحديد مصطلح (الاتصال) » كنقطة انطلاق لتناول هذا الميدان من الدراسة .

---

11. Ashby, W.R. The application of cybernetics to psychiatry. **Journal of Mental Science**, 100 (1954).
12. Miller, G.A. **The psychology of communication.** Pelican Books, 1974, pp. 7-8.

يمكن تحديد مفهوم الاتصال على النحو التالى :

« الاتصال هو العملية التى بها يتفاعل المرسلون والمستقبلون للرسائل فى سياقات اجتماعية معينة . (١٣)

يتضمن هذا التعريف عددا من الافتراضات عن طبيعة الاتصال . فالاتصال كعملية يفترض ان مكونات التفاعل دينامية وليست ستاتيكية فى طبيعتها ، وأنه لايمكن اعتبارها كعناصر غير متغيرة من حيث الزمان والمكان . بل ان الاتصال ــ كمايلاحظ « دانس » (١٤) موضوع للتغير حتى فى اثناء توفرنا علــى دراسته واختباره . ويعنى التركيز على التفاعل فى تحديد طبيعة الاتصال ، انه لايمكننا أن نفهم جانبا واحدا من الاتصال بمعزل عن المكونات الأخرى للسلوك ، كما أن التغير فى جانب من جوانب العملية الاتصالية قد يؤدى الى تعديل فى الاتصال ككل (١٥) . وطالما ان هذه التغيرات المتواترة تتضمن استجابات المرســل والمستقبل على حد سواء ، فلا يمكن اعتبار مبدا التفاعل على أنه عملية نقل من جانب واحد . فالتفاعل هو بالدرجة الاولى عملية تبادليــة فى طبيعتها ، تبادل مشترك للمؤثرات المتراكبة ،او هو « التوجه المتلازم » (**co-orientation**) لكل شخص متواصل نحو الأشخاص الآخرين ونحو موضــوع تعاعلهم الاتصالــى . (١٦) أما الرسائل كوسيط للاتصال فتتألف من أى متغير اتصالى ــ كالمعلومات مثلا ــ يعمل على وصــل التفاعل بين الأشخاص المتواصلين ، بما يؤثر فى استجابات كل هؤلاء الاشــخاص المشتركين فى الاتصال . وعلى هذا النحو أيضا يمكن اعتبار السياق الاجتماعي وظيفيا على أنه جانب متكامل من التفاعل ، بدلا من اعتباره كموقع أو مكان يحدث فيه الاتصال .

مفهوم الاتصال اذن ، ينبغى ان يقوم علــى تصور شمولــى يضع فى الاعتبار كل المحددات المتعلقة بالفرد والجماعة فى عمل اتصالى معين . ويستلزم ذلك تناول الاتصال فى اطار يتضمن جوانب متعددة .

ـ**الاتصال كنظام للسلوك :** يقدم مدخل النظم اطارا مرجعيا ينظم مكونات العمل الاتصالي . وقد تقوم أنظمة أو نماذج الاتصال على تصور رياضي يصف الاتصال على أساس مضاهاتــه بالعمليات التى تجرى فى ماكينة تشغيل المعلومات Information processing machine : **فالعمل أو الحدث الاتصالي يتضمن مصدرا أو شخصا مرسلا ينقل اشارة أو رسالة خلال قناة الى المكان المقصود أو الشخص المستقبل .** ولكن فى العلم الاجتماعى ، تهتم معظم نماذج الاتصال بتضمين وظائف اكثر من وظائف الارســال ــ النقل ــ الاستقبال . لذا تضع فى الاعتبار عوامل مثل طبيعة التفاعل ، والاستجابة للرسالة ، والسياق الذى يحدث فيه التفاعل .

---

13. Gerbner, G. Mass media and human **communication theory.**
14. In F.E.X. Dance (ed.), **Human communication theory. New York : 1967, p. 43.**
15. Sereno, K.K., & Nortensen, C.D. **Foundations of communication theory.** New York: Harper & Row Pub., 1970, p. 5.
16. Newcomb, T.M. Am approach to the study of communication acts. **Psycholo. Rev.,** 60 (1953), 393-404.

ـ الاتصال نشاط قائم على ترجمة الرسالة الى رموز أو اشارات يجرى نقلها للآخرين ـ ثم ترجمة الرموز أو الاشارات المنقولة فى شكل رسالة (encoding — decoding) . ويهتم بهذا البعد خاصة معظم النماذج أو النظم «الاجتماعية» للاتصال .

ـ الاتصال كتفاعل هو عملية وصال linkage process بين المرسلين والمستقبلين للرسائل . وفى العملية تتضافر عوامل ومتغيرات كثيرة .

ـ أما « السياق الاجتماعي » social context الذى يتوافر فيه الاتصال ، فيشير الى تلك القوى التى تؤثر فى الاتصال فى موقف معين ، والتى تحكم تدفق المعلومات ونماذج التأثير من جماعة مرجعية الى جماعة أخرى ومن ثقافة فرعية الى ثقافة أخرى .

الاتصال ، هكذا ، مفهوم مركب متعدد الأبعاد . ويتطلب ذلك أن ينطلق أى « تنظير » أو « نمذجة » فى هذا الميدان من هذا التصور .

ب ـ **وظائف الاتصال :** يستخدم الانسان نظام الاتصال لتحقيق عدة وظائف :

ـ استقبال ونقل الرسائل ، والاحتفاظ بالمعلومات .

ـ القيام بعملبات على أساس المعلومات المتاحة بهدف اشتقاق نتائج جديدة لم يكن يدركها الفرد مباشرة ، وكذلك بهدف اعادة بناء الأحداث الماضية والتنبؤ بالمستقبل .

ـ التأثير فى العمليات الفسيولوجية داخل الجسم وتعديلها .

ـ التأثير فى الأشخاص الآخرين والأحداث الخارجية وتوجيه هؤلاء الاشخاص وتلك الأحداث .

وفى الواقع أن وظيفية الاتصال تتسع لتشمل آفاقا أبعد . فكثير من الباحثين يتناولون الاتصال كوظيفة للثقافة ، وكوظيفة للتعليم والتعلم ، وكوظيفة للجماعات الاجتماعية وكوظيفة للعلاقات بين المجتمعات ، بل ويعتبرون الاتصال كوظيفة لنضج شخصية الفرد ، وغير ذلك من جوانب توظيف الاتصال .

ج ـ **جهاز الاتصال فى الانسان :** يمكن النظر الى جهاز الاتصال فى الانسان (communication apparatus) على أنه تنظيم بنيوى وظيفى يعتمد على التموضع التشريحى anatomical localization لعمليات الاتصال ولديناميتها فى الجهاز العصبى المركزى الذى

17. Ruesch, J. Values, Communication, and Culture. In Ruesch, J. & Bateson, G. (eds.), **Communication : The social matrix of psychiatry.** New York : Norton & Co., 1968, pp. 17-18..

18. Ibid, pp. 16-17.

هـو أشبه بـ « مركـز الاتصـال » فى الأنظمـة التكنولوجية للاتصال . ويتألف جهاز الاتصال فى الانسان من المكونات التالية :

- أعضاء الحس (المستقبلات receivers) .
- أعضاء التوريد أو التصدير (المرسلات senders) .
- مركز الاتصال (communication center) ، وهو موضع تجمع ومعالجة وحفظ الرسائل أو المعلومات فى الدماغ .
- الاجزاء الباقية من الجسم ، وهي هيكل ماكينة الاتصال communication machinary.

• • •

اطار الدراسة الحالية : يتحدد هذا الاطار بالمنظور السلوكى لدراسة الاتصال الانساني باعتباره ظاهرة اجتماعية نفسية مركبة ، تتضافر فيها جوانب ومتغيرات متشابكة . وفى هذا الاطار نتناول الموضوعات التالية :

أولا ـ أبعاد الاتصال الانساني :

أ ـ الاتصال كعملية نقل واستقبال للمعلومات .

ب ـ ميكانزمات التغذية الراجعة فى العملية الاتصالية .

جـ ـ التعلم كاتصال .

د ـ اللغة كاتصال .

ثانيا ـ أنماط الاتصال الانسانى :

أ ـ الاتصال بين الفرد ونفسه .

ب ـ الاتصال بين الفرد والآخرين .

جـ ـ الاتصال بين الجماعات الاجتماعية .

ثالثا ـ صعوبات الاتصال (باثولوجيا الاتصال) .

رابعا ـ تحسين الاتصال .

وقد جاء تناولنا لهذه الموضوعات استنادا الى تحليل للنظريات والدراسات المختلفة ، بغية استنباط العناصر الأساسية التى يمكن أن تفيد فى تطوير نموذج سيكولوجي للاتصال الانسانى يكون مفتوحا للتفاعل وللأخذ والعطاء مع النماذج الاخرى التى تقدمها العلوم المعنية بالاتصال .

• • •

أبعاد الاتصال الانساني :

أولا ــ الاتصال كعملية نقل واستقبال للمعلومات :

الاتصال ، بالنسبة للشخص العادى غيرالمتخصص ، عملية بسيطة نسبيا : فكل فرد يقيم اتصالا أو يحاول ذلك . وقد يعتبر الشخص العادى أن الناس تعقد الاتصال لان ثمة شيء يسعون الى توصيله للاخرين : كالمعلومات أوالمشاعر أو المطالب أو الادلة والبراهين .

ورغم أن نظرة الشخص العادى الى الاتصال تنطوى على قدر كبير من الصدق ، الا أن الاتصال يبدو مختلفا تماما بالنسبة للعالم السلوكي ، وذلك لعدة أسباب : فالعالم السلوكي يدرك التعقدات المرتبطة بالاتصال ، وهي تعقدات قديغفلها الشخص العادى . كذلك فان ما يقدمه الشخص العادى من تفسير يترك الكثير من جوانب السلوك الاتصالي غامضا . فعلى سبيل المثال ، لماذا يعبر الناس فى اتصالهم احيانا عن الكثير من سوء المعلومات misinformation ؟ ولماذا يعقد الناس اتصالات أحيانا بطريق تتوارى فيها المشاعر أكثر من أن تتضح ؟ لماذا يتعثر الاتصال بين بعض الاشخاص أو الجماعات ؟

وفى الواقع أن تعقدات الاتصال تصعب على الفهم سواء بالنسبة للشخص العادى أو العالم المتخصص ، لاننا ننضوى فيها على نحو موصول مستمر . فنحن نندمج دائما فى ارسال أو استقبال أو تدوين او معالجة الرسائل : فوجودنا هو فى مجال نفسى ــ اجتماعى غني بمقومات الاتصال . وفى بعض الاحيان ، قد يكون ذلك مدعاة للتشتت أو البلبلة ، لان هناك الكثير من الرسائل المختلفة التي يجرى نقلها بطريقة متأنية .

الاتصال كأداة : قد ينظر معظم الناس الى الاتصال أساسا فى ضوء ما يحققه لهم . والاتصال بهذا المعنى هو عملية تمكننا من توجيه واستقبال الرسائل المحملة بالمعلومات ، وبالتالي من محاولة مباشرة نوع من الضبط والسيطرة على بيئتنا . أى ان الاتصال خادم لنا ، ونحن سادته .

تلك ولا شك نظرة ضيقة للاتصال ، لا يستطيع العالم السلوكي أن يتقبلها لانها لا تضع فى الاعتبار ما يترتب عليها من آثار جانبية عديدة قدتكون فى بعض الاحيان أكثر أهمية مما تحمله الرسائل الموجهة والمستقبلة من معلومات واضحة . وبالاضافة الى ذلك ، فان هذه النظرة تتجاهل عددا من الطرق التي بها نستخدم الاتصال فيماهو أبعد من نقل واستقبال المعلومات المباشرة .

ومع ذلك ، فمن السهل ان نفسر لماذا نأخذ بالنظرة الضيقة للاتصال . فكلما مضينا فى مهام الحياة اليومية ، فاننا قد لا نهتم بالنقاط والتفاصيل الدقيقة والفروق الطفيفة المتعلقة بالسلوك الاتصالي . بل ان ذلك ليبدو غير متسق مع أدوارنا ــ كآباء أو كطلاب أو كعمال أو كمديرين أو غير ذلك من الادوار الاجتماعية والمهنية ــ بأن تستغرقنا أنواع الظاهرات الاتصالية التي يهتم بها العالم السلوكي . فما يعنى العالم السلوكي من مشكلات قد لا تكون موضع اهتمامنا ، فى حين أن المشكلات التي نخبرها فى محاولة الاتصال قدتكون بالنسبة له ذات أهمية ضئيلة .

فمن ناحية ، تتحدد المشكلةالتي يحتمل أن تعنينا أكثر من غيرها فى ان نجد الطرق التي نعبر بها عن أنفسنا بطريقة ملائمة ــ كأن نجد المصطلحات والعبارات الملائمة ، ونتجنب العبارات التي تعطي للاخرين انطباعا خاطئا ، ونحاول أن نجعل الاخرين يتحدثون عن أشياء تهمنا ، وهكذا . ونحن فى هذا نكون على وعي بتلك المشكلات حينما نسعى الى ان نجد الكلمات الصادقة لوصف مشاعرنا الدفينة ، كأن تتملكنا الغيرة من صديق لانه يعبر عن نفسه بقوة ويستحوذ على انتباه السامعين .

ومن ناحية أخرى ، يتحدد الفارق الاساسي بين نظرة الشخص العادى والعالم السلوكي الى الاتصال فى أن العالم السلوكي يميل الى أن يعتبر الاتصال على أنه « موقف » ، فيه يقوم الشخص الموصل communicator باحداث تغيرات فى السامعين . (١٩) فاتصال المعلومات، على سبيل المثال ، يستثار بواسطة الاعتقاد بأن السامع سوف يتقبل المعلومات وسوف يسلك وفقا لها . ويمكن ان نجد المثال الواضح لهذا الاعتقاد فى الاعلان عن السلع . فالشخص المعلن يزعم بأنه اذا كان لرسالته ان تصل الى السامع المقصود ، فانه يترتب عليها بعض التغير فى سلوك السامع : أن السامع سوف يلجأ الى شراء المنتجات المعلن عنها بدلا من غيرها .

الاتصال كعمل تفاعلى : يميل العالم السلوكى الى النظر الى الاتصال على أنه تعامل أو عمل تفاعلى (Transaction) والى الزعم بأن الاتصال لا يتم اذا لم يندمج السامع بطريقة نشطة فى العملية الاتصالية (٢٠) . ومن أمثلة هذا الاندماج الانتباه ــ أى الاصغاء ، والتتبع ، ومحاولة الفهم . مثال آخر لهذا الاندماج ، وهو الدخول فى حوار ، أو تبادل الآراء ووجهات النظر . ومع ذلك ، فليس هناك من عمل تفاعلى حقيقى وبالتالى ليس هناك من اتصال حقيقى ، الا اذا اعتقد كل من الطرفين ــ الموصل والسامع ــ بأن ثمة شيئا سوف يجنيانه نتيجة لذلك .

ويعرض الشكل رقم (١) رسما تخطيطيا للاتصال كعمل تفاعلى . ففى الفرد المتصل تنشأ حالة من التوتر الى الحد الذى يشعر معه بأنه مضطر الى توصيل بعض المعلومات التى ترتبط بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بشعوره بالتوتر . وهو فى ذلك يختار وسيطا لنقل المعلومات يحقق به اتصاله . وعادة ما يكون هذا الوسيط هو الكلام أو فى شكل ايماءات أو حركات تعبيرية ، أو قد يتم الاتصال عن طريق الكتابة أو استخدام « نظام مورس » عبر الموجات القصيرة بالراديو . وأيا كانت الطريقة التى يختارها الفرد ، فان معلوماته ينبغى أن توضع فى شكل رسالة ينبغي ان تترجم بدورها الى رموز أو اشارات (encoding) بالشكل الذى يتفق مع المعلومات ونمط الوسيط المستخدم فى نقلها . اما النقل الحقيقى للمعلومات فيأخذ شكل اشارة يجرى ارسالها من الشخص الناقل للمعلومات الى الشخص المستقبل عن طريق ما يعرف بـ « القناة » channel . ولكن ما يسميه اخصائيو الاتصال بـ «الضوضاء» قد يتدخل فى تعطيل الاشارة او اختلالها . واذا تكلمنا من الناحية الفنية ، فان أى تغير فى الرسالة المستقبلة ، انما يعزى الى «الضوضاء» ، التى يمكن ان تتدخل فى أى لقطة فى نظام الاتصال .

19. Bauer, R.A. The obstinate audience : The influence process from the point of view of social communication. **Amer. Psychologist,** 19 (1964), 319-328.

20. Ibid.

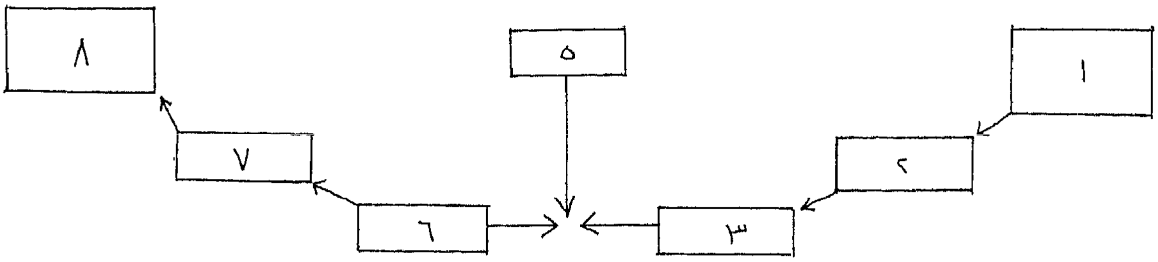

شكل (١) : رسم تخطيطى للاتصال كعمل تفاعلى transaction ، حيث يحدث الاتصال على النحو التالي :

(١) الموصل او المرسل للرسالة (المصدر) : توجدحالة توتر فى الموصل ، تؤدى به الى الرغبة فى توصيل المعلومات . لذلك يصبح مصدر الرسالة .

(٢) الرسالة المترجمة الى اشارات : يجرى ترجمةالمعلومات الى اشارات أو رموز يعمل على نقلهـا للآخرين encoding أى ترجمة الرسالة فى شكل رمزى ملائم(عادة اللغة أو الايماءات) .

(٣) جهاز الارسال الوسيط : الرسالة ـ فى شكلهاالمترجم الى اشارات ـ يجرى تغذيتها ونقلها فى جهاز ارسال ملائم (كالجهاز الصوتى) أو فى مجموعة من أجهزة الارسال(كالجهاز الصوتى والتليفون) .

(٤) القناة : يبعث جهاز الارسال بالرسالة عبر قناةفى شكل اشارة .

(٥) الضوضاء : عندما تمر الاشارة عبر القناة ،تكون عرضة للضوضاء ، بما قد يتمخض عنه تحريف فى الرسالة المنقولة .

(٦) المستقبل : يلتقط الاشارة من القناة .

(٧) ترجمة الاشارة المنقولة فى شكل رسالة decoding

(٨) السامع أو مستقبل الرسالة (الغاية أو المكانالمقصود) : تصل الرسالة ـ كما جرى تحديدها عن طريق ترجمة الاشارة المنقولة ـ الى غايتها أو مكانها المقصود ، أىالسامع الذى يفسرها لكى يحدد مضمونها من المعلومات .

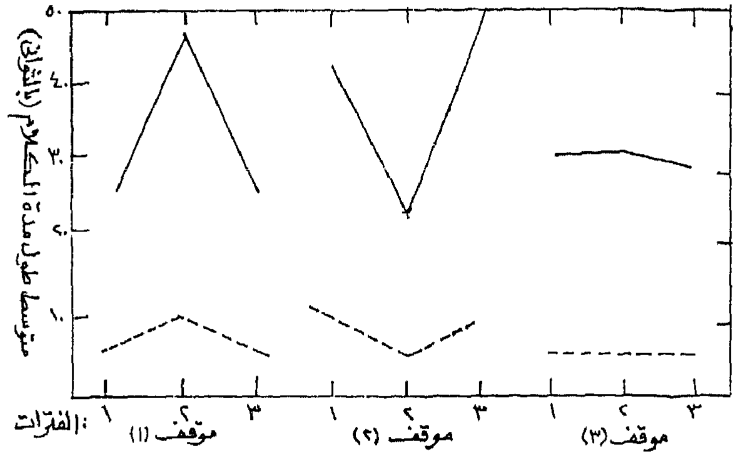

شكل (٢) : متوسط طول العبارات التي يستخدمها الشخص الذى يجرى المقابلة (يمثله في الرسم الخطوط المتقطعة (ـ ـ ـ ـ) في مواقف كان يختلف فيها بصفة منظمة طول عبارات الشخص الذى تجرى معه المقابلة (يمثله في الرسم الخطوط المتصلة) Matarazzo J. D., et al. (1964) Ibid. **) .**

وحينما يتم استقبال الاشارة ، فان المستمع يدركها على انها رسالة ، حيث يترجم رموزها أو اشاراتها فى شكل رسالة (decoding) ويفسرها . وتنعكس العملية حينما يستجيب الشخص المستقبل للرسالة ، ومن ثم يصبح مرسلا .

وغالبا ما يكون هناك تأثير متبادل فى طول الرسائل المتواصلة بين شخصين . وفى ذلك توضح بحوث « ماتارازو وزملاؤه »(٢١) العلاقة بين طول مدة الكلام والعملية الاتصالية لدى أزواج من الاشخاص ، وذلك عن طريق تنظيم مواقف يقوم فيها الاشخاص الذين يجرون المقابلة بضبط أطوال الاسئلة والتعليقات بعناية فى خلال مقابلات تستغرق ٤٥ دقيقة مع أشخاص مرشحين للعمل ببعض الوظائف . وقد نظم الباحثون ثلاثة أنماط من المواقف : الموقف الاول ، وفيه تستغرق تعليقات الشخص الذى يعقد المقابلة خمس ثوان فى البداية ، ثم تزداد الى عشر ثوان ، وفى النهاية تنخفض الى خمس ثوان . وكما يوضح الشكل رقم (٢) ، يتمخض عن هذه الزيادة التى تبلغ ١٠٠٪ فى طول مدة كلام الشخص الذى يعقد المقابلة زيادة مماثلة فى طول مدة استجابة الاشخاص الذين تجرى معهم المقابلة . وفى الموقف الثانى ، كانت الاجراءات التجريبية عكس الموقف الاول (١٠ ــ ٥ ــ ١٠) ، وترتب عليها تغير مماثل فى طول مدة استجابة المفحوصين . اما فى الموقف الثالث ، حيث كان هناك تباين ضئيل فى طول مدة كلام الشخص الذى يعقد المقابلة ، فقد أبدى المفحوصون كذلك تباينا ضئيلا فى طول مدة كلامهم .

وفى سلسلة أخرى من التجارب ، توصل « ماتارازو ووينز » (٢٢) الى أن مقدار الوقت المنصرم بين انتهاء المفحوص من كلامه وابتداء الشخص الذى يعقد المقابلة بتوجيه السؤال التالى الى المفحوص ، يرتبط وثيقا بتواتر استجابات المفحوصين : فكلما طالت مدة توقف الشخص الذى يعقد المقابلة ، طالت كذلك مدة ارجاء استجابة المفحوص . ويفسر الباحثان هذه الظاهرات فى ضوء نظرية التعلم الاجتماعى ، التى تقرر أن الاشخاص المشتركين فى محادثة يصيرون «نماذج» لبعضهم الآخر . ويمكن النظر ايضا الى هذا التأثير المتبادل على انه نمو لمعايير معينة بين أعضاء جماعة .

وسائل الاتصال الساخنة والباردة : تعتبر استثارة السامع واحتواؤه شرطا ضروريا لفاعلية النظام الاتصالى الذى تبثه وسائل الاتصال الجماهيرى خاصة . وفى ذلك تؤكد نظرية « ماك لوهان » (١٩٦٤ (٢٣) ، ١٩٦٧) (٢٤) أن طبيعة وسيط الاتصال من حيث التأثير العام

21. Matarazzo, J.D., etal. Speech durations of astronaut and ground communication. **Science,** 143 (1964).
22. Matarazzo, J.D., etal. Interviewer influence on durations of interviewee silence. **J. exp. Res. Pers,** 2 (1967), 59-69.
23. Mc Luhan, M. **Understand media : the extension of man.** New York : Mc Graw-Hill 1964.
24. Mc Luhan, M. **The medium is the message.** New York : Benton, 1967.

للرسالة ، تكون في الغالب أكثر أهمية من مضمون الرسالة ذاتها . لذا يصف بعض وسائط الاتصال communication media على أنها « ساخنة » hot media لان اشاراتها بسيطة ومباشرة ، وتتطلب انهماكا قليلا نسبيا فى شكل اعادة ترجمة رموز الرسالة أو تفسيرها من جانب المستمعين . وهناك وسائط اخرى « باردة » coolmedia ، لانها تتطلب انهماكا اكبر وتهيؤا أعظم من قبل المستمعين . ويعتبر « ماك لوهان » الراديو مثالا للوسيط الساخن ، والتلفزيون كوسيط « بارد » . ويزعم بأن الدراميين والسريعى الاستثارة وهم الاشخاص « الساخنون » فى تأثيراتهم الاتصالية - ينبغى أن ينقلوا معلوماتهم الى الآخرين واتصالاتهم بهم من خلال الوسائط « الساخنة » ، وذلك لكى يحققوا أقصى تأثير ممكن . فعلى سبيل المثال استطاع الرئيس الامريكى السابق « جون كينيدى » وهو شخص « بارد » ، أن يعطى انطباعا اتصاليا من خلال التلفزيون أفضل مما استطاع أن يحققه نظيره « ريتشارد نيكسون » ، وهو شخص « ساخن » .

وقد خضع صدق هذا التفسير للاختبار فى تجربة جرى فيها تقديم خطاب سياسى عبر الراديو أو التلفزيون بواسطة ممثل يعطى صورة « ساخنة » أو « باردة » عن نفسه . وقد تم بالتالى تنظيم أربعة انماط مختلفة من تقديم الخطاب ، بحيث أن كل خطاب منها كان يوجه الى سامعين مختلفين . ولكن النتائج لم تؤيد وجهات نظر « ماك لوهان » كلية ، لان السامعين قد أبدوا ميلا الى الاستجابة الى الممثل « البارد » بطريقة أفضل من الاستجابة الى الممثل « الساخن » والى الاداء التلفزيونى منه الى الراديو . وبقول آخر ، فان الاداء « البارد » عبر الوسيط « البارد » قد لقى الاستجابة الافضل كما تنبأ « ماك لوهان » ولكن الاستجابة الاسوأ كانت للاداء « الساخن » عبر الوسيط « الساخن » خلافا لما ذهب اليه « ماك لوهان » . وهكذا يبدو أن درجة تقبل السامعين للرسالة وتوجههم نحوها انما يتأثر بمتغيرات أكثر من مجرد درجة الانهماك التى يتطلبها الوسيط الاتصالى .

فالاتصال لا يمكن أن يتم الا اذا أبدى السامع اهتماما كافيا بالاستجابة . ومن أبرز الاساليب التى تكفل انهماك السامع وانضوائه فى العملية الاتصالية ما ينجح فيه الشخص الموصل من تشجيع للتغذية الراجعة .

● ● ●

(ثانيا) ميكانزمات التغذية الراجعة فى العملية الاتصالية :

تعرف العملية التى من خلالها يدرك الفرد نتائج استجابته أو نمط استجابته بـ « التغذية الراجعة أو المرتدة » feedback . وتشير هذه العملية بذلك الى المعلومات التى

يتلقاها الفرد عن ملاءمة وكفاية أدائه . وغالباما تؤدى « معلومات التغذية الراجعة »feedback information الى تغيير السلوك وفقاالعدة طرق (٢٥) :

١ ــ بهذه المعلومات يتعلم الفرد أن يميز بين امارات cues الموقف .

٢ ــ قد تؤدى معلومات التغذية الراجعة الى تعديل دافعية الفرد .

٣ ــ قد يترتب على معلومات التغذية الراجعة بعض المعارف التى يمكن أن يستخدمها الفرد فى مواقف أخرى فى المستقبل .

ويعنى ذلك أن معلومات التغذية الراجعة قد تؤدى الى تعديل العمليات الادراكية ، والدافعية ، والمعرفية ، وأن هذه العمليات بدورها قد تؤدى الى تعديل السلوك الظاهرى للفرد .

ولهذه العملية أساس فسيولوجى عصبى ، يتمثل في بعض الوظائف التى تقوم بها المنطقة الجبهية frontalzone والمنطقة قبل الجبهية prefrontal zone بالدماغ الانسانى ، وهى ميكانزمات « التوريد العائد » return afferentation فالاداء يتدعم اذا اتحد واتفق مع التوريدات العائدة المتعلقة بهذا الاداء فى خبرة سابقة ، ويتأتى اكتشاف الاخطاء وتصحيحها اذا لم تتحد مثيرات الاداء مع التوريدات العائدة . (٢٦)

وفى ضوء ذلك ، ليس هناك من أساس علمى لان نتقبل مفهوم الاتصال لعملية من جانب واحد (one-way process) ، فالاتصال عملية تفاعل متبادل بين شخصين او اكثر تلعب فيها الاغذية الراجعة دورا كبيرا فى توجيه وتدعيم العملية الاتصالية . (٢٧)

التغذية الراجعة كميكانيزم توجهي : ان مايفعله الشخص المرسل حينما يحاول تتبع رسالته التي يريد بها توصيل معلومات معينة ، هو ان يحدد تأثيرها على الشخص المستقبل ، اي ان يصبح حساسا لما نسميه بالتغذية الراجعة .

التغذية الراجعة مصطلح استعاره علماء النفس من علم هندسة الالكترونات . وهى العملية التى تحدث حينما تجرى لاستعادة البيانات المتعلقة باداء نظام ما (ماكينة أو كائن حي مثلا) الى النظام لتغذيته لكى تسمح بتصحيح الاداء وملائمته . ويمثل هذا الميكانزم ركيزة أساسية لعلم « السيبر نطقيا » (٢٨) فالطائرة ، على سبيل المثال ، تعمل على أساس مبادىء

25. Loree, M. R. Psychology of education. New York : The Ronald Press Co, 1970, pp. 409-410.

(٢٦) طلعت منصور : المدخل البيولوجي فى دراسة النشاط النفسي . مجلة العلوم التربوية والنفسية ، بغداد ، العدد الثاني ، ١٩٧٨ .

27. Bauer, R. A. op. cit.

28. Wiener, N. **The human use of human beings : cybernetics and society.** Boston : Houghton Miffin, 1950.

التغذية الراجعة ، حيث يتضمن تركيب الالاتميكانيزمات عملالاجزاء المختلفة وتصحيح الاداء وفقا للتغيرات المختلفة . فاذا أدى التغير فيالتيارات الهوائية الى تحول فى مسار الطائرة ، فانه وفقا لنظام التغذية الراجعة يجرى تصحيحالمسار وتزويد الطاقم الفنى لادارة الطائرة بالمعلومات التى تمكنهم من حسن توجيه وأداءهذه الماكينات . مثال آخر ، تؤدى الامتحانات والاختبارات الى تزويد المعلمين بمعلومات التغذيةالراجعة . فيستطيع المتعلمون أن يكتشفوا نواحى القصور فى استراتيجيات تعلمهم ، كمايستطيع المعلمون أن يكتشفوا مدىنجاح جهودهم التدريسية ، وبالتالى فان كليهما يتأتى له أنيقوم بالتصحيح اللازم للسلوك فى المواقف اللاحقة .

ويمكن اعتبار التعلم الاجتماعي كنتيجةللتغذية الراجعة فالاساليب المختلفة للسلوك ، التى يستخدمها الاطفال فى محاولتهم للتكيفداخل أسرهم وثقافتهم ، من شأنها أن تستدعى استجابات من الوالدين والرفاق ، بعضها ايجابىوتأييدى ، والآخر سلبى أومحايد . هذه الاستجابات ، بدورها ، توفر المعلومات اللازمةلتقييم السلوك من حيث ملاءمته أو عدم ملاءمته. لذلك ، فان السلوك الملائم يتدعم ويقوى ،والسلوك غير الملائم يخبو وينطفىء . هذه العملية تستمر معنا فى مواقف الحياة المختلفة وتشكلالاساس فى تعلمنا التكيف مع المواقف الاجتماعية المتغيرة باستمرار **الضغط الاجتماعى كتغذيةراجعة** : ان سلوكنا ، اللفظى أو غير اللفظى ، مصدر للمعلومات التى يلتقطها الآخرونويستخدمونها كأساس لتعيين ما وراء سلوكنا من دوافع . أي أنهم بدورهم يصدرون رسائلتوفر تغذية راجعة تمدنا بمعلومات عن تأثير افعالنا عليهم . وسواء كنا نسعى الى هذهالتغذية الراجعة أو لا نبحث عنها ، فمن المحتمل أن يكون لها نوع من التأثير على سلوكنا اللاحق . فبسبب هذه التغذية الراجعة ، نجد انفسنا مسوقين الى تغيير سلوكنا وفقا لادراكنا لانفسناولعلاقاتنا داخل الجماعة .

بقول آخر ، تلعب « المرغوبية الاجتماعية » social desirability دورا كبيرا فى توجيه السلوك الانسانى ، حيث تباشر معايير الجماعة ضغوطا على سلوك الفرد فيسعى الى تعديله مسايرة لهذه المعايير فى بعض الاحيان . وفى ذلك توضح دراسات «آش» (١٩٥٦ (٢٩) ١٩٥٨ (٣٠)) مدى تأثير ضغط الجماعة علىتعديل احكام الافراد . ففى هذه الدراسات التى تلقى فيها الافراد تغذية راجعة عن طريق ملاحظةالاختلاف بين تقريراتهم وتقريرات الاخرين ، عمد معظمهم الى تعديل تقريراتهم واحكامهم فىوقت أو آخر اثناء التجربة كنتيجة لهذه التغذية الراجعة .

---

29. Asch, S.E. Studies of independence and conformity. Amminority of one against a unanimous majority. **Psychol. Monogr.,** 70 (1956), No. 9.
30. Asch, S.E. Effects of group pressure upon the modification and distortion of judgments. In Maccoby, Newcomb, & Hartley (eds.), **Readings in social psychology.** (3rd ed.). New York, 1958.

التعاطف كعامل هام فى التغذية الراجعة: يعتبر التعاطف empathy من المقومات الرئيسية للتغذية الراجعة . فمهارتنا فى ملاحظة التغيرات فى مشاعر واتجاهات السامعين تمكننا من تحديد ما اذا كانت رسائلنا تصل الى الآخرين وما لها من تأثيرات عليهم . هذه المعلومات ، حالما تتزود بها انظمتنا المعرفية ، تمكننا أكثر من ـ تغيير طرائقنا ومن أن نجد أساليب للاتصال أكثر فعالية . فعلى سبيل المثال ، يدرك المحاضر انه يفقد اهتمام السامعين بالمحاضرة اذا رأى بعضهم يتحدث الى الآخر ، أو يتململون فى أماكنهم أو ينتقلون منها ، أو غير ذلك من الاشارات الدالة على عدم ارتياحهم . هنا يستطيع أن يغير من طريقته ، كأن يتوقف ليحكى قصة ، أو يبرز موقفا ، أو يستخدم ايضاحات أكثر . أو يستجمع براعته فى استيعاب السامعين ، الخ . ويتضح من دراسات «آش» السابق ذكرها ، ان التعاطف يوفر أيضا معلومات قد تؤدى بنا الى تغيير عقولنا وكذلك طرقنا فى الاتصال .

ثالثا ـ التعلم كاتصال

اذا كان « التعليم نشاط هدفه استثارة التعلم » ، فان التعلم هو « تغير ثابت فى الميل السلوكى للفرد » ، (٣١) كما أنه « تلك العملية التى تتغير بها مقدرة الفرد أو استعداده كنتيجة للخبرة . (٣٢)

ويمثل هذا التعريف لطبيعة التعلم الاتجاه العام لدى كثير من علماء النفس ، من حيث اعتبارهم للتعلم على أنه تغيرات فى السلوك فحسب (٣٣) . ولكن ليس كل تغير فى السلوك أو فى المقدرة على الاستعداد يمكن توصيفه بالتعلم ، بل ليس كل تغير أيضا يكون نتيجة لنمط معين من الخبرة يعتبر تعلما ، كالتغيرات التى قد يخبرها الفرد نتيجة للشيخوخة أو التعب أو الحرمان أو الادمان أو غير ذلك . لكل ذلك قد يميل بعض علماء النفس الى اعتبار التعلم كتغيرات تنتج من التدريب والممارسة (٣٤) أو اعتباره « كممارسة متدعمة » ، أي كممارسة تنطوى على ناتج يبعث على الرضا . (٣٥)

والتعلم الانسانى على هذا النحو هو بالدرجة الاولى عملية نمائية تقدمية progressive تتمثل فى اكتساب مستويات متقدمة من سلوك الفرد واتجاهاته وقيمه ومهاراته ومعارفه وفلسفته فى الحياة ، وفى أسلوب حياته بصفة عامة . ويكون مردود عملية التعلم بذلك هو تغير الشخصية نحو مستويات أرقى .

---

31. Craig, R., Mehrens, W., & Clarizion, H. **Contemporary educational psychology.** New York : Wiley, 1975, p. 8.
32. Ibid, p. 118.
33. Hilgard, E.R., & Bower, G.H. **Theories of learning.** (3rd. ed.). New York : Appleton-Century - Crofts, 1966, p. 2.
34. Carry, R. & Kingsley, H.L. **The nature and conditions of learning.** (3rd ed). Englewood Cliffs, N. J. : Prentied-Hall, 1970, p. 10.
35. De Cesso, J.P. **The Psychology of learning and instruction.** Englwood Cliffs, N. J. : Prentice-Hall, 1968, p. 243.

والعلاقة بين التعلم والاتصال علاقة وظيفية متبادلة : فالتعلم لاينشأ من فراغ ، وانما من خلال التفاعل بين فرد وآخر فى سياق خبرة ، وقد يكون للاخر حضور مباشر فى الموقف التعلمى مثل مواقف التعلم المدرسى ، أو غير مباشر مثل قراءة الفرد لكتاب أو مشاهدته لفيلم . والتعلم بذلك هو عملية اتصالية . ومن ناحية أخرى ، ينطوى الاتصال على عملية تعلم بدرجة كبيرة . فالرسائل والمعلومات المتبادلة فى سياق العملية الاتصالية تتمخض عن تغيرات هائلة سواء فى سلوك الشخص المرسل للمعلومات أو الشخص المستقبل لها ، وما يرتبط بذلك من تغير فى عملية التغذية الراجعة ، وهذه العلاقة المتبادلة بين التعلم والاتصال تتضح من الشكل رقم (٣) . الذى يبين كيف أن التعلم المدرسي تحكمه علاقة تفاعل اتصالي بين المعلم والمتعلم فى اطار سلسلة من العمليات التي تترابط مع بعضها فى دورة للتغذية الراجعة لدى المعلم والمتعلم .

ولهذه العلاقة الوثيقة بين التعلم والاتصال - **التعلم عملية تفاعلى اتصالي ، والاتصال عملية تعلم** - مقومات رئيسية نجملها فيما يلي :

الانضواء فى الخبرة : فاذا كان كل تعلم يتأتى أساسا من خلال الخبرة التي تعنى تفاعل الفرد مع بيئته فى سياق عملية اتصالية ، فان هذا التعلم يتم وفقا لما يخبره الفرد فى محاولة اشباع حاجاته والوفاء بمتطلبات المجتمع وضغوطه . وبقدر ما يكون عمق انضواء الفرد فى مثيرات بيئته وتوحده معها ، تكون فاعلية الاتصال والتعلم . **ثراء المعنى : التعلم والاتصال الفعالان يقومان على** ثرائهما بالمعانى ، فيكون مضمونا التعلم والاتصال معاني غنية حية ، ترتبط بحياة الفرد وبأهدافه واهتماماته . فبقدر ما يكون التعلم ذى معنى meaningful learning ، تكون فاعلية التعلم . وكذلك بقدر ما يكون الاتصال ذى معنى meaningful communication ، تكون فاعلية الاتصال .

فالاتصال بدون المعنى أو الضحل المعاني meaningless يكون اتصالا آليا ، باردا ، محدودا ، ووقتيا ، بينما يكون الاتصال الجيد غنيا بالمعلومات والبيانات الملائمة وبما تنطوى عليه من « كيفيات » (how's) و « أسباب » (why's) . وتكون استجابات الاشخاص موضع الاتصال مدعمة بالقدرة على تحليل المواقف المختلفة ونقدها والتبصر باحتمالاتها ، أى تنطلق الاستجابات من الوعي ، أى من اعمال الوظائف العقلية العليا ، لامن التقليد أو الايحاء .

ومن ناحية اخرى ، يعتبر الاتصال الضحل بالمعاني أقل استثارة للاهتمام ، وأقل ارضاء لحاجات الفرد ، وهو بذلك لا يشبع الاشخاص موضع الاتصال ، فيميلون الى صده ورفضه . فهو اتصال لا يحتوى الاشخاص ، وبالتالي يفقد آثاره ونواتجه .

التتابع والاستمرار : يؤدى التتابع المنظم المستمر للخبرة موضوع التعلم والاتصال الى ترابط عناصرها وتماسكها معا لتؤلف شيئا ينطوى على قيمة حقيقية . ومن المقومات البارزة لتحقيق التتابع والاستمرار فى التعلم والاتصال تكوين « مفاهيم استراتيجية » strategic concepts «كخيوط للاستمرار فى تناسج الخبرة . ولفترض ، على سبيل المثال ، أن المعلمين يتفقون على أن مفهوم «التغير» احد الخطوط الاساسية للاستمرار فى المنهج ، فان هذا يستلزم تخطيطا لمناشط

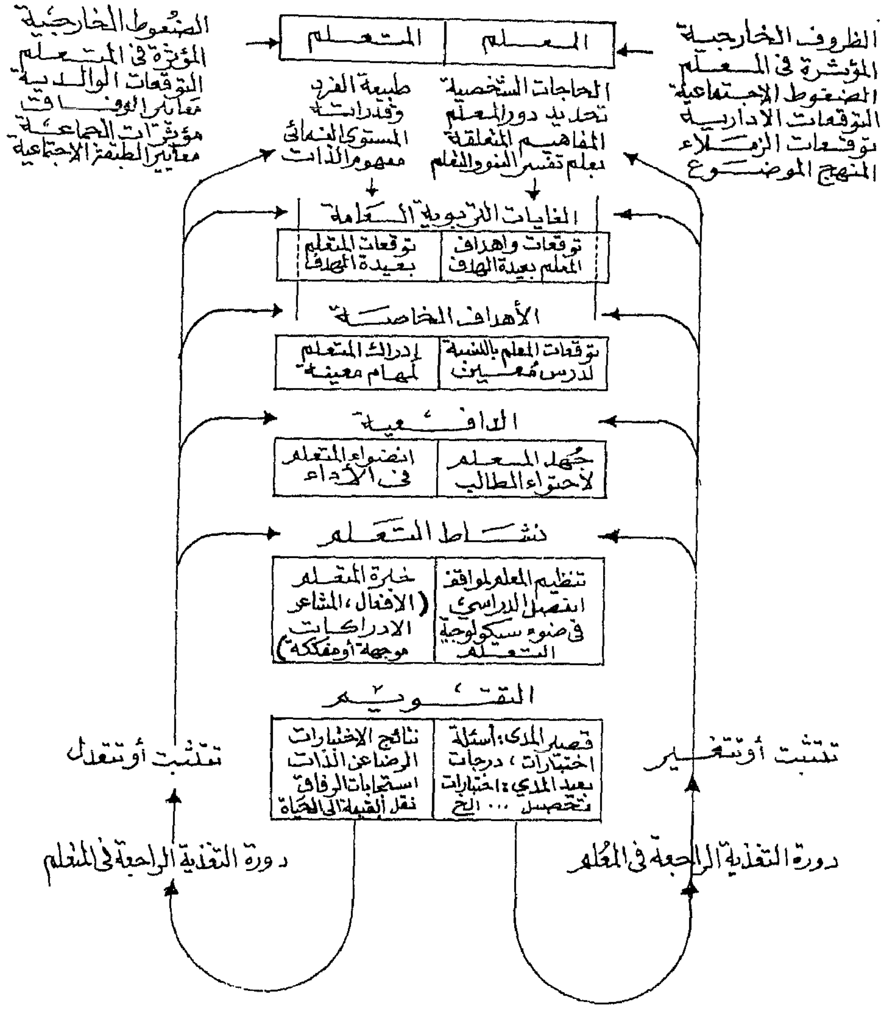

شكل (٣) : التعلم المدرسي كما تحكمه علاقة تفاعل اتصالي بين المعلم والمتعلم .

(Morse C. W. **Psychology and teaching.** Bombay : T. B. Taraporevala Sons & Co., 1970, p. 195)

التعلم والاتصال على أساس توظيفها فى اطـارهذا المفهوم الاستراتيجي وليس فى اطـار منهج متمركز حول الموضوعات curriculum topic-centered • وفى هذه الحالة يكون هنـاك اختيار واسع لموضوعاتمن مواد مختلفة تستخدمفي توسيع وتعميق وتأصيل هذا المفهوم بطريقـة متتابعة مستمرة ــ كالتغيرات فى الجو وفصـولالسنة وما يصاحبها من آثار ، التغيرات فى اللون حينما تخلط الالوان ، التغيرات فى استعمـالالارض لفترة من الزمـن ، التغيرات المصـاحبة للتفاعل الكيميائى ، التغيرات الاجتماعية والماديةالتي تتبع الاختراعات والاكتشـافات ، التغيرات فى العمليات الحسـابية ،تغيرات المفتاح فى الموسيقى،تغيرات الجسم بالتربية الرياضية ، وغير ذلك من ابعاد ومظاهر واحتمالات التغير التي لا تنتهى •

ولعلنا نجد فى نموذج التعلم الذى يقدمه « أ • وايت » (١٩٧٠) ويطلق عليه « التعلم القائم على المشـاركة » أو « التعلم التشـاركي » (participative learning) ، توظيفا لديناميات العملية الاتصـالية الفعالة فى مواقف التعلمالمدرسي(٣٦) فبقدر تمكن المعلم منتنظيم وتوجيه التعلم ليقوم على عملية اتصالية حية بينه وبين التلاميذ،وبين التلاميذ وبعضهم الآخر ، وبينكل هـؤلاء وخبرة التعلم ، تتحقق الغاية من التعلم وهىنمو المتعلمين • وفى ذلك يقارن « وايت » بين الدور الاتصالى « للمعلم المشـارك » فى عمليـةالتعليم participative instructor وبين « المعلم التقليدى » : فبالنسـبة للنمـوذجالاول تكون عملية الاتصال أكثر تمركزا حـول المتعلم learner-centered ، بينما يكـونالاتصـال فى النموذج التقليدى اكثر تمركزا حول المعلم instructor-centered يتضح ذلكمن تحليل الدور الاتصالى للمعلم فى كلا هـذين النموذجين للتعلم :

الدور الاتصالي للمعلم فى

نموذج التعلم التشاركي	نموذج التعلم التقليدى
ــ يركز على عمليـة التعلم ــ تعلم أن يتعلـم ((learning to learn))	**ــ يركـز علـى تقـديم المحتـوى والحقـائق والمعلومات •**
ــ يحتوى المتعلم بفاعلية كي يضطلع بمسئولية تعلمه على أساس من الدافعية الذاتية •	**ــ يضطلع بمسئولية تقرير ما يحتاجه التلميذ ويدفعه للتعلم وفقا للخطوط التي يقررها المعلم •**
ــ يساعد التلميذ على أن يتعلم أن يكون باحثا نشطا عن المعلومات ، وان يحدد مصادرها المتاحة ويفيد منها بفاعلية •	**ــ يقرر ما يحتاجه التلميذ ، ويوفره خـلال الدروس والتعيينـات وأنشـطة التعلـم المختلفة •**

36. Wight, A. W. Participative education and the inevitable revolution. **Journal of Creative behavior**, 4 (1970), 234-282).

ـ يتوقع من التلميذ أن يتعلم التوصل الى المعلومات واستخدامها بقدر ما تكون لازمة لحل المشكلات .	**ـ يتوقع من التلميذ تعلم المادة المقدمة اليه ، بهدف استدعائها فى الامتحانات .**
ـ يتوقع من التلميذ ان يتعلم بواسطة الاستقصاء والاستكشاف وطرح الاسئلة والدخول فى حوار ، وتكوين الفروض والتحقق من صحتها ، وحل المشكلات .	**ـ يتوقع من التلميذ أن يتعلم اساسا بواسطة عملية خزن المعلومات فى الذاكرة وحفظها ، وتكوين استجابات للاسئلة .**
ـ يركز على العملية الابتكارية من حيث تحديد وحل مشكلات قائمة فى الواقع الحياتي فى اطار حلول ممكنة كثيرة ، فلا يوجد اخصائي أو حل واحد صحيح .	**ـ يركز على استكمال التدريبات او المشكلات التي تستند على الكتب المدرسية ، وذلك على اساس وجود «اجابة واحدة صحيحة» والمعلم هو الاخصائي .**
ـ يصوغ بوضوح أهدافا محددة قائمة على حاجات التلميذ .	ـ يصوغ أهدافا ، ولكن عادة ماتقوم على تغطية قدر متخصص من المادة .
ـ يحتوى التلميذ فى تبنى حاجات وأهداف التعلم لديه .	ـ يتوقع من التلميذ تقبل الاهداف المعينة للبرنامج .
ـ يحتوى التلميذ فى قياس وتقويم خبرة التعلم والمعلومات المستوعبة ، والتقدم نحو تحقيق الاهداف .	ـ يسعى الى قياس وتقويم المادة التى يقدمها للتلميذ ، وأدائه وتقدمه فيها .
ـ يركز على التحصيل الفردى ارتباطا بحاجات التلميذ وأهدافه .	ـ يركز على الاداء ارتباطا بالجماعة ، على أساس التدرج وفقا للمنحنى الاعتدالي .
ـ يركز على مساعدة التلميذ على تعلم العمل بفاعلية مع الآخرين ، فى سياق مناشط تعاونية لحل المشكلات .	ـ يركز على التنافس بين الرفاق ، بهدف زيادة التحصيل والدرجات المدرسية وما شابه ذلك من أنماط الاثابة .
ـ يركز على المناقشات والمناشط الجماعية التي يقوم التلاميذ انفسهم بتصحيحها وتقويمها .	ـ يركز على الدروس والالقاء والمناقشات وغيرها من المناشط التي يضطلع بها المعلم ويقومها وحده .
ـ يعمل فى سبيل « الاتصال المفتوح » بين التلميذ والمدرسة وبين التلاميذ انفسهم .	ـ يركز على الاتصال من جانب واحد ـ من المعلم الى التلميذ ، مع وجود اتصال ضئيل من جانب التلميذ أو بينهم .

- يتجنب اسداء « النصح » ، ولكن يساعد التلميذ على تكشف البديلات ، وعلى اتخاذ القرارات .
- يقدم « النصح » للتلميذ فيما يتعلق بالافعال التي ينبغي أن يقوم بها أو حتى المهنة أو العمل الذى ينبغي اختياره .

- يستثير الآراء والمقترحات والنقد فى التلاميذ ، ويشركهم فى عملية اتخاذ القرار .
- يعمل هو القرارات أو ينفذ القرارات التي تضعها المدرسة ، ولا يشجع التلاميذ على ابداء النقد أو عرض المقترحات .

- يشجع اللاشكلية والتلقائية فى الفصل ويعمل على اقرار علاقات غير شكلية مع التلاميذ .
- يفرض اجراءات شكلية وضوابط محددة فى الفصل كما يقيم علاقات شكلية مع تلاميذه .

- ينمي فى التلاميذ اتجاها تمحيصيا ، وعدم الرضا البناء ، والثقة فى أحكامهم .
- يطلب الاحترام للمعلم كسلطة ، ولا يثق فى أحكام التلميذ .

- يحاول ان ينمي فى التلاميذ جوا من الصراحة ، والثقة والاهتمام بالآخرين ، مع تزويد كل شخص بمعلومات التغذية الراجعة التي يحتاجها لتقييم أدائه وتقدمه .
- ينمى فى التلاميذ تنافسا يخلق جوا من عدم الثقة ومن نقص الاهتمام بالآخرين ، ويزودهم بالتغذية الراجعة التي تتعلق بالاداء فى الامتحانات .

- يبنى البرنامج الدراسى بطريقة تساعد على معالجة المشكلات غير المخططة وغير المتوقعة كفرص مواتية للتعلم .
- يتتبع البرنامج الموضوع بدقه ، ويتجنب المشكلات حتى لا تتداخل مع جدولة البرنامج .

من هذا يتضح أن التعلم الجيد ، كما يتضح من مواصفات الدور الاتصالي للمعلم فى نموذج التعلم القائمة على المشاركة ، يقوم على « الاتصال المفتوح » بين الشخص والآخرين وبين الاشخاص وبعضهم الآخر (intra - inter communication) ، وعلى انفتاح مجالات الخبرة ، وتدعيم ما يكتسبه الشخص منها . ومن ناحية اخرى ، يوفر التعلم الجيد فرصا مواتية لتحقيق الذات ، فما يتوفر فى هذا التعلم من خبرات يؤدى الى توظيف امكانات الفرد والى احساسه بذاته .

• • •

رابعا ـ اللغة كاتصال

اللغة نشاط عقلى راق يعمل كشرط اساسى لتنظيم عملياتنا العقلية المعرفية ، وكوسيط حتمى للاتصال الانسانى . فباللغة يستطيع الانسان ان يجرد هذا الوجود المادى والانسانى فى خصائص وعلاقات وقوانين ، وان يتحقق له الوعى بهذا الوجود والتحكم فيه على أساس « انعكاسه » فى دماغه فى شكل رموز وكلمات ، وفى تكوين « صور مثالية » لموضوعات هذا الوجود وظاهراته

وأحداثه . وباللغة ينتقل الانسان من معـــرفةمجتزأة متبعثرة بعناصر الوجود الى « الانعكاس المعمم » . generalized reflection لها فى شكل مفاهيم مجردة . واللغة بذلك توفر للنشاط العقلى المعرفى وللسلوك الانسانىخاصية« الاقتصاد العقلى » mental parsimony الذى يكمن وراء القدرة المتعاظمة للانسان علىالتحكم فى الوجود . (٣٧)

فاللغة ، كنظام من الرموز ، تحقق وظيفتين متكاملتين :

(أ) الوظيفة الاتصالية ، حيث تعمل اللغةكوسيط للتفاعل بين الافراد ، ولنقل واستقبال المعلومات .

(ب) الوظيفة التجريدية ، فاللغة وسيطلتكوين الافكار التى تجرد الواقع وتختـزله فى شكل رموز تمكن الانسان من فهمه وضبطهبدرجةأكبر .

بقول آخر ، تتحدد وظيفتا اللغة بالاتصال والتعميم ، وما يقوم بين هاتين الوظيفتين مـن تفاعل انما يثرى دور اللغة فى حياتنا : (٣٨)

فالوظيفة الاولية للكـلام واللغـة ـ وهىالوظيفة الاتصالية ـ هى بالدرجة الاولى وسيلة المعاشرة الاجتماعية ، وسيلة التعبير والفهـم .ومن حقائق علم النفس العلمى استحالة الفهـم وتواصله بين العقول بدون وجود تعبير توسيطى. ففى حالة عدم وجود نظام للاشارات ، اللغـوية أو غيرها ، يتحقق الاتصال فى أضيق الحـدودويكون اكثر بدائية.أما الاتصال بواسطةالتعبيرات الحركية ، التى تلاحظ اساسا بين الحيـوانات ، فلا يعدو الا أن يكون مظهرا للانفعال . فذكـر الأوز الذى يرتاع خوفا عند رؤيته للخطر ويصيحناهضا ، لا يخبر الآخرين بما رآه ولكنه يؤثر فيهم بخوفه .

أما التوصيل الرشيد والمقصود للخبـرةوالفكرة الى الآخرين فيتطلب نظـاما توسيطيا mediating system ، أصله الكلام الانسانىالناشىء من الحاجة الى الاختـلاط والمعـاشرة الاجتماعيتين والتفاعل الاتصالى بين الأفـراد فىسياق العمل والانتاج . ولكن علم النفس كثيرا ما تناول هذا الموضوع بطريقة مفرطة فىبساطتها،افتراضا بأن الاشارة (الكلمة أو الصـوت) وسيلة الاتصال ، وبانه من خلال الأداء المتأنيىيمكن أن يصير الصوت مرتبطا بمضمون اىخبرة، ومن ثم يمكن أن يستخدم لتوصيل نفسالمضمونلغيره من الأشخاص .

ولكن الدراسةالدقيقةلنمو الفهم والاتصالفى الطفولة تبين **أن الاتصـال الحقيقـى يتطلب المعنى (اى التعميم) ، مثلما يتطلب الاشارات** . فعالم الخبرة ـ كما يقرر « ادوارد سـابير » ـ ينبغى أن يجرى اختـزاله وتبسـيطه وتعميمهبدرجة هائلة قبلما يمكن ترجمته الى رموز .

---

(٣٧) طلعت منصور : العلاقة بين التفكير واللغة . المؤتمر الخامس والاربعون للمجمع المصرى للثقافة العلمية . الكتاب السنوى الخامس والاربعون ، ١٩٧٥ .

(٣٨) ل. فيجولسكي : التفكير واللغة . (ترجمة : طلعت منصور) . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٥ ، ص ٨٠ ـ ٨٢ .

وبهذه الطريقة يصير الاتصال ممكنا ، لأن خبرة الفرد تستقر فحسب فى وعيه الذاتى وقد لا تكون قابلة للتوصيل . فلكى تصير قابلة للتوصيل ، ينبغى تضمينها فى فئة معينة category يعتبرها المجتمع الانسانى كوحدة .

ومن ثم ، يقوم الاتصال الانسانى الحقيقى على « اتجاه تعميمى » generalizing attitude يمثل بدوره مرحلة متقدمة فى نمو المعانى . وهكذا تغدو الاشكال الأرقى للتفاعل والمعاشرة الانسانية ممكنة فحسب لأن تفكير الانسان يعكس واقعا متصورا conceptualized actuality تجريديا ، اختزاليا لظاهرات واحداث الوجود وللعلاقات بينها . فى هذه الاشكال الراقية التى تميز الاتصال الانسانى تتجسد وظيفيا وحدة التفكير واللغة ، وحدة التعميم والاتصال ، وحدة التفكير التعميمى التجريدى والتفاعل الاجتماعى الراقى .

وبعبارة أخرى ، تعتبر اللغة ، بوحدة وظيفتها — هى مضمون الوعى الانسانى الذى يتبدى فى الأنماط الراقية من السلوك الانسانى . (٣٩)

فالواقع المحيط بنا ينعكس فى أدمغة الناس فى شكل نماذج تفكيرية متعددة تلخص العلاقات المتضمنة فى هذا الواقع ، هذه النماذج تتكون وتتدعم باللغة ، كما يتم توصيلها بها . ولا تتأتى عملية انعكاس الواقع بدون توسيط اللغة التى تمثل حاملا لمعارفنا المتعلقة بهذا الواقع .

واللغة لا تمكننا من التعبير عن معارفنا عن العالم الخارجى فحسب ، ولكن أيضا عن عالمنا الداخلى — عن اتجاهاتنا نحو موضوعات العالم الخارجى ، ونحو الاشخاص الآخرين ، ونحو ذواتنا وسلوكنا وعواطفنا ونزعاتنا واحساساتنا .

اللغة والهوية الثقافية: تمثل اللغة المشتركة بين أعضاء الجماعة ، تمايزا عن كل أشكال التفاعل الاجتماعى ، أكثر المصادر رسوخا واستمرارا لما يعرف بـ « **الهوية الثقافية** » أو « **الذات الثقافية** » cultural identity فالهويات والفروق الثقافية بين الجماعات والثقافات المختلفة تميل الى أن تتبع خطوطا لغوية . فما يوجد من فروق هائلة فى العادات والقيم والاتجاهات والطقوس يصاحب بفروق فى اللغة ، كما أن التشابه فى اللغة يميل الى أن يدعم التشابه فى السلوك الاجتماعى . لهذا كان من الطبيعى أن تكون اللغة العربية فى مقدمة المقومات التى تقوم عليها القومية العربية . ونجد أيضا أن الامريكان يشعرون بتقارب نحو كندا وانجلترا أكثر من البلاد الاخرى بسبب استخدام اللغة الانجليزية كلغة مشتركة . ويسعى الاتحاد السوفيتى ، مع تعدد القوميات والثقافات فيه ، الى أن تسود بينها لغة مشتركة وهى اللغة الروسية . ومن ناحية أخرى ، نجد أن البلاد المجزأة لغويا ، كالهند وبلجيكا ونيجيريا ترتطم بمشكلات مستمرة تتعلق بالحفاظ على الوحدة القومية لأن الفروق اللغوية تدعم وتضخم الفروق الثقافية . وقد صارت الوحدة الايطالية فى القرن التاسع عشر ممكنة بسبب الاتفاق على اللغة الايطالية كوسيط ثقافى للاتصال .

---

(٣٩) د. آرابو : علم اللغة ومشكلة الوعى . (ترجمة : طلعت منصور) مجلة العلم والمجتمع . تصدر عن مجلة رسالة اليونسكو . القاهرة ، العدد العشرون ، سبتمبر / ١٩٧٥ .

وتتضح اللغة كركيزة للهوية الثقافية ودالة لها فى الثقافات الفرعية sub-cultures فى المجتمع : الطبقات الاجتماعية ، الفئات المهنية، الريف ــ الحضر ، العواصم ــ الاقاليم ، السواحل ــ الدواخل ، وغير ذلك من تنوع الفئات الثقافية فى المجتمع . فالطبقات الاجتماعية والمستويات التعليمية تتكشف أيضا فى أساليب التعبير لأعضاء هذه الثقافات الفرعية . ونستطيع عادة أن نحكم على شخص متحدث بأنه ينتمى مثلا ، الى الطبقة الوسطى أو الدنيا من خلال طريقته فى الحديث ، واستخدامه للكلمات ، وطريقة التلفظ ، والنحو وما شابه ذلك ، رغم أنه من الصعب تحديد الفروق بين الطبقتين الوسطى والعليا . فقد أوضحت دراسة « ستانلى بلوج» (٤٠) كيف أن الخصائص اللغوية ومستوياتها تتباين بعمق وفقا لاختلاف المستويات التعليمية الثقافية . وقد اعتمد فى هذه الدراسة على تحليل للخطابات الواردة الى رئيس تحرير مجلة « هيرالد بوسطون » ، على أساس نوعية الورق المستخدم فى الكتابة والنظافة والنحو والكلمات المستخدمة ودقة الخط . وقد استطاع الباحث أن يتنبأ بالمستوى التعليمى الثقافى بدرجة من الدقة تصل الى ٧٥ ٪ تقريبا . فالخطاب ، كغيره من أشكال الاتصال ، مصدر صريح للمعلومات (ما الذى ينشده الكاتب من الاتصال؟) ، كما أنه أيضا مصدر ضمنى للمعلومات . فكاتب الخطاب انما ينقل للآخر شيئا عن نفسه من خلال الورق الذى يختاره للكتابة ، ومن خلال نظافته ونظامه وغير ذلك من المؤشرات .

وهنا نتساءل : لماذا تعتبر اللغة دالة للهوية الثقافية للجماعات الاجتماعية ولأعضاء هذه الجماعات ؟ تتضح الاجابة على هذا السؤال من طبيعة اللغة كوسيط للاتصال الاجتماعى وللتجريد العقلى ، وكذلك **من الدور الحاسم الذى تقوم به اللغة فى عملية التطبيع الاجتماعى** . وفى ذلك تكشف دراسات عديدة عن مدى تباين الفروق بين الطبقات الاجتماعية فى توظيف اللغة فى تنشئة الاطفال ، وعن أنه لا يوجد اختلاف بين الطبقات الاجتماعية فى تأكيدها على اللغة كوسيط لضبط نمو الطفل وتوجيهه ، ولكن يبدو الاختلاف أساسا فى المعانى المتضمنة فى اللغة والمحققة لفظيا ، فالطبقة الوسطى ، مثلا ، تسعى الى مباشرة مزيد من الضبط لسلوك الطفل ولتكوين نظام أخلاقى معنوى لديه ، وذلك من خلال أساليب للتنشئة يلعب فيها الوسيط اللغوى الدور الاكبر . ومن شأن الاستخدامات اللغوية أن تنظم « المعانى الثقافية » cultural meanings **التى** يجرى توصيلها للناشئة بطريقة صريحة أو ضمنية .

هذه الاهمية البالغة للغة بالنسبة للهوية الثقافية يبرزها أبو علم النفس العربى « **الدكتور** عبد العزيز القوصى » ، وخاصة فيما يتعلق **بلغتنا العربية وذاتنا الثقافية ، على النحو التالى : (*)**

---

40. Plog, S.C. A literacy index for the mailbag., Journal of Applied Psychology, 50 (1966), pp. 86-91.

(*) نحيل القارىء الى دراسة الاستاذ الدكتور عبدالعزيز القوصى :

A.H. El-Koussy : The role of education for a healthy world cultural life (with reference to the to the development of mass communication). **The Journal of the Faculty of Education.** Ain Shams University, Cairo, 2, 1979.

« ينبغي أن ننظر الى اللغة على أنها مدخل هام ومخرج هـام ، وعلى أنهـا أعظم عوامل التوحيد والتكامل قوة . وفى حالة العالم العربي ليس الأمر صعبا لأن تكون اللغة هكذا ، ولكن فى حالة مناطق أخـرى كغينيا الجديدة ــ على سبيل المثـال ــ يعتبر الموقف بالـغ التعقيد . وتمثل وسائل الاتصال الجماهيرى عاملا هاما فى التأثير فى اللغة . ورغم أن للغة العربية معاييرها التي تيسر القرارات ، الا أن هناك فجوة ذات أبعاد معينة بين اللغة المنطوقة واللغة المعيارية ، كما أن هناك اللهجات المختلفة . وفى هذه الحالة ينبغي أن تتوصل الدول العربية الى اتفاق فيما يتعلق بالتخطيط اللغوى أو السياسة اللغوية ــ تلك السياسة التى يجب تتبعهـا فى وسـائل الاتصال الجماهيرى ، وفى الانمـاط التعليمية المختلفة ، وفى الدواوين الحكومية ، وفى التوثيق والمراسـلات . هذه السياسـة اللغـوية language policy من شـأنها أن تيسر التعليم طالما أن اللغة العربية هى وسيط التعليم فى كل المستويات ، أو على الأقل ينبغي أن تكون كذلك . كما انها أيضا ينبغي أن تسـاعد على تعضيد الوحدة الوطنية ، والوحدة العربية ، وكذلك حماية وتحصين الهوية الثقافية .

لذا تمثل اللغة ــ كوسـيط للمعرفـة ، وكجانب من جوانب الثقافة ، وكأداة ثقافيـة للثقافة ، وكعامل ثقافى توحيدى للثقافة ــ قضية ذات أهمية بالغة فى عالمنا المعاصر » .

الاتصل كسلوك لغوى :

تنطوى اللغة على اهمية اجتماعية ونفسية تتجاوز قيمتها الواضحة كأداة لنقل المعلومات من عقل لآخر . وهذه الاهمية تؤكدها دراسات عديدة ــ نذكر منها ، على سـبيل المثـال ، دراسات « تريانديس ، لوه ، ليفين » (٤١) وفيها قارنوا التأثير النسبى للغة (الانجليزية) المنطوقة على آراء واتجاهات الطلاب الجامعيين . فى هذه التجارب كان الطـلاب ينصتون الى عبـارات مسجلة على شرائط يجرى التلفظ بها اما فى لغة ذات مستوى منخفض ولا تراعى قواعد النحو أو فى لغة ممتازة ذات مستوى رفيع . وفى أثناء الانصات لهذه العبارات يعرض البـاحثون على شاشة أمام المفحوصين صورة رجـل على انه المتكلم الذى يحدثهم بهذه العبارات ، وقد كان الرجل اما أبيض أو زنجى ، كمـا كان يرتدى بأناقة أو على نحو ردىء . وبعد ذلك طلبوا من المفحوصـين أن يوضـحوا رغبتهم فى الاعجاب بالشـخص المتحدث ، وفى الترحيب به على أن يكون جارا لهم أو ان يرتبطوا به بالزواج ، وفى تقبله كصديق . وقد أوضح تحليل نتائج هـذه الدراسات أن الملبس ومظهره كانا يحتلان اهمية أقل فى تحديد استجابات الطـلاب . وقد كان الطلاب الأكثر تعصبا هم الأكثر تأثرا بالسلالة حينما أبدوا تقبلهم للمتحدث بأن يكون جارا أو صديقا أو قرينا بالزواج . ولكن ، من ناحيـة اخرى ، كان الأسـاس الرئيسي فى الاستجابة للشخص المتحدث هو نوعية لغته التى يتواصل معهم بها . فقد كان نوع اللغة التى يستخدمها

41. A.H. El-Koussy : The role of education for a healthy world cultural life (with reference to the development of mass communication). **The Journal of the Faculty of Education, Ain Shams University, Cairo, 2, 1979.**

لتحدث مسئولا عن ٨٠٪ من التباين فى تحديدمـا اذا كان المتحدث سـوف يتقبله الطـلاب نصديق لهم .

ولأهمية اللغة ولعلاقتها الوثيقةبالدراسات النفسـية ، صـار « علـم النفس اللغـوى » Psycholinguistics) يأخـذ مكانةكبيرة فى علم النفس . ويمكن أن ندلل على ذلك من أنه فى عام ١٩٧١ كان عدد الدراسـات التي تحويهـا مجلـة « ملخصـات نفسـية » Psychological abstracts ٢٣٫٠٠٠ دراسة ، منها ٦٩ دراسة (بنسبة ٣٪) تنتسب الى ميدان علم النفس اللغوى ، فى حين أنه فى عام ١٩٦١ كان عدد هذه الدراسات ثلاث مقالات فقط من ٧٫٣٥٣ دراسة تحويها المجلة فى ذلك العام . وبالاضافة الى ذلك ، قد صار علماء النفس أكثر اهتماما بجوانب معينة من السلوك المرتبط باللغة . من هذه الجوانب ، على سبيل المثال ، ظاهرتا التعلم والتذكر وعلاقتهما باللغة وبالعمليات الرمزية. ومن المجالات الهامة أيضا ، ما تؤكد عليه النظريات والدراسات الأصيلة فى تطور نمو الأطفال من أن نمو الكلام واللغة عند الاطفال هو ظاهرة معقدة ترتبط بجوانب وعوامل كثيرة فى نمو الطفل ، وليس نموا لغويا فحسب . وهذا ما تكشف عنه بجلاء الاعمال الرائدة لبياجيه فى سويسرا ولفيجوتسكى فى روسيا (٤٢) .

يحدد « سلوبين » (١٩٧١) الفارق بين علم اللغة وعلم النفس اللغوى فى أن علماء اللغة يهتمون بالتراكيب او البنى اللغويـة ، فى حين يهتم علماء النفس بكيفية اكتساب اللغة وكيف تقوم الانظمة اللغوية بوظيفتها حينما يتكلم الناس ويتم فهمهم (٤٣) . أى أن علماء النفس أكثر اهتماما بالجوانب **السلوكية للغة** . ولاشـك أن فهمنا للغة يستند على كل من جوانبها البنيوية والسلوكية على حد سواء : فلا نستطيع دراسة السلوك بدون الالمام بكيفية بنـاء السلوك ، ولا نستطيع فهم البنية دون ملاحظة السلوك .

ويعنى ذلك أن علم النفس اللغوى ليس تخصصا قائما بذاته ، وانما يقوم على نظـام العلاقات المتبادلة بين العلوم المعنية interdisciplinary . وفى ذلك قام « جورج ميلر ، وماك نيل (٤٤) بدور هائل فى تنظيم وجمع وبلورة النتائج التى توصل اليها علماء النفس فى دراستهم للسلوك اللغوى ، سعيا الى ربط هذه النتائج بطريقة تكاملية مع النظريات الرائدة فى ميدان علم اللغة ، وفى مقدمتها نظرية « نوام تشومسكى » .

ويمكننا ان ندلل على ذلك بنظريتين لهما أبلغ الأثر فى تقدم البحث فى السـلوك اللغوى ،

---

42. Triandis, H.C., Loh, W.D., & Levin, L.A. Race, status, quality of spoken English, and opinions about civil rights as determinants of of interpersonal attitudes. **J. pers. Psychol.**, 3 (1966), 468 - 472.

43. Slobin, D. I. **Psycholoinguistics.** Chicago : Scott Foresman, 1971.

44. Miller, G.A., & McNeil, D. Psycholinguistics. In lindzey & Aronson, (eds.), **The handbook of social psychology.** vol. 3. 2nd ed. Readings, Mass : Addison Wesley, 1969.

أو ان شئنا السلوك المرتبط باللغـة ، وهما :(أ) نظرية « نوام تشومسكى » (١٩٦٨) (٤٥) عن النحو التولدى التحولى » transformational generative grammer ، وهي نظرية تعكس أحدث الاتجاهات وأكثرها شيوعا فى علم اللغة ،(ب) ونظرية «تشارلز أو سجود» (١٩٥٧) (٤٦) ، ١٩٧١ (٤٧) ، عن سيكولوجية المعنى وقياسه ،وهى من الانجازات العلميـة المميزة لميدان علم النفس اللغوى بخاصة وعلم النفس بعامة .

تذهب نظريـة « تشومسـكى » الـى انالقواعـد التى نستخدمها حينما نتكلم أو نفسر كلام الآخرين هى القواعد النحوية للغـة التينستخدمها . فالتركيب النحوى الذى نستخدمه ونستجيب له ليس بظاهرة سطحية ، فالانسان قادر على أن يذهب الى ما وراء البنية السطحية للجملة ويحولها الى بنى structures أعمقتكشـف عما وراءها من معـانى . وتفيد هـذه النظرية أن تعلم اللغة عند الاطفال لا يمكن تفسيره كلية استنادا الى نظريتى « تعلم اللغة بالمحاكاة » أو « بالتدعيم » ، biologically programmed بطريقة تؤدى بـه الى أن يستولد لغة مترابطة نحويا تمكنه من التكلم ومن أن يكونمفهوما من الآخـرين فى ثقافته . أى أن هـذا « الميكانزم التوليدى للنحو » grammer-generating mechanism هو جزء متأصـل فى الطبيعة الانسانية . وفى ذلك يشير « سلوبين »(١٩٧١) الى ان هذه الاكتشـافات عن طبيعة اللغة سوف تؤول حتما الى تغيير مفهوم علماءالنفس عن طبيعة الانسان .

اما نظرية « تشارلز أو سـجود » ، وما قامت عليه من دراسات ، فتبين أن الكلمات ، وحتى الكلمات البسيطة أو التى تشير الى أشياءوموضوعات حسية ، تتضمن جانبين : الدلالة المباشرة denotation والدلالة الضمنية cannotation وكثـيرا ما يقـوم اختيار الكلمات على أساس مشاعر الشخص الموصـلواتجاهاته — أى انطلاقـا من الدلالة الضمنية وهى ذات صبغة وجدانية ، بينما قـد يكونللجانب الآخر — أى ما تشـير اليه الكلمات من دلالة مباشرة صريحة — اهمية اقل . يستخدم« أو سجود » لذلك طريقة تعرف ب « التمايز السيمانتى » semantic differential

ففى عـام ١٩٥٧ قـام اوسجود وزملاؤهبتحليل عاملى للجوانب الوجدانية affective لعدد كبـير من الكلمات والمصطلحات ، بهـدف قياس التباين فى مضمونها من المعلومات . وقد وجدوا أن حوالى ٥٠٪ من الفروق فى المعانى بينالكلمـات يمكن حصرها وفقا لثلاثـة عوامل : (١) التقييـم evaluation (٢) القـوة potency والنشاط activity . وهذه العوامل ، بدورها ، يمكن قياسها بواسطة تقديرالمفحوصين للكلمات وفقا لسلسلة من المقاييس . فعامل « التقييم » لموضوع أو كلمة يمكن قياسهبواسـطة مقاييس مثـل « حسن — ردىء » ،

45. Chomsky N. **Language and mind.** New York : Harcourt Brace & Jovanovick 1968.
46. Osgood C.E. etal. **The measurement of meaning.** Urbana : U. of Illinois Press 1957.
47. Osgood C.E. Exploration in sematic space. **J. Soc. Issues,** 27 (1971).

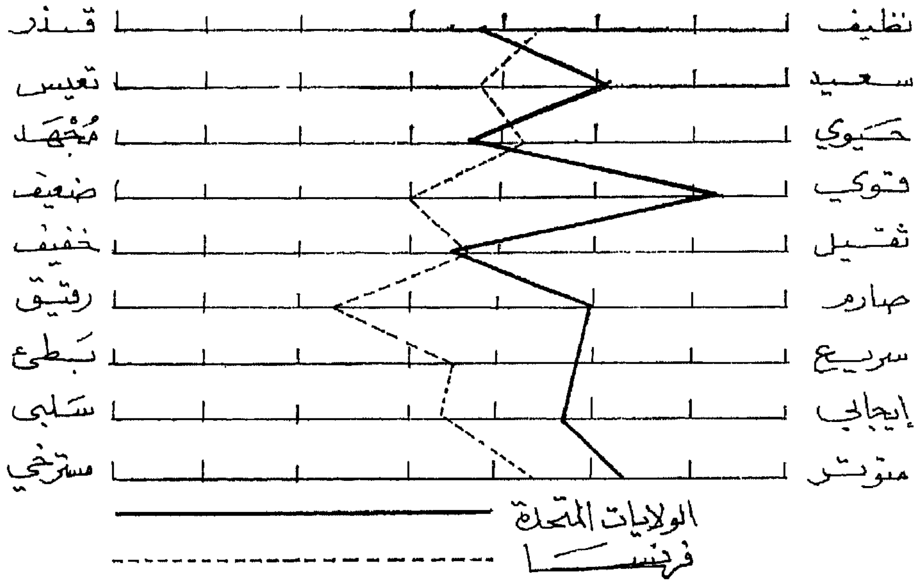

شكل (٤) : تقدير الطلاب الجامعيين لـ « الولايات المتحدة الامريكية » و « فرنسا » ، باستخدام طريقة التمايز السيمانتى .

Lindgren, H.C. (1973). op. cit. p. 322.

« نظيف ــ قذر » ، (جميل ــ قبيح) . وعامل « القوة » يمكن قياسه بواسطة مقاييس مثل « ثقيل ــ خفيف » ، « صلب ــ رقيق » ، « قاس ــ لطيف » ، أما عامل « النشاط » فيمكن قياسه بواسطة مقاييس مثل « سريع ــ بطيء » ، « ساخن ــ بارد » ، « ايجابى ــ سلبى » .

وقد شاع استخدام طريقة « التمايز السيمانتى » فى دراسات نفسية عديدة وخاصة فيما يتعلق بدراسة الاتجاهات . ومن هذه الدراسات ، على سبيل المثال ، تلك التى قام بها « لندجرن » فى عام ١٩٦٦ (لندجرن ، ١٩٧٣) (٤٨) عن استخدام التمايز السينمانتى كمقياس لدراسة « الحالة الادراكية » perceptual set نحو بعض البلاد . ويتضح ذلك من الشكل رقم (٤) الذى يمثل متوسط تقديرات ٥٤ طالبا بجامعة سان فرانسيسكو ، طلب منهم تقدير « فرنسا » و « الولايات المتحدة » وفقا لتسعة مقاييس . تمثل المقاييس الثلاثة الاولى عامل التقييم ، وفيها كان تقدير الطلاب للبلدين متقاربا الى حد كبير ، عدا أن للولايات المتحدة مضمون وجدانى (سعادة) أكثر من فرنسا الى حد ما . ومن ناحية أخرى ، أدرك المفحوصون فرنسا بمضمون وجدانى (نظافة ، حيوية) أكثر من الولايات المتحدة . الا أن الفروق فى هذا العامل طفيفة وغير دالة . وبالنسبة لعامل « القوة » (وفقا للمقاييس الثلاثة التالية) ، كان تقدير الطلاب للولايات المتحدة مرتفعا ودالا ، وان كانت لا توجد فروق فى مقياس « الثقل » . فالولايات المتحدة تحمل مضامينا خاصة بالقوة والصرامة اعلى من فرنسا بدرجة كبيرة . أما بالنسبة للمقاييس الثلاثة الاخيرة فتوضح أن الولايات المتحدة اكثر فى عامل « النشاط » من فرنسا . ولا شك أن تكون « حالة ادراكية » معينة عند بعض الجماعات تجاه جماعات اخرى يلعب دورا كبيرا فى توجيه العملية الاتصالية .

اللغة ، اذن ، كنظام من الرموز وكسلوك اتصالى تنطوى على معان موضوعية اشارية صريحة ، واخرى ذاتية وجدانية ضمنية . ولاشك أن الاتصال السليم القائم على الفهم المتبادل بين الأشخاص والجماعات يستلزم الوعى بالمعانى المختلفة الكامنة وراء الكلمات والعبارات ، وتوظيف الكلمة فى خدمة السلوك الاتصالى .

• • •

انماط الاتصال :

ياخذ الاتصال انماطا متعددة ، تختلف وفقا للهدف من الاتصال ، وللوسائط المستخدمة ، ولحجم الأشخاص ونوعيتهم الذين يؤلفون العناصر الموصلة ، ولطبيعة الموقف الاتصالى ،

48. Lindgren H.C. (1973) op. cit. p. 322.

وغير ذلك من تعدد متغيرات العملية الاتصالية . ومع هــذا التعدد يمكننا أن نحدد **بعض انماط الاتصال من الناحية النفســية الاجتماعية علىالنحو التالى :**

(١) الاتصال بين الفرد ، ونفسه intraindividual :

ونعنى به ادراك الفــرد لذاته ولعلاقاتــهبالعالم المحيط به ؛ ووعيــه بخصاله وقدراتــه وحدوده ، وبجوانب قوته وضعفه ، وبما قــديعوق انطلاق طاقاته . ولا شــك أن حســن اتصال الفرد مع نفسه يجعله أقدر على توظيفامكاناته توظيفا كاملا (fully functioning) ، الامر الذى يضمنبدرجة كبيرةالسواء لشخصيتهوالفاعلية لأسلوب حياة هذه الشخصية .

واننا لنستطيع بذلك تفسير الشخصــيةمن هذا المنظور الاتصالى ، مدعمينوجهة نظرنا بما يطرحه أحد الثقاة فى الفكر الســيكولوجىالمعاصر ، وهو « ج . نوتان » فى دراسة له عــن « الوعى والسلوك والشخصية » (١٩٥٥) ، فىتفســير طبيعة الشخصية الانسانية : (٤٩) .

يقرر « نوتان » أن علماء النفس ، كقاعدةعامة ، يفهمون الشخصية على انها تنظيم داخلى للسمات والاتجاهات والاستعدادات والاتساقاتالسلوكية . حقيقــة ، الشخصــية هي ذلــك التنظيم الداخــلى ، ولكــن الخاصــية الاكثراساسية المميزةللشخصيةتختفيفىذلك التعريف. **فالشخصية اساسا بنية تتجاوز تنظيمها الداخلى ــ فأبــرز** معالمها المميزة تتمثل فى تلك الحقيقــة بأن النظرة الى العالم والتعرض له تكون متضمنةفى تكوينها . الشخصية طريقة للوجود والسلوك way of being and behaving فىعالم يوجد بالنسبة للذات . فالنظرة الى العالم أو الموقف الحياتى مكون ضرورى للشخصية .

بهذا المعنى ــ كما يذهب « نوتان » تكونالبنية الاساسية للشخصية هي **((وحدة الانا ــ العالم))** ، أو ان شــئنا هي وحدة اتصال الأنا ــالعالم . وفى الحقيقة ان الشخصية تتألف مــن انماط مختلفة من علاقات الأنا ــ العالم ومــناتصالهما الوظيفي،تلك العلاقات اللازمة لتوظيف الشخصية personality functioning ليس على مستوى التفاعــل البيوكيميــائى بين الكائن الحى ــ البيئة فحسب ، ولكن أيضا علىمستوى العلاقات المعرفية والوجدانية بين الأنا ــ العالم .

وتحديد طبيعة الشخصية على هذا النحوينطوى على مفهوم آخر لجانب اساسى من جوانب الشخصية ، ونعنى به الوعى ، الذى يضىء كافةاركان الشخصية ، ويرشد سلوكها ، ويستلهم انطلاقتها وتساميها . لا يشير الوعى أســاسا ،خلافا للنظرة الاســتبطانية ، الى عالم داخلى يتكون من تمثيلات representations ومعــانى . الوعى هو الحضور الفورى للعــالم ذاته ، هو التعرض الى العالم السلوكى الحقيقىوالانفتاح عليه ، وليس انحصارا فى عالم داخلى من التمثيل . وبالوعى يكــون الانســان حاضرابالنسبة لنفســه ، ذلك الحضور الذى يــؤدى الى تمكينه من ادراكه لنفســه وفى اتصــالهابالعالم ، والى العمل علىتكييف ادراكه وسلوكه،

49. Nuttin J. Consciousness behavior and personality. Psychol. Rev. 62 (1955) 349-355

بل والى اعادة تشكيل شخصيته ذاتها . فهذاالحضور يمكن الانسان من التدخل ، بقصد ، فى مسار نموه لكى يعيد بناء علاقاته مع البيئةواتصاله بها . تلك هى الوظائف « العليا » للوعى التى تحرر الشخصية من الانغلاقية أومن سوء الاتصال مع نفسها وعالمها . وتلك هي الامكانيةالانسانية التىتعتبر أساس تلك الاشكالالراقية من السلوك كالعلم والمعرفة والجهود القصدية الرامية الى تحسين الذات .

يمكننا أن نرى فى نظرية « نوتان » عنالشخصية مفاهيم عديدة للاتصال : وحدة الأنا ـ العالم ، الوعى ، حضور العالم فى الشخصية ،وغيرها من المفاهيم التي تؤكد على الاتصال الوظيفى الفعال بين الفرد والعالم المحيط به .

الاطار المرجعى الظاهرى (الفينومينولوجى) : يؤكد انصار المنحى الظاهرى (الفينومينولوجى) فى علم النفس انه لكى نفهمسلوك الفرد فى موقف ما ، فانه من الضرورى أن نفهم معنى ذلك الموقف بالنسبة للفرد . ولذلكفمن النادر ان يؤدى تحديد طبيعة الموقف المثير الى تقديم اساس للتنبؤ بسلوك الفرد ،لأن كل فرد يدرك هذا الموقف عينه بمعانى مختلفة . يصبح من الضرورى اذن أن نفهم كيفيدرك الفرد العالم بالنسبة له لكى نفهم ذلك الفرد ، ولكي نتنبأ بالكيفية التي سوف يسلكبها فى موقف معين .

وفى ذلك يسلم « كومبز وسنج » (١٩٥٩)أن « كل سلوك ، دون استثناء انما يتحدد كلية بالمجال الادراكى للكائن الحى السالك(٥٠) . ويقصد بالمجال الادراكى perceptual field « الكون الكلى ، بما فيه ذاته ، كما يخبرهالفرد فى لحظة الأداء (٥١) . ويعنى ذلك ان المجال الادراكى قد يتفق أو لا يتفق مع الواقعالطبيعى ، كما انه قد يستبعد الكثير مما يحيط بالفرد فيزيقيا . فأنت فى أثناء قراءتك لهذهالصفحة قد تكون فى هذه اللحظة غير واع تماما بالكثير من الأشياء المحيطة بك . أى انه بالنسبةلهذه اللحظة لا تكون تلك الاشياء جزءا منمجالك الادراكى . ولكن اذا أبصرت من حولك فسوفتدخل بعضا من هذه الاشياء فى مجالك الادراكى. ومن ناحية اخرى ، قد تكون هناك أشياء غيرحاضرة فيزيقيا فى هذه اللحظة ، ولكنها تكون حاضرة نفسيا لانهاء جزء من مجالك الادراكى. ويعنى ذلك ، **أن المجال الادراكى هو المجال الشخصى والفريد لوعى الفرد .**

وهذا المجال الادراكى للفرد يخضع للتغيرالمستمر . فالفرد لا يكون واعيا بكل أجزاء مجاله الادراكى على حد سواء ، كما انالأحداث تتوالى فى تتابع سريع وراء بعضها . وبسبب التعلم ، يميل ادراك الفرد لنفسالظاهرةالى التغير. فالتعلم،بالنسبةللعالمالفينومينولوجى هو عملية التمايز المتوالى repregressove dofferentiation من المجال الادراكى الاكثر عمومية . فثمة معان جديدة يلحقها الفردبما يلاحظه .

50. Combs A. & Snygg D. Individual behavior. (Rev. ed.) New York : Harper & Row 1959 p. 20.
51. Ibid.

والحقيقة بأن المجال الادراكى للفرد خاضع للتغير المستمر لا تعنى بأنه غير منظم . فالخبرة السابقة الفريدة للفرد تمده بمجموعة فريدة من المعانى التي تؤثر فى كل خبرة جديدة . وما يتخذه الفرد من أحكام ويقوم به من أعمال ، انما يجرى فى اطار هذه المجموعة من المعانى الفريدة . **وبقول آخر ، فان المجال الادراكى** منظم بطريقة لاشباع حاجات الفرد . **فالناس تميل الى أن ترى ما ترغب فى رؤيته .**

لكل فرد اذن ادراكاته المتميزة لذاته . يطلق « كومبز وسنج » على تنظيم كل الطرق التى يرى بها الفرد نفسه مصطلح « الذات الظاهرية » phenomenal self أى الذات كما يكون واعيا بها . فكل شخص يدرك كنفسه على أن لديه خصائص جسيمة معينة ، وطابع معين ، وسمات شخصية معينة ، وقدرات معينة . وهكه الادراكات الكثيرة للذات تختلف بدرجة هائلة فى أهميتها بالنسبة للفرد . ويخصص « كومبز وسنج » مصطلح « مفهوم الذات » self concept لادراكات الذات التى تحمل أهمية رئيسية بالنسبة للفرد .

ويوضح الشكل رقم (٥) رسما تخطيطيا للمجال الظاهرى الكلى للفرد ، تمثله سلسلة من الدوائر المتراكزة concentric circles اى المتحف فى المركز وهو مفهوم الذات . فى هذا الشكل التخطيطى ، نجد أن الدائرة الكبيرة تطوق المجال الظاهرى الكلى . ويعرف ذلك الجزء من المجال الظاهرى الذى يتضمن كل ادراكات الذات ، والذى تمثله الدائرة الاصغر ، ب « الذات الظاهرية » . أما المحور المركزى للذات الظاهرية ؛ والذى يحمل الاهمية الكبيرة بالنسبة للفرد ، فهو « مفهوم الذات » .

شكل (٥) رسم تخطيطي يوضح المجال الظاهرى الكلى للفرد فى ثلاث دوائر متراكزة : المجال الظاهرى ، الذات الظاهرية ، مفهوم الذات .

Loree, M.R. Psychology of education. New York : (The Ronald Press Co., 1970, p. 46.

ويميل كل فرد الى الدفاع عن مفهومه عن ذاته والى تعزيز هذا المفهوم . وهو فى ذلك يتعلم تلك الاشياء التى تحمل معانى شخصية بالنسبة له ، ويرفض الاشياء التى من شأنها أن تهدد ادراكاته لذاته او تقوضها . ومن ثم ، تنشأ المشكلات حينما يجد الفرد نفسه مضطرا الى ممارسة أدوار لا تتفق مع مفهومه عن ذاته . (٥٢) فقد استطاع بعض الباحثين (بونكر ، ١٩٦٧ (٥٣) ، سميلسر ، ١٩٦١ (٥٤)) أن يتحققوا تجريبيا من صحة الفرض الذى يقرر أن اداء الادوار يكون أكثر فعالية تحت شروط التطابق بين الذات والدور self-role congruence مما هو فى ظل شروط عدم التطابق بين الذات والدور المنوط بالفرد . ففى دراسة « سميلسر » جرى فرز المفحوصين، وهم طلاب باحدى الكليات ، الى فئتين وفقا لمقياس للسيطرة احداهما مرتفعة للغاية والاخرى منخفضة للغاية على هذا المقياس . ثم نظموا أزواجا للمشاركة فى مهمة تعاونية لحل بعض المشكلات . وفى هذا التنظيم يكلف أحد المفحوصين بدور مسيطر يقوم على التخطيط وتوجيه الأوامر ، بينما يتعين على زميله القيام بدور التابع الذى ينفذ هذه الاوامر . وقد اتضح ان الفاعلية الاكبر فى الاداء تتحقق حينما يناط بالطالب المسيطر دور مسيطر ويشترك فى المهمة مع زميل خاضع له دور التابع . ومن ناحية اخرى ، يتدنى الاداء الى اقصى درجة حينما لا يتفق الدور المنوط بالفرد مع ما يتميز به من سمة السيطرة — الخضوع .

يتضح من ذلك العرض أن اتصال الفرد مع نفسه قوامه فكرته عن نفسه ، وادراكه لخصائصه وامكاناته ، ووعيه بأسلوب حياته . ويعنى ذلك أن اتصال الفرد بنفسه يتحدد بادراكه لذاته . وهذا النمط الاتصالى يمثل ركيزة العلاقات الاتصالية الانسانية ، سواء الاتصال بين الفرد والآخرين أو الاتصال بين الجماعة الاجتماعية .

(٢) الاتصال بين الفرد والآخرين interindividual

يرتبط ادراك الفرد لذاته ارتباطا وثيقا بادراكه للاخرين ، وبالتالى فان اتصال الفرد بالآخرين ونظام علاقاته بهم يتحدد بهذا المنظور الفينومينولوجى للاتصال كما يتحدد أيضا بالواقع الاجتماعى الثقافى للافراد . هذا الاتصال بين الفرد والآخرين ينمو عند الطفل من العلاقات الاتصالية والادوار المتبادلة بين أعضاء الاسرة كوحدة اجتماعية ؛ ويأخذ هذا النمط الاتصالى من التطور عند الفرد أدواره الاجتماعية . ويعنى ذلك أن العملية الاتصالية تتطور وتتحقق فى سياق الادوار التى يقوم بها الفرد .

---

52. Sarbin T.R. & Allen V.L. Role theory. In G. (Lindzey and E. Aronson (eds.) **The Handbook of social psychology.** vol. I. (2nd ed.) Readings Mass. : Wesley 1968.
53. Bunker G. **Self role congruence and status congruence as interacting variables in dylactic behavior.** Barkley : Univ. Calif. Press 1967.
54. Smelser W.T. Dominance as a factor in achievement and perception in cooperative problem solving interactions. **J. abnorm. soc. Psychol.,** 62 (1961) 535-542.

الادوار والاتصال :

يعتبر « كلوكهوهن وموراى وشـنيدر » فى كتابهم « الشخصية فى الطبيعة والمجتمع والثقافة » (٥٥) (١٩٥٣) « محددات الادوار » role determinants من أبرز المحددات للشخصية ، حيث يكمن وراء نمو الشخصية وتوظيفها Personality functioning أدوار معينة يباشرها الفـرد .

يحدد « رالف لينتون » الادوار فى ضوء الافعال التى يمارسها الفرد لكى يدعم الموقع الذى يحتله فى نظام العلاقات الاجتماعية والانتاجية .(٥٦) أما « س. سارجنت » فيحدد الدور على أنه نموذج للسلوك الاجتماعى الذى يبدو ملائما للفرد من الناحية الموقفية فى ضوء مطالب وتوقعات الافراد فى جماعته .(٥٧) فالادوار تتأثر بوضوح بتوقعات الفـرد لذاتـه وبمفهومه عن نفسـه ، وهذه التوقعات تتواءم مع توقعات الآخرين منه . « فالذات ــ كما يقول » هارى ستاك سوليفان « ــ تتألف من استحسانات الآخرين للفرد أو من تقديراتهم المنعكسة على سلوكه » . (٥٨) .

أما « دانييل ميلر » فيشير أيضا الى أن للادوار تأثيرا معياريا معينا على السلوك الاجتماعى للفرد . ويقرر : « أن الاستجابات المتبادلة بين شخصين يمكن تفسيرها أيضا عن طريق تصوراتهما المشتركة للسلوك الملائم لدوريهما ، اكثر مما يمكن تفسيرها عن طريق خصائصهما النفسية أو الصفات الفريدة للتفاعل الاجتماعى (٥٩) . ويذهب « ميلر » أيضا الى أن للادوار الاجتماعية وظيفة ، تتمثل فى وضع حدود لسلوك أعضاء المجتمع . وبذلك تكون الادوار ضرورية لوجود التركيب الاجتماعى للمجتمع .

ويعتبر « ميلر » الادوار على أنها تتابعات متعلمة للسلوك ــ أى أنها أساليب مكتسبة من السلوك تعمل على ترجمة القيم الى انماط من العمل والاداء . ويكون « التعلم الاجتماعى » بذلك هو العامل الحاسم فى تعلم الادوار التى تنمو مع الفرد بنمو خبراته فى الوسط الاجتماعى الذى يعيشه .

---

55. Kluckhohn C. Murray H.A. & Schneider D.M. (eds.) **Personality in nature, society, and culture.** New York : Knopf 1953.
56. Linton R. **The study of man.** New York : Appleton-Cent.-Crofts 1936.
57. Sargent S.S. Conceptions of role and ego in contemporary psychology. New York: Harper 1951 pp. 355-370.
58. Sullivan H.S. **Conceptions of modern psychiatry.** Washington D.C. : William Alanson White Psychiatric Foundation 1947 p. 10.
59. Miller D.R. The study of social relationships : situation identity and social interaction. in S. Koch (ed.) **Psychology : a study of a science.** vol. 5. New York : Mc Graw-Hill 1963 p. 655.

وتنطوى ظاهرة ((تمايز الادوار)) role differentiation على اهمية كبيرة بالنسبة لفعالية الاتصال . فتمايز الادوار يرتبط بنمو قدرة الفرد على التوافق لضغوط المجتمع المتغير ، لان التوافق يتحقق من خلال هذا التمايز — اى من خلال نمو مخزون متسع من الادوار عند الفرد والاستجابة لها . هذا الاتساع فى الادوار وتمايزها يرتبط باتساع نطاق اتصالات الفرد . وفى ذلك يقرر « ساربين وآلين » انه « بقدر ما يزداد مخزون الادوار repertoire of roles عند الفرد ، بقدر ما يكون مهيأ على نحو افضل لمواجهة مطالب الحياة الاجتماعية » (٦٠) فالفرد الذى يتمتع بمدى أكثر اتساعا من الادوار التى يستطيع ممارستها لا يكون قادرا على التفاعل والاتصال بفاعلية مع غيره من الافراد فى عدد كبير من المواقع الاجتماعية فحسب ولكنه يكون قادرا كذلك على التعاطف empathy مع الآخرين . ويدل التعاطف على قدرة الفرد على تخيل دور الآخر وعلى ادراك الموقف بالطريقة التى يراها الاشخاص الاخرون . وهذه العملية لا تنطوى على درجة عالية من الادراك الاجتماعى فحسب ، ولكن ايضا على قدرة عالية على الاتصال بالاخرين . ويعزى ذلك الى ان التفاعل الاتصالى الناجح بين الافراد يتوقف بدرجة كبيرة على الحد الذى يكون عنده الاشخاص المشتركون فى العملية الاتصالية على وعى بحاجات بعضهم الآخر وبمشاعرهم واتجاهاتهم وقيمهم والى غير ذلك .

(٣) الاتصال بين الجماعات الاجتماعية :

من الحقائق البارزة فى سيكولوجية الاتصال ، والتى يعنى بها علم النفس الاجتماعى ، تلك الحقيقة بأن الاتصال يعمل كأساس للعلاقات الاجتماعية بكل أنواعها . فالاتصال هو بمثابة « الاسمنت » ، ان صح هذا التعبير ، الذى يربط الناس مع بعضها فى أنظمة اجتماعية : جماعات ، ثقافات ، مجتمعات ، أو ما شابه ذلك . ويذهب « كاتز وكان » الى انه يمكن النظر الى الانظمة الاجتماعية على انها شبكات مقيدة من الاتصال — وهى مقيدة من حيث أن تدفق المعلومات من وحدة اجتماعية الى وحدة اخرى داخل النظام يجرى تركيزه وتوجيهه لتنقية المعلومات من البيانات غير المتعلقة التى قد تتدخل مع الرسالة الجارى نقلها . (٦١)

والواقع أن الجماعات الاجتماعية تصبح انظمة اجتماعية فعالة بواسطة الاتصال ، كما أن محاولات الاتصال تؤدى الى تكوين الجماعات . فالجماعات الاجتماعية توجد بفضل التفاعل الاتصالى الذى يتواتر بين اعضائها . ويتحدد الاتصال بين الجماعات الاجتماعية وفقا لانماط هذه الجماعات وما يمكن أن يقوم بينها من علاقات وادوار متبادلة .

انماط الجماعات : **يتأثر سلوك اعضاء الجماعة بانماط الجماعات** التى يحققون فيها وظائف معينة . وسوف نركز باختصار على بعض هذه الانماط ذات التأثير الاكبر على السلوك الاتصالى .

60. Sarbin T.R. & Allen V.L. op. cit. p. 491.

61. Katz D. & Khan R.L. **The social psychology of organization.** New York : Wiley 1966.

أ ـ الجماعات الأولية والثانوية : يتزايد تأثير الجماعة على اتجاهاتنا وسلوكنا وعلاقاتنا ، بقدر ما ننضوى بعمق الجماعة . وتحدد درجة الانضواء الشخصى personalinvolvement فى الجماعة الى حد كبير نمط هذه الجماعة : كجماعة أولية primary group أو كجماعة ثانوية secondary group (٦٢) .

فى الجماعات الاولية يتحقق الاتصال وجهالوجه وبصورة متكررة ، وعلى نحو اكثر عمقا وودية . وتبدو الخاصية الرئيسية للجماعاتالاولية فى تأثيرها « على شكل الطبيعة الاجتماعية للفرد » (٦٣) . وتعتبر جماعة الاسرة خير مثالالجماعات الاولية ، ولكن هذا النمط يتضمن كذلك الجماعا ت الترويحية وجماعات العمل ،بل وأى جماعة ينضوى فيها الافراد بعمق . أما الجماعات الثانوية فتتمثل فى المنظمات والاحزابالسياسية والمهن والدواوين الحكومية والجماعات القومية . وتتسم هذه الجماعات بأنهاء أكثرلا شخصية impersonal وبأن العلاقات بين الاعضاء فيها ذات صبغة رسمية وتعاقدية contractual . وبينما يكون الاتصال فى الجماعة الاولية متصفا بصبغةعاطفية بدرجة كبيرة ، نجد أن الاتصال فى الجماعة الثانوية يقوم على تبادل المصالحوالخدمات والمعلومات والكسب المادى .

ب ـ الجماعات الشكلية واللاشكلية : غالبا ما تعتبر الجماعات الاولية كجماعاتلا شكلية informal group ، والجماعات الثانويةكجماعات شكلية formal groups تتطلب الجماعة الثانوية درجة معقدة من التركيب لكىتحافظ على نفسها وتحقق اهدافها . واذا كانت الجماعة منخفضة فى تركيبها ، فانها من المحتملان تكون غير مستقرة ، وان تنشأ وتختفى فى آن واحد ، مثل تكون جماعة من الطلاب لاحتساءالشاى فى كافتيريا الجامعة . أي أن تركيب الجماعة فى بنيته متشابكة الادوار والاتصالاتيساعد على جعل الجماعة أكثر استقرارا ويمكنها من مقاومة التغيرات الشديدة . وقد أدتالتراكيب أو البنيات الشكلية formal structures الكثير من الجماعات الثانوية كالمنظمات الدينية ،الى تمكينها من البقاء لقرون عديدة .

ج ـ الجماعات المنغلقة والمفتوحة : تعنى الجماعات المنغلقة أو المقصورة exclusive groups تلك الجماعات التى تحددالعضوية فيها بفئات معينة وتقصرها عليها . ومن أمثلة الجماعات المنغلقة ـ الاتحادات والنقابات أو الرابطات المهنية المختلفة ، فمثلا نقابة المعلمين أو المهندسين لا تسمح بالعضوية فيهاالا لاشخاص ذوى اعدادمهنى معين وخبرات معينة . مثل هذه الجماعات تقوم على أساسوظيفى ـ فنقابة المهندسينمثلا توجد لغرض تمكين اعضائها من الاتصال ببعضهم لاخر ، ومنالاشتراك فى مشروعات تعاونية ، ومن التأكد على معايير معينة للتدريب والممارسات المهنية ،وغير ذلك من قضايا ومشكلات تتعلق بالمهنة .

---

62. Cooley C.H. **Human nature and the social order.** New York : scribners 1902 (Reprinted by Free Press New Yor : 1956.

63. Ibid p. 23.

أما الجماعات المفتوحة inclusive groups ، فهى تلك الجماعات التى تفتح ابوابها غالبا لكل من يرغب فى عضويتها ، بل وربما تسعى الى اجتذاب اعضاء اليها . ومن أمثلة هذه الجماعات ـ الجماعات السياسية ، وجماعات الاندية وماشابه ذلك . وهذه الجماعات ، خلافا للجماعات المنغلقة ، لا تفرض مواصفات خاصة للعضوية ، عدا الاتفاق بين الاعضاء فى الاهتمامات المتعلقة بالجماعة ، وتقبلهم لاهداف وقواعد التنظيم فيها .

د ـ **الجماعات المنتمية والمغتربة** : ترتبط ظاهرة الاستبعاد exclusiveness فى الاتصال بين الجماعات الاجتماعية بنمط جماعة منتمية in-groups أو كجماعة مغتربة out-groups . يطلق على الجماعات المنتمية فى بعض الاحيان مصطلح **جماعات النحن** we groups **خلافا للجماعات المغتربة التى قد تعرف بـ « جماعات الهم »** they groups .

تتصف الجماعات المنتمية باحساس قوى بالتوحد المتبادل وبالمعية بين أعضاء الجماعة ، الى الحد الذى يشعرون معه بالعزلة وبفقدان المكانة اذا خرجوا عن نطاق الجماعة . ومن شأن العضوية والمشاركة فى هذه الجماعات أن تستدعى غالبا مشاعر قوية من الاخلاص والتعاطف والتكريس . ومن المحتمل أن يكون اسلوب تفكير مواطنى البلاد ، التى يسود فيها احساس قوى بالقومية ، بشأن العلاقة بين انفسهم وبين الناس فى بلاد أخرى على أساس « نحن » و « هم » . هذه المشاعر تكون اقل وضوحا فى بعض البلاد الجديدة ، حيث يكون من المحتمل أن تمثل « نحن » القبيلة أو المجتمع الذى يكون الفرد عضوا فيه ، فى حين يتضمن مفهوم الـ « هم » أى فرد آخر .

وفى العصور الحديثة ، يستخدم مفهوم « الجماعات المنتمية » للاشارة الى تلك الجماعات التى لها قدر أكبر من القوة والفعالية فى المجتمع ، مثل بعض العائلات التى تلعب أدوارا كبيرة فى الحكم والسياسة والاقتصاد ، أو بعض الاحزاب السياسية ، أو المؤسسات الدينية ، أو الشركات أو النقابات وغير ذلك . فمثلا ، يعتبر البروتستانتيون البيض الانجلو ـ ساكسونيون كجماعة منتمية كبيرة فى الحياة الاقتصادية الامريكية . وتسعى هذه الجماعات الى المحافظة على سمعتها ومكانتها ، والى مقاومة جهود اعضاء الجماعات المغتربة الرامية الى مشاركتها فى قوتها . ومن الاساليب التى تلجأ اليها الجماعات المنتمية لمواجهة التطفل الحقيقى أو المتخيل من جانب الجماعات المغتربة على حقوقهم وامتيازاتهم ، هو زيادة التباعد الاجتماعى بين انفسهم وبين أعضاء الجماعات المغتربة . وفى ذلك توضح دراسات « زيلر ، بهرنجر ، جود شيلز » أن الجماعات التى تسمح بالتغير فى عضويتها ثابتة (٦٤) . وقد أجرى « هوفمان ومابر » دراسة على سلوك حل المشكلات فى نوعين من الجماعات : الاولى وتتألف من أفراد متشابهين فى انماط الشخصية ، فى حين كانت الجماعة الثانية تتضمن أفرادا ذوى سمات

64. Ziller R.C. Behringer R.D. & Goodchilds J.D. Group creativity under conditions of success or failure and variation in group stability. **J. app. Psychol.**, 46 (1962) 43-49

شخصية متباينة . وقد أوضحت نتائج هـــذهالدراسة أن الجماعة غير المتجانسة قد توصلت الى حلول أفضل وكانت تستثير فاعلية أكبر بينأعضائها . (٦٥)

هـ ــ جماعات العضوية والجماعات المرجعية :من الواضح ان الجماعاتالتيتحتفظ بعضويتها فيها تباشر بعض التأثير على سلوكنا . فالعضويةفي جماعة ما تكون متفقة بدرجة أكبر او أقـل مع نزعتنا الى تقبل معاييرها وقيمها . وليس منالضرورى لذلك أن يكـون لجماعـة العضويـة membership group تأثير على سلوكنا . ومنناحية أخـرى ، تعتبر أي جماعـة ذات تأثـير معيارى على سلوكنا جماعة مرجعية reference group ، لاننا « نرجع » سلوكنا الى معاييرها. ومن الدراسات الكلاسيكية عن تأثير الجمـاعاتالمرجعية على السلوك ، تلك الدراسـة التى قـام بها «نيوكمب» (٦٦) عن تأثير قيم الكلية علـىقيم الطلاب ، وجد « نيوكمب» أنالقيمالليبرالية للكلية قد انعكست على قيم الطلاب وعلى توجههمالليبرالى . وفى دراسة تتبعية لبعض الطـلاب المستجدينبجامعة ميتشيجان ،وجد« ليهمان»(٦٧) أن الطلاب لـم يصيروا ليبراليين فحسب ، ولكن أيضا أكثر اقتدارا عـلى حـل المشكلات ،وأكثر استقبالا للافكار الجديدة ، وأكثر عقلانية وعلمية ، وأقل نمطية فـى معتقداتهم . أي أنهؤلاء الطلاب قد استخدموا أعضاء الكلية كجماعة مرجعية فى أحداث هذه التغيرات فى سلوكهم .وبمعنى ذلك ، وفقا لمفاهيم التعلم الاجتماعى ؛ أن أعضاء الجماعة قد صاروا كنماذج للسلوك الذىيحتذيه الطلاب ويحاكونه .

التعصب بين الجماعات كمعوق للاتصال :تعتبر ظاهرة التعصب أو التحامل حجـر عثرة يعوق الاتصال بين أفـراد المجتمع وادراكـهم ،وينحرف بها الى دروب مظلمة ومسالك مغلقـة لاتجنى منها الجماعة الا « قبض الريح » .

ان المعايير التى ينميها المجتمع تحدد ليسمقـدار العـداوة التـى يمكـن التعبير عنهـا صراحة فحسب ، ولكن أيضا الاشكال التييمكنأن تأخذها . وبقدر مايزدادالمجتمع تعقيـدا ، يزداد احتمال توجيه المجتمع للعداوة لكى يجرىالتعبير عنها بطريقة رمزية وليس بطريقة مباشرة يتضح ذلك فى «الاعلان»بالعدوان وفقا لمفاهيمالتحليل النفسى ، وذلك عن طـريق التخلص منه من خلال الالعـاب التنافسية ، والعمــلالجسمى الشاق ، والسعى الى حل المشكلات ، والمشروعات التنافسية ، والانهماك فى اعمــالانتاجية ، والتقارب الاتصالى بين أعضاء المجتمع أما أسس التعصب بين الجماعات فتتمثل فـىالتنافـس بين الجماعات ، عـدم الاستحسان المتبادل للقيم والانماط السلوكية ، الفروق فـىالمكانة الاجتماعية ، والتفاعل الذى يؤدى الـى الاحباط . (٦٨)

---

65. Hoffman L.R. & Maier N.R. Quality and acceptance of problem solutions by members of homogeneous and heterogeneous groups. **J. abnorm. soc. Psychol.,** 62 (1961) 401-407
66. Newcomb T.M. **Personality and social change.** New York : Dryden 1943.
67. Lehman I.J. Autobiography of a freshman class. **Measurement in education, Yearbook of the National Council on Measurement in Education,** 20 (1963) 115-123
68. Amir V. Contact hypothesis in ethnic relations. **Psychol. Bull.** 71 (1969), 319-342

واذا كان الباحثون فى الامراض النفسية والعقلية يؤكدون على أن لكل عرض غرض ، أى أن الاعراض المرضية ظاهرات وظيفية سواء بالنسبة للفرد او المجتمع ، فان التعصب ظاهرة مرضية وظيفية تقوم بـ «جدولة» أو «تصريف» العدوان وتهيئة موضوعه وتبريراته . ويتضح ذلك من التحليل التالى : (٦٩)

ـ فالمجتمع أو قطاع منه يعين جماعة أو جماعات معينة « كهدف ملائم » أو « كموضوع مناسب » لتصريف العدوان فيها .

ـ وجماعة الهدف target group هذه تكون مختلفة بشكل ما بحيث أن الجماعات المتعصبة تعتقد أن جماعة الهدف أدنى منها مكانة ـ كأن تكون جماعة فقيرة ، أو جماعة من صغار السن ، أو من الاناث ، أو من جنس أو لون أو دين أو مذهب مخالف للاكثرية ، أو من الاجانب أو المهاجرين أو غير ذلك من جوانب الاختلاف .

ـ يبدو أعضاء جماعة الهدف ، فرديا أو جماعيا ، على أنهم مستضعفون غير حصينين وبالتالى فهم عرضة للهجوم والسقوط vulnerable بشكل ما .

ـ ان المعتقدات النمطية stereotyped deliefs التى تؤيد الاتجاهات السلبية نحو أعضاء جماعة الهدف هى معتقدات متعلمة ، وعادة ما يتم ذلك التعلم فى مرحلة الطفولة .

ـ ان الاتجاهات والانماط السلوكية العدوانية تزعم درجة من الشرعية للعدوان وتكون له شكلا من اشكال المؤسسات والمنظمات institutionalized form of aggression التى تدعم هذه الاتجاهات والممارسات ، ومن ثم يكون الفرد المتعصب والجماعات المتعصبة فى تحرر من الحاجة الى الشعور بالاثم .

ـ ان المجتمع بصفة عامة يهيىء نوعا من المنافذ فى شكل سلوك يقره بدرجة أو بأخرى ، وهذا السلوك ييسر التعبير عن العدوان نحو اشخاص جماعة الهدف . وتتراوح طرق التعبير عن التعصب من العزل الاجتماعى لاشخاص جماعة الهدف الى التخلص منهم أو حتى ابادتهم .

والواقع أن ظاهرة التعصب حاجز يعوق التواصل بين أركان البناء الاجتماعى ، ويمنع الاتصال المنتج بين أعضاء الجماعة . ولذا فان التعصب ضرب من ضروب الحيل النفسية الاجتماعية الفاشلة ، لانه لا يقوم على مبادىء انسانية كالعدالة والمحبة والحرية والاختبار وغير ذلك من المبادىء ، ولا ينطلق من أرضية من الصحة النفسية الاجتماعية ، ولا يسعى الى تعضيد العلاقات الاتصالية الانتاجية والواعية بين الافراد والجماعات .

• • •

69. Lindgren, H.C. op. cit. p. 441.

صعوبة الاتصال (باثولوجيا الاتصال)

يمكن وصف الاضطرابات السلوكية على أنها صعوبات أو اضطرابات فى الاتصال ، تنسحب على كل انماط الاتصال وعملياته ؛ سواء الاتصال بين الفرد ونفسه أو بين الفرد والاخرين أو بين الجماعات الاجتماعية . وتتحدد باثولوجيا الاتصال بثلاثة مستويات (٧٠)

أ ــ المستوى الفنى technical level ، ويتضمن وضع جهاز الاتصال ، وابعاد شبكة الاتصال ، والمتضمنات الوظيفية وكذلك الجوانب الفيزيقية للنقل والاستقبال .

ب ــ المستوى السيمانتى semantic level ، ويتعلق بالدقة الى تنتقل بها سلسلة الرموز المرغوب للرسالة ، بما فى ذلك التحرفات السيمانتية .

جـ ــ مستوى التفاعل interaction level ويشير الى فاعلية نقل المعلومات على سلوك الناس فى محاولة التوصل الى تأثير منشود .

ويعنى ذلك أن صعوبات أو اضطرابات الاتصال تتضمن كافة أبعاد الاتصال وعملياته ونواتجه . واذا كنا نستطيع أن نحدد عدة مصادر لصعوبة الاتصال أو لسوء الاتصال ، الا أن باثولوجيا الاتصال تنبع أساسا من انتهاكات للشروط التى تقوم عليها العلاقات الانسانية الطيبة . يحدد « كولمان » المصادر العامة التى تكمن وراء صعوبات الاتصال على النحو التالى : (٧١)

التوجه المادى : الميل الى اعتبار الافراد الاخرين كأشياء أو كموضوعات مادية بدلا من اعتبارهم كأشخاص لهم شاعرهم واجتهاداتهم . وهذا يعنى عدم القدرة على اقامة علاقات انسانية تتضمن احترام الاخر وتقدير حضوره وعزته وتكامله . كما يعنى ذلك نقص القدرة على التعاطف .

التمركز الذاتى : الانشغال بالاهتمامات الذاتية الى الحد الذى يصبح معه الشخص غير حساس بمصلحة وحقوق الاخرين . والشخص المتمركز حول ذاته غير قادر على اقامة أي شىء عدا العلاقات المصطنعة .

الاستغلال : نزعة مصاحبة غالبا للتمركز حول الذات ، لاتخاذ اتجاه استغلالى فى العلاقات بين الفرد والاخرين ، مع عدم تقدير لحاجاتهم واغراضهم . يتضح ذلك مثلا فى جهود مدير أو رئيس للعمل لتناول الناس والمواقف فى اتجاه تحقيق مصالحه . وغالبا ما يتضمن ذلك ميلا الى المخادعة .

70. Ruesch, J. Values, communication, and culture. In Ruesch, J., & Bateson, G. (eds), **Communication : The social matrix of Psychiatry.** New York : Norton & Co., 1968, p. 19.

71. Coleman, J. C. op. cit. p. 434.

المخادعة : الميل الى الاستفادة من الاخرين من خلال الخداع والنفاق . وقد يتضمن ذلك استخدام أساليب تقوم على الكذب والغش والسرقة والاحتيال أو غير ذلك من أشكال عدم الامانة فى العلاقات مع الاشخاص الاخرين .

المسايرة الزائدة (الامعية) : الاهتمام بموافقة الاشخاص الاخرين على حساب التكامل الشخصى . وغالبا ما يصاحب ذلك بميل الى الحظوة بتقدير السلطة ـ ومن ناحية أخرى يكون الشخص المفرط فى المسايرة متسلطا وعدوانيا نحو الاشخاص الاقل مكانة .

الاعتماد الزائد (التواكلية) : الميل الى الاتكال بشكل متزايد على الاشخاص الاخرين لاجل العون المادى أو السند الانفعالى ، والى أن يرتكن عليهم فى اتخاذ قراراته الخاصة . والشخص المفرط فى اعتماديته على الاخرين يسهم قليلا أو لا يسهم فى تكوين علاقات مع الاخرين وفى تدعيمها ، بل كثيرا ما يفقد احترامه لنفسه واحترام الاخرين له .

التمردية : النزعة الى التمرد ضد كل أشكال السلطة ، والى ان يصير الشخص عدوانيا وغير متعاون . فى بعض الاحيان تأخذ التمردية شكل الاحتجاج ضد كل ما فى المجتمع من عادات وتقاليد ، بهدف اثبات استقلاليته .

العداوة : ميل ، يرتبط عادة بمشكلات السلطة ، يدفع الفرد الى أن يكون عدوانيا ، نحو الاشخاص الاخرين ومرتابا فيهم . وحينما يجرى التعبير عن العداوة صراحة ، فانها تخلق مشكلات مباشرة فى الاتصال بالاخرين . كذلك فان التعبير المغلف أو غير الصريح للعداوة يؤدى الى افساد التفاعل الاتصالى وخاصة على المدى البعيد .

مشاعر النقص : نقص اساسى فى الثقة بالنفس أو احترام النفس ، قد يجرى التعبير عنه اما فى شكل حساسية زائدة ازاء « التهديد » أوفى شكل المبالغة فى بذل الجهود لكى يثبت الشخص كفاءته واستحقاقه عن طريق بعض الاساليب مثل التفاخر والمباهاة والنقد الزائد لغيره .

الانعزال الانفعالى : عدم القدرة على تقديم التأييد الانفعالى اللازم لتكوين العلاقات وتدعيمها وذلك بسبب الخوف من التعرض للايذاء .

التعصب : الاستجابة لاعضاء الجماعات الاخرى على أساس نمطيات غير مرغوبة . وتقوم هذه النمطيات على معتقدات خاطئة عند الاشخاص المتعصبين ، اما ضحايا التعصب فهم أشخاص تتكون فيهم مشاعر النبذ والنقص والعداوة والانماط الدفاعية للسلوك .

التوقعات غير الواقعية : توقع نموذج مثالى من الشخص الآخر بدلا من توقعه ككائن انسانى ـ كأن نتوقع مثلا من الشخص المحبوب أن يكون دائما لطيفا ، مجاملا ، صبورا ، معطيا واعيا ، وموضوعيا . ومن شأن التوقعات غير الواقعية أن تؤدى الى الاحباط وخيبة الامل عند كل أطراف العملية الاتصالية .

تلك هى المصادر العامة لصعوبات الاتصال،وخاصة الاتصال بين الفرد الآخرين ، كما يحددها « كولمان » . هى فى حقيقتها معوقات نابعة مــن داخل الفــرد ، يتعثر فيهــا سلوكه الانصالى . وبالاضافة الى ذلك ثمة مصادر أخرى تؤدى الى سوء الاتصال يمكن استنباطها من الجزء التالى .

• • •

تحسين الاتصال (مقومات الاتصال الفعال)

الاتصــال عمليــة مركبــة ، تختلف فى طبيعتها وبنيتها باختلاف المواقف والاشخاص وما يتبادلونه من ادوار ووظائف . ولكن ثمة حقائق رئيسية فى هذا الصدد وهي أن الاتصال عملية تفاعلية ترتكز على مقومات نفسية بالدرجة الاولى .

وفى اطار ماسبق عرضه وبالاضافة اليه، يمكننا أن نحدد بعض المقومات النفسية التى تزكي العملية الاتصالية وتوفر لها الفعالية على النحو التالى :

١ ــ التمكن من مهارات الاتصال الفعال :

تستلزم الفعاليــة الاتصالية تعلما جيــدا لبعض المهارات الاجتماعية وتنمية لهذه المهارات التى تمكن الفرد مــن التعبير الدقيق عن أفكاره ومشاعره ، ومن توطيد علاقاته مع الآخرين . ومن هذه المهارات : (٧٢)

أ ــ **حسن الارســال والاستقبال :** لكــى يتمكن الأشخاص من بناء علاقات اتصالية فعالة وتدعيمها ، فانهم ينبغي أن يتعلموا وأن يتقنوا مهارة الاصغاء والتفسير لما يقوله الآخرون ولما يشــعرون به حينما يعبر هؤلاء الاشــخاص عن انفســهم .

والشخص الموصل « كمرسل فعال » يدرك بوضوع ما الذى يسعى الى توصيلــه ، وكيف يتناول الرسالة بطريقة تمكن الشخص المستقبل لها من تفسيرها بدقة . اما اذا كان الشــخص المرسل غير واضح فى الرسالة التى يحاول نقلها ،او اذا أخفق فى جعل مضمون الرسالة بغير ذى معنى بالنسبة للشخص الذى يتواصل معه ، فمن المحتمل أن يكون استقبال الرسالة مشوبا بسوء الادراك أو بسوء التأويل ، كما أنه قد يصعب احتواء الآخر لتحقيق الهدف من العملية الاتصالية وقد تتضح مظاهر الاخفاق فى تكرار بعض العبارات مثل : « لم أكن أعنى ذلك » ، «لقد اسأت فهم ما أحاول أن أقوله » ، وغير ذلك من مؤشرات تعويق الاتصال .

وقد يؤدى وجود توقعات معينة عند كل من المرسل والمستقبل الى تحريف الاتصال . فاذا كان الشخص المرسل يعتبر المستقبل على انه متخلف أو متحيز ، فان توقعات المرسل بأن يساء فهمه قد تعترض طريق توصيله لأفكاره على نحو هادىء وواضح . ومن ناحية أخرى ، اذا كانت فكرة الشخص المستقبل عن المرسل على انه يميل الى المبالغة او التحيز أو العداوة نحوه ، أو على

72. Coleman, J.C. op. cit. pp. 432-435.

انه ضعيف بدرجة لا يستطيع معها ان يتخذ موقفا محددا فى قضية ما، فان الرسالة ـ نتيجة لهذه الادراكات القبلية ـ قد لا تلقىاعتبارا من المستقبل أو قد يسيء تأويلها أويرتاب فيها أو يتحفظ بشأنها ، بصرف النظر عن قيمةمضمون الرسالة .

ب ـ **ارهاف الحساسية لمشاعر الآخرين :** تزخر الحياة الاجتماعية بمواقف كثيرة تستدعى منا ليس ادراك الكلمات والعبارات فحسب ،وانما أيضا التفطن الى المعانى الكامنة وراءها والوعيبالمشاعر المتضمنة فيها . أما الشخصغير الحساس فغالبا ما تصدر عنه أقوال أو أفعال قد تؤذى مشاعر الآخرين أو تغضبهم .

ان حساسية الفرد ازاء حاجات ومشاعرالآخرين فن لأصول العلاقات الانسانية يكتسبه من خلال التفاعلات الاتصالية مع الآخرين : ويستلزم اذكاء فن الحساسية لمشاعر الآخرين وارهافها حسن الاصغاء اليهم . ومن شأن يقظتناالى صوت الشخص الآخر ونبرته وايماءاته وتعبيرات وجهه أن تعيننا علىفهم المقاصد الكامنهوراء مضمون الرسالة بالاضافة الى فهم معناها .

والواقع أن الكثير من نقص الاقتدار الاجتماعى انما ينشأ من كثرة التكلم وقلة الاصغاء . وقد يعزى ذلك الى أننا قد نكون مستوعبين بمطامحناوتوتراتنا ومشكلاتنا التيتتملكناوتحجبعنا رؤية حاجات الآخرين ومشاعرهم ومشكلاتهم ، فلا نرى الآخرين الا من خلال ذواتنا . بل وقد نستخدم كل جملة يقولونها كمنطلق لتحويل المحادثة الىأنفسنا .وذلك مظهر من مظاهر نقص النضج الاجتماعي وضعف المهارات الاتصالية .

٢ ـ الوضوح المعرفي :

يعتمد الاتصال بدرجة كبيرة على عملية نقلواستقبال المعلومات . ولكى تتحقق هذه العملية بفاعلية ، ينبغي أن يكون الأفراد المشتركون فىهذه العملية واعين معرفيا بكل مكوناتها : وضوح الاهداف والادوار والوظائف والعلاقات .

ويؤكد على أهمية هذا البعد النفسى فى ادراكنا وعلاقاتنا نظريتا «التنافر المعرفى» و «التناسق المعرفي» ، اللتان تتفقان فى أساس عام وهو :محاولات الفرد فى الوصول الى درجة معينة من الاتساق فى معارفه ومعتقداته واتجاهاته وسلوكه ، وفى المحافظة على هذا الاتساق .

تذهب نظرية « التنافر المعرفى » congnitive dissomance التى قدمها» ليون فستنجر (٧٣) (١٩٥٧) الى أن استقبال الفرد لمعلوماتغامضة أو غير كافية أو غير مناسبة أو متناقضة يخلق حالة من التوتر عنده تدفعه الى السعى الىاختزالها . وحينما يحدث التنافر ـ وغالبا مايحدث كلما ازدادت المجتمعات تحضرا ـ يتوجهالفرد الى الحصول على معلومات جديدة تختزل أو تخفف هذا التنافر . ويمكن خفض التنافر عنطريق تغيير أحد العناصر المعرفية ، أو اضافة عناصر جديدة ، أو تقليل اهمية بعض العناصر .

73. Pestinger, L. **A theory of cognitive dissonance.** New York : Harper & Row, Pub.,1957

ومن ناحية أخرى ، تؤكد نظرية « التناسق المعرفي » (cognitive consonance) ، التى طورها « فريتز هيبدر » (١٩٤٦ (٧٤)، ١٩٥٨ (٧٥)) و « تيودور نيوكمب » (١٩٥٣ (٧٦)، ١٩٦١ (٧٧)) ، على ميل الانسان الى تجنب التنافر والغموض بسبب نزعته الى التناسق والاتزان فى المعلومات. فنحن نشعر بالارتياح حينما نستطيع ان نسلك حيال الاحداث والمواقف المختلفة فى حياتنا كما لو انها متسقة ومترابطة . وبذلك تحاول نظرية « التناسق المعرفى » وصف كيف أن الأفراد يسعون الى المواءمة بين المعلومات المتباينة فى ادراكهم لعالمهم الاجتماعي ، توجها الى نوع من « التوازن المعرفي » cognitive homeostasis . ولكن لا يعنى التوازن أو التناسق وجود حالة ستاتيكية ثابتة ، ولكن حالة دينامية مستمرة بين التغير والتوافق ، والتنافر والاتزان ولذا يتضمن التناسق او الاتزان المعرفيان ثلاث حالات متكاملة :

(١) الاتزان أو الحالة العادية ، (٢) عدم الاتزان نتيجة لتدخل قوى أو أحداث معينة تقلب هذه الحالة العادية : (٣) نشاط عمليات او ميكانزمات معينة لاستعادة الاتزان .

والواقع أن نظريتى التنافر والتناسق المعرفيين ليستا متعارضتين ، بل تكملان بعضهما بدرجة كبيرة . وعلى أساس هاتين النظريتين وما أجرى حولهما من دراسات عديدة ، يمكن تفسير الكثير من عوامل سوء الاتصال وحسن الاتصال بين الأفراد والجماعات . ونسوق لذلك مثالا واضحا عن **((الشائعات))** ــ فهي تنمو وتنتشر وتستشرى لتفت فى عضد البناء الاجتماعي وتهدد الروح المعنوية والتفاعل الاتصالى بين أعضاء المجتمع ، بسبب المعلومات الغامضة او الخاطئة أو الناقصة أو المتناقضة التي تصل الى الافراد بشأن حدث أو ظاهرة ما . هذه المعلومات غير الصحيحة misinformation تكمن وراء الكثير من مظاهر سوء الادراك الاجتماعي وسوء الفهم لمجريات الاحوال والعلاقات . وبالتالى ، يكون علاج الشائعات وضربها هو باستجلاء التنافر أو الغموض المعرفى عن طريق الوضوح المعرفى ــ أى بالتزود بالمعلومات والبيانات الصحيحة والواضحة بقدر الامكان .

٣ ــ مقاومة الغواية والاغراء :

يتسم عالمنا المعاصر بتفجر المعلومات وثرائها ، وبملاحقتها لنا والحاحها علينا من خلال وسائل الاتصال المتنوعة كالصحف والمجلات والراديو والتلفزيون وغير ذلك . ولكن استجابتنا لهذه **المعلومات ينبغى الا تقوم على مجرد الاستقبال** والنقل والمحاكاة . ولا على المسايرة السلبية ، وانما على أساس من **((الوعى))** .

74. Heider, F. Attitudes and cognitive organization. **J. Psychol.**, 21 (1946), 107-112.

75. Heider, F. **The Psychology of interpersonal relations.** New York : Wiley, 1958.

76. Newcomb, T.M. An approach to the study of communicative acts. **Psychol. Rev.**, 60 (1953), 393-404.

77. Newcomb, T.M. **The acquaintanceship process.** New York : Holt, Rinehart, & Winston, 1961.

ومن الدلالات البارزة للوعي قدرة الفرد علىمقاومة الغواية والاغراء resistence of tempatation – وهي القدرة الداخلية للفرد على العزوف عنالاستجابة للمؤثرات الخارجية التى قد تغويه أو تغريه لكى يأتى بسلوك لاتقره المعايير الاجتماعيةولا يقره تكوينه الاخلاقي ، رغمعدمافتضاح أمره أو انكشاف فعلته . كما تعنى مقاومة الغوايةوالاغراء قدرة الفرد على مغالبة المؤثرات والالحاحات الداخلية التى قد توعز اليها « نفسأمارة بالسوء » ، وكذلك على طرد الافكار والهواجس التى قد تراوده بشأن فعل أو اتجاهاو شعور لايتفق مع المعايير الاخلاقية .

وتمثل القدرة على مقاومة الغواية والاغراءنوعا من الضبط الذاتى وهو « ضبط مستدخل » internalized control من نظام المبادىءوالاحكام الخلقية والمعايير الاجتماعية السائدة فى ثقافة مجتمعة وخاصة فى جماعة الأسرة . (٧٨)ويفسر « هيل » (١٩٦٠) نمو هذه القدرة على أنها « تعلم احجامى » avoidance learning ارتباطا بخبرات العقاب وأماراته التى يعيشها الطفل فى الأسرة . (٧٩)

وهكذا ، من خلال القدرة على مقاومة الغواية والاغراء ازاء تدفق المعلومات المتباينةوالمؤثرات والاتجاهات والمعتقدات المختلفة ، يستطيع الفردأن يباشر نوعا من « الضبط المعرفى » لكل مايستقبله من العالم الخارجي .

يعنى « كلاين » (١٩٥٤) بمصطلح«الضبطالمعرفى » cognitive control ما يتحقق للسلوك من تنظيم وتكامل بواسطة « الانتباه »الذى تعمل ميكانزماته بطريقة انتقائية — فنظام المعارف والآراء والمعتقدات الذى يتخذه الفردنحو البيئة ونحو نفسه وسلوكه يمثل ضوابط معرفية تمكنه من انتقاء المعلومات الملائمة ، ومن« **اليقظة** » **فى تفاعله واستجاباته لكل المثيرات** التى يتعرض لها . (٨٠)

٤ — استثارة السلوك الاتصالى :

يكمن وراء الاتصال ، كظاهرة اجتماعيةنفسية ، محركات وموجهات دافعية تستنشط سلوك الاخذ والعطاء بين أطراف العملية الاتصاليةوتدعمه وترتقي به . ويستلزم ذلك اقرار السلوك الاتصالى على أساس قوى دافعية تحقق فيهوظيفتين متكاملتين : (١) وظيفة تنشيطية أو تحريكية و (٢)وظيفة توجيهية أو تنظيمية.(٨١)

78. Sears, R.R., etal. **Patterns of child rearing.** New York : Harper & Row Pub., 1957.
79. Hill, W.F. Learning theory and the acquisition of values. **Psychol. Rev.**, 67 (1960), 317-331.
80. Klein, G.S. Need and regulation. In MR. Jones, (ed.), **Nebraska symopsium on motivation.** Lincoln : Nebraska Univ. Press. 1954.
81. Lindsley, D.B. Psychophysiology and motivation. In M.R. Jones (ed.), **Nebraska symposium on motivation.** Lincoln : Nebr. Univ. Press, 1957.

بهذه القوى الدافعية الوظيفية يكون الاتصال سلوكا « نشطا » ، « متحركا » « موجهـا » ، « منظمـا » . وفى ذلك يمكن أن نحدد بعض الدوافع الاجتماعية التى تعمل على اذكاء الاتصال:

دافع الاعتماد (dependency) : يظهر هـذا الدافع فى فترة مبكرة من الحياة ، وقد يكـون الأساس لنمو بقية الدوافع ، وهو يعنى حاجة الفرد الى أن يقوم الآخرون بمساعدته على حل مشكلاته وتهيئة الأمان له واشباع حاجاته الـى التواصل مع أعضاء المجتمع . ويعرف « روتر » (١٩٥٤) الاعتماد على أنه « الحاجة الى أن يقوم شخص آخر او مجموعة من الأشخاص بمنـع الاحباط او العقاب وبتهيئة الاشباع للحاجـات الأخـرى . (٨٢) اما « كوفر وآبلى » (١٩٦٤) فيحددان الاعتماد على أنه « سلوك يستدعى من الآخرين العون والمساعدة والراحة وغير ذلك من الحاجات الاجتماعية » (٨٣) .

ويتميز دافع الاعتماد عن غيره من الدوافع المتعلمة الاخرى بأنه ليس له هدف مستقل فى حد ذاته ، فالاعتماد يعنى التحول الى الآخرين طلبا للعون او التعضيد فى سبيل الوصول الى هدف آخر ، ويكون السلوك الاعتمادى وسيلة للحصول على موضوعات أخرى للهدف . لذا تبدو والقيمة الاتصالية لدافع الاعتماد حينما يبدو الاتجاه الى طلب المساعدة من الآخرين أكثر اقتصادية ممـا لو قام الشخص نفسه بحل المشكلات او تلبية المطالب والحاجات .

ويخضع الاعتماد لمعايير النسبية الثقافية ـ فلكل ثقافة ولكل موقف فردى او جماعي معيار للاعتماد ، وأن دافعية الاعتماد تتكشف حينما يتجاوز سلوك الفرد هذه المعايير . فمثلا فى أمريكا لايعتبر الشخص معتمدا اذا سعى الى مساعدة مهنية من محام أو طبيب ، ولكنه يعتبر معتمدا اذا كان يسأل الآخرين عن لون رباط العنق الذى يلبسه او كيف يتصرف فى أحد المطاعم او النوادى ولذا فان مفهوم الاعتماد نسبى وفقا للموقف الذى يوجد فيه الفرد ووفقا لتوقعات المجتمع .

والواقع أن فعالية الاتصال ، وما تقوم عليه من علاقات الاخذ والعطاء وتبادل الادوار ، تتحقق كثيرا بوجود درجة كبيرة من الاعتماد المتبادل بين أعضاء العملية الاتصالية . ولكن هذا الاعتماد ـ كما تبين دراسات « جيلفورد » (١٩٥٩) ـ يمثل قطبا فى نهاية « متصل » يوجد فى طرفه المقابل قطب آخر وهو « الاعتماد على النفس » self-reliance . وبالتالى فان « الاعتماد على النفس فى مقابل الاعتماد » (٨٤) ، يعنى تبادل الأدوار والعلاقات بين الأفراد والتواصل بينهم على أساس أن كل فرد يعتمد على الآخرين بدرجة أو بأخرى، كما أن الآخرين يعتمدون عليه . وبذلك تترابط شبكة العلاقات الاتصالية المختلفة ، وتتحقق لها فاعلية الحركة والنشاط بين جوانبها .

---

82. Rotter, J.B. **Social learning and clinical psychology.** Englewood Cliffs, N.J., : Prentice-Hall, Inc., 1954, p. 132.

83. Cofer, C.M., & Appley, M.H. **Motivation : theory and research.** New York : Wiley, 1964, p. 741.

84. Guilford, J.P. **Personality.** New York : Mc Graw-Hill, Inc., 1959, p. 440.

دافع الانضمام او التواد (affiliation) : يمثل احد الدوافع الاساسية للاتصال ولتنشيطة . وقد قدم « موراى » (١٩٣٨) هذاالمفهوم لأول مرة فى علم النفس الحديث (٨٥) ، ولكن يعزى الى « شبلى وفيروف » (١٩٥٢)تحديد هذه الحاجة على أنها الرغبة فى الاحتفاظ بعلاقة قائمة على الصداقة والمحبة ، او التوصل الى هذه العلاقة أو استعادتها . (٨٦) وتبين دراسات « ماكليلاند وآخرون » (١٩٥٣) أن هذه الحاجة تتضمن جانبين : جانب اقدامي لأن العلاقة الانضمامية او التوادية (affiliative relationship) مثير سار ، وجانب احجامي لأن النبذ مثير مؤلم . (٨٧)

يمثل هذا الدافع مرتكزا رئيسيا لتنشيط الاتصال وتدعيمه . وفى ذلك تكشف دراسات « اتكنسون » (١٩٥٤ (٨٨) ، ١٩٥٦ (٨٩)) أن الأشخاص ذوى الحاجة المرتفعة للانضمام كانوا يظهرون ميلا متزايدا وسعيا أكيدا نحو توطيد علاقاتهم بالآخرين ونحو الحصول على التأييد النفسي من هذه العلاقات التي تتدعم بالصداقة والمحبة .

دافع الانجاز (achievement) (*): لقيت دراسة دافعية الانجاز من علماء النفس اهتماما اكبر مما حظيت به الدوافع الانسانيـة الأخرى . وبالرغم من أن أصل هذا المصطلح يعزى الى « موراى » (١٩٣٨) (٩٠) ، ومن أن تحديد معناه يرجع الى « سيرز » (١٩٤٢) (٩١) ، الا ان الدراسات فى هذا الميدان قد ارتبطت اساسـا بأعمال « ماكليلاند » وزملائه .

يعرف الدافع الى الانجاز على أنه « السعى أو الاجتهاد مـن اجل مستوى مـن الامتياز او التفوق » (ماكليلاند وآخرون ، ١٩٥٣) (٩٢) . وقد وجد الباحثون فى هذا الميدان الخصب علاقة وثيقة بين الدافع الى الانجاز عند الأفراد وبين المجتمعات الانجازية التى يعيشها هؤلاء الأفراد . ويتضمن كتاب « ماكليلاند » (١٩٦١) (٩٣) عن « المجتمع الانجازى » تحليلا للمجتمعات علـى

85. Murray, H.A. **Explorations in personality.** New York : Oxford Univ. Press. 1938.
86. Shipley, T.E., & Veroff, J. A projective measure of need for affiliation. **J. exp. Psychol.,** 43 (1952), 349-356
87. Mc Clelland, D.C. etal. The achievement motive. New York : Appleton -Century-Crofts, 1953.
88. Atkinson, J.W., etal. The effect of experinental arousal of the affiliation motive on thematic apperception. **J. abnorm. soc. Psychol.,** 49 (1954), 405-410.
89. Atkinson, J.W. & Raphelson, A.C. Individual differences in motivation and behavior in particular situations. Journal of Personality, 24 (1956), 349-363)
90. Murray, H.A. op. cit.

(*) ارجـع الى المصـدر التالى : ابراهيم قشقوش ، وطلعت منصور : دافعية الانجاز وقياسها . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٩ .

91. Sears, R.R. Success and failure : A study of motility. In Mc Nemar & M.A. Merrill (eds.), **Studies in personality.** New York : Mc Graw-Hill, Inc., 1942.
92. Mc Clelland, D.C., etal. (1953). op. cit.
93. Mc Clelland, D.C. **The achieving society.** Princeton, N.J., : Van Nostrand, 1961.

أساس هذه العلاقة الوظيفية . فالتوجه الانجازى المميز للأفراد ـ كشخصيات انجازية ـ ولمجتمعاتهم ـ كمجتمعات انجازية ـ يكمن وراء توظيف طاقات الأفراد فى أعمال متقدمة ، حيث يجتمع الأفراد فى علاقات انتاجية تنطلق من أهداف متطلعة الى مستويات أرقى ، وحيث تتدعم هذه العلاقات على أساس نواتج الانجاز .

ولا شك ان الاتصال ينشط ويقوى ويتدعم اذا قام على ركيزة من الانجاز الذى يوفر انسب المجالات والمواقف لتوظيف امكانات الفرد والمجتمع **فى علاقات اتصالية مترابطة تتوحد بالتوجه الانجازى .**

تحقيق الذات (self-actualization): تحتل الحاجة الى تحقيق الذات ـ وفقا لنظرية ماسلو (١٩٥٤) ـ قمة نظام الحاجات الانسانية ولذا يعتبرها (ماسلو) ايضا (الخبرة الذروية) peak experience الناتجة من سعى الفرد لاشباع حاجاته . (٩٤)

يرتبط هذا المستوى الدافعى الاسمي بما يحفز الفرد الى التحصيل والانجاز والتعبير عن الذات : أن يكون الفرد منتجا ومبدعا ، وأن يقوم بأعمال وتصرفات مفيدة وذات قيمة بالنسبة له وللاخرين ، وأن يحقق امكاناته ويترجمها الى حقيقة واقعة . ولذا يعتبرها « ماسلو » على انها الحاجة الغالبة المسيطرة ، والقوة الدافعية الأساسية ، فى حين تمثل الحاجات النفسية الأخرى كالأمن والحب والاحترام أجزاء من هذه الحاجة وعناصر فى هذه القوة . ومن شأن هذه الحاجة الارقى أن « تسيطر على » الحياة الواعية للفرد ، وان تعمل كمركز لتنظيم السلوك عنده(٩٥) .

ومن الطبيعي لذلك أن يكون من أبرز مقومات « الفعالية الاتصالية » communicative afficiency هو اذكاء الحاجة الى تحقيق الذات عند الافراد الذين يؤلفون العملية الاتصالية . فالاتصال ـ بأهدافه وأشخاصه وموافقة وخبراته وتغذياته الراجعة ـ ينبغي أن يجرى تنظيمه وتوجيهه على أساس اشباع هذه **الحاجة التى تمثل قمة الخبرة الانسانية . ومن ثم ، يستطيع الافراد أن يجدوا فى الاتصال « معنى » يعيشونه ، وصولا الى مستويات أرقى** من التفاعل الاتصالى .

(٥) المناخ الاجتماعى النفسى الصحى :

أن ما يسود فى الجماعة من « مناخ اجتماعى نفسى » معين لفترة ممتدة من الزمن ، ليشكل الاتصال بخصائص متميزة ـ كاتصال دافىء أوبارد ، متقبل او عدائى ، متوتر او استرخائى ، مستمر أو مؤقت ، فعال أو ضعيف ، الى غير ذلك من انعكاسات هذا المناخ على السلوك الاتصالى لاعضاء الجماعة .

94. Maslow, A.H. **Motivation and personality.** New York : Harper & Row, 1954 (2nd ed., 1970).

95. Ibid., pp. 91-92.

فمن شان المناخ النفسى الـذى يشيع فى الجماعة group climate **أن يحدد مدى دقـة الادراك الاجتماعى بين أعضاء الجماعة** ، وذلك بناء على تكوين « حالة ادراكية » (perceptual set) معينة تلـون سلوك أعضاء الجماعـة فى تفاعلهـا الاتصالى بين بعضهم الآخر أو بين الجماعة وغيرها من الجماعات الاخرى (٩٦) .

ويلعب نمط **القيادة** فى الجماعة دورا كبيرا فى تحديد خصائص المناخ الاجتماعى النفسى ، وانعكاساتها على خصائص السلوك الاتصالى بين أعضاء الجماعة . ومن الدراسات الكلاسيكيـة ذات الدلالة فى هذا الصدد ، تلك التى قام بها « ليفين وليبيت وهـوايت » (١٩٣٩) (٩٧) ، و « ليبيت وهوايت » (١٩٤٣) (٩٨) فى هـذه الدراسات التجريبية خضع المفحوصون لثلاثـة أنماط من الاحواء الاجتماعية التى تختلف باختلاف نـوع القيادة : الاوتوقراطية ، الديموقراطية ، الفوضوية ، فى الجو الاجتماعى الاوتوقراطى ، كان القادة يسلكون بطريقة استبدادية ، وكانوا يقومون بتخطيط عمل الجماعة وتوجيهه والاشراف عليه . وكان الاتصال أساسا بين القائد والاعضاء ، اما التفاعل بين الأعضـاء فلم يكن يلقى تشجيعا . لذا كان الاتصال يتسم بالجمود وبالسلوك القسرى لتحقيق مستويات عالية تحددها القيادة . وعلى العكس من ذلك ، كان الجو الاجتماعى الـذى تفرضه القيادة الفوضوية أو المتسيبة laissez-faire . فتضاؤل دور القيادة يلقى بالاشخاص فى فوضى وعدم اتزان وفى مظاهر سلوكيـة غير مسئولة . والادوار الاتصالية فى هذا الجو مشوبة بالغموض المعرفى وبتناقص عوامل ومعايير الضبط السلوكى . اما فى الجو الاجتماعى الديمقراطى فقد كان دور القادة هو مساعدة أعضاء الجماعـة على التخطيط لمناشطهم ، لا التخطيط لهم . وكانوا يتواصلون فيما بينهم علـى أساس مـن المساواة بقـدر الامكان ، وكان الاتصال يلقـى تشجيعا وتأييدا هائلين بين كل أعضاء الجماعة .

وقد أوضحت نتائج هـذه الدراسات أن الانماط السلوكية فى الجماعات كانت تختلف وفقا لنـوع المناخ الـذى تخلقـه القيادة . فالمنـاخ الاوتوقراطى قد أوجد قدرا كبيرا من السـلوك الاكثر توجها نحو العمل ، ولكن قد أوجد فى نفس الوقت درجة منخفضة من الاهتمام الشخصى من جانب أعضاء الجماعة ، لانه حينما كان يخرج القائد من موقع العمل ، كان الأعضاء يتركـون مهامهم ويختل نظام العمل والانتاج . وقد أصبح هؤلاء الاعضاء أيضا أكثر اعتمادا على القائـد ، واقل قدرة على اتخاذ القرارات لانفسهم وعلـى العمل التعاونى . كما كانوا اكثر ميلا الى العدوانية بين بعضهم الآخر وخاصة نحو الأعضاء الاضعف فى الجماعة .

96. Exline, R.V. Group climate as a factor in the relevance and accuracy of social perception. **J. abnorm. soc. Psychol.**, 55 (1957), 382-388.

97. Lewin, K., Lippitt, R., & White, R.K. Patterns of aggressions behavior in experimentally created „social climates''. **J. soc. Psychol.**, 10 (1939), 271-299.

98. Lippitt, R., & White, R. The „social climate'' of children's groups. In R.C. Barker, etal. (eds.), **Child behavior and development.** New York : McGraw-Hill Co., 1943.

وفى ظل المناخ الديمقراطى، لم يعمل الأعضاء بهذا المستوى من الاجتهاد الزائد ، ولكن كانوا يبدون بمستوى أعلى فى الاهتمام بالعمل والتوحد معه . لذا لم يكن يختل العمل بغياب القائد ، وانما يستمرون فيه ويقاومون عوامل التشتت . وكان الجو الديمقراطي مشجعا على الاتصال والتعاون بين اعضاء الجماعة . ولذا كانت تختفى ظاهرة « كبش الفداء » كموضع لتنفيس عدوان الجماعة فى العناصر الاضعف ، وهى الظاهرة التى تفشت فى المناخ الاوتوقراطى .

أما فى المناخ الفوضوى ، فكانت المسئوليات والعلاقات والادوار غير واضحة ، وتسير بلا هدف او توجيه محددين .

والواقع أن المناخ الاجتماعى النفسى يعتبر نتيجة وسببا لطبيعة اتصال ولديناميات فى الجماعة ، ولدور القيادة فى توزع الادوار الاتصالية بين اعضاء الجماعة . ومن ثم ، فاذا كانت الجماعة تمثل بيئة الاتصال ، فان هذه البيئة الاجتماعية الاتصالية يمكن أن يتلوث مناخها النفسى بعوامل انفعالية كالخوف والشعور بعدم الامان والحساسية والتعصب والغموض والعداوة وغير ذلك من مثبطات الفعالية الاتصالية . وهذا التلوث **الانفعالى** للبيئة الاجتماعية لا يقل خطورة عن تلوث البيئة الطبيعية ، ان لم يكن اكثرها خطورة .

(٦) ترشيد العمليات الجماعية :

تعنى « **العمليات الجماعية** » group processes النظر الى الجماعات كوجود دينامى يتميز بالتغير وبالنشاط المتواتر ، وبانماط سلوكية مميزة للافراد فى الجماعة وللجماعة ككل .

وقد تكشف العمليات الجماعية عن مشكلات أو صعوبات تعوق الاتصال الفعال، وهى مشكلات أو صعوبات لا تكمن فى الافراد أو فى تواريخ حياتهم ، بقدر ما تكمن فى البناء النفسى للجماعة . ويمكن أن نحدد بعض مصادر المشكلات المرتبطة بالعمليات الجماعية كما يلى :

أ ــ **نقص الاستعداد والتهيؤ للاجراءات الديموقراطية :** ليس من المتوقع من الجماعة التى تعودت الخضوع والخنوع للسلطة أن تدرك حقيقة الحرية والمفاهيم والممارسات الديموقراطية ، الا اذا تلقت توجيها واعيا بهذا الاسلوب الرشيد فى الاتصال وخضعت لنوع من اعادة التعلم الاجتماعى فى هذا الصدد . يحكى « شيفياكوف وردل »(١٩٥٦) عن معلمة لجات الى تطبيق معرفتها الخاصة بالاجراءات الديموقراطية على تلاميذ عرفوا بسمعتهم السيئة وبسلوكهم المنحرف . ولكنها خرجت بنتيجة عكسية ، لأن الجماعة لم تكن فى حالة من التهيؤ والاستعداد تؤهلها لاستيعاب هذه الممارسات الرشيدة . (٩٩)

99. Sheviakov, G.V., & Redi, F. **Discipline for today's children and youth**, Washington, D.C. : National Education Association, 1956Education Association, 1956.

ب ـ **الاحباط المخزون :** قد تنفجر الجماعةفى حالة من التمرد أو الشغب حينما تصل التوترات الى حد من القمع والضغط يكونشديدالوطأة ، كالقطرة التى تؤدى بالمكيال الى الطمح. فمثلا ، قد يلجأ المدير أو القائد أو المعلم الى مزيدمن أثقال العاملين أو التلاميذ بالتعيينات والالتزامات والعقوبات . وفى هذه الحالة قديتشجع احد الطلاب أو العاملين أو مجموعة منهم على رفض هذا الاسلوب ، ثم سرعان ما يتبعهمالآخرون . لذا ينبغى على القيادة أن تتصف بالحساسية للتفاعل الدينامى مع أعضاء الجماعةولما يجرى فى سياق تطور العمليات الاجتماعية .

جـ ـ **الوباء الاجتماعى :** قد يشيع فىالجماعة حالة من التسيب والتميع فى نشاطها وفى أدوار أعضائها ، ومن اللانضباطية فى المناخالاجتماعى العام ، يشبه « ردل » (١٩٦٦) هذه الحالة بـ «انتشار العدوى» contagion (١٠٠)وقد يرتبط انتشار الوباء الاجتماعى ـ وخاصة بين جماعات الشباب ـ بوجود بعض العناصر« الفاسدة » أو « المفرضة » التى تباشر نوعا من قوة التأثير والايحاء على بقية الاعضاء .وغالباما تصدم الجماعة بهذا التأثير ، ويتملك أعضاءها قلق مرتبط بالشعور بالذنب ، ومن ثم تتراجععن موقفها لتعود الى وعيها . يطلق « ردل » على ذلك مصطلح « صدمة الأثر » .

د ـ **بنية الجماعة :** قد تسبب بنيةالجماعةفى بعض الأحيان صعوبات فى الاتصال . فالتباين الواسع فى المستويات العمرية والنمو العاموالقدرات والخلفيةالأسرية والثقافيةوالاقتصادية قد يؤدى الى فرض نوع من التباعد أو الانعزالالاجتماعيين بين أعضاء الجماعة ، وبالتالى الى نوع من سوء الادراك الاجتماعى ، اذا لم تحسنالجماعة تناول هذا التباين فى اطار « التنوع مع الوحدة » ، وعلى أساس احساس كل عضوبقيمته الذاتية بالنسبة للجماعة .

والسؤال الآن : كيف يمكن ترشيدالعملياتالجماعية التى تذكى الاتصال ؟

أ ـ تحليل الادوار : قد يتبين الكثير منصعوبات الاتصال بواسطة تحليل الادوار التى يلعبها أعضاء الجماعة . فقد تكون النزعة الىأداء دور القيادة اتجاها مسيطرا على الكثير من أعضاء الجماعة . ومن شأن الجماعة التى تتألفمن أعضاء يجدون أمنهم فقط فى تبوؤ مكانه الرياسة والسيطرة ، أن يشيع فيها الكثير منالتوترات . ويمكن ، من خلال المناقشاتوالمقابلات الفردية والجماعية ، مساعدتهم على تغييراتجاهاتهم .

ب ـ **اللعب بالادوار :** من الاساليب الفعالةفى هذا الصدد اللعب بالادوار والتمثيليات الاجتماعية (السوسيودراما) . وتوضح بعضالدراسات ، على سبيل المثال ، أن المعلمين قد وجدوا فائدة كبيرة باستخدامهم لهذه الطرق فىعلاج مشكلات النظام والاتصال فى الجماعات

100. Redi, F. **When we deal with children.** New York : Free Press, 1977.

الطلابية ، حيث تكشف الجماعة عن مشكلتها أو صعوبتها من خلال تمثيلها وتقمص أدوارها، ومناقشة العوامل المسببة لها ، والتخطيط بطريقة مشتركة لكيفية مواجهتها . (١٠١) وقد توصل « روسينتال » (١٩٥٢) ، من خلال تدريبه للطلاب على المبادىء التعاونية الديموقراطية باستخدام المسرحيات النفسية ، الى نتائج تؤكد أهمية هذه الاساليب . فقد أبدى الطلاب تحسنا ملحوظا فى تكيفهم الشخصى والاجتماعى ، كما أظهروا زيادة واضحة فى الصداقة والتوادية مع الآخرين . (١٠٢)

فمن خلال تمثيل الادوار يكتسب المشتركون فيها والملاحظون لها ـ على حد سواء ـ بصيرة بديناميات العلاقات الانسانية . وقد يرون أفعالهم واتجاهاتهم وكذلك افعال واتجاهات الآخرين فى ضوء جديد . ويكشف أعضاء الجماعة عن مخاوفهم واحباطاتهم حينما « يدعون » أنها تنتسب لغيرهم .

جـ ـ **فك الجماعة :** فى كثير من الحالات يمكن التصدى لانتشار الوباء الاجتماعى فى الجماعة كلها اذا لجأت القيادة الى فك الجماعة وتجزئتها الى جماعات فرعية . فى هذه الحالة قد تتمكن القيادة من اقامة الحواجز امام تسرب عوامل التفكك الاجتماعى ومحاصرتها وعزلها . فعلى سبيل المثال ، الطالب او العامل الذى يقوم بدور المحرض للشغب فى جماعة العمال أو الطلاب قد يدرك عدم معقولية سلوكه فى حضور مجموعة صغيرة من زملائه .

د ـ **المناقشة الجماعية :** تستطيع القيادة أن تستخدم أسلوب المناقشة الجماعية لتحسين سلوك الجماعة وتعديله . وفى ذلك تشترك القيادة وأعضاء الجماعة فى تحمل مسئولية مواجهة المشكلات التى تواجههم جميعا . وتعرف الطريقة التى تسمح للجماعة بمناقشة السلبيات والصعوبات تحت اشراف وتوجيه القيادة بمصطلح « التصريف » ventilation . وهى عملية تتطلب بصفة عامة اتجاها متسامحا لكى يشعر الاعضاء بالحرية فى تصريف مشاعرهم المتعلقة بكل ما يجرى فى الجماعة ، حتى حينما تمتد شكواهم الى قياداتهم .

ولكن ليس التصريف بالعملية البسيطة ، لأن مجرد اخراج المشاعر والنزعات المدفونة قد يؤدى الى مزيد من استثارة القلق ، وقد تصدم القيادة وأعضاء الجماعة بالحقيقة . ومن شأن المناقشة الحرة بين الاعضاء ، خاصة اذا كان هناك صراع داخلى فى الجماعة ، أن تزود القيادة ببصيرة عن ديناميات الجماعة ، وأن تساعد الاعضاء على التبصر بأسباب سلوكهم وصعوباتهم .

تفيد أساليب التصريف هكذا فى المساعدة على تعيين مصادر المشكلات ، وعلى تحديد طرق البناء . وفى التصريف لا تعد هناك ضرورة للاستجابات الدفاعية ، فأمام كل فرد فرصة

---

101. Chesler, M., & Fox, R. **Role-playing methods in the classroom.** Chicago : Science Research Association, 1966.

102. Rosenthal, S. A fifth grade classroom experiment in fostering mental health. **Journal of Child Psychiatry**, 2 (1952, 302-329.

متاحة للنظر فى المشكلة ولمقاسمة المسئولية وللاسهام فى الحل . ولكن الجماعة لا تستطيع مناقشة وحل المشكلات بفاعلية ، وخاصة السلوكية منها ، الا اذا كان هناك تحديد وفهم واضحان لمعايير السلوك المقبول فى الجماعة لدى كل عضو فيها . وأعظم معايير الجماعة فاعلية تلك التى يشترك أعضاؤها فى وضعها واقرارها ، بسبب احساسهم بالمسئولية نحوها وبالتوحد معها .

• • •

والخلاصة أن الاتصال الناجح مع النفس ومع الآخرين ينطوى على امكانات النماء والارتقاء للفرد وللجماعة : ففى الاتصال خبرات التعلم الباعثة على النمو ، وتقويم للسلوك وتصحيحه بالتغذية الراجعة ، واحساس خلاق بالذات وبالآخرين وبالجماعة الاجتماعية ، وتوظيف لطاقات الفرد والجماعة فى علاقات أدوار متبادلة ترتقى بالتأييد والتدعيم للآخر وبالتوجه الانجازى كأسلوب حياة مميز للفرد ولجماعته .

الاتصال الناجح اذن قوامه « الاقتدار » أو « التمكن » الفعال للفرد من نفسه ومن تفاعله مع الآخرين ، كما أن الاتصال ذاته دالة هذا الاقتدار والتمكن . ويكون الاتصال هكذا أيضا بالنسبة للمجتمع ، هو لحمته وسداه .

★ ★ ★

المراجـع

أولا ــ المراجع العربية :

(١) ابراهيم قشقوش ، طلعت منصور : دافعيـة الانجاز وقياسها . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٩ .

(٢) آرابو : علم اللغة ومشكلة الوعى . (ترجمة : طلعت منصور) . مجلة العلم والمجتمع . تصدر عن مجلة رسالة اليونسكو . القاهرة ، العدد العشرون ، سبتمبر ١٩٧٥ .

(٣) د . بيرن : جان بياجيه وسيكولوجية نمـو الاطفال . (ترجمة : فيولا البيلاوى) . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٦ .

(٤) ل . فيجوتسكى : التفكير واللغة . (ترجمة عن الروسية : طلعت منصور) . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٥ .

(٥) محمد عماد فضلى : سيبرنطيقا الجهاز العصبى . المجمع المصرى للثقافة العلمية . الكتاب السنوى الأربعون ، ١٩٧٠ .

(٦) طلعت منصور : العلاقة بين التفكير واللغـة . المجمع المصرى للثقافة العلمية . الكتاب السنوى الخامس والاربعون ، ١٩٧٥ .

(٧) طلعت منصور : المدخل البيولوجى فى دراسـة النشاط النفسى . مجلة العلوم التربوية والنفسية . بغداد : الجمعية العراقية للعلوم التربوية والنفسية ، العدد الثانى ١٩٧٨ .

(٨) طلعت منصور : التعلم الذاتى وارتقاء الشخصيـة ــ القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

ثانيا ــ المراجع الاجنبية :

9. Alkire, A.A., Collum, M.E., Kaswan, J., & Love, L. Information exchange and accuracy of verbal communication under social power conditions. J. pers. soc. Psychol., 9, 310 - 308, 1968.

10. Amir, Y. Contact hypothesis in ethnic relations. Psychol. Bull., 71, 319-342, 1969.

11. Asch, S.E., Studies of independence and conformity. A minority of one againsta unanimous majority. Psychol. Monogr., 70, No. 9, 1956.

12. Asch, S.E. Effects of group presure upon the modification and distortion of judgments. In Maccoby, Newcomb, & Hartley (eds.) **Readings in social psychology.** (3rd ed). New York : 1958.

13. Ashby, W.R. The application of eybernetics to psychiatry. Journal of Mental Science, 100, 1954.

14. Atkinson, J.W., R.W., and Veroff, J. The effect of experimental arousaal of the affiliation motive on thematic apperception. **J. Abnorm. Soc. Psycho.**, 49, 405-410, 1954.

15. Atkinson, J.W., and A.C. Raphelson. Individual differences in motivation and behavior in particular situations. Journal of Personality, 24, 349-363, 1956.

16. Bauer, R.A. The obstinate audience : The influance process from the point of view of social communication **Amer. Psychologist**, 19, 319-328, 1964.

17. Bettinghaus, E. **Message preparation : The nature of proof.** Indianapolis : 1966.

18. Bunker, G. **Self role congruence and ctatus congruence as interacting variables in dydactive behavior.** Berkley : Univ. Calif Press, 1967.

19. Chesler, M., & Fox, R. **Role - playing methods in the** classroom. Chicago : Science Research Association, 1966.

20. Chomashy, N. **Language and mind.** New York : Harcourt, Harcourt, Brace, & Jovanovich, 1968.

21. Cofer, C.M., & Appley, M.H. **Motivation : theory and research.** New York : Wiley, 1964.

22. Coleman, J. C. **Psychology and effective behavior.** New York : Scott, Foresman & Co., 1969.

23. Combs A., & Snygg D. **Individual bahavior.** (Rev. ed.) New York : Harper & Row 1959.

24. Cooley, C.H. **Human nature and the social order.** New York : Scribners, 1902. (Reprinted by Free Press, New York, 1956)

25. Craig, R., Mehrens W., and Ciarizio, H. **Contemporary educational psychology.** New York : Wiley 1975.

26. Dance, F.E.X. Toward antheory of human communication. In F.E.X. Dance (ed.) **Human communication theory.** New York : 1967.

27. De Cecco, J.P. **The psychology of learnign and instruction.** Englewood cliffs N.J: Prentice-Hall, 1968.

28. El-Koussy A.H. The role of education for a healthy world cultural life (with reference to the development of mass communication) **The Journal of the Faculty of Enuation** Ain Shams University, Cairo 2 1979.

29. Exline, R.V. Group climate as a factor in the relevance and accuracy of social perception. J. abnorm. soc. Psych., 55, 382-388, 1957.

30. Festinger, L. **A theory of cognitive disonance.** New York : Harper & Row, Pub., 1957.

31. Garry, R., & Kingsley, H.L. **The nature and conditions of learning.** (rdr ed.) Englewood Cliffs, N.J., Prentice-Hall, 1970.

32. Gerbner G. **Mass media and human communication theory.** New York : 1967.

33. Guilford, J.P. **Personality.** New York : Mc Graw-Hill, Inc. 1959.

34. Heider, F. Attitudes and cognitive organization. J. Psychol. 21, 107-112, 1946.

35. Heider, F. **The psychology of interpersonal relations.** New York : Wildy, 1958.

36. Hilgard, E.R., & Bower, G.H. **Theories of learning.** (3rd. ed.). New York : Appleton Century :- Crofts, 1966.

37. Hill, W.F. Learning theory and the acquisition of values. Psychol,. Rev.. 67, 317-331, 1960.

38. Hoffman, L.R., & Maier, N.R. Quality and acceptance of problem solutions by members of homogeneous and heterogeneous groups. **J. abnorm. sec. Psychol.**, 62, 401-407, 1961.

39. Katz, D., & Khan, R.L. **The social psychology organization.** New York : Wiley, 1966.

40. Klein, G.S. Need and regulation. In M.R. Jones (ed.). **Nebraska symposium on motivation.** Loncoln : Nebraska Univ. Press. 1954.

41. Kluckhohn, G., Murray, H.A., & Schneider, D.M. (eds.), **Personality in nature, society and culture.** (rev. ed.) New York : Knopf, 1953.

42. Knower, F.H. The present state of experimental speech-communication research. In P. Ried (ed.), **The frontiers in experimental speech communication research,** Syracuse, New York : 1966.

43. Lehmann. I.J. Autobiography of a freshman class. **Measurement in education, Yearbook of the National Council on Measurement in Ecudation,** 20, 115-123, 1963.

44. Lewin, K., Lippitt, R., & Wnite, R.K. Patterns of aggression Behavior in experimentally created „social climates". **J. soc. Psychol.**, 10, 271-299, 1939.

45. Lindgren, H.C. **An Introduction to social psychology.** New York : : Wiley : 1973.

46. Lindsley, D.B. **Psychophysiology and motivation.** In M.R. Jones (ed.). Nebraska symposium on motivation. Lincoln : Nebr. Univ. Press, 157.

47. Lonton, R. **The study of man.** New York : Appleton-Century-Crofts, 1936.

48. Lippitt, R., & White, R. The „social climate" of children's groups. In R.G. Barker, etal. (eds), **Child behaviour and development.** New York : Mc Graw-Hill Co. 1943.

49. Loree, M.R. **Psychology of education.** New York : The Ronald Press Co., 1970.

50. Maslow, A.H. **Motivation and personality.** New York : Harper & Row, 1954 (2nd ed., 1970).

51. Mc Clelland, D.C., et al. The projective expression of needs. J. exp. Psychol., 39, 242-255, 1949.

52. Mc Clelland, D.C., Atkinson, J.W., Clark, R.A., & Lowell, E.L. **The achievement motive.** New York : Appleton-Cent.Crofts, 1953.

53. Mc Clelland, D.C. **The achieving society.** Princeton, N.J., : Van Nostrand, 1961.

54. Mc Luhan, M. **Understand media ; the extension of man.** New York : Mc Graw-Hill, 1964.

55. Mc Luhan, M. **The medium is the message.** New York : Benton, 1967.

56. Matarazzo, J.D., etal. Speech durations of astronanut and ground communicator. **Science**, 143, 1964.

57. Matarazzo, J.D., etal. Interviewer influence on durations of interviewee silence. **J. exp. Res. Press.**, 2, 59-69, 1967.

58. Miller, D.R. The study of social relationships : situation identity, and social interaction. In S. Koch (ed.), **Psychology : a study of a science.** vol. 5. New York : Mc Graw-Hill, 1963.

59. Miller, G.A. **The psychology of communication.** Pelicon Books, 1974.

60. Miller G.A. **Speech communication : A behavioral approach.** Indianapolis, 1966.

61. Miller, G.A., & Mc Neill, D. Psycholinguistics in Lindzey & Aronson (eds.), **The handbook of social psychology,** vol. 3. 2nd ed. Readings, Mass. Mass : Addison Wesley, 1969.

62. Morse, C.W. **Psychology and teaching.** Bombay : T.B. Taraporevala Sons & Co., 1970

63. Murray, H.A. **Explorations in personality.** New York : Oxford Univ. Press, 1938.

64. Nuttin, J. Consciousness, behavior, and personality, **Psychol.,** 62, 349-355, 1955.

65. Newcomb, T.M. **Personality and social change.** New York : Dryden, 1943.

66. Newcomb, T.M. An approach to the study of communicative acts. Psychol. Rev., 60, 393-404, 1953.

67. Newcomb, T.M. **The acquaintanceship process.** New York : Holt, Rinehart, & Winton, 1961.

68. Osgood, C.E. Exploration in semantic space. **J. Soc. Issues,** 27, 1971.

69. Osgood, C.E., etal. **The measurement of meaning.** Urbana : U. of Illinois Press, 1957.

70. Plog, S.C. A literacy index for the mailbag, **J. appal. Psychol.** 50, 86-91, 1966.

71. Redi, F. **When we deal with children.** New York : Free Press, 1966.

72. Rosenthal, S. A fifth grade classroom experiment in fostering mental health. **Journal of Child Psychiatry,** 2, 302-329, 1952.

73. Rotter, J.B. **Social learning and clinical psychology.** Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall Inc., 1954.

74. Ruesch, J. Synopsis of the theory of human communication. **Psychiatry,** 41, 1953.

75. Ruesch, J. Values, Communication, and Culture. In Ruesch, J., & Bateson, G. (eds.), **Communication : The social matrix of psychistry.** New York : Norton & Co., 1968.

76. Sarbin, T.R., & Allen, V.L. Role theory. In G. Lindzey and E. Aronson (eds.) The Handbook of social psychology. vol., I., (2nd ed.), Reading, Mass. : Wesley, 1968.

77. Sargent S.S. **Concpetions of role and eto in contemporary psychology.** New York : Harper 1951.

78. Sears, R.R. Success and failure : A study of motility. In McNemar & M.A. Merrill (eds.), **Studies in personality,** New York : Mc Graw-Hill 1942.1942.

79. Sears, R.R., et al. **Patterns of Child rearing.** New York : Harper & Row Pub. 1957.

80. Schramm, W. Communication research in the United States. In **The Science of human communication.** New York 1963.

81. Sereno K. K. & Mortensen, C.D. **Foundations of communication theory.** New York : Harper & Row Pub. 1970.

82. Shannon, C. & Weaver W. **The mathematical theory of communication.** Urbana 1949

83. Sheviakov, G. V. & Redi F. Discipline for today's children and youth. Washington D.C. : National Education association 1956.

84. Shipley T.E. & Veroff J. Aprojective measure of need for affiliation. **J. exp. Psychol.** 43, 349-356, 1952.

85. Slobin, D.I. **Psycholinguistics.** Chicago : Scott Foresman 1971.

86. Smelser, W.T. Dominance as a factor in achievement and perception in cooperative problem solving interactions **J. abnorm. soc. Psychol.,** 62 535-542 1961.

87. Smith R. **General models of communication,** Communication Research Center Purdue University 1962.

88. Sullivan H.S. **Concpetions of modern psychiatry.** Washington D.C. : William Alanson White Paychiatric Foundation 1947.

89. Thayer, Lee. On theory building in communications some conceptual problems. **Journal of communication,** 13 217-235 1963.

90. Thayer, Lee. **Communication : Concepts and Perspectives.** Washington 1967.

91. Triands, H.C. Loh W.D. & Levin L.A. Race status quality of spoken English and opinions about civil rights as determinants of interpersonal attitudes. **J. pers. soc. Psycl.ol.,** 3, 468-472, 1966.

92. Westley, B., & McLean, M.A. conceptual model for communication research. **Journalism Quarterly,** 34, 31-38 1957.

93. Weiner N. **The human use of human beings : cybernetics and society.** Boston : Houghton Mifflin 1950

94. Wight A.W. Participative education and the inevitable revolution. **Journal of creative behavior,** 4, 234-282, 1970.

95. Ziller, R.C., Behringer, R.D., & Goodchilds, J.D. Group creativity under conditions of success or failure and variation in group stability. **J. appl. Psychol., 46, 43-49, 1962.**

★ ★ ★

ماهية التحرير الاعلامي

عبد العزيز شرف

دكتور عبد العزيز شرف ـ المحرر الادبى لجريدة الاهرام ـ استاذ الاعلام بجامعة القاهرة ـ (جريدة الاهرام ـ شارع الجلاء ـ القاهرة) .

(« يسعى التحرير الاعلامى دائما الى الاجابة عن سؤالين اساسيين هما : ماذا نقول ؟ ـ وكيف نقول .. »)

قد لاتكون هناك كلمة ابتعدت عن معناها الاصلي عبر التاريخ ، واستخدمت فى دلالات مختلفة ، مثل كلمة « الحرية » وهي الكلمة التي تهيىء للانسان الحرية فى مختلف مجالات حياته الروحية ، فنيا وعلميا ، وحرية الممارسة الخلاقة في ميادين الاعلام والثقافة .. ولكن الانسان لايستطيع ان يعيش داخل مجتمع ويكون منفصلا عنه ، كما أن القدرة على الابداع الفني تتطلب سنوات طويلة من الصقل والمران .

وهنا يبحث « المحرر » فى وسائل الاعلام عن « حريته » فى تقليد الاشكال المأثورة عن المحررين القدامى ، وفى ابتكار اساليب وأشكال جديدة ؟ وهل يتجه المحرر الى الاعتماد على الاسس العلمية والسيكولوجية التي اكتسبها من ممارستة هو للمهنة ؟

ان المحرر يجب عليه أن يبدأ بالاشكال التحريرية المأثورة ، ولكن حرية الممارسة الخلاقة تتيح له بعد ذلك أن يطور ويجدد من خلال رؤياه الذاتية وملاحظاته ، فى ضوء المأثور من جهة ، وفى ضوء ماتوصل اليه علماء النفس من جهة اخرى .

ويمكن ان تصبح محررا اكثر نجاحا لو انك قمت بتحليل ما تكتب فى ضوء النظريات المسبقة اى ان تتسائل دائما : لماذا كتبت هذا « الخبر » بالذات وبهذه «الكيفية» دون غيرها ؟ .. وربما تصبح ناجحا اكثر فى المستقبل في تكييف تجاربك وممارساتك وفقا للمتغيرات الاجتماعية والتكنولوجية التي تؤثر فى قراءة الاخبار . (١)

---

(١) Chilton R. Bush : Newswriting and Reporting, pesnsyluania 1972.

وتأسيسا على هذا الفهم ، فاننا نسعى ـ بداءة ـ الى التعرف على ما هية التحرير الاعلامى وليس بخاف علاقة التحرير بالاعلام ، وفى ذلك مفتاح التعرف على الماهية ، حيث يختلف مفهوم التحرير الاعلامى عن مفهوم التحرير الصحفى التقليدى ، فمنذ الحرب العالمية الثانية أعطى التغيير التكنولوجى والاجتماعى معنى جديد التعبير قديم ، الا وهو « وسائل الاعلام » ففى وقت من الاوقات كانت كلمة « صحافة » كافية لتعريف ووصف وسائل الاتصال . ويعتبر قاموس « ويبستر » من المصادر الاساسية التى عرفت الصحافة بأنها « عملية الادارة والتحرير » أو الكتابة للدوريات ، أو الصحف ، وهى أيضا الدوريات ، « أو الصحف بالمعنى الجمعى » . فالصحافة اذن كانت كلمة عامة لوصف الوسائل فى تلك السنوات التى كانت فيها معظم الاتصالات تتم بوساطة المجلات والصحف . أما اليوم فاننا نستطيع أن نتحدث عن وسائل الاتصال ، أو وسائل الاعلام ، وهما اصطلاحان اكثر دقة من اصطلاح « الصحافة » حينما نشير الى الوسائل الاخرى غير الصحف والمجلات . وكل اتصال ـ بطبيعة الحال ـ يستخدم وسيلة اى انه يلتزم باستعمال قناة للارسال . فالاوراق و المذكرات ذات العناوين المستخدمة فى المراسلة والموجات الصوتية المستخدمة فى المحادثة تعتبر قنوات أو وسائل . غير أنه فى الاعلام ، تصبح المؤسسة بأكملها حاملة للرسالة ـ كالصحيفة ـ أو المجلة ، أو محطة الاذاعة ـ وهى تستطيع حمل رسائلها الى الالاف أو الملايين من الناس فى وقت واحد تقريبا . وهى تتعرض أيضا للمشكلات التى تجابهها بوصفها مؤسسة اجتماعية ، كالمراقبة ، والقيود الحكومية ، والدعم الاقتصادى وغيرها . (٢)

وماهية التحرير الاعلامى ترتبط باصطلاح الاعلام ، الذى يمكن تعريفه أحيانا بطريقتين (٣) هما : الاتصال عن طريق الوسائل والاتصال بالجماهير .. ومع ذلك ، فالاعلام لا يعنى الاتصال بكل شخص ، فالوسائل تنحو نحو اختيار جماهيرها ، كما أن الجماهير تختار من بين الوسائل ... وعلى ذلك فان التحرير الاعلامى يعنى اعداد رسائل واقعية موحدة تبث لتصل الى اعداد كبيرة من الناس يختلفون فيما بينهم من النواحى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية ، وينتشرون فى مناطق متفرقة ، ويعنى بالرسائل الواقعية ـ فى التحرير الاعلامى مجموعة الاخبار والمعلومات والتعليمات التى تدور حول الاحداث ، وتنشرها الصحف ، وتذيعها الاذاعة وبقية وسائل الاعلام .

(١، ٢، ٣) وليام ل . ريفرز وزميلاه (ترجمة الدكتور ابراهيم امام) : وسائل الاعلام والمجتمع الحديث ص ٣٠ وما بعدها .

ومن أهم الخصائص المميزة للتحرير الاعلامى أنه ذو اتجاه واحد غالبا وقلما يكون هناك طريق سهل أو سريع للقارىء ، أوالمشاهد ، أو المستمع ، لكى يرد أو يسأل أسئلة أو يتلقى ايضاحات ، اذا هو احتاج اليها . وثانيةهذه الخصائص تنبع من أن الاعلام يتضمن قسطا كبيرا من الاختيار . فالوسيلة ، مثلا تختارالجمهور الذى ترغبفى الوصول اليه (٤) . فصحيفة « الاهرام » تستهدف جمهورا مثقفاوحضريا من القراء وصحيفة « تعاون الفلاحين » تستهدف المزارعين فى أنحاء مصر . أما «الاخبار»و « أخبار اليوم » فتتوجهان الى الجماهير الشعبية . وهناك طبعة عربية من «اخبار اليوم»تستهدف الجماهير العربية ، ومن الملاحظ فى مصر أن صحف الصباح تفوق فى انتشارهاصحف المساء .

انواع التحرير :

ولم تعد مهمة الاعلام محدودة في الصياغةالانشائية ، بل تعدتها الى جميع العناصر التي يشملها الاعلام ، ولقد كانت بهذا الوضع قبل انتطور فنون الاعلام الىالحد الذى وصلت اليه اليوم ، والاتجاه يسير نحو اعتبار الكلمة المطبوعة او المذاعة مجرد عنصر من عناصر التحرير الاعلامى ، خاصة وان الآراء والافكار وعلىالاخص تلك التى تتصل بالاحاسيس يمكن ان تنقلها فنون الاعلام عن طريق الرسمواللون والصوت والصورة . ولقد اكتسب التحرير الاعلامى معنى أعم فأصبح ينطوى علىالرسالة الاعلامية بجميع عناصرها .

ونحن نعرف أن الكتابة العربية انماتأثرت منذ نشأتها الى الآن بعاملين كبيرين هما : ديوان الانشاء فى العصر الوسيط ، وظهورالصحافة ووسائل الاعلام فى العصر الحديث ، ولقد وجدنا فى تراثنا الاسلامى ، أبا العباسالقلقشندى (٥) — يتعرض فى موسوعة صبح الاعشى لفنون شتى من التحرير الرسمي أوالديواني ، كفن تحرير (الولايات) وتحرير (العهود والمبايعات) وتحرير (الايمان) جمعيمين ، وتحرير (كتب الامان) وتحرير (عقود الصلح) وتحرير (كتب الهدنة) وتحرير(الوصايا الدينية) التي تلقى باسم الخليفة من اعلى المنابر العامة ، وهكذا الى مايقرب منعشرين فنا .

ويتعرض التحرير الصحفى الحديث لفنتحرير المقال بانواعه المختلفة ، وتحرير (العمود) بصوره المتعددة ، وتحرير القصة الخبرية ،داخلية كانت أم خارجية ، وتحرير (التحقيق الصحفى) و « الماجريات » الخ .

---

(٤) المرجع السابق ص ٣١ .

(٥) د . عبد اللطيف حمزة : القلقشندي في كتابهصبح الاعشى ص ٨ .

ويمكننا اليوم أن نتحدث عن التحريرالاعلامى فى وسائل الاعلام جميعا ، ونتخذ منه مصطلحا عاما عندما نشير الى التحريرفى وسائل أخرى غير الصحف والمجلات . على اننا يمكن أن نميز بعامة بين ثلاثة أنواع من « التحرير »« يمثل كل منها «نوعا» قائما بذاته وهذه انواع تقوم على أساس من تصنيف الاتصال وفقا لاهدافه ووظائفه ، ومايحاول فعله للجمهور . وتقوم هذه الانواع على أساس من الفهم القائل بأن اللغة فى حقيقتها ليست سوى نشاط انسانى يتمثل من جانب ، فى مجهود عضلى يقوم به فردمن الافراد ، ومن جانب آخر فى عملية ادراكية ينفعل بها الفرد أو أفراد آخرون . (٦) فاللغةامر وسط بين الغناء والكلام ، اوبين مجرد التنغيم الصوتي ، وبين كونها وسيلة لنقل الافكار والمعلومات بين فرد وآخر . ولوصح ـ كما يقول اوتوجسبرسن (٧) ـ أن هذا هو الوضع المبكر للغة فليس هنالك ما يمنع من أن تكون اللغة البشرية قد تطورت فى العصور اللاحقة تطوراجعل منها وسيلة دقيقة للتفاهم ونقل الافكار .

فالتحرير الاعلامي اسلوب من أساليب الاتصال بالجماهير ، التي تضم : التحرير الاقناعي والامتاعى التعبيرى ، وهو يتوسل بعدة وسائل يصل من خلالها الى الجمهور. ومن هذه الوسائل الصحافة والمطبوعات ، والاذاعة والتليفزيون والسينما ، ولكل وسيلة ـ من هذه الوسائل خصائصها ومميزاتها ، والتحرير الاعلامي بين التحرير التذوقى الجمالى المستعمل فى الادب والفن ، والتحرير العلمى والنظرى التجريدى المستعمل فى العلوم والتحرير الاقناعى المستعمل فى الاعلان والدعاية والعلاقات العامة ، هو ـ بطبيعة الحال ـ كما تشير الدلالة العربية «أوسطها وأطيبها» ، لان التحرير الاعلامى يتوسل بما يسميه المحدثون (٨) : المستوى العلمى الاجتماعى العادى فى التعبير ، وهو الذى يستخدم فى وسائل الاعلام .

واذا كان التحرير يعنى دائما امرين هما التفكير من جهة ، والتعبير من جهة أخرى ، فان تعريف التحرير الاعلامى يذهب الى انه جزء من عملية الاعلام ، يقصد به اعداد «الرسالة الاعلامية» التى تنتقل الى الجماهير عن طريق احدى وسائل الاعلام ، بهدف تزويد الناس الاخبار الصحيحة ، والمعلومات السليمة ، والحقائق الثابته ، من خلال عملية عرض فني تساعد الناس على تكوين رأى صائب فى واقعة من الوقائع أو مشكلة من المشكلات ،بحيث يعتبر هذا الراى تعبيراموضوعيا عن عقلية الجماهير واتجاهاتهم وميولهم . ومعنى ذلك أن غاية التحرير الاعلامى هى تيسير عملية الاقناع عن طريق عرض المعلومات والحقائق والارقام والاحصاءات ونحو ذلك . ويقدم اوتوجروت تعريفا للاعلام يشمل التحرير بالضرورة ، يقول :

« الاعلام هو التعبير الموضوعى عن عقلية الجماهير وروحها وميولها واتجاهاتها فى نفس الوقت » . (٩)

(٦ ، ٧) اوتوجسبرسن : (ترجمة د . عبد الرحمن ايوب) : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٥ ، ٦ .

(٨) د . ابراهيم امام : دراسات فى الفن الصحفى ص ٤١ .

(٩) د . ابراهيم امام : الاعلام والاتصال بالجماهير ص ١٢ .

وعلى هذا الاساس ، فان الكلمة المكتوبـةوالمنطوقة تمثل القاسم المشترك الاعظم بين هذه الانواع ، ولذلك نجد ، رغم التمييز التعسفى بينها ، أن هناك تداخلا بين هذه الانواع التحريرية وبعضها البعض :

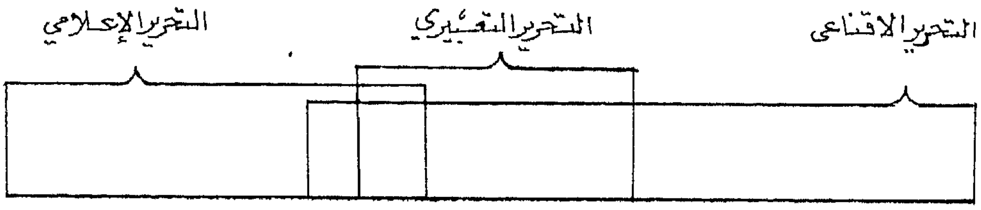

ومن هذا الشكل يبين لنا ان هذه الانواعالتحريرية هى :

١ ــ التحرير الاقناعى Parsuasine
٢ ــ التحرير التعبيرى Evocatine
٣ ــ التحرير الاعلامى Informatine

وان هذه الانواع الثلاثة يتداخل بعضها فىالبعض الآخر على طول السلم التحريرى على الرغم من ظهور أنواع يستقل كل منها عن الآخر ،ولكـن هذا التصنيف التعسفى انما يقصد بـه التأكيد على وظيفية كل فن من فنون التحرير .

فالكلمة المنطوقة أو المكتوبة ، تكون النمطالاعلامى اذا كانت الوظيفة السائدة فى نوع التحرير تضيف الى معرفة الجمهور معلومات جـديدةمبسطة ، من خلال النظرية العملية للجمهور ، أو التقرير الاعلامى الخالص حول حادث سيارةوسوف يحدد ما هو معروف من أسباب الحادث وكيفية حدوثة ، ونتائجه أو آثاره الخ . وليسفى مقدورنا أن نتكهن بما سيحدثه الحادث من أثر فى حياة القارىء ، أو اقناعة بتسىء ما ، علىالرغم من أن التقرير قد يؤثر تأثيرا عرضيا على بعض القراء .

فالتحرير الاعلامي تعبير موضوعى، وابتعادتام عن الذاتيه التى يتصف بها الاديب كما فى النمط التعبيرى من التحرير ــ مثلا . فالاديب ــكما يقول الدكتور امام ــ يعنى بنفسه ، ويقدم لنا ما يجول بخاطره ، ويسجل مايراه وفقـالرؤيته الخاصة ، وبرموز تنم عن ثقافته وعقليته وهو فى هذا الصنيع انما يصف النفس الانسانيةويتعمق اسرارهـا ، ويكشف عن حسناتهـا وسوآتها ، ويكون لأوصافة صدى فى نفوسالقراء من كل جنس وفى كل عصر ، ماداموا قادرين على قراءته وفهمه ، والاستفادة منه . فالاديب حر فى اختيار ما يقول ، والقراء أحرار فى قراءة ما يكتب الاديب .

ولكن التحرير الاعلامى ملتزم بالموضوعية ،لانه يعكس مشاعر الجماعة وآرائها ، وهو مقيد بمصلحة المجموع . وفى حرية الاديب وذاتية التحرير التعبيرى ، وتقيد التحرير الاعلامى وموضوعيته يقول عبد القادر حمزة :

« يجب ان يكون الصحفى (أو الاعلامى اليوم) حاضر البديهة . حاضر الجواب على كل ما يدعى لان يكتب فيه ، وهو فى كل ذلك لايختار ــ كما يفعل الاديب ــ بل الحوادث هى التى تختار له كل يوم الوانا جديدة ، وتدعوه الى ان يتجه اليها ، وينتهى به الامر الى أن يتسق أفق الادب والعلم والخبرة عنده فيصبح وكأنه الموسوعة ، بينما يكون الاديب بجانبه وكأنه كتاب فى فن معين » .

فالتحرير التعبيرى اذن يبحث عن الحقيقة الخالده على المستوى الجمالى ، فى حين أن التحرير الاعلامى فن موضوعى يقرر الواقع ويرصده بصدق وامانه وفن . لانه يقوم على الوقائع المشاهدة ، وينأى عن المبالغات والتهاويل . وهو يميط اللثام عن الاحداث الآتية فورا ، بحيث يجعلها ملكا مشاعا للامة . ان واجب التحرير الاعلامى هو واجب المؤرخ بنفسه ــ أن يبحث عن الحقيقة ويقدمها ــ فوق كل شىء وان يقدم الى جمهوره لا تلك الاشياء التى يتمنى من السياسة ان يقدمها اليهم ، وانما ــ بتعبير بوند ــ الحقيقة كأوثق ما يستطيع تقديمها .

وكما يبين من الشكل المتقدم فان التداخل بين أنواع التحرير امر يجعل من العسير التمييز بينها . ولذلك يجد الجمهور العادى نفسه مرتبكا فى التمييز بينها . فهو يجد انتاج كبار الكتاب المعاصرين فى جرائده ومجلاته ، ويدعوه صحافة ، وبعد مضى اشهر يجد المادة نفسها مغلفة بين دفتى كتاب ويدعوها أدبا وتقف التعاريف عاجزة ــ كما يقول بوند ــ دون تقديم العون الكافى له . فان « الادب » كما يقول جورج سانتيانا «هو عملية تحويل الاحداث الى افكار» . ويحاول جميع الكتاب فى فضليات الجرائد والمجلات ووسائل الاعلام والاتصال بالجماهير اتباع النهج نفسه . أما جيمس م . برى فقد جزم بأن الصحافة هى ذلك النوع من الكتابه التى تشرف صاحبها بعد أن يتخلى عنها . وكان يعنى ذلك الجيش الضخم من الادباء الذين ابتدأوا ككتاب فى الصحف الدورية ثم تحولوا الى « الادب » والتمييز هنا لايقوم على أساس الطريقة والاسلوب . فان افضل ما يكتب فى عصرا احيانا هو ما يكتب للجرائد والمجلات . كما يقول بوند أيضا ، وقلما نستطيع أن نجعل المادة اساسا للتمييز على رغم الفرق الواضح الذى يبدو بين المقالات الصحفية والكتابات الادبية والفلسفية والتاريخية . أما الفرق الاساسى فهو يسير كما تقدم ، الى الغرض أو الوظيفة التى يرمى الكاتب الى تحقيقها . فالمؤلف يعبر عن افكاره وتجاربه الخاصة ، والاعلامى يعبر عن أفكار المجتمع وتجاربه ، ثم يمكن للاديب الا يكون مرهونا بزمن ، بينما نجد أن التحرير الاعلامى مقيد بالظرف الزمانى .

ان قائمة الصحفيين المجيدين الذين اسهموا فى صنع الادب الجيد قائمة طويلة . والقائمة التى تشكلت منهم فى انجلترا خلال القرنين الماضيين تحملنا على الاعجاب . فهى تبدأ بدانييل ديفو ، وجوزيف اديسون ، وستيل وسويفت . ويدخل فيها ديكنز وتاكرى . وتتضمن كبلنج ، وبارى ، وأرنولد بينييت ، وجالسوروى ، وكشسترنون ، وولز ، وشو .

وفى مصر والبلاد العربية قائمة موازيـةتبدأ بداية طيبة برفاعة رافع الطهطاوى وتدخل فيها اسماء مثل الاستاذ الامام محمـد عبدهوالمويلحى ، وعبد اللـه نديم ، وفريد وجدى واحمـد لطفى السيد والدكتور محمد حسينهيكل والدكتور طه حسين وعباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر والمازنى وتوفيق الحكيم ،وكتاب معاصرون مثل يوسف السباعى ونجيب محفوظ واحسـان عبـد القدوس ، وغيرهـمكثيرون .

ومن هاتين القائمتين الجزئيتين يتضـحما تستطيع ممارسة الصحافة النظاميـة أن تفعله من حيث تعزيز المواهب الادبية للصفتينالمرغوب فيهما جدا فى الاسلوب ، وهما الوضوح والقوة . ولقد اقترح مرة سيمون سترونسكىفى مضمار التعليق على ترك الصحافة والانقطاع للادب ، قائلا : « يكون شيئا ممتازا للاديبالاميركى ، ولو من الناحية الشكلية على الاقل ، لو ان المؤلفين يرسلون من جديد لتلقى دورةدراسية شاملة على مستوى المتخرجين تحت اشراف رئيس قوى بقسم الاخبار المحلية، عندئذستقل كثيرا نسبة الكتابة الجميلة التى تستدر اعجابا بكل هذا الاستمرار » .

اما التحرير الاقناعى ، فانه قد يتوسلبأساليب التحرير الادبى والتحرير الاعلامى ، ولكنه يتوسل بهذه الاساليب بهدف التاثير علىالناس عن طريق النواحى العاطفية والانفعالية لاقناعهم بوجهة نظر معينة ، او براى او بفلسفةمحددة .

وهكذا نجد ان التقسيم الوظيفى للتحريرهو أنسب أنواع التصنيف العلمى ، على الرغم من ان الفصل بين الاهـداف المصرفية التى يؤديها التحريـر الاعلامى من حيث توصـيل المعلومات والخبرات الى الجمهور ، وبين الاهافالاقناعيـة ، واهداف التحرير التعبيرى وهى اهداف جمالية فى المحل الاول ، فان الفصل بينهذه الاهداف قد لا يتحقق فى الحياة العملية . فالتحرير الاعلامى من حيث وظيفته الاعلاميةلا يمكن أن يحقق أهداف ما لم يصحبه بعض الجوانب الاقناعية ، كما أن التحرير الادبى عادةما يتضمن بعض جوانب المعرفة وجوانب الاقناع.

ويبين التداخل بين أنواع التحرير كذلك ،حين ننظر اليها كوسائل منقولة عن طريق وسائل الاتصال بالجماهير ، وتثير اهتمام اكبر عدد منالناس ، ولهذا فقد بذلت جهود كبيرة لبحثها ، وفى الفصل الذى كتبه فرانكلين فيرنج Fearing بعنوان التأثير الاجتماعى لوسـائل الاتصـال الجماهيرية ،فى الكتاب السنوى الثالث والخمسين(الجزء الثانى) للجمعية القومية لدراسةالتعليم، نجد الشواهد المتعلقة بهذا الجانب : —

أ — أن الاستجابات لمضمون وسائل الاتصالبالجماهير تتحدد بواسطة عدد كبير من العوامل ، والمضمون ليس الا واحدا منها .

ب — على وجه التخصيص فان علاقة المفسرويقصد به فيرنج : الجمهور مستقبل الرسالة ، بالنسبة للمضمون لها الخصائص المميزة للادراكالذى يحدد منهجه نظام « الحاجة — القيمة — الدافع » الخاص بالمستقبل ، والموقف الذىتحدث فيه عملية الاتصال ، والمضمون نفسه .

جـ ــ ان نتائج التعرض لمضمون معين متباينة جدا ، ولا يمكن التنبؤ بها فى أية حالة خاصة الا على اساس المعرفة الشاملة بالمضمون نفسه ونظام « الحاجة ــ القيمة » ــ بالنسبة للمفسر او مستقبل الرسالة التى تحوى المضمون والخصائص المميزة للموقف الكلى كما يدركه هذا المستقبل .

د ــ ان نتائج التعرض لمضمون رسالة اعلامية قد يأخذ وقد لا يأخذ صورة السلوك الصريح .

هـ ــ مهما كانت صورة الاستجابة للمضمون صريحة أو غير صريحة evert or covert فهى تتميز دائما بأنها تخدم الحاجات النفسية الاجتماعية لمستقبل الرسالة .

و ــ يعكس مضمون رسائل الاتصال الجماهيرى ــ بصفة عامة ــ نظم القيمة السائدة فى المجتمع الذى تحدث فيه الاتصالات .

ومن بين النتائج المقبولة للاتصالات الجماهيرية يفترض بصفة عامة ما يأتى : (١١)

١ ــ تكامل المجتمع Integrating Society تنمية الاتفاق بين افراده وجماعاته ، على السياسات الاساسية .

٢ ــ تثبيت المجتمع Stabilizing Society بتأييد الاغلبيات ضد الاقليات المخالفة فى الرأى .

٣ ــ تيسير الادارة العامة Facilitating Public Administration بتعريف المسئولين بمشكلات المجتمع ، وتعريف المواطنين بالسياسات والاجراءات الرسمية .

٤ ــ تدعيم قوى الدفاع القومية باعلام المواطنين بالتهديدات الخارجية والداخلية المواجهة للامن القومى .

٥ ــ توسيع مجال الحديث أو التخاطب بترويج الاصطلاحات الجديدة المتعلقة بالنواحى التكنولوجية والثقافية .

٦ ــ تدعيم العادات الاجتماعية مثل آداب السلوك واساليب المحافظة على الصحة النفسية .

٧ ــ اثارة البدع وموضات الازياء .

ومن خلال هذه الشواهد المختلفة للتأثير الاجتماعى لوسائل الاعلام والاتصال ــ بالجماهير ، تتبين التداخل الوظيفى بين انواع التحرير المختلفة من حيث تحقيق هذا التأثير .

على أن التحرير الاعلامى يتميز بتأثيره الكبير فى الرأى ، وهو تأثير يفوق تأثير التحرير الاقناعى ، بمعنى أن الاخبار قد تكون ذات قوة اكبر فى تشكيل الاتجاهات العامة من المقالات والاعمدة

---

(١٠) أمين عطوة : « الاتصال » مجلة الفن الاذاعى ع ٤٦ م ١٣ فى يناير ١٩٦٩ .

السياسية ، والاخبار تسجل الاحداث ، وقد تغير الاحداث التى تقدمها اكثر مما تغيره انباط التحرير الاقناعى وهى : الاعلان والعلاقات العامة والدعوة المقصودة :. كالمقالات الافتتاحيه ، والرسوم الكاريكاتورية والاعمدة والمقالات التفسيرية التى تؤدى بالقارىء الى الوصول الى استنتاج. وكذلك النمط الذى يراد به اساسا الترفيه اوالاعلام بحيث يكون الاقناع منتجا فرعيا محتملا .

ويقدم هودلى كانتريل فى كتابة « قياس الرأى العام » قاعدة عامة تقول : « ان الرأى يتحدد عموما بالاحداث اكثر مما يتحدد بالكلمات ما لم تفسر هذه الكلمات ذاتها على انها حدث « ويضيف ويفرز وزميلاه الى ذلك ، ان الاحداث تنزع الى ترسيخ تغيرات الرأى العام الناتجه عن الكلمات ، وقد يكون التغيير فى الرأى قصير العمر ما لم تسانده بعض الاحداث .

ولكن برنارد بيرلسون يذهب الى أن هذه القواعد العامة تستدعى تعليقين : اولهما انه يكون من الصعب التمييز بين الاحداث والكلمات، فهل الخطاب الهام الذى يقدمه رئيس الجمهورية حدث أم مجرد كلمات ؟ وثانيهما ان كثيرا من الاحداث لا تحدث تأثيرها نتيجة حدوثها فحسب، وانما بمعاونة من الكلمات أيضا ، اى أن اهمية الحدث فى اقناع الجمهور قد تشحذ كثيرا من خلال التفسيرات التى يقدمها معلقو التليفزيون وكتاب الافتتاحيات والاعمدة السياسية .

وتتضمن الظروف التى تساعد التحرير الاعلامى على تحقيق التغيير ما يأتي :

١ ـ عندما يكون الاتصال بالجمهور المخاطب مباشرة بواسطة وسيلة الاعلام ، وعندما يكون الجمهور متفتحا ذهنيا للموضوع .

٢ ـ عندما يركز مضمون واسلوب التحرير على الاحداث اكثر مما يركز على الآراء . ـ وعندما تخاطب العاطفة اكثر مما يخاطب العقل ، وعندما يتم التحدث الى جمهور بلغته (استخدام المفهومات المألوفة لديه فى اطاره الدلالى) ، وعندما لا تحجز الرسالة الاعلامية اتصالات اخرى منافسة ، وعندما تتم مهاجمة الآراء المعارضة بصورة غير مباشرة .

٣ ـ عندما تكون الوسائل او القنوات المستخدمة ذات طابع شخصى Personal وموجهة الى قادة الرأى، ومتخصصة ، اى مركزة على الجماعات المقصودة موضع الاهتمام .

٤ ـ عندما يكون الموضوع (أو المشكلة) موضع التحرير بعيدا زمانيا او مكانيا قليل الاهمية للشخصيات المتضمنة .

موضوع علم التحرير الاعلامى :

رأينا ان اضافة صفة «الاعلامي» الى فن «التحرير» جعلته فنا متميزا بين فنون التحرير الاتصالية ، الاخرى ، او بلغة المناطقة فى الصلة بين المفهوم والما صدق، نقول ان زيادة صفة «الاعلامى» الى فن « التحرير » من شأنها تضييق نطاق الافراد الذين يصدق عليهم تصور « فن التحرير » كالتحرير الاقناعى أو التعبيرى او الاعلامى ، وعلى العكس من ذلك اذا استبعدنا صفة « الاعلامى » من مفهوم « التحرير » فان هذه الانواع التحريرية جميعا تدخل فيه فيزداد بهذا

عدد الافراد الذين تصدق عليهم اللفظة وهذا ما يعبر عنه فى صيغة عامة بقولهم : (١١) « فى سلسلة من الحدود المشتركة التى يوجد بينهارابطة تداخل يتناسب الما صدق والمفهوم تناسبا عكسيا » .

وقد تعرفنا على ما هية التحرير الاعلامىورأينا ان جوهره هو الاعلام ورواية الاحداث وتفسيرها،باستخدام الاشكالوالفنون التحريريةالمختلفة . ووجدنا أن هذه الماهية تنص بالضرورة على ارتباط التحرير الاعلامى بالجمهور . ولذلككانت اهم خصائصه معالجةالاموراالصعبة بأسلوب سهل . وتفسير الاحداث العظيمة بعبارات سلسةبسيطة ، وتعرفنا على التحرير الاعلامى عن طريق تمييزه عما عداه ، والدال على الماهية مميـزايضا ، كما يقول المناطقة .

وهكـذا يمكننا ان نعرف موضوع علـمالتحرير الاعلامى بالرجوع الى جوهره وهو الاعلام ورواية الاحداث وتفسيرهـا ، ونشر الاخبـاروالمعلومات الصادقة التى تنساب الى عقولالناس وترفع من مستواهم وتنشر تعاونهم مـن أجلالمصلحة العامة ، فهو يخاطب العقول لا الغرائز . ولما كان التحرير الاعلامى ، يستخدم اسلوبالشرح والتفسير والجدل المنطقى فقد اخذت الدول ـ كما يقول الدكتور امام ـ تفضـل كلمة« الاعلام » وتنبذ كلمة الدعاية ، على اعتبار أن الاولى تعبر عن الدقة والموضوعية والصدق .

وتدور أبحاث علم التحرير الاعلامى حولهذه المسألة ، ولذلك يعترضنـا دائما هذان السؤالان اللذان يشكلان موضوع هذا العلم .

كيف ونقول ؟

و

كيف نقول ؟

والاجابة عن السؤال الاول تتناول القواعدالخاصة بمادة الاعلام منحيثموضوعاته وافكاره، وملابساته ، كما أن الاجابة عن السؤال الثانىتقوم على طريقة التعبير عن هذه المادة وأدائها فى رسالة اعلامية .

ويجبأن نلاحظـما أكد عليه البلاغيون(١٢)ـ من ان قوانين التعبير تشمل المادة أو تمسها ، اذ كانت المادة مقياس العبارة وسبب نوعها ،فالاسلوب يختلف خبرا عنه موضوعا اعلاميا ، أو تعليقا تفسيريا ، وكذلك دراسة المادة لا تخلومن القول فى التعبير ، فالمادة لا تدرس فى التحرير ـ من حيث أنه : تفكير وتعبير ـ على انها شىءمنفصل مستقل ، وانما يراعى انسبها ، وصلته باللغة التى تؤديه ، ومعنى هذا ان ركنى التحريرالاعلامى يلتقبان كما ترى ، وقد يفترقان افتراقا جزئيا ، ومع ذلك فان الدراسة العلمية تبيح لنان تتناول كل جانب وتخصه بدراسة غالبة فيه . وبذلك ينحصر موضوع التحرير الاعلامى فى بابينأو كتابين : الاسلوب ولغة التعبير الاعلامى .

---

(١١) دكتور عبد الرحمن بدوى : المنطق الصورىص ٧٣ .

(١٢) احمد الشايب : الاسلوب .

الفنون الاعلامية من حيث ارتباطها بكل وسيلةمن وسائل الاعلام ، مع بيان كيفية التجسيد والتبسيط التى يقوم بها الاعلامى فى الصحافةوالاذاعة المسموعة والمرئية والسينما والوسائل التى تساعده على ذلك .

وتأسيسا على هذا الفهم ، نذهب الى أنالتحرير الاعلامى علم وفن فى آن واحد ، ذلك أن التحرير الاعلامى كعلم يدرس الاسس النظريةوقواعد الكتابة والتنظيم لكل فن من الفنون الاعلامية، وهو علم وفن لانه يستقرىء ويستنبطويضع القواعد لتوجيه المحرر الاعلامى ويبين المناهج العلمية ، ولان الذين يفيدون بين هذهالقواعد انما يريدون تطبيقها فى وسائل الاعلام وذلك نقول أن هؤلاء يعالجون «فن» التحرير . فالعلم هو المعارف الانسانية فىأسلوب منسق ، والعلم هو هذه المعارف فىشكل عملى تطبيقى . وهناك كلام كثير فى الفرق بين العلم والفن ليس هنا موضع الخوض فيه . (١٣) وانما نذكر فىهذا الصدد أن تقدم العلوم دفع علماء الاعلام الى تغيير موقفهم من التحرير بوصفه فنا فحسب ،فقد وجدوا أن التحرير لا يفرض على المحرر فكرا وتعبيرا ، ومناهج تحريرية ومعنى هذا أنهمأدركوا أن مهمة علم التحرير الاعلامى الاساسية ليست فى وضع قواعد للتحرير الصحيح ، بلدراسة أنواع التحرير الاعلامى الصحيح .

ويذهب هربرت ميزHerbert R. mayes(١٤)الى أن الاصل اللغوى الذى يوحد بين المحرر والناشر يرجع الى ان كليهما خبير فى تحريرالنص ، ويشبه المحرر بالبستانى الذى يقلب النبات الاخضر بابهامه ، معتمدا على مقدرتهالخاصة التى تتطلب براعة فائقة.. ويريد من ذلك ان يؤكد على أن التحرير فن ، مؤسسا رايه علىأساس أنه حتى الان لا توجد كلية للاعلام تمنح درجة الدكتوراه فى فن التحرير There is no college to offer a doctorate in editing وهو يشير الى ان التحرير الاعلامى فن تجريبى empirical art ولم يحظ بعد بدراسات علمية احصائية ، وهى اشارة تستوجب توجيه العناية الى الدراساتالتجريبية فى التحرير ، لكيلا يظل فنا بدهيا يعتمد على الخبرة والتجربة والبديهة فحسب . وحين نتفق على أن التحرير علم وفن معا ، فان ذلك يقتضى بالضرورة ، تطبيق أساليب العلمومناهجه ، على فن التحرير كما طبقت على غيره من الفنون .

التحرير والاتصال بالجماهير :

وتأسيسا على هذا الفهم يمكن تعريفاصطلاح « التحرير الاعلامى » بطريقتين : الاولى الاتصال بالجماهير ، والثانية عن طريق الوسائل، وتعريف التحرير الاعلامى عن طريق — الاتصال بالجماهير يحدد نطاقهفى مفهوم «الاعلام» كما تقدم ؛ أو بعبارة اخرى فان الفارق بين مصطلحى : اتصال و « اتصالات » ، فالاتصالهو عملية الاتصال ، والاتصالات هى الوسائل

---

(١٣) راجع — احمد الشايب : اصول النقد الادبىص ٦٥ ط ٢ .

(١٤) Saturday Review (February 10, 1968 P,. 12.

التكنولوجية المستخدمة لتنفيذ هذه العملية .والاتصال ، هو حقيقة أساسية الوجود الانسانى والعملية الاجتماعية . بل ان الاتصال هو حامل العملية الاجتماعية ، وهو الذى يجعل التفاعل بين الجنس البشرى ممكنا ، ويمكن الناس من أن يصبحوا كائنات اجتماعية . وفى عملية الاتصال « نهدف » الى احداث تجاوب مع الشخص المتصل به . وبعبارة اخرى نحاول أن نشاركه فى استيعاب المعلومات أو فى نقل فكرة أو اتجاه . (١٥)

ويمكن القول ان التحرير الاعلامى بهذا المفهوم يحقق مفهوم البلاغة العربية التى تنبىء لغة عن « الوصول والانتهاء » ، يقال : بلغ فلان مراده اذا وصل اليه ، وبلغ الركب المدينة اذا انتهى اليها ، وابلغه هو ابلاغا ، ومنه قول أبى قيس بن الاسلت السلمى :

قالت ولم تقصد لنيل الخنى — مهلا فقد أبلغت أسماعى

اى قد انتهيت فيه وانعمت ، والبلاغ ما يتبلغ به ويتوصل به الى الشىء المطلوب ، والبلاغ ما بلغك وتقول « بلغت الرسالة » ، والبلاغ والابلاغ وفى التنزيل « الا بلاغا من الله ورسالاته » اى : لا أجد منجدا الا ان ابلغ عن الله ما أرسلته ، والابلاغ : الايصال ، وكذلك : التبليغ ، والاسم منه البلاغ . وفى الحديث : « كل رافعة رفعت عنا من البلاغ فيبلغ عنا » يروى بفتح اللام وكسرها ، وقيل من أراد من المبلغين . وبلغت المكان بلاغا . وصلت اليه ، وكذلك اذا شارفت عليه ، ومنه قوله تعالى : « فاذا بلغن أجلهن »اى قاربنه ، وقوله تعالي : « ان الله بالغ أمره » وامر بالغ : نافذ يبلغ اين أريد به ، وبلغ من الكلام فصيحة يبلغ بعبارة لسانه كنه ما فى قلبه . (١٦)

وفى عملية التحرير الاعلامى نهدف الى احداث تجاوب مع القراء أو المستمعين أو المشاهدين ، أو بعبارة اخرى نحاول ان نشركه فى استيعاب المعلومات اى نقل فكرة أو اتجاه (١٧) فالتحرير الاعلامى يهدف الى « الابلاغ » وتحقيق « الاتصال » ، الذى يعرف قاموس « وبستر » Webbster على أنه « عملية يتم فيها تبادل المفاهيم بين الافراد وذلك باستخدام نظام الرموز المتعارف عليها » ومن أجل ذلك ينظر الى عملية لتحرير الاعلامى على أنها تتضمن تفاعلات متبادلة فى ارسال واستقبال الرسائل من جهة ، وفى تحرير وفهم تلك الرسائل من جهة اخرى ، ومن جهة ثالثة فى المشاركة والاستمتاع بأفكارها .وهذه التفاعلات قد تتشابه فى المراحل المتداخلة متضمنة الهندسة وعلم النفس والاجتماع . (١٨)

---

(١٥) الرجع السابق ص ٣٨ .

Wilbur Schranam ed., The process and Effects of Comm.

(١٦) شروح التلخيص جـ ١ ص ٧٣ م السعادة بمصر .

(١٧) Straues, G. and Sayles L : Personnal Huma Problems of Management fourth Printing PrintingHall, N. Y. P. 196.

(١٨) Wilbur Sekramm ed., The Process and Effects of Communication (1960). P. 3.

ومن أجل ذلك ننظر الى عملية التحرير على أنها تتماثل مع نظرية الاعلام التى توصل اليها الرياضيون فى مجال هندسة الكهرباء ، من حيث أن « المحرر » معتبر « مرسلا » والجمهور « مستقبلا » ، فالمحرر يبعث « برسالة » محررة الى « المستقبل » برموز متفق عليها ، ويختارها بحيث يقلل من الغموض أو التباس الفهم ، ذلك أن دوره ـ كما تحدده اللغة ـ فى اصطلاح « التوصيل » : هو أن يتلطف حتى يصل الى جمهوره ، وفى لغة القرآن الكريم (١٩) .

وصله يصله وصلا : بره وتودد اليه ولم يجفه . ويقال من هذا وصل رحمه وقرابته والمؤمنين : قام بما ينبغى لهم من حسن المعاملة والبر ، وأصل ذلك أن يقال : وصل الشىء بالشىء اذا لامه به وربطه وجمعه عليه ، فكأنك اذا أحسنت الى امرىء ربطته بنفسك وجمعته عليك . ومن هذا يقال فى ضده : قطعه اذا جفاه وساءه . ويقال : وصل الى كذا وصولا : بلغه وانتهى اليه .

فالمحرر اذن فى عملية التحرير الاعلامى ـ يرتب رموزه فى « شكل » يتطلب أقل قدر من الجهد الى جانب المستقبل ، حتى يبلغه وينتهى اليه برسالته ، ومن الممكن أن يصبح ذلك سهلا ميسورا ، اذا كان جميع المستقبلين الذين يتلقون الرسالة الاعلامية لديهم القدرات الدلالية التى تشترك مع المرسل فى اطار دلالى واحد .

واذا لم يكن هناك « تشويش » فى قناة الاعلام . ولكن الواقع يؤكد أن المحرر ـ المرسل هو فى العادة شخص على مستوى من الثقافة يتيح له قدرا كبيرا من الرموز التى يختار من بينها ، فى حين أن الكثيرين من افراد الجمهور المستقبل ، لا يتمتعون الا بقدر محدود من المفردات ، وبقدر أقل من الخبرة عندما يحدث الا يقدم المحرر الاعلامى معنى واضحا وسريعا الى القارىء أو المستمع أو المشاهد . لذلك ينبغى الا يكون تعارض فى رموز الاتصال « اللغة » بين كل من المحرر والمستقبل .

فالتحرير الاعلامى ـ اذن ـ حقيقة أساسية من حقائق الاتصال فى العملية الاجتماعية ، وهو يمثل شتى الطرق التى يؤثر بها المرسل فى المستقبل أو يتأثر بها « بالبر والتودد وعدم الجفاء » ، كما لو كان « يصل رحمه وقرابته والمؤمنين » .. وقد تكون هذه الطرق مباشرة وشخصية أو غير مباشرة ولا شخصية ، فالاعلام هو حامل العملية الاجتماعية ، والتحرير الاعلامى هو الذى يحقق الوصول الى الجماهير من خلال قناة الاتصال ، وهو لا يقدم المعلومات اليهم دفعة واحدة ، وانما يجعل أجزاءه متتابعة ، اسوة بما جاء فى نظرية الاعلام فى القرآن الكريم : :

« ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون » ٥١/القصص ، فتوصل القول لهم هنا : اتباع بعضه بعضا فى التنزيل .

والتحرير الاعلامى بهذا المعنى نسق من الاشارات يختص لنقل الرسائل الاعلامية ، واذا كان ذلك ينطبق على معنى « الشفرة » فى نظرية الاحتمالات فى الاعلام التى وضع أساسها العالم

---

(١٩) محمد على النجار : معجم الفاظ القرآن الكريم ج ٦ ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤ .

الامريكى كلود شانون عام ١٩٤٨ ، فان اعدادهذه «الشفرات » وتنظيمها فى نسق مــن الاشارات وبثها هو المقصود بالتحرير فى عملية الاعــلام ، وعلى ذلك يغدو عنصر « الرسالة » من عناصــر الاعلام وهو صلب التحرير الاعلامى ، الذى يفيدمن مدلوله اللغوى « خــير » العملية الاعلامية و « وسطها » كـ « حر الرمل » و « حــر الدار »و « التسوية » من « حر الارض نجدها حــرا » أي : سواها ، و « التقويم » و «اصلاح السقط»فتحرير الكتابة : اقامة حروفها واصلاح السقط وفى « أساس البلاغــة » للزمخشرى : حـــرر الكتاب : حسنه وخلصه باقامة حروفه واصلاح سقطه .

ولعل فى ذلك ما يشير الــى غايــة العملية الفنية فى التحرير الاعلامى ، وهى الغاية التى تتيح للاعلام أن « يصــل » الى الجمهــور ، أو بعبارة أدق «فالتحرير وصل الاعلام بالجمهور» اذا لأمه به وربطه وجمعه عليه ، حتى يكون اكمل الناس أغزرهم عرفانا للحق ، وأقدرهم على العمل بمــا يوافق الحق » على حد تعبير العالم الاسلامى أبوالحسن محمد بن يوسف العامرى المتوفى ســنة ٣٨١ هـ ــ ٩٩٢م فى كتابــه المسمى « الاعــلام بمناقب الاسلام» ، والذى يقول أن « العلم مبدأ للعمل ، والعمل تمام العلم ، ولا يرغب فى العلوم الفاضلة الا لاجل الاعمال الصالحة .. ولو جعل الله تعالى الجبلة البشرية مقصورة على تحصيل العلم دون تقويم العمل لكانت القوة العملية امــا فضلا زائدا ، واما تبعا عارضا ... ولو أنها كانت كذلك لمــا كان عدمها ليخــل فى عـــمارة البــلاد وسياسة العباد » .

فالتحرير الاجتماعى فــن عملى اجتماعى يقصد الى التبسيط للجماهير من خلال واقعيته وعموميته ، فالتحرير الاعلامى فن تطبيقى يهدف الى الاتصال بالجماهير ونقل المعانى والافكار اليهم فهو فن وظيفى وليس فنا جماليا يقصد لذاته ، ذلك أن الطبيعة البشرية كما يقول « العامرى » مزودة بقدرتين : قدرة على تحصيل العلم « أو قدرة نظرية » وقدرة على تقويم العمل « أو قدرة عملية » . ويقرر ــ منذ حوالى الف سنة ــ فكرة هى ألصق ما تكون بعلم التحرير الاعلامى ، وهى أن العلم انما يطلب من أجل العمل به والاستفادة منه فى تحسين الحياة الانسانية وتقدمها ، كما أن الاعمال المثمرة أو « الصالحة » انما هى تلك التى تقوم على الدراســة العلميــة . والاعمــال النافعة ــ فى راي العامرى هى : النافعة للانسان كفرد ، والنافعة للانســان كعضو فى مجتمــع ، والنافعة لسياسة الناس كجماعة . وعلى ذلــك فان التحرير الاعــلامى يســعى الــى « الاحاطة بالشيء على ما هو عليه من غــير خطأ ولا زلل »

واذا كان « المجتمع الحديث لا يقع فى مجال الرؤية المباشرة لاحد ، كما أنه غير مفهوم ــ على الدوام ، واذا فهمه فريق من الناس ، فان فريقا آخر لا يفهمه » . (٢٠) فان التحرير الاعلامى يأتى للشرح والتفســير والتكامل ، كنتيجة لازدياد نمو المجتمع ، وتنوع تخصصاته وتعقــد مشكلاته ، الامر الذى يجعل التحرير الاعلامى حــلا لصياغة المعرفة بطريقة عملية واقعية . وهو الامر الذى

(٢٠) د . ابراهيم امام : دراسات فى الفن الصحفى ص ٧ ،
Walter Lippmann, Public Opinion (1972) PP. 29-81.

تنبه اليه « العامرى » (٢١) حين قال : « ان من أعظم مواهب الله تعالى لعباده أن خلقهم من انفسهم محبين للعلم . ثم لما كانت الجبلة البشرية فى طباعها بحيث لا يقوى الانسان على ضبط جميع اقسامه ، جعل بين طباع البشر وبين أصناف المعالم علامة خفية ، ومناسبة ذاتية . اعنى أن الواحد منهم ينجذب بهمته الى قسم من أقسامها اما باختيار نفسه ، أو باختيار من يلى التقدير عليه ، فيتأكد الفه له ، ويقوى شغفه به ، فيخصه من قلبه بشدة المحبة ويفضله على غيره وان كان مفضولا ، حتى قيل : ان المرء لما جهله عدو » .

لقد أصبحت وسائل الاعلام بالنسبة للانسان المعاصر شيئا مفروغا منه ، ولكنه مع ذلك لا يتدبر فى أثر هذه الوسائل على تفكيره وسلوكه ، أو على سير مجتمعه ، غير أن هناك ما يدل على أن الكثيرين فى مجتمعنا المعاصر قد أصبحوا يدركون ـ على الاقل ـ أثر وسائل الاعلام . ففى السبعينات ظهر مدى النضج فى النقد ، بحيث يبدو أن طوائف عديدة من الناس قد بدأت تفكر فى الاعلام مليا ، وليس معنى ذلك أن كل نقد موجه الى الاعلام مقنع .

التحرير جزء من عملية الاعلام :

ان الاتصال بالجماهير يمكن تعريفه بأنه « بث رسائل واقعية أو خيالية موحدة على اعداد كبيرة من الناس ، يختلفون فيما بينهم من النواحى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية ، وينتشرون فى مناطق متفرقة . » (٢٢)

ويقصد بالرسائل الواقعية مجموعة الاخبار والمعلومات والتعليمات التى تدور حول الاحداث، وتنشرها الصحف ، وتذيعها الاذاعة المسموعة والمرئية . أما الرسائل الخيالية فهى القصص والتمثيليات والروايات والاغانى وغيرها من المبتكرات الفنية التى قد ترتكن الى الواقع ، وتنسج منه صورة فنية أو قد تكون من نسج الخيال . وحتى فى الحالة الثانية لا بد من ارتباط التحرير الاتصالى بواقع المجتمع وما فيه من اتجاهات ومبادىء ومعتقدات وقيم . وفى الاتصال الجماهيرى الحديث تتعرض الجماهير المختلفة باختلاف الحالة الاقتصادية أو السن أو المكانة الاجتماعية أو الثقافية لنفس المؤثرات الاعلانية والفنية الموحدة مهما تباعدت مناطق اقامتهم . (٢٣)

والاعلام شكل من اشكال الاتصال بالجماهير ، التى تضم الدعاية والاعلان والتعليم والعلاقات العامة والامتاع الفنى الى جانب الاعلام . وللاعلام عدة وسائل يصل من خلالها الى الجمهور . ومن هذه الوسائل : الصحافة والمطبوعات ، والاذاعة والتليفزيون والسينما ولكل وسيلة من هذه الوسائل خصائصها ومميزاتها التى توفر الباحثون على دراستها . (٢٤)

---

(٢١) الاعلام بمناقب الاسلام ص ٨٦ .

(٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤) دكتور ابراهيم امام : الاعلام والاتصال بالجماهير ص ٢٨ .

وتأسيسا على هذا الفهم ، فان التحريرالاعلامى جزء من عملية الاعلام ، والاعلام بدوره جزء من كل أكبر هو « الاتصال بالجماهير » Mass Communication ويقصد بالتحرير الاعلامى اذن اعداد الرسالة التى تنتقل الى الجماهير عن طريق احدى وسائل الاعلام ، بهدف تزويد الناس بالاخبار الصحيحة والمعلومات السليمة ،والحقائق الثابتة ، من خلال عملية عرض فنى تساعد الناس على تكوين رأي صائب فى واقعه من المواقع أو مشكلة من المشكلات بحيث يعبر هذا الرأي تعبيرا موضوعيا عن عقلية الجماهير وميولهم واتجاهاتهم . ومعنى ذلك أن الغاية الوحيدة من التحرير الاعلامى هى تيسير عملية الاقناع عن طريق عرض المعلومات والحقائق والارقام والاحصاءات ونحو ذلك . ويقدم أوتوجروت Otto Groth تعريفا للاعلام يشمل التحرير الاعلامى بالضرورة ، يقول : « الاعلام هو التعبير الموضوعى لعقلية الجماهير ولروحها وميولها واتجاهاتها فى نفس الوقت » . فالتحريرالاعلامى تعبير موضوعى وليس ذاتيا من جانب الاعلامى يقدم حقائق مجردة بعضها سار وبعضها غير سار . والاعلامى ليس له غرض معين فيما ينشره على الناس اللهم الا الاعلام فى ذاته ، بينما يهدف الداعية الى غاية معينة . والمفروض أن الاعلام يقوم على الوضوح والصراحة ودقة الاخبار مع ذكر مصادرها ، كما انه يشترط الالتزام بمعايير الصدق والامانة . فالاعلام يتوسل بالتحرير فى عرض وتقديم أكبر قدر ممكن من المعلومات الصحيحة أو الحقائق الواضحة التى يمكن التثبت من صحتها أو دقتها بالنسبة للمصدر الذى ينبع منه أو تنتسب اليه . وبقدرما فى الاعلام من حقائق صحيحة ومعلومات دقيقة منبثقة من مصادر أمينة ، بقدر ما يكون هذا الاعلام سليما قويا . لذلك نجد أن الصحف والاذاعات وغيرها من أجهزة الاعلام تصر دائما على نسبة الاخبار الى وكالات الانباء أو غيرها من المصادر حتى يكون الجمهور على بينة من الامر . (٢٥)

والاعلام يخاطب العقول لا الغرائز ، وكذلك يقوم على التنوير والتثقيف ، ونشر الاخبار والمعلومات الصادقة التى تنساب الى عقول الناس وترفع من مستواهم وتنشر تعاونهم من أجل المصلحة العامة . ويذهب الدكتور ابراهيم امام (٢٦) الى أنه لما كان الاعلام يتوسل فى تحريره بأسلوب الشرح والتفسير والجدل المنطقى ، فقد اخذت الدول تنبذ كلمة الدعاية وتفضل عليها كلمة الإعلام ، على اعتبار انها تعبر عن الدقة والموضوعية والصدق .

والاعلام فى اللغة من مادة « علم » (٢٧) . . والعلم : نقيض الجهل ، علم علما وعلم هو نفسه، ورجل عالم ، وعليم من قوم علماء فيهما جميعا . قال سيبويه : يقول علماء من لا يقول الا عالما . قال ابن جنى : رجل علامة وامراة علامة ، لم تلحق الهاء لتأنيث الموصوف بما هى فيه ، وانما لحقت لإعلام السامع ان هذا الموصوف بما هى فيه قد بلغ الغاية والنهاية ، فجعل تأنيث الصفة امارة لما أريد من تأنيث الغاية والمبالغة ، يدل على ذلك أن الهاء لو كانت فى نحو امراة علامة انما لحقت لان المراة مؤنثة لوجب أن تحذف فى المذكر فيقال رجل فروق .

(٢٥ ، ٢٦) المرجع السابق ص ١٢ .

(٢٧) لسان العرب جـ ٢ ص ٨٧ .

وقوله تعالى : الى يوم الوقت المعلوم الذى لا يعلمه الا الله ، وهو يوم القيامة . وعلمه العلم واعلمه اياه فتعلمه ، وفرق سيبوبه بينهما فقال : علمت كأذنت ، واعلمت كأذنت ، وعلمته الشىء فتعلم . وليس التشديد هنا للتكثير .

ويقال تعلم فى موضوع اعلم . وفى حديث الدجال : تعلموا ان ربكم ليس بأعور بمعنى اعلموا ، وكذلك الحديث الاخر : تعلموا انه ليس يرى احد منكم ربه حتى يموت . كل هذا بمعنى اعلموا ، وقال عمرو بن معد يكرب :

تعلم ان خير الناس طرا قتيل بين احجار الكلاب

قال : واستغنى عن تعلمت بعلمت . قال ابن السكيت : تعلمت ان فلانا خارج بمنزله اى علمت . وتعالمه الجميع اى علموه . وعالمه فعلمه يعلمه ، بالضم ، غلبه بالعلم أي كان أعلم منه . وحكى للحياة : ما كنت رانى ان اعلمته ، قال الازهرى : وكذلك كل ما كان من هذا الباب بالكسر فى يفعل فانه فى باب المغالبة يرجع الى الرفع مثل ضاربته فضربته اضربه .

وعلم بالشىء : شعر : يقال اما علمت بخير قدومه اى ما شعرت . ويقال : استعلم لى خبر فلان واعلمنيه حتى اعلمه ، واستعلمنى الخبر فأعلمته اياه . وعلم الامر وتعلمه : اتقنه ، وقال يعقوب : اذا قيل لك اعلم كذا قلت قد علمت ، واذا قيل لك تعلم لم تقل وقد تعلمت ، وانشد :

تعلم انه لا طير الا على متطير ، وهى الثبور

وعلمت يتعدى الى مفعولين ، ولذلك اجاز علمتنى كما قالوا ظننتنى ورايتنى وحسبتنى تقول : علمت عبد الله عاقلا ، ويجوز ان تقول علمت الشىء بمعنى عرفته وخبرته ، وعلم الرجل خبره ، واهب ان يعلمه اى يخبره . وفي التنزيل : واخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم .

واحب أن يعلمه اى ان يعلم ما هو . واماقوله عز وجل وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر .

لقد انبثقت هذه النظرية عن مشاكل عملية خالصة فى محاولة للكشف عن اكثر شفرات البرق ايجازا واقتصادا وتكفل فى نفس الوقت اتصالا لاسلكيا صادقا وامينا وتقضى على كل مظاهر التداخل والتشويش فى نظم الاتصال ونقل المعلومات وما الى ذلك .

وبعد ان وضع العالم الامريكى كلود شانون عام ١٩٤٨ اساس نظرية الاحتمالات فى الاعلام بدأ عديد من الباحثين تطبيقها فى مجالات واسعة من العلوم . ونجد من هؤلاء الباحثين علماء فى الاحياء واللغات وفلاسفة وعلماء وراثة ومشتغلين بالفنون وعلماء رياضيات وعلماء نفس . وتحدد معنى الشفرة بأنها اى نسق من الاشارات يختص لنقل الرسائل . وتأسيسا على هذا التعريف الفضفاض بدأ العلماء ينظرون الى اللغة البشرية والاحماض الامينية حاملات المعلومات الوراثية فى الجسم والفنون باعتبارها شفرات نوعية ويمكن قياسها بالارقام . واعداد هذه الشفرات

وتنظيمها ونقلها هو المقصود بالتحرير فى نظرية الاعلام . فالرسالة هى العنصر الذى يختص علم التحرير الاعلامى بدراسته التى يحتويها اختيارنا لاحداث بعينهامن بين سلسلة كبيرة من الاحداث تقع وفق احتمالات مختلفة . وقد كان السائد قبل ذلك ان الاختيار لا يكون الا من بين احداث متعادلة من حيث احتمالات وقوعها.

ففى عام ١٩٢٨ قدم لاول مرة مهندس امريكى يدعى هارتلى مفهوم القياس الكمى للمعلومات التى يتضمنها اختيارنا لاحداث من بين مجموعة من احداث متساوية الاحتمالات .

مثال ذلك اوجه النرد السته فهى جميعا متساوية الاحتمالات . بيد ان هذا المقياس لا يكون ملائما صالحا الا عندما تتساوى امكانيات وقوع كل الاحداث اى تكون متسوية الاحتمالات ولقد ادرك هارتلى بطبيعة الحال ان احتمال حدوث نتيجة معينة من شأنه ان يؤثر على كمية المعلومات التى تتضمنها الرسالة . واقترح شانون صيغة معادلة تسمى الان باسم معادلة شانون ، يمكن استخدامها لقياس كمية المعلومات عن الاحداث التى تقع بنسب مختلفة من الاحتمالات ، ونص هذه المعادلة هو :

هـ١ = (ح١لو٢ح١ +ح٢لو٢ح٢ + ...+حنلو٢حن) .

حيث تكون هـ١ هى كمية المجهول الذى تمحوه الرسالة ومن ثم تكون قياسا لكمية المعلومات (**ذلك لان المعلومات من شأنها ان تمحو** المجهول) ... وحيث هي عدد النتائج ، ح١ ، ح٢ ، ... ح ن هى احتمالات حدوث النتائج .

ولا بد للمرسل ان يضع رسالته فى شكل معين او صيغة محددة من الرموز او الكلمات ، ومن الطبيعى ان تحتاج هذه الكلمات الى اجهزة نقل ، او وسائل اعلام . كالصحف والاذاعة والتلفزيون وغيرها ــ لكى تنتشر بسرعة عديدة . ويتوقف ذلك بطبيعة الحال على مدى التناغم بين

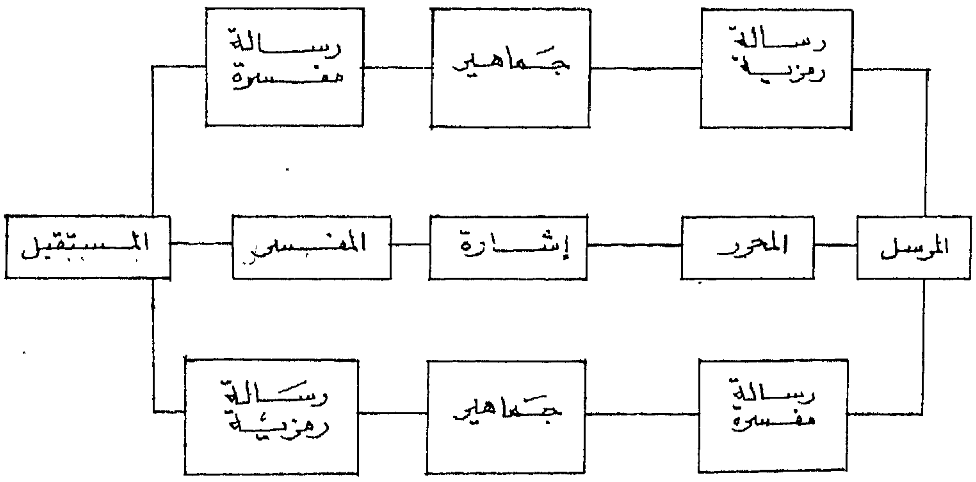

المرسل ، والمستقبل ، فاذا كان المرسل ضعيفافى كتابته او غير واثق من نفسه ، او ليست لديه معلومات كافية عن موضوعه فان ذلك يؤثر علىالاتصال. واذا كانت الرسالةغير محررةبالطريقة الفعالة ، فانها تقف فى سبيل نجاح الاتصال .وعنصر الرسالة فى عملية الاعلام هو العنصر المحورى فى دراستنا للتحرير الاعلامى .

وهو عنصر منفصل كما يبين مما تقدمعن بقية العناصر الاخرى ، ولكنه وثيق الصلة بالمرسل والمستقبلومعرفةالهدفوفعالية وسيلةالاتصال ، وقدرة المستقبل على حل الرموز .

ويمكن تصوير انتقال الرسالة الاعلاميةمن المصدر الىالجماهير ،خلال المرسل ووسيلة الاتصال التى يهيمن عليها المسئول كرئيسالتحرير مثلا ، لكى يتلقاها بعض الجماهير مباشرة ، او يتلقاها بعض القادة وحاملىالمعلومات ، لنقلها الى اصدقائهم او اتباعهم على النحو التالى : (٢٩)

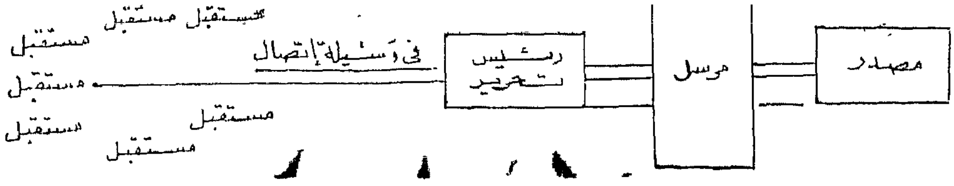

ويدل اسلوب التحرير الاعلامى كما يفهممن المصطلح على المعاونة التى يقدمهاالمحرر لجمهوره مباشرة فى القراءة والاستماع والمشاهدةفى عمليةنقلالمعلومات والاراء والحقائقوالوقائع .

واذا كانت الحياة عملية اتصال ، فانالتحرير ـ كما تقدم ـ هو صلب هذه العملية ، وقد درس (رانكين) مقدار الوقت الذى يصرفهكل فرد فى كل مرحلة من مراحل الاتصال بأن طلب من ٤٧ شخصا ان يدونوا فعالياتهم اللغويةخلال ٤٩ يوما فوجد بأن ٤٧٪ من وقتهميصرف علىالاصغاء و ٥ر٢٨٪ يصرفعلىالكلامو ٣ر١٧٪ يصرف على القراءة و ٢ر٧٪ يصرف على الكتابة . ثم درس الوقت الذى تصرفه المدارس علىعلى كل فعالية فوجد ان ٥٢٪ من الوقت يصرف على القراءة و ٣٠٪ من الوقت يصرف علىالكتابة و ١٠٪ يصرف على الكلام و ٨٪ يصرف على الاصغاء . فدل استنتاجه على ان التأكيدفى المدرسة كان عكسيا من ناحية مهارات الاتصال بالحياة . (٣٠)

(٢٨ ، ٢٩) المرجع السابق ١٣٥ ، ١٣٧ .

(٣٠) Paul T. Rankin, Listening Ability," Chicago School; Journal, vol. 12, PP. 177-179, January 1930.

واذا كنا ندرك ارتباط التحرير الاعلامى بالحياة ، فاننا نجدان التأكيد فيه مواز من ناحية علاقة مهارات الاتصال بالحياة . وقد وجدمن دراسات اخرى مشابهة انه يمكن معاونة المحررين الاعلاميين على محاولة التأكيد على نواحي الاتصال الاكثر حاجة ، فالمحرر الكفء لا يغفل دور اللغة فى نظرية التحرير ، كما لا يهمل اثارة الاهتمام لانه يدرك ان القابلية على جميع المعلومات والمواقف ونقلها امر حيوى لجمهور الوسائل الاعلامية على اختلافها ، وهذا الجمهور يحتاج الى القراءة الدقيقة المتمثلة ، ويحتاج الى المشاركة فى الكلام المسموع المذاع .

وليس فى مقدور المحرر ان يخترع المعجزات عند استخدام الاتصال ، الا ان عليه ان يفهم الاسلوب فهما صحيحا ، وينبغى ان يكون كالمدرس من حيث مساعدته للجمهور على فهمه ايضا ، كما ينبغى ان يؤكد على التعاون فى الاتصال كما هى الحال فى المناقصة كذلك . فمن الواضح اننا نتصل بعضنا بالبعض عن طريق الكلمات ، وقد ذكر جون لوك ، ان الكلمات تثير الشك والغموض ، ومعنى اغلبها غير مؤكد ، بحيث اننا لو شغلنا افكارنا وبقينا نحوم حول اسماء الاشياء فلن يكون غريبا ان تضل الكلمات السبيل . فالجمهور يعرف القليل عن اهمية معاني الكلمات وعن اهمية الارتباك الناشىء عن تفسير كلمات الاخر . فيكون اذن على الاعلامى ان يساعد جمهوره على القدرة القرائية والاستقبالية فى وسائل الاعلام المختلفة .

ويذهب شرام الى اننا عندما نتصل بغيرنا نحاول ان نقيم مشاركة مع من نتصل به ، او بتعبير اخر ، اننا نحصل على المرسل والمستقبل لرسالة معينة . فالمرسل ، على حد تعبير شرام ، يحاول توصيل معلوماته او مشاعره التى يحولها الى كلمات مسموعة او مكتوبة ، وبعد ان ترسل الرسالة يتوقع المرسل انها قد رسمت فى ذهن المتسلم الصورة نفسها التى كانت فى ذهنه(٣٣). وهكذا يدرك المحرر الاعلامى بأن توصيل المعلومات للاخرين يعنى اكثر من نقلها اليهم .

وتأسيسا على هذا الفهم يمكن ان نتبين موقع اللغة فى نظرية التحرير ، التى تتضمن عددا من العناصر ، فى مقدمتها عنصر المصدر الذى قد يكون شخصا او عددا من الاشخاص ووراء هذا التحرير هدف او سبب يدعو اليه ، ومع فرض وجود مصدر للتحرير مزود بالافكار والاراء وله حاجات واغراض معينه ولديه قدر من المعلومات وغرض يسعى الى تحقيقه ، فان التحرير جزء من عملية الاتصال الام ، التى لا يمكن كما رأينا ان تتم بغير مستقبل Receiver لرسالة المحرر الاعلامى .

ورسالة المحرر الاعلامى هى صلب العملية التحريرية ، التى تعبر عن غرض واهداف المرسل او المصدر ، حيث يترجم آراءه واغراضه ورغباته فى صورة رمزية . وهذه الصورة الرمزية قد

---

(٣١) ولنكتن ولنكتن (ترجمة الدكتور طه الحاج الياس) تربية العقل الناقد ـ بغداد ص ١٦٩ .

(٣٢) Wilbur Schramm, ,,How Communication Works'', ,,The Process and Effects of Mass Communication, University of Illinois Press, Urbanq, III, 1955 P. 3.

(٣٣) Ibid., P. 40.

تكون لغة منطوقة او مكتوبة ، وقد تكون فى صورترقمية او رسوم او موسيقى(٣٤). ولكن كيف يمكن تحويل وترجمة غرض وهدف المصدر الى صورترمزية (لغة مثلا) ؟ ان هذا يتطلب اضافة عنصر ثالث(٣٥) الى عملية التحرير ،ويمكن ان يطلق على هذا العنصر اسم : المحرر ــ الرمز Encoder وهو الذى يعمل على ترجمة افكار وراء واغراض المصدر (المرسل) ووضعها فى صورة رمزية لغوية ، وينتج عن ذلك رسالة تحريرية معينة .

على أن اللغة فى نظرية التحرير لا تنفصل عن القناة Channal أو الوسيلة الاعلامية التى تنقل الرسالة ، وهى عبارة عن وسيط ، لا بد من اختياره بدقة لنقل الرسالة بنجاح وقد تعزونا على الارتباط الوثيق بين التحرير والجمهور ،وضرورة التناغم والمشاركة بينهما ، وهذا الجمهور هو الذى يستقبل رموز التحرير ويعمل على ترجمتها الى آراء وأفكار . فعندما يكتب محرر ما فى صحيفة من الصحف فلا بد من وجود جمهور يقرأ ما يكتبه المحرر . وعندما يتحدث اذاعي في الراديو فلا بد من وجود مستمع له ،وهذا الشخص الموجود عند الطرف الاخر من العملية التحريرية يمكن أن نستعير له من علم الاتصال (٣٦) اصطلاح «المستقبل» وهو الهدف من عملية التحرير .

وعلى هذا الفهم ، فان التحرير الاعلامى يمثل صلب العملية الاعلامية الاتصالية ، والرسالة الاعلامية هي جوهر التحرير الاعلامي الذى يمكن أن نميز فيه جانبين : العناصر التي تتكون منها الرسالة ، ثم يأتى بعد ذلك البناء أو التركيب الخاص بوضع هذه العناصر سويا لتنتج لنا رسالة معينة مطلوب توصيلها الى جمهور وسائل الاعلام .

ولكل رسالة محتوى Content ويختلف اسلوب تحرير المحتوى من وسيلة اعلامية الى وسيلة أخرى . وهذا مانشاهده فى معالجة الصحافة والاذاعة مثلا لموضوع معين بطريقة تستمد من خصائص كل وسيلة ، كما سيجىء ، كما تستخدم كل رسالة اسلوبا رمزيا معينا يناسب القراء أو المستمعين أو المشاهدين والمهم ان تكون الرسالة ــ على حد قول الدكتور على احمد على ــ مناسبة للافراد المستقبلين لها من ناحية قدراتهم العقلية ومستواهم الثقافي والاجتماعي والاقتصادى حتى تترك هذه الرسالة فيهم الاثر المطلوب .

وعلى المحرر الاعلامي وهو يتفحص اسلوب التحرير أن يدرك واجبه الاول وهو مساعدة جمهوره على فهم الكلمات كوسائل لنقل الرسائل التى تتضمن المعلومات والمواقف ، بمعنى انه يستخدم اللغة فى مستواها العملى المرتبط بالجمهور ، كما عليه ان يدرك ان الآراء التى لايعبر عنها لا تنظم التفكير ، اذ أن المحرر الذى لايستطيع التعبير عن الافكار والحقائق لاينجح فى الاتصال الاعلامي ، ولذلك على المحرر أن يدرك العلاقة الوثقى بين المعرفة والكلام .

(٣٤ ، ٣٥) دكتور على احمد على : اسس العلوم السلوكية والنفسية ص ١١١ .

(٣٦) نفس المرجع ص ٢١٣ .

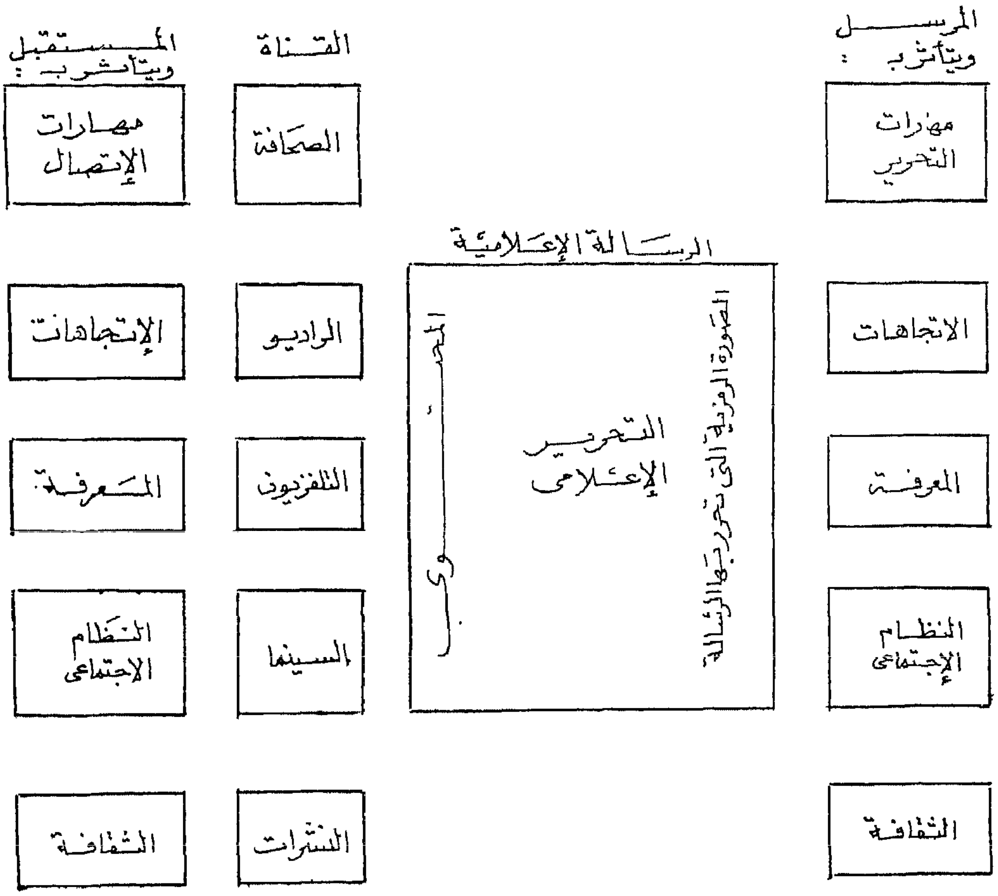
المرسل
ويتأثر ب :
مهارات التحرير
الاتجاهات
المعرفة
النظام الإجتماعى
الثقافة
الرسالة الإعلامية
التحرير الإعلامى
المحتوى
الصورة الرمزية التى تحرر بها الرسالة
القناة
الصحافة
الراديو
التلفزيون
السينما
النشرات
المستقبل
ويتأثر ب :
مهارات الإتصال
الإتجاهات
المعرفة
النظام الاجتماعى
الثقافة

كتب مارفن بارلون يشرح اسلوبه فى تدريس الكتابة فى موضوع الاقتصاد قائلا : « ان اللغة هى المادة التى يتكون منها الموضوع ، اذ أن الفكرة واللغة واحدة . ففى حصول الطالب على المهارة فى كتابة مايعنيه نجد انه يتعلم مايعنيه . يضاف الى ذلك ان الطالب الذى يجد نفسه احيانا عاجزا عن التعبير كتابة يتعلم بأنه لايعنى شيئا ، ولذا نراه يفضل ترك الصحيفة دون كتابة . (٣٧)

وقد اظهرت بعض الدراسات بأنه كلما أكثر المحرر الناشىء من الكتابة ازداد قدرة على التعبير . وقد استنتج (كولفرس) بعد اجراء دراسات عدة حول تدريس القواعد بأن التعبير يتم اذا ماجعلت القواعد عملية ، اى اذا ماهيأ المدرس فرصا عديدة للكتابة والكلام ثم قام بتصحيح الاخطاء فى الكلام والكتابة ، لان ذلك سيعطى معنى للمفاهيم اللغوية التى تدرس (٣٨) ، وهو الامر الذى يجب أن يعنى به معلمو فن التحرير الاعلامى بالجامعات .

العلامات والرموز :

ان افضل الطرق الوقوف على مكان اللغة فى نظرية التحرير ، هى طريقة الاسلوب السلوكى ، على نحو مافعل الاستاذ ليونارد بلومفيلد .

حيث نظر الى اللغة على انها سلسلة من المثيرات والاستجابات ، فالمثير الخارجي (د) يستدعي رد فعل لغويا R ، يتمثل فى نطق المتكلم بمجموعة معينة من الاصوات وحينئذ تصل الموجات الصوتية الى السامع وتعمل فيه كمثير لغوى (د) ، وهذا المثير اللغوى يؤدى بدوره الى رد فعل خارجي عملى (R) من قبل السامع . ويمكن تمثيل هذا الموقف بالشكل الاتى . (٣٩)

مثير اصلى ــ رد فعل لغوى . . . مثير لغوى ــ رد فعل عملي ونلاحظ هنا أن تبادل لغويا ــ أى الكلام الفعلى والاستجابة له ــ قد وضع وضعا مناسبا بين المثير الاصلى والاستجابة النهائية . ومعنى هذا أن الخطوة النهائية انما يقوم شخص آخر غير الذى استقبل المثير الاول أو الاصلى . وبعبارة اخرى ــ كما يقول بولمان (٤٠) ــ سوف يصبح تقسيم العمل بين المتخاطبين أمرا مضمونا ومؤكدا .

ويحلل « اولمان » (٤١) هذا الموقف اللغوى البسيط ، ويزودنا بمزيد من المعلومات التى لها صلة بالتبادل اللغوى فى عملية التحرير . اذ يتضح لنا أن هناك ثلاثة عناصر يتضمنها اى حدث لغوى . هذه العناصر هي المتكلم والسامع والرسالة المرغوب توصيلها . **فالحدث اللغوى بالنسبة للمتكلم** هو تعبير أو وسيلة لتوصيل أفكاره أو شعوره ورغباته ومعلوماته وهو بالنسبة للسامع مثير

---

(٣٧) Maruin J. Barloon" How to Teach Students to write clearly in courses other than English", AAUP Bulletin, vol. 39, PP. 286-292.

(٣٨) Walter V. Kaulfer " Four Studies in Teaching grammer from the Socio-psychological Viewpoint" Stanford Univ, Press, 1945.

(٣٩ ، ٤٠ ، ٤١) ستيفن اولمان (ترجمة الدكتور كمال بشر) دور الكلمة فى اللغة ص ١٠ .

يدفعه الى القيام بعمل ما أو الى اختيار ضرب معين من السلوك . اما فيما يتعلق بالرسالة نفسها فالحدث اللغوى أو الكلام يعمل من اعمال نقل الافكار وتوصيلها . ويمكننا هنا أن نستعمل عبارة العالم النمساوى بوهلر وهى : أن الكلام دليل على الحالة العقلية للمتكلم ورمز للرسالة وتنبيه للسامع .

وعن طريق هذا التحليل يظهر لنا « اولمان » بوضوح الوظائف الاساسية للكلام الانساني. فكما أن هناك ثلاثة مصطلحات وثلاثة جوانب ، كذلك توجد ثلاث وظائف وهى أن الكلام معبر وموصل ومؤثر . ويتوقف الامر على ما اذا كان الموضوع ينظر اليه من زاوية المتكلم أو الرسالة أو السامع.

ومهما يكن من امر ، فقد بقيت نقطة مهمة فى هذا الموقف اللغوى لم تفسر بعد ، وهي الصلة بين العلامات والرموز ، حيث انه من المعروف أن هناك علامات ورموزا كثيرة غير لغوية ، ومن المعروف كذلك ان كلمات اللغة انما تحتل مكانا واحدا فقط فى الاطار العام للعمليات الرمزية (٤٢) ويعرف أولمان العلاقة بأنها ذلك الجزء من الخبرة الذى فى استطاعته أن يستدعي بقية الخبرة . ويعرف أوجدن وريتشاردز بأنها « تلك العلامات التى يستعملها الناس فيما بينهم للايصال والتوصيل » وهذه الرموز ـ كما يقسمها أولمان من وجهات نظر متعددة قد تجذب اليها الحواس المختلفة . ومن الطبيعي أن يكون السمع والرؤية ـ أعظمها منزلة ، اذ أن اعضاءها أكثر الاعضاء رقيا . وقد وجد من وجهة نظر اخرى . أن الرموز اما طبيعية أو تقليدية عرفية . فالرموز الطبيعية لها نوع من الصلة الذاتية بالشيء الذى ترمز اليه . فالهلال يعد رمزا طبيعيا للاسلام ، ولكن هذا ليس راجعا الى أى مغزى تشبيهى ، أو هو لم يكن فى الاصل كذلك . ومن جهة اخرى فان الكلمة منطوقة أو مكتوبة، والصفارة كأداة لضبط الوقت أو للانذار، واستعمال اللون الاسود علامة على الحزن وهز الرأس دليلا على الرفض وعدم الموافقة ـ هذه كلها ما هى الاوسائل ورموز تقليدية عرفية بحيث تصبح غير مفهومة خارج البيئة التى وجدت فيها. (٤٣)

وتؤدى الكلمات وظائفها بنفس الطريقة التى تتبعها الرموز والعلامات الاخرى ، غير أن خاصيتها المميزة هي أنها تستخدم اصواتا واضحة المعالم لاداء هذه الوظائف . ويكون العنصران ـ الاصوات والمدلول ـ كلا أو وحدة ترابطية متكاملة بالتدريج . فاذا ماتكون هذا الترابط وثبت أصبحت الكلمة بوصفها جزءا من الخبرة الكلية ـ ذات قدرة على ان تقوم مقام هذا المدلول . وكذلك العكس ، فان فكرة المدلول تستدعى الكلمة الدالة عليها بالطريقة نفسها .

التحرير عن طريق الوسائل :

واذا كنا قد حاولنا تعريف التحرير الاعلامى عن طريق الاتصال بالجماهير ، فان المحاولة الاخرى قد تتمم هذه المحاولة ، ذلك ان وسائل الاعلام هي الوجه الآخر للاتصال بالجماهير ، وعلى ذلك يغدو التحرير الاعلامي ذا وجهين ، الوجه الاول هو ما فرغنا من محاولة دراسته ، والوجه الآخر هو محاولة التعرف على ماهيته عن طريق وسائل الاعلام وما نسميه هنا ـ الاجناس الاعلامية ـ ذلك

(٤٢ ، ٤٣) أولمان : المرجع السابق ص ١٦ ، ١٩ .

ان الوظائف الاعلامية هى التى خلقت الوسائل ، فلم تتغير هذه الوظائف على مدى القرون فيما بين الثقافة والحضارة العصرية ، وانما على حد تعبير « شرام » برزت مستحدثات وهياكل لتكبير هذه الوظائف ومد نطاقها نميت الكتابة حتى يحتفظ المجتمع برصيده من المعرفة فلا يضيع فى اعتماده على الاتصالات الشخصية أو على ذاكرة الشيوخ. ونما فن الطباعة حتى تضاعف الآلة مايكتب الانسان أرخص وأسرع مما يستطيع الانسان نفسه أن يفعل . حول هذه الآلة نهضت كل مؤسسات الطباعة والنشر والمدراس العامة . والدور الذى قامت به الكتابة والطباعة فى سبيل البحث عن الحقيقة ، وهما كما هى الحال فى اللغة ، على نحوما يذهب اليه « فندريس » الى ذلك خليط من اختراعات عديدة قد حوكيت وتنوفلت وطبعت بالطابع الاجتماعى ، فالكتابة قد خلقت أشياء متكلمة والطباعة أكثرت من عددها الى غير ما حدوخلدتها . وهكذا أمكن للفكر أن ينتصر على المكان والزمان والموت ، ولكن كثيرا ما ينتهى التفكير المجرد الى سراب والى الابتعاد عن الجادة . فالفكر فى هذه الحال يجول فى « علم غير مخلوق يرجع الى عهد الانسان البدائى » عالم الافكار الذى هو أيضا عالم الالفاظ .

وكما استطاعت الالة فى الثورة الصناعية أن تضاعف القوة البشرية مع انواع الطاقات الاخرى ، كذلك تستطيع وسائل الاعلام الالية فى ثورة الاتصال أن تضاعف الرسائل الانسانية الى درجة لم يسمع عنها من قبل . يقول « شرام » : فى أول الامر جاءت آلة التصوير والكاميرا ، وأجهزة العرض ، ثم جاء طبع الصور ثم استوديوهات السينما والتوزيع ودور العرض كذلك اخترعت الالات التى تجعل الانسان يسمع ويسمع على بعد مسافات هائلة وحول ذلك قامت شبكات التليفون الكبرى والتسجيل الصوتى والراديو . ولما انضمت آلات الاستماع الى الات المشاهدة وجد الاساس للافلام الصوتية والتليفزيون : فاكتشف المجتمع فيما بين أيام القبيلة وعهد الحضارة العصرية كيف يشارك فى الاعلام وكيف يخزنه متخطيا بذلك المكان والزمان ليصون التاريخ من الضياع وليزيد كم المجتمع الفعال من العشرات الى الملايين .

وقد ينظر الى وسائل الاعلام على انها مظاهر تمثل ثورة ، بيد أنها تمثل ثورة فى فنون التحرير الاعلامى الذى يقوم على نشر الافكار والمعلومات والوسائل التى يسرت هذه الثورة قديمة تمتد جذورها الى قرون عابرة ، ولكن تقدمها خلال القرنين التاسع عشر والعشرين كان سريعا سرعة فجائية بفضل التغيرات الاجتماعية ، ومن ثم كان هذا التقدم – على حد تعبير « بارنو » (٤٤) واسع الخطى كسلسلة من الانفجارات الصاروخية فيها تكمن ثورة التحرير الاعلامى التى هى جزء من ثورة وسائل الاتصال بالجماهير الامر الذى يجعل التحرير عن طريق وسائل الاعلام يشمل :

– الانتاج الكمى / الكلمات والظلال والاصوات .

– التوزيع الجغرافى الواسع : وبدونه لايكون للانتاج الكمى أي معنى .

---

(٤٤) اريك بارنو (ترجمة صلاح عز الدين وآخرين) : الاتصال بالجماهير ص ٢٥ وما بعدها .

ـ التوزيع بالقطاعى : عن طريق محطات التليفزيون ، ومحطات الاذاعة ، والصحف والمسارح ، وغيرها من وسائل الاتصال بالجماهير .

من هذا نرى أن التحرير الاعلامى يحذو حذو الانتاج الصناعى من ناحية يشير اليها « بارنو » تتلخص في أن الكلمة المطبوعة كان القارىء يسعى اليها ، ويقرأها بنهم ، ـ ويقتنيها ويعتز بها . أما اليوم فلا بد للكلمة أن تبحث عن الجمهور . فلا يكفى فى عصرنا أن ينتج التحرير انتاجا بالجملة للكلمات والظلال والاصوات ، مهما تكن جميلة وصادقة بل لا بد كذلك أن نوصلها الى المستهلك وأن نجعله يلتفت اليها لا بد أن تحملها وسائل الاعلام اليه أينما يكن ، وأن تلاحقه وأن تلازمه ، وقد تكون الجماهير التى تصل اليها على هذا النحو ضخمة ، وقد لا تكون . وقد تضم عشرات الملايين ، أو الملايين ، أو مئات الالاف ، أو عشرات الالاف ، أو الالاف ، أو المئات . وما من وسيلة من وسائل الاعلام الا شقت لنفسها قنوات للوصول الى مثل تلك الجماهير ، يكون « التحرير » هو صلبها ومنطلقها ، فى تسيير دورة الاتصال ، التى تشمل : التوقع ، والانفعال والانتباه ، والاعلام ، والفكرة ، والفعل . (٤٥)

وفى كافة مراحل الدورة يلعب التحرير الاعلامى دوره ، فاذا قام عنوان الصحيفة والمقدمة والصورة بوظائفها ، اقبل القارىء على مطالعة الحقائق التالية لأنه يريدها ويحتاج اليها . واذا ادت المشاهد الافتتاحية فى فيلم تسجيلى وظيفتها ، تمكن الجمهور من تحصيل المعلومات التالية لانه يريدها ويحتاج اليها . ويلعب التحرير دورا فى كافة وسائل الاعلام بمراحلها كلها . غير أن المحرر لا يجرؤ على اعطاء المعلومات الهامة الا فى اللحظة التى يريد فيها الجمهور هذه المعلومات ويحتاج اليها .

وتعريف التحرير الاعلامى عن طريق الوسائل اذن ـ يعنى وفقا لنظرية الاجناس ـ الاعلامية التى نطرحها فى هذا الكتاب ـ ان «التحرير هو الوسيلة» بحيث لا تغدو «الرسالة» هى المضمون فحسب ، وانما تغدو « الرسالة » فى التحرير الاعلامى هى « فن تطبيق الكلام المناسب للموضوع والحالة والجنس الاعلامى على حاجة القارىء أو السامع أو المشاهد » فالتحرير فى كل وسيلة من وسائل الاعلام يتميز بطبيعة جنسها الاعلامى ، ينحو نحو اختيار لغته وأسلوبه وبلاغته . فطبيعة الجنس الاعلامى هي التى تحدد طريقة وضع الفكر فى رموز تتفق وخصائص الوسيلة الاعلامية ، التى ترتبط بدورها بقدرات المتلقى وقدرات المصدر فى آن واحد ، ولذلك فان التحرير للجنس الصحفى يختلف عنه فى الجنس الاذاعى المسموع مثلا ، وليس ثمة تعارض بين الاجناس الاعلامية فالجنس الاذاعى المسموع لم يقض على الجنس الصحفى وقد أثبتت دراسات عديدة أن الاستماع الى الراديو لا يتنافى بالضرورة مع قراءة المادة المطبوعة ، وان كان يتكامل معها .

---

(٤٥) الرجع السابق ص ١٣٨ .

فالتحرير عن طريق وسيلة الاعلام ، يعنىأن نظريـة التحرير العامـة تتفرع الى فـروع تطبيقية ، فى كل جنس اعلامى على حده، وتشير الابحاث الاعلامية الى أن القدرة الاقناعية تختلف باختلاف الاجناس الاعلامية ، كما تشير الى أن لكل جنس امكاناته وخصائصه ومميزاته فيذكر الباحث الامريكى « ستوفر » مثلا ، ان المطبوع يصل الى جمهور يرتفع مستواه التعليمى عـن مستوى جمهـور الجنس الاذاعـى المسموع .بشكل عام وان كان الواقع يشير الى أن الجماهير تقسم الوقت بين الاجناس الاعلامية ، للحصـول على الاعلام والترفيه والتثقيف والتوصية وفقـا لامكانات كل جنس اعلامى ورغبات كل مستقبل. وعلى ذلك تبين اهمية التحرير التطبيقى فى كـل جنس على حده ، فالجنس الاعلامى المرئى فـى التليفزيون والسينما يتميز عن الجنسين الصحفى والاذاعى المسموع ، لان التحرير فيه يتوسل الى العين والاذن معا ، الامر الذى يزيد من قدرته فـى التعليم والاقناع . أو بعبارة أخـرى فان التحرير فى كل جنس اعلامى يتوسل بخصائص الوسيلة ليقدم رسالة تتميز بالحيوية والواقعية، فالتحرير الصحفي مثـلا ، يسـمح للقارىء بالسيطرة على ظروف التعرض الاعلامى، وقراءة الرسالة أكثر من مرة ، فضلا عن أن لديه فرصة تطوير الموضوع فى مساحة أكبر وفقا لاهميته ،وتشير التجارب الى أن المواد المعقدة من الافضل تقديمها مطبوعة عـن تقديمها شفهيـة ، ولو أن نفس المزية تسرى على المواد البسيطة السهلة . (٤٦) ومن الافضل استخدام التحرير الصحفى فى مخاطبة الجماهير المتخصصة والجماهير صغيرة الحجم ، لانه يقتضى من القارىء جهدا أكبر من ذلك الذى يقتضيه التحرير فى الاجناس الاعلامية الاخرى .

فالقارىء لا يحس بأنه شخصيا جزء من عملية التحرير الاعلامى ، كما يشعر مستمع الراديـو او المشاهد للسينما ، لانه لا يشعر بأن الحديث موجه اليه شخصيا ، ولكنه فى نفس الوقت جزء من العملية او مشترك فيها لانـه مضطر الـى المساهمة الخلاقة فى نوع من انواع الاتصال غير الشخصى — ويفترض بعض الباحثين أن مثـل هذه المساهمة الخلاقة لها مزايا اقناعية . (٤٧)

وتأسيسا على هـذا الفهم يمكن القول أن تعريف التحرير الاعلامى عن طريق الوسيلة يعنى أن التحرير للاجناس الاعلاميه لا يستقل عـن تكنولوجية وسائل الاعلام ذاتها ، فالكيفية التى يتم التحرير بها فى كل جنس على حده ، تؤثـر وتتأثر بمضمون تلـك الوسائل وهـذه الوسائل التى هـى امتـدادا لحواسـنا — كما يقـول « مالكوهان » هى أجناس اعلاميه لكل جنس منها فنه الاعلامى فى التحرير . ويقتضينا ذلـك أن نعرف طبيعة كل جنس حتى نتمكن من السيطرة عليه واستخدامه الاستخدام الامثل فى تطبيقات البلاغة الجديدة .

---

(٤٦) Marry Boldstein, ,,Reading and Listening comprehension at various controll.d Rates'' (N. Y. 1940).

د . جيهان رشتى : الاسس العلمية لنظريات الاعلام ص ٣٤٢وما بعدها .

(٤٧) د . جيهان رشتى : نفس المرجع ص ٣٤٢ .

طبيعة التحرير الاعلامى وخصائصه :

التحرير الاعلامى طريقة فى التفكير والتعبير ، فعملية التحرير هى التى تشمل مجالات التفكير من جهة وطرق التعبير عن هذه الافكار من جهة أخرى ، وهو على ذلك رؤية خاصة متميزة للحياة . فالاعلامى كما يقول الدكتور أمام (٤٨) ــ ينظر دائما الى جمهوره ويقرر اذا ما كان قادرا على فهم ما يقول أو غير قادر على ذلك ، وهو لذلك يضفى على عمله الفنى أبعادا ماكان ليضفيها عليه ، لولا هذه النظرية العملية للجمهور . ان فن التحرير الاعلامى هو جعل الاحداث والمعلومات والثقافة بل والفلسفة والعلم فى متناول الجميع ، بطريقة واضحة مشوقة درامية .

وكلمة التحرير كما تبين مما تقدم فى معناها الاعلامى تختلف عن المعنى اللغوى الذى يجانس بينها وبين « الكتابة » فكتابة الخبر هى افراغه فى القالب الكتابى ، ونقله من باب الفكرة الى باب التدوين على الورق وفقا لاساليب الصياغة الاعلاميه . أما تحرير الخبر مثلا ، فيعنى مراجعته ، مع احتمال اعادة كتابته ووضع العناوين الملائمة له ، واعداده للنشر أو الاذاعة فى المكان الملائم له من الصحيفة أو نشرة الاخبار .

ومع ذلك ، فان عملية التحرير الاعلامى تشمل الكتابة كعنصر من عناصرها وجزئية من جزئيات الكل التحريرى ، لابراز معطيات الشكل والمضمون فى الكيان التحريرى : كرؤيا واتصال ، وهذه العملية التحريرية يتداخل فيها التفسير والتحليل والتقويم . وهذه العوامل الثلاثة هى السبيل الذى يسلكه المحرر الاعلامى فى طريقه الى الاستكشاف وتكوين الرؤية ، التى تغدو بدورها أهم أسباب نجاح العملية الاتصالية الام ، التى يعتبر التحرير جزءا لا يتجزأ منها . فالتحليل مثلا يجعل الدارس للتحرير يستكشف موضوعه ليسبر أغوار المضمون الذى ينشد توصيله to communicate وليشيد العناصر التى تحتوى هذا المضمون فى نسق اتصالى اعلامى ثم ينتقل الدارس الى مرحلة الكتابة ليتمرن على صياغة أفكاره ، كخطوة أساسية للانتقال الى مرحلة التحرير الاعلامى .

والعلاقة بين التحرير والكتابة هى علاقة الكل بالجزء كما تقدم ، وهى تشبه من قريب ، علاقة التفكير بالكلمات ، فان الاعلام لا يتم بدون تحرير الرسالة الاعلامية المقصود نقلها وتلقيها كما أن التفكير لا يتم من غير استخدام للرموز ، فالتحرير كعملية تشمل التفكير والتعبير ، يعنى بصياغة الافكار من خلال الرموز ، سواء كانت الرسالة الاعلامية مسموعة أو مطبوعة ، فانها تنقل الافكار والمعلومات والحقائق من خلال الرموز ليتلقاها الاخرون بالاذن أو بالعين ، أو بهما معا .

---

(٤٨) دراسات فى الفن الصحفى ص ٢٧ .

ويأخذ توصيل الاخبار بصورة مادية معنى أبعد من الظاهر ، على ضوء العلم المادى ، فالعلم المادى يقرر أن كل ما يجرى فى الطبيعة ، انما يجرى وفق النواميس المقررة ، وهذا التقرير يدفع تاريخ الكتابة الى أعماق الازل ، حيث كانت أعمال الانسان مسجلة قبل وقوعها ومقررة فى اللوح المحفوظ . جرى بها قضاء الله ، وهى فى مكنون علمه من قبل أن يولد الانسان ، أو توجد الحياة الانسانية من أساسها . (٤٩)

وصلة التحرير باللغة هى صلة اللغة بالحياة ولكن « الكثير ممن لا يستطيعون قبول هذا يذهبون خطوة أبعد الى الاعتراف بأن الكثير من المسائل الظاهرة فى طبيعة التفكير ليس فى الحقيقة أكثر من مسائل لغوية . ويوافقون على أن المنطق وما وراء الطبيعة ، بل حتى الرياضيات كلها فى جوهرها بيئة اجتماعية ذات طبيعة لغوية فى أساسها . وان دراسة اللغة لظاهرة غالبة فى كثير من حقول الفكر فى يومنا هذا التى لم تكن من قبل تكاد تحس أن اللغة كانت ذات خطر بالنسبة لها .

وهكذا يتضح الان شيئا فشيئا اننا اذا أردنا أن نفهم الفكر والنتاج الفكرى فالواجب ان ندرس اللغة ، واذا أردنا أن ندرس اللغة فعلينا أن ندرس عملها فى المجتمع » . (٥٠)

ويمكننا اليوم أن نتحدث عن التحرير الاعلامى فى وسائل الاتصال بالجماهير ، وهو اصطلاح اكثر دقة من اصطلاح التحرير الصحفى التقليدى عندما نشير الى التحرير فى وسائل الاعلام الاخرى غير الصحف والمجلات . وكل نوع من أنواع التحرير – التعبيرى أو الاقناعى أو الاعلامى – يستخدم وسيلة ما ، أي انه يلتزم باستعمال قناة للارسال . وفى الاعلام – كما يذهب الى ذلك ريفرز وزميلاه – تصبح المؤسسة بأكملها حاملة للرسالة التى يدور حولها فن التحرير الاعلامى – كالصحيفة ، أو المجلة ، أو محطة الاذاعة – وهى تستطيع حمل رسائلها الى الالاف أو الملايين من الناس فى وقت واحد تقريبا . وهى تتعرض أيضا للمشكلات التى تجابهها بوصفها مؤسسة اجتماعية ، كالمراقبة ، والقيود الحكومية ، والدعم الاقتصادى وغيرها .

فاصطلاح التحرير الاعلامى اذن يشمل التحرير فى جميع وسائل الاعلام التى تنقل الخبر والتعليق الى الجمهور ، وكل ما يجرى فى العالم ، مما يهم الجمهور ، وكل فكر وعمل ورأي تثيره تلك الماجريات يكون المادة الاساسية للتحرير الاعلامى ، وكما أشار ملتون فى ندائه العظيم من أجل الحرية للنشر ، يستحيل علينا ان نعين أي رأي هو الذى سيقرر للجمهور ما هو الجيد والجدير بالقراءة ، وليس غير مناصرة الجمهور قياسا مأمونا يمكن قبوله .

---

(٤٩) احمد حسين : « الطاقة الانسانية ص ١٥٣ – ١٩٥٤ » .

(٥٠) م . م لويس (ترجمة الدكتور تمام حسان) : اللغة فى المجتمع ص ١٩٤ – ١٩٥ .

وليست حرية القول وحرية الاعلام غايتين فى حد ذاتهما ، فهما كما يقول « بوند » فى كتابه عن الصحافة ـ انما تمكنان الناس من التعبير بحرية عن افكارهم حول الاحداث بحيث يمكن اتخاذ أفضل قرار مستطاع من بين جميع ألوان الاراء الواردة وهى ليست مجرد « تحرر » بل هى « تسويغ » أيضا . والمرء قد يسبب شرا لابما يفعله فحسب ، بل بما قد لا يفعله أيضا . وكما قال اندرو هاملتون عام ١٧٣٥ ، فى محاكمة الطابع والناشر بيتر رنجر « ... انى أستأذن فى أن أرسى هنا قاعدة ، مؤداها أن طمس البيئة ينبغى أن يؤخذ كأقوى بينة » .

وهذه الحرية الاعلامية انما يقصد من ورائها أن يقوم الاعلام بأداء دوره الحقيقى . وبالقياس الى التحرير الاعلامى ، نجد أن المجتمع الذى يزداد نموه وتتنوع تخصصاته وتتعدد مشكلاته ، لا يلبث أن يجد فن التحرير الاعلامى ضرورة حتمية ، تبعد كل البعد عن الخبرة الفردية المباشرة . ذلك أن هذا المجتمع المتحضر كما يقول الدكتور امام (٥١) لا يلبث أن تظهر فيه علوم وفنون وتخصصات بالغة التجريد والتعقيد فيصبح التحرير الاعلامى حلا لصياغة المعرفة بطريقة عملية واقعية . وهنا يكون الاعلامى وسيطا اجتماعيا بين الخبير المتخصص من ناحية ورجل الشارع أو الرجل العادى من ناحية أخرى . وفي هذا الصدد يقول الكاتب الامريكي والتر لبمان . (٥٢) .

« ان المجتمع الحديث لا يقع فى مجال الرؤية المباشرة لاحد ، كما أنه غير مفهوم على الدوام ، واذا فهمه فريق من الناس ، فان فريقا آخر لا يفهمه » .

وهكذا يأتى التحرير الاعلامى للشرح والتفسير والتكامل . فالتحرير الاعلامى ، اذن هو فن حضارى ، يرتبط بالتقدم العلمى ويتطلب انتشار التعليم ، لكى يجعل المجالات البعيدة والمعقدة فى متناول الجمهور ، والاعلامى الناجح فى المجتمع الحديث ـ هو ـ كما يقول الدكتور امام (٥٣) أيضا ـ الذى يتقن مهارة الاتصال من خلال نشر الاخبار والتعليق عليها وتفسيرها ، وتبسيط المعلومات وتجسيدها ، وتقديم صور العالم وأحداثه بشكل واضح ومجسد ودرامى ، وفى اشكال خالية من التجريد أو الاكاديمية أو التعقيد .

ومثال ذلك البحوث الاكاديمية أو العلمية الجادة ، بمصطلحات العلم المجردة ، وأساليب التعبير الاكاديمية ، وطرق الاستدلال المنطقية ، لا تعتبر من التحرير الاعلامى فى شىء ، حتى لو نشرت فى صحيفة سيارة ذات توزيع مرتفع ، ولكن عندما يأتى الفنان الصحفى ، ويأخذ هذا

(٥١ ، ٥٢) دكتور ابراهيم امام : دراسات فى الفن الصحفى ص ٧ ،
Walter Lippmann Public Opinion (1922) PP. 29-81.

(٥٣) نفس المرجع السابق .

البحث الاكاديمى المجرد ، ليعالجه علاجا جديدابالتبسيط ــ والتجسيد والتصوير ، والتشبيه الواقعى الحى ، مستعينا بفنون الاخراج الصحفىمن عناوين وصور ورسوم وكاريكاتور ، واهم من ذلك كله لغة واقعية خالية من التعقيدات المجردةفيصح القول بأن هذه هى بداية التحرير الاعلامى (٥٤) .

وهكذا يمكن اعتبار التحرير الاعلامى رؤيةجديدة للعالم ، تنطبق مع رؤية الشخص العادى بمعنى أن الفنـان الاعلامى يترجـم المصطلحاتالجامدة المجردة المعقدة الى مصطلحات الواقـع العملى النابض بالحياة . وهنا نجد أن التحريرالاعلامى فن ابتكارى بمعنى الكلمـة . فالسـؤال الذى يطرحه المحرر الاعلامى دائما هو :

كيف يمكن أن تصل هـذه المعلومات الـىالجمهور بطريقة مفهومةمستساغة ؟ ومـن أهم الخصائص المميزة في وسائل الاعلام ، ان جماهيرالمستقبلين يختارون من بين تلك الوسـائل ، فهم يقررونما اذا كانوا سوف يشـاهدون التليفزيون،أو يقرأون كتابا أو صحيفة . وهم يختارون مـا يشاءون من المضمون المتاح لهم ، فقد يشاهدونبرنامجا تليفزيونيا اخباريا ، أو أنهم قد يحولون مفتاح الجهاز الى قناة أخرى حيث يعرض برنامجترفيهى ، كـما أنهـم يختارون الاوقات التـى يستخدمون فيها وسائل الاعلام (٥٥) .

وثانية هـذه الخصائص فىوسائل الاعلامعمـل جماعى وليس عمـلا فرديـا يصدر عـن منظمـة هـى الصحيفة أو محطـة الاذاعـة أوالتليفزيـون الـخ ، فالصحيفـة مثـلا تحـل الرموز الواردة اليها عن الاخبار والتقارير وتحديدصورتها ، ثم تعيد صياغتها وتحدد مكانها فىأعمدة الصحيفة بعـد تحريرهـا ، ثم تتولى طباعتهـاوتوزيعها . وتلك العملية يقوم بها الفرد فى الاتصال الشخصى بمفرده ، على حين تقـوم جماعاتالعاملين فى الصحيفة بكل ذلك . (٥٦)

وثالثة هذه الخصائص أن التحرير فى وسائل الاعـلام يشتق طابعه مـن طابـع الوسيلـة وخصائصها ومميزاتها فى ارسال آلاف الرسائلفى وقت واحد ، لجمهور ينعدم التفاعل المباشر أو رجع الصدى بينه وبين وسيلة الاعلام ، كما انالتحرير الاعلامي يحكمه قانون الاختيار فى تحقيق المنفعة للجمهور ، بأقل جهد يبذل ، والقانون الذىوضعه « فرانك موت » يبين أن الاختيار يتوقف على العلاقة بين الفائدة التى ينتظرها المستقبل منجهة ، والجهد الذى يبذله من جهة اخـرى ، ومعادلته هى (٥٧) .

---

(٥٤) دكتور ابراهيم امام : نفس المرجع ص ١١ .

(٥٥) ويفرز وزميلاه : نفس المرجع ص ٣١ .

(٥٦ ، ٥٧) د . زيدان عبد الباقى : اساليب ووسائلالاتصال ص ٢١٨ ،
Quoted by O'Kara, R. C. Media for the Millions (N. Y. 1961)

الاختيار = المنفعــة او الاستمتاع المتوقع مــن الرسالــة / بذل اقل جهد ممكــن للحصول على الرسالــة

والمستقبل من وجهة النظر هذه يفضل الرسالة المشتقة من طابع الوسيلة والمكتسبة لميزاتها والمرسل الجيد هو الذى يستغل مكانات الوسيلة فى تحقيق القانون ، وذلك بهدف تحقيق وظيفة الاعلام الاساسية مــن حيث تزويد الجماهــير بالاخبار والمعلومات الصحيحة الدقيقة ، التــى تيسر لهم فرصة تكوين رأى عام يعبر موضوعيا عن عقلية الجماهير واتجاهاتها .

ورابعة هذه الخصائص أن الامر يحتاج فعلا الى عدد من وسائل الاعلام اقل مما كان مستخدما من قبل ، وذلك لان الوسائل تستطيع الوصول الى جماهير ضخمة ومنتشرة انتشارا عريضا . فلكي نحرر رسالة اعلامية لنبعث بها عبر البلاد العربية كلها عن طريق الصوت البشرى وحده ، يحتاج الامر الى اعداد هائلة وهائله من المتحدثين . ولكن شبكة اذاعية واحدة تستطيع أن تصل الى الملايين من الناس فى نفس الوقت . (٥٨)

وخامسة هذه الخصائص أن وسائل الاعلام فى سعيها لاجتذاب أكبر عدد ممكن من الجمهور ــ تتوجه الى نقطة متوسطة افتراضية يتجمع حولها اكبر عدد من الناس . ونادرا ماتكون هذه النقطة هى أدنى المستويات ، غير انها ترتفع تماما الى المستوى المتوسط فى كثير من أجهزة الاعلام .

وهنا يغدو التحرير الاعلامى طريقة **تفكير** ورؤية خاصة متميزة للحياة . فالاعلامى ينظر دائما الى جمهوره ، ويقرر اذا ماكان قادرا على فهم مايقول أو غير قادر على ذلك وقد درج رؤساء تحرير الاخبار على توجيــه المندوبين الناشئين بالكتابة الى ذلك « الشخص الذى يحرك شفتيه عندما يقرأ » ، وهو الشخص الذى يمثل أدنى مستوى بين قراء الصحف واذا كان هذا الشخص يستطيع فهم الاخبار الصحفية ، فان القراء الاكثر تعليما يستطيعون ذلك ايضا (٥٩) والاعلامي لذلك يضفى على عمله الفنى ابعادا ماكان ليضفيها عليه لولا ، هذه النظرية العملية للجمهور . ان فن التحرير الاعلامي هو جعل الاحداث والمعلومات والثقافة بل والفلسفة والعلم فى متناول الجميع ، بطريقة واضحة مشوقة ودرامية . (٦٠)

ولما كانت وسائل الاعلام تخاطب قارئا ، أو مستمعا ، أو مشاهدا افتراضيا ، فانها تفقد روح الالفة التى تسود عند الاتصال بشخص واحد من الاشخاص . فالتقرير الذى تنشره صحيفة عن حدث ما يفتقد كثيرا من الالفة التى يتميز بها خطاب يرسله صديق الى صديقه عن هذا الحدث .

---

(٥٨) وسائل الاعلام والمجتمع الحديث ص ٣٣ .

(٥٩) دكتور ابراهيم امام : المرجع السابق ص ٢٧.

(٦٠) ديفرز : المرجع السابق ص ٣٣ .

ولذلك يسعى التحرير الاعلامى ، بدوريةوسائلة وعموميتها وشمولها واستمرارها ، الى اضفاء اهتمام انسانى على احداث العالم بطريقةتثير الجمهور ، وتشحذ قواه ، وتملك مشاعره . على اساس من الافتراضات اليومية الوتيرية ،وتأكيد الوجه الدرامى ، والاهتمام الانساني عن طريق احداث العالم اليومية . (٦١)

وسادسة خصائص التحرير الاعلامي ، انه يتم فى الاعلام بواسطة مؤسسة اجتماعيةتستجيب الى البيئة التي تعمل فيها . وهناك ــ كما نعلم ــ تفاعل بين وسائل الاعلام والمجتمع . ولاتؤثر وسائل الاعلام فى النظام السياسي والاقتصادىوالاجتماعي الذى تعمل فيه فحسب ، وانما تتأثر ايضا بذلك النظام . ومن ثم فعلينا ــ كمايقول ريفرز وزميلاه ــ أن نفهم المجتمع لكى نفهم وسائل الاعلام التى تعمل فيه صحيحا . ولكىنفهم المجتمع لابد من دراسة تركيبه وافكاره الكبرى ومعتقداته الرئيسية . وكل ذلك معناهان معرفة التاريخ والاجتماع والاقتصاد والفلسفة ضرورة لكى نفهم التحرير الاعلامي فهما حقيقيا .

ويذهب « بلسكت » وزميله (٦٢) الى تشبيههذا الفن بالكلمات المتقاطعة من حيث اثارته للمعرفة ودلالات الكتابة والصياغة والتقويم والتنقيح والاعداد للطبع والتجميع والترتيب والتنظيم والملائمة، والايجار ، والتأليف، والتصور العام ، والانتقاء والاعداد للنشر وطواعية القراءة والاستماع .

وعلى الرغم من الالية الذاتية (Automation) توفر للصحف ادارة الاجهزة بالوسائل الميكانيكية والالكترونية التى تحل محل حواس الملاحظة عند الانسان وتوفر عليه العناء والجهد ، وفى ذلك مايمكن من اصدار الصحيفة على نحوافضل من مصادر معدة من قبل ، فان تلك الوسيلة تتطلب انتقاء افضل ، وماكمات عقليةوتمييزا قاطعا من القائمين على التحرير . فالالية الذاتية تزودنا فوريا باسترجاع خلفية المادة التىتفسرها وهي بذلك تكون قد اسهمت أكبر اسهام فى تزويد مكاتب التحرير Desks بالمعاني المنشودةلتحقيق الوضوح والتكامل فى التقارير الاعلامية الى انها تجعل فن التحرير فنا راسخا متماسكا ،متوقد الذهن ، سريعا ، وتمكن المحرر والمراجع من تحرير النص على شاشة مرئية . ومن هذهالعملية يتضح أن العنصر البشرى فى التحرير جزء لايتجزأ من العملية التحريرية The editing Process ، بل انه يشكل صلبها ومنطلقها.(٦٣)

---

(٦١) دكتور ابراهيم امام : المرجع السابق ص ٢٧ .

(٦٢) Playd K. Basketts and Tack Z. Sisoors. The Art of Edition P. 2.

(٦٣) ريمون روية (ترجمة عادل العوا) السبرنيكواصل الاعلام ص ١٢ .

وتفسير ذلك سوبرناطيقيا،انك عندما تبعث برسالة فانت الذى الفتها وحررتها قبل ايداعها الالة . وان الحس السليم يعتبر انك اصل الاعلام، **وأن الالــة قناة نقل وقــد يجرؤ هــذا الحس** السليم علــى أن يضيف ، بدون ارتياب ، اذاماتركنا له وقتا كافيا للتفكير بأن « الانا » هي المبدع المطلق للاعلام . فهو يعرف حق المعرفة أن الرسالة ليست ابداعا صرفا ، حتى ولو لم يستعن المنشيء ب « دليل » فى الانشاء التجارى ولابكتاب متبادل من كتب التبصير فى الســلوك الجيد فى الحياة . ولكن الحس السليم يعرف أن موضوعات موحية قد اسهمت فى انشاء الرسالة بحسب طراز خاص . فالـ « انا » ليست بالاصل المطلق، ولكنها فى الوقت ذاته ليست مجرد عضو نقل . ونحن ندرك بجلاء أن امر اعداد اكثر الرسائل تواضعا ليس لمجرد افساح المجال امام العقل ليعمل بل انه اقحام « غذاء » ما فى مجال ما ، « غذاء » نقدمه للالة ولا يمكننا أن نستمده من اى جزء من أجزاء مجال آخر .

وليس هناك من الناحية النظرية ، مايحول دون بلوغ مردود كامل مائة بالمائة ، لان استخدام الاعلام ، من جهة اولى ، بقراءة الرسالة ، لايشوهها ، أو انه لايشوهها الاتشويها متناهي الصغر ، ولأن من الممكن ، من جهة اخرى ، أن نقلص بمايشبه حركة الخط المقارب ، كل ضجيج القاع وكل الطفيليات المشوشة الطارئة على الاعلام أو أن ينزلها جميعا عندما تتعرض عناصر الرسالة لخطر الانحدار الى مادون عتبة أمن معينة . وهــذا المردود الجيد ، بل هذا المردود الكامل من الناحية النظرية ، هو الذى يتيح نشر اعلام معطى الى مالايحده حد . ان فى وسعنا أن نضاعف ، بصورة غير محدودة تقريبا ، نســخ جريدة أو صــورة شمسية . وفى وسعنا ايضا توسيع بنية اعلامية . ولكن عادة نسخ بنية أو توسيعها لايعنى زيادة الاعلام ذاته . ولئن خلصت آلات الاعلام مــن الرضوخ لمبدأ « كارنو » ولسقف المردود الذى يحدده ، فانها لاتخلص من مبدأ حفظ الاعــلام فليس فى قدرتها أن تخلق بالمجان اعلاما ، كما أن الالات البسيطة تعجز عن خلق عمل بالمجان .

وعلى ذلك فان المناهج الجديدة لــم تغير الشكل والمضمون تغييرا جوهريا ، كما يشير الى ذلك احد كتاب « النيويورك تايمز » حين يقول أن هذه المناهج قد تبدل ـ الحبر الاحمر بحبر اسود على صفحات الجريدة المتوازية ، وهي حين تعاون الناشرين على الاســتعمال الافضــل لخصائص « السلعة » فانها فى المقابل لايمكن ان تلغى العقول البشرية ، أو بتعبير ادق لايمكن أن تجب الجهــد البشرى للمحررين الاكفاء . (٦٤)

---

(٦٤) Nathaniel M. Gerstenzang. ,,The News paper's Biggest Personnel Problem'' Columbia Jouralism Review, 4 : 40 (Winter 1966).

ذلك أن القدرات التحريرية لهؤلاء لايمكن أن تستبدل بالحاسبات الالكترونية ، (٦٥) ومن هذه القدرات مثلا : القدرة على تحرير النص ، أولا ، ثم القدرة على تأليف العناوين بعد ذلك . ولاتقل الثانية عن الاولى فى درجة الاهمية، ان لم تزد عليها، ذلك ان فن التحرير الاعلامـي يتطلب بالضرورة الاعتماد على عنصر « التقويم » غير الملموس ، وعلى رصيد مـن الثقافة كبير ، واسـتخدام الذاكرة الانسانية memory ويتميز بالمبادأة وتحويل النص المراد تحريره الى نص ممتع ، يثير الخيال وحب الاستطلاع ، وفن التحرير يقتضى مـن المحررين القدرة على التصرف والاختيار والتمييز والتعبير الساخر والنزوع الى التأكد من الحقائق، ومايرتبط بهذه القدرات من صفات تميز هـذا الفن الاعلامي .

وتأسيسا على هذا الفهم ، فان المحرر الجالس فى مكاتب التحرير بوسائل الاعلام Deskman يعتبر رجل الاتصال الاول Prime Communicator (٦٦) ذلك لانه ينوب عن القارىء مؤقتا ، وهو من اجل ذلك يلتزم بما يفرضه الضمير ، من جهاد ونضال مع المادة التحريرية ليخلق منها قصة واضحة المعالم ، ذات مغزى ومعنى، ومبنية على اساس منهجى ، وفى اسلوب مباشر أمين ، واضح ، دقيق . فتقويم الاخبار يرمي اساسا الى تيسير الفهم بالنسبة للقارىء ، حتى يدرك مغزاها وآثارها . ثم أن المحـرر يحاول جهده ملاطفـة الجمهور عن طريق العنوان المنشود . وهنا نجد تقاربا واضحا بين المحرر editor والكاتب الابداعي Creative writer من حيث أن كليهما يتحدث الى الجمهور بصورة صحيحة ، ويطارحه الافكار والعواطف ، فى الفة وايناس .

ويقتضى ذلك أن نراعى فى عملية التحرير معالجة مايسميه خبراء نظرية الاعلام «بالتشويش» او الاضطرابات التي تعترى قناة الاتصال والتى من شأنها ان تغير من الرسالة بعد أن ــ تنطلق من المرسل . وهناك تماثل للتشويش فى الاتصال الخبرى News communication فالتشويش يتدخل غالبا فى الاتصال الاخبارى ، لان القراءة او الاستماع يجريان عندما يكون المستقبل منشغلا بعمل آخر ، كأن يكون على مائدة الطعام أو فى سيارة أو مالى ذلك . فالقارىء أو المستمع ايضا أقل التزاما عند قراءة الصحيفة أو الاستماع الى الاذاعة مما هو عند قراءة كتاب . ومرجع ذلك الى ان الوقت المتاح لقراءة الاخبار والاستماع اليها محكوم عليـه غالبا بنمط الحيـاة الخاص بالمستقبل . فالاتصال الاعلامي يجب ان يأخذ مكانه بين الوان النشاط الاخـرى التى تتطلب التزاما جادا أو التى تقدم عائدا ذا قيمة . وعلى ذلك فان قراءة الاخبار تحدث اثناء الافطار أو فى القطار او قبل وقت التسويق او مشاهدة برامج التسلية فى التليفزيون .

(٦٥ و ٦٦) Floyd K. Op. cit. P. 2.

ولكى يقدم المحرر الاعلامى تعويضا عن التشويش الذى يتوقع حدوثه فى قناة الاتصال أو وسيلة الاعلام عليه أن يختار الرموز ويرتبها على النحو الذى يجعل فهمها ميسورا .

والتكرار فى نظرية الاعلام هو ذلك الجزء من الرسالة الذى يبدو غير ضرورى ، ولقد أوضح علماء الاعلام بطريقة رياضية أن التكرار يزيد من احتمال أن يصبح التحرير الاعلامي مفهوما ، واذا حدث ان فقدت أجزاء من الرسالة بسبب التشويش مثلا فان الرسالة يمكن أن تكون مفهومة على الرغم من ذلك ، فى حالة ما استخدم التكرار فى تحريرها استخداما فنيا فان رموز التكرار تزودنا بدلالات سياقية كافية بحيث تعوض المستقبل عن الاجزاء المفقودة .

ويمارس التكرار على نطاق عالمي تقريبا فى مخاطبة الجماهير ، ولكن بعض المحررين الاعلاميين يتخوفون على نحو مبالغ فيه من التكرار . الا ان المحرر الاعلامي يستطيع أن يستخدم التكرار أن يكون مملا بدرجة مزعجة . فهناك فارق حقيقي بين تكرار الكلمات باسلوب رتيب وبين التكرار الذى يهدف الى زيادة فعالية الاتصال . ومن هنا كانت مشكلة المحرر الاعلامي هي كيف ييسر الفهم السريع دون أن يجعل القارىء أو المستمع أو المشاهد يشعر كما لو كان يستمع الى موسيقى القرب التي لا يعمل فيها الا مزمار واحد يعطي نغما رتيبا !

وكما يقول فاولر Foweler (٦٧) أن التجنب السيىء للتكرار يفسد ١٢ جملة مقابل كل جملة تفسد بسبب التكرار السيىء ، أو بعبارة اخرى فان التكرار السىء يفسد جملة واحدة ، ولكن تجنب التكرار يؤدى الى افساد ١٢ جملة . ان الاقلال من احتمال الملل هو ما اسماه « هربرت سبنسر » منذ مائة عام : « الاقتصاد فى انتباه القارىء » عندما كتب يقول فى كتابه : « مقال حول فلسفة الاسلوب :

« ان القارىء أو المستمع ليس لديه سوى طاقة محدودة من القوة الذهنية المتاحة فى اية لحظة ، اذا اتخذنا من اللحظة مقياسا ، ومن اجل أن يتعرف على الرموز المعطاة له ويفسرها ، فان ذلك يتطلب جزءا من هذه القدرة الذهنية ، ومن اجل التنسيق والجمع بين الصور المراد توصيلها اليه فان ذلك يتطلب جزءا اخر من هذه الطاقة الذهنية . اما ذلك الجزء الذى يتبقى بعد ذلك فهو فقط الذى يمكن استخدامه للتحقق من الفكرة المراد نقلها اليه . ومن هنا فكلما زاد الوقت والانتباه اللذان يبذلهما من اجل الحصول على فهم لكل جملة كلما حدث هذا ، قل الوقت والانتباه اللذان يستطيع ان يعطيهما للفكرة المتضمنة فى الرسالة وقل ايضا الوضوح الذى يدرك به تلك الفكرة . . واذا استخدمنا الاستعارة التى تذهب الى ان اللغة هى عربة نقل الفكر فانه يبدو معقولا أن نعتقد بأنه فى جميع الحالات ان الاحتكاك والقصور الذاتى لهذه العربة وباختصار

(٦٧) Dictionary of Modern English Usage.

ـ فانه فى التكوين العام للرسالة نجد أن الشيءالرئيسى ان لم يكن الشيء الوحيد الذى يجب عمله هو الاقلال من هذا الاحتكاك والقصور الذاتىالى أقل كمية » .

ويعنى التحرير الاعلامي بالتعرف على عمليات : القراءة والاستماع والمشاهدة ، فاذا فحصنا عملية استخدام العين فى القراءة ، مثلا ، فسنجدانها تستوعب الكلمات فى مجموعات ، بمعنى أن العين تتحرك من اليمين الى اليسار مع التركيزعلى نقاط معينة فى السطر ، وحين نتخذ وحدة زمنية، فانها تتضمن عدة كلمات وفى حالة القارىءالبطىء قد تتضمن جزءا فقط من كلمة واحدة طويلة . ومن وقت لاخر تحدث ارتدادات، فالعينتعود الى الوراء اكى تعيد قراءة جزء من سطر أو بضع كلمات طويلة ، وتظهر البحوث العلميةارتدادات اكثر من ـ جانب القارىء البطىء عنه عند القارىء السريع ، ومهما كانت سرعة قراءةالمرء فان عينية تركزان على كلمات ومجموعات من الكلمات ، حيث يختزن فى ذاكرته المعانىللمؤقته الى أن يصل الى نهاية الجملة ، وهذه عملية نشطة يفكر القارىء خلالها جنبا الى جنبمع الكاتب يستوعب الصور ويقومها . وهو يستوعب كل كلمة أو مجموعة من الكلمات فى اطارالمضمون الذى قدم اليه فى الكلمات أو الجمل ومن اجل ذلك يعنى التحرير الاعلامي كذلك بالسياق Context ويقصد به تلك الاجزاء من نص محرر للقراءة أو الاستماع التى تسبق أو تلىتعبيرا محددا وترتبط بشكل مباشر ، ويسهل **الاتصال عندما يدرك المحرر كيفية اجراء السياقوبنائه فى رسالته ، وعلى ذلك فقد يستخدم المحرر كلمة غير مألوفة اذا ما عنى بتزويدنابسياق جيد .**

ان مساهمة السياق فى المعاونة على الفهم قد اظهرها بطريقة عملية « ويلسون تيلور » الذى ابتكر مقياسا للقدرة على القراءة Read ability يختبر به قدرة القارىء على التزود بالكلمات المفقودة « التى انشغل عنها » فى اى نص من النصوص التى تسقط منها كلمة بعد كل عدد معين من الكلمات ، ثم يطلب من القارىء انيستنتج هذه الكلمات الضائعة أو المفقودة . والنجاح فى معرفة الكلمات المفقودة فى نص معينهو مقياس القدرة على قراءة ذلك النص ويرتبط النجاح بطبيعة الحال بالسياق الذى ضمنهالمحرر نصه . كذلك فان « تيلور » قد مضى ابعد من ذلك وأوضح بطريقة عملية الاسهامالهام للسياق فى الفهم عندما قدم موضوعات فيها نصوص عن كتابات « جرتوشتاين » و « جيمسجويس » ، فمثلا يستخدم الاخير كلمات غير موجودة فى القاموس ، ولذلك سجل المبعوثون فهما منخفضا فى كتابات « شتاين » و « جويس » رغم أن نفس النصوص سجلت قدرة عالية علىالقراءة على نحو معقول على أساس مقياس « فليش Flesh » الذى يقاس به متوسط طولالجملة ـ ومتوسط طول الكلمة ، ومن أجل **ذلك فان اختبار «تيلور»يعاون التحرير الاعلامى**فى قياس مدى ارتباط استقبال أو استيعاب المستقبل لرسالة ما وفقا لطريقة المحرر الاعلامىفى تحرير الرسالة . أما السياق غير اللفظى فانه

يمثل أيضا عنصرا من عناصر التوصيل وتكمن أهميته بالنسبة للصحف وخاصة عند عزو الاخبار الى مصادرها (٦٨) كما يحدث عندما تورد صحيفة ما بيانا لشخص من الاشخاص ، فهذا الشخص الذى تنقل عنه البيان أو التصريح هو السباق غير اللفظى للبيان أو التصريح، وبعض القراء يفسرون أى بيان فى ضوء الشخص الصادر عنه (٦٩) .

قد آش Asch بيانا حول الرأسمالية والمساومة الجماعية الى مجموعتين من المبحوثين ابلغت أولاهما بأن البيان صادر عن « أريك جونستون » رئيس الغرفة التجارية للولايات المتحدة ، وأبلغت الاخرى بأن صاحب البيان هو « هارى بردجز » وهو زعيم عمالى راديكالى وحيث أن البيان كان أكثر اتساقا مع الزعيم العمالى كمصدر له فان خمس المبحوثين الذين أبلغوا بأن **«جونستون»** هو مصدر البيان تشككوا فى أن يكون هو الذى أصدره ، الا أن أربعة أخماس المبحوثين فسروا البيان على أنه يمكن أن يكون متسقا مع المصدر ، أى أنهم غيروا محتوى الاتصال لكى يلائم السياق المفترض . وهذه الحقيقة الخاصة بعلم النفس الاجتماعى يجب أن تؤخذ فى الاعتبار من جانب التحرير الاعلامى .

★ ★ ★

---

(٦٨) Chilton R. Bush : Newswriting and Reporting public Affair PP. 87-90.

(٦٩) Asch : Social pscsyology, Newyork 1962 P. 420-426.

شخصيات وآراء

نظرية الخيال عند جاستون باشلار

محمد على الكردى

رئيس قسم اللغة الفرنسية بكلية الاداب جامعة الاسكندرية

يعد جاستون باشلار (١٨٨٤ — ١٩٦٢) من كبار أساتذة فلسفة العلوم المعاصرين فى فرنسا ، وكانت له ، فى الوقت نفسه ، اهتمامات كبيرة بالشعر والشعراء جعلته يكرس لموضوع الخيال والصور الشعرية عددا لا بأس به من الكتب القيمة ، وهي التي نقوم بدراستها فى هذا البحث .

يقوم الخيال عند جاستون باشلار على مبدأين أساسيين هما مبدأ **المادة** ومبدأ**الارادة**، ويتيح **أولهما** ، — وهو المبدأ الذى يجعل من الانسان كائنا عميق الجذور ، راسخ القيم — للكاتب أن يقيم نظريته عن الخيال المادى باقصاء القوالبالصورية التقليدية التى أضفى عليها طول الاستعمال والتكرار طابعا آليا صرفا . أما **ثانيهما** ، وهو دفعة نفس مرهفة، رقيقة وشفافة ، فيمكنه من صياغة الجانب الاخر من النظرية ، وهو ما يسمى بخيال الحركة أو الخيال « الدينامى » . وعلى هذا النحو ، يستطيع الكاتب ، بخياله المزدوج ، ان يحلق بين الارض والسماء كما يحلو له ، وان ينسج ما يود من الصور الفريدة المبتكرة ، وان يحول — بفضل « كيمياء » لا حاجة فيها الى حجر فلسفى — ابسط الاشياء الى عالم مدهش رائع .

تقوم اذن هذه النظرية علىمدخلين مختلفين ومتكاملين معا ، نظرا لارتباطهما وتداخلهما بطريقة جدلية تسهل الانتقال من مستوى الى آخر ، الا انهما يتطلبان منذ البداية تمييزا دقيقا بين حلم النائم وحلم اليقظة ، وبين عمل الناقد الادبى ، الذى يعنينا هنا ، وعمل المحلل النفسى الذى لا يرى فى النصوص الا جانبها « الاكلينيكى » . ونلاحظ، منذ البداية أن باشلار يفضل حلم اليقظة على حلم النائم **والمنهج الظاهرى** القائم Le méthode phénoménologique على دراسة الظاهرة فى علاقتها التكوينية الحية بالوعى أو الشعور المدرك على منهج التحليل النفسى الصرف ، فالحلم الذى يعنى به المحلل النفسى ليس الا

الوجه المجهد الكالح والقناع العابس الثقيل الذى تحمله الرغبة بعد افلاتها من ظلمات اللاشعور . وهو ، من جهة اخرى ، لا يستطيع بعد أن عذبه الكبت الطويل وأضناه الوصول الى وهم الخلاص ، الا أن يقدم لنا جروحا لم تندب بعد ، وأحاسيس مؤلمة ضاغطة لا تصلح الا مادة للكوابيس . الا انه هناك ، مع ذلك ، تحليل نفسى وتحليل نفسي، وباشلار لا يرفض كل تحليل نفسى . ويجدر بنا أن نشير ، فى هذا الصدد ، الى عنوان أول كتاب ألفه الكاتب عن الخيال وهو : **« التحليل النفسي للنار »** (١)

ان التحليل النفسى الذى يرفضه باشلار فى مجال الشعر والخيال هو تحليل فرويد ، حيث يرتبط الكبت بضرورة عضوية مؤلمة وشاقة ، والتحليل الذى يكلف به ويقبل عليه هو ذلك التحليل الذى يقوم على مفهوم ما قبل **الشعور** (le préconscient) وليس على اللاشعور ذاته ، وهو يحدد لهذا المفهوم منطقة وسطى بين الشعور واللاشعور وهذا عين الطريقة الظاهرية التي لا تؤمن بالدوافع الحتمية . ويقول باشلار فى هذا الموضوع : **« على وجه الدقة ، ان احدى مميزات تحليل المعرفة الموضوعية الذى نقترحه يبدو لنا أنه تبين منطقة أقل غورا من تلك التى تدور فيها الغرائز والدفعات الأولية ، ونظرا لأن هذه المنطقة متوسطة الموقع ، فهى ذات تأثير بالغ على الفكر الواضح والفكر العلمى . »** (٢)

وكما أشرنا الى ذلك يمكن رد هذا النوع من التحليل النفسي وممارساته الى نمط ظاهرى أو وجودى نظرا لاعتقاده على ذات مدركة أو شبه مدركة تمتلك حرية التخيل والقدرة على الخلق والابداع . (٣) الا أن هذه الحرية التي يتمتع بها الخيال ، والتي تعد من أهم خواصه ، لا يمكن لها أن تعمل فى فراغ . لذلك نراها تخضع لمجموعة من الاطر المحركة يستعيرها الكاتب من مذهب يونج فى التحليل النفسى ، هذه الاطر هي **النماذج** (archétypes) **الخيالية الاولية ومركبات او عقد** (complexes) **الثقافة** التى تفترض وجود نوع من اللاشعور الجمعى (٤) . ولقد اكتشف يونج هذا النمط من اللاشعور اثر اكتشافه لوظيفة **التجاوز** (transcendance) التى تتبلور خلال عملية التنوع النفسى الفرد (individuation) وتكوين الشخصية ، الامر الذى يدعو يونج الى القول بأن : **« الاحلام ليست مجرد خيالات وأوهام ، لأنها » ، على الاكثر ، نوع من التمثل الذاتي لتطورات لا واعية ، وهذا التمثل هو الذى**

---

(١) Caston Bachelard, **La psychanalyse du** feu. Paris, Gallimard, 1949

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٦٠

(٣) Vincent Therrien, **Le révolution de Gaston Bachelard en critique littéraire.** Paris, Klincksieck, 1970.

يعتبر مؤلف هذا الكتاب أن التحليل النفسى الذى يقبله باشلار من النوع الوجودى نظرا لاعتماده على مفهوم الحركة أو الايقاع الدينامى الذى يجعل من الصورة الشعرية مجموعة متناسقة من الذبذبات النفسية . انظر ص ــ ٣٠٠

(٤) الترجمة الفرنسية : Carl Gustav Jung, **Dialectique du moi et de** I'inconscient. Paris, Gallimard (Idees), 1964,p.40

بالرغم من ذلك لم يفت فرويد الاشارة الى نوع من اللاشعور القديم فى كتابه عن الحلم وتفسيره . راجع الترجمة الفرنسية : Sigmund Freud, Le reve et son **interprétation.** Paris, Gallimard, (Idees), 1973, p. 114.

يتيح لنفسية الفــرد انضاج وتجاوز الطابــع غير المتسق لبعض العلاقات الشخصية » (٥)

ومن خلال هذا التجاوز الفردى الى الجمعى ومن الشخصي الى ما هو عبر الاشخاص ، يصل اللاشعور الى بعض القوالب العقليــة القديمة ، وذلك عامة بواسطة عدد من الصور البدائية ، ومن ثم يتبين أن هناك طبقتين من اللاشعور : طبقة شخصية تصل الى الوعى وترقى الى الادراك عن طريق مجهود الذات وطبقة جمعية تقدم للاولى رصيدا من الصور الاولية وذخيرة من النماذج الخيالية الكامنة التي لا تعتبر ، فى نظر يونج مجرد تصورات موروثة فحسب ، **بل ابنية ومقولات وراثية تحكم حركة الحياة النفسية ذاتها . (٦)**

ان الظاهرة الخيالية التى يتوصــل اليهــا باشلار تتميز بخطواتها الخاصة وسماتهــا المحددة ، فهى ليست ادراكا ضعيفا ، مغلقا على ذاته لعدمية الاشياء وغيبتها ، كما هــو الحــال فى فلسفــة ســارتر (٧) ومنحــاه فى دراسة الخيال،بل هى ادراك مباشر لجوهر الموجودات . لذلك يقول لنا « مارجولين » : **« ان ترجمة الصورة فى لغة اخرى غير لغــة الشعر يعد فى نظر باشلار خيانة حقيقية ، لأن ذلك معناه اننا نرفض أن نرى الوجود ذاته فى الصورة . » (٨)**

ان الخيال عند باشلار أشبه بعملية دينامية منظمة للنفس البشريــــة وبعنصر تنســـيق للتصورات العقلية لا يمكنهما ، بأية حال مــن الاحوال ، ان يكونا انعكاسا لعملية الادراك أو وظيفة بدائية من وظائف العقل ، كما كان يظن بعض المفكرين أمثال **« لوسيان ليفى ــ برول »** صاحب فكرة العقلية البدائية ، لأن الخيال فى جوهره هو فعل التصور نفســـه بمحوريه الجذريين **التصـــور الاســتعمارى** (métaphorique) **والتصور التجـــاورى** (métonymique) ، وعلى هذا الأســاس تظهر الصورة كنوع من **« التناسق الدينامي »** أو **« التوافق الجدلى »** بين المعنى والرمــز ، وهى تسبق فى الزمان ، بفضل كيانها ذاته ، كل تصور عقلى مركب وكل تفكير انعكاسى . ان هذه الأسبقية ، اللازمة للنفس البشرية ، تحدد الخيال **« كاطار أولى ينطلق منه كــل فكر وما يواكبه من دلالال »** (٩) ، الا اننــا مع ذلك كله لا نعتقد شخصيا ــ فيما يخص اضفاء طابع الوجود على الصورة واعتبارها ادراكا مباشرا ممتلئا لجوهر الموجودات ــ ان هذا التمييز الذى يباعد بين باشــلار وبــين

---

(٥) مصدر يونج السابق ، ص ـ ٣٨ ـ ٣٩

(٦) نفس المصدر ، ص : ٤٤ ـ ٤٥

(٧) Jean-Paul **Sartre,** L'imaginaire. Paris, Gallimard, 1940, p.24.

يقول سارتر : « ان اى ضمير مدرك يطرح موضوعه بطريقته، فالادراك مثلا . perception يطرح الشيء كموجود ، والصورة ايضا تحتوى على عملية يقينية أو فعل اثبات . ان هذا الفعل يتخذ اربعة اشكال فقط ، يمكنه ان يطرح الشيء كغير موجود او غائب ، كموجود فى مكان آخر او ان يحيد نفسه اى لا يطرح موضوعه كموجود . اثنان من هذه الافعال عمليات نفى والرابع نوع من تعليق الاثبات أو تحييده ، أما الثالث ، وهو فعل ايجابى . فيفترض نفيا ضمنيا للوجود الاتى والماثل للشيء . ان افعال الاثبات هذه وتلك ملاحظة رئيسية ـ لا تضاف الى الصورة بعد تكوينها اذ ان فعل الاثبات و المؤسس لعملية الادراك ذاتها . واية نظرية اخرى ، بالاضافة الى مناقضتها لمعطيات التفكير ، سوف توقعنا ، من جديد فى خدعة الكمون » .

(٨) Jean-Claude Margolin, **Bachelard.** Paris, Ed. du Seuil, 1974, p. 57.

(٩) Gilbert Durand, **Les Structures anthropologiques de l'imaginaire.** Paris, Bordas, 1969, p. 27.

سارتر هو ذو قيمة عملية كبيرة . ان رأى باشلار ، فى الحقيقة ، يعمل فقط على تضييق المسافة بين الضمير المتخيل والصورة وعلى استبعاد ربط هذه الاخيرة بغياب الموجودات ، اذ ان المثول الممتلىء للصورة لا يمكنه ، بأية حال من الاحوال ، أن يضفى عليها الوجود مثلما يضفيه الضمير المدرك على موضوعه ، ومهما كان الامر فان كيان الصورة لا يمكن أن يكون الا كيانا نفسيا ، بينما كيان الموجودات الحقيقية يمد جذوره الى الواقع الفعلي والموضوعى . ان ايجابية الصورة اذن عند باشلار ليست دليلا على واقعيتها أو رسوخها فى عالم الفعل فهي فى الحقيقة لا تتعدى : كونها ، فى هذا المقام ، **حكم قيمة أو تأكيد موقف نظرى وخلقى** . وعلى كل حال ، هذا الموقف لا يختلف جذريا ، من حيث النتيجة، مع موقف سارتر ، لأن هذا الاخير لا يقابل بين العدم والوجود مقابلة الدانى بالعالى فهو لا يعرف التقييمات الراسية ، بل وعلى العكس مما قد نظن لاول وهلة فان العدم عند سارتر يلعب دورا ايجابيا كبيرا اذا كنا نفهم الايجابية على أنها فعل الحرية والخلق . ان صاحب كتاب **« الوجود والعدم »** يرى ، فى الحقيقة ، **أن العدم هو اساس الحرية** ، بل الشرط الاساسى لقيامها ، اذ انه نقيض الشيئية المطابقة لذاتها ولا يخضع لقوانين السببية والحتميات الموضوعية ولا يمكن أن يوجد على طريقة الكائن (l'être) الاصم ، العشوائي ، الموجود ها هنا من غير تبرير .

ان الصورة كذلك ، عند باشلار ، بالرغم من انتمائها الى نسق فلسفى وخلقى آخر ، هى نتاج للحرية وتعبير عن دينامية خلاقة وارادة برومثية ، فبفضل الصورة ومن خلالها يبحث باشلار عن انبثاق الدهشة فى ضمير التيقظ وتفتح الذات على روعة الخلق وجمال الوجود . الا أن هذه الصحوة وهذا التفتح لا يتمان الا فى نهاية مجهود ايضاحي جدير ، عبر التقائه بالصورة الشعرية ، بايصالنا الى منبع الخلق فى ضمير الشاعر ويردنا الى مصدر الوجود وبالتالي الى مصدر ادراكه . يقول باشلار : **« متطلبات الفينومنولوجيا (الظاهرة) بالنسبة للصور الشعرية غاية فى البساطة : اذ ان المقصود هو ابراز فضيلة من خلالها ، والتقاط جوهر التجديد بها ، والافادة ، على هذا النحو ، من القدرة الانتاجية العالية للطاقة النفسية . »**(١٠)

ان البحث عن المصدر ، الذى يقود الانسان الى النماذج القديمة والاطر النفسية ـ الخيالية الاولية التي يشير اليها يونج ، والاندهاش امام الابتكار فى التصوير والابداع فى الخلق لا يمكنهما ان يتما خارج **« فرحة الكلام »** هى تفجير للكلمة الجديدة وابراز لجوهر اللغة المكنون ، الامر الذى لا يتفق وتعريف فرويد للصورة على أنها تعبير مقنع أو غير مباشر للرغبات المكبوتة . يقول باشلار: **« ان الصورة الشعرية تضىء الضمير لدرجة انه من العبث ان نبحث لها عن جذور غائرة فى اعماق اللاشعور ، او على الاقل تقوم الفينومنولوجيا على التقاط الصورة الشعرية فى مستوى كيانها ذاته من حيث ينفصم عن الكيان السابق ، وعلى اعتبارها كسبا تعبيريا ايجابيا للكلام . ونحن لو استمعنا الى المحلل النفسى لبلغ بنا الحال الى تعريف الشعر بأنه لبس كلامى كبير . »** (١١)

يجدر بنا اذن أن ندرك الصورة الشعرية فى ذاتها وفى نقاء جوهرها ، فهى لا نتاج للماضى ولا انعكاس للاشياء ، وعلينا أيضا أن نلتقطها فى بساطتها الاولية بصفتها قوة انبثاق عظيمة تتيح للناقد ، بعد أن تحول الى قارىء ساذج . أن يحيا من جديد عملية

---

(١٠) Gaston Bachelard, **La poetique de la reverie.** Paris, P.U.F., 1965, p. 2.
(١١) نفس المصدر ، ص ـ ٣

الخلق الشعرى فى مصدره وأن ينفتح على الوجود بحيث يصير ضمير التفتح ذاته . وقد يبدو لنا فى عملية الانبثاق او التفتح هذه أن نفوسنا تتمدد لدرجة التشتت وفقدان طاقتها ، الا أن هذا التصور لا يمكن أن يكون صحيحا فى رأى باشلار اذ يقول : ((**كل صحوة للضمير هى تقوية له ، اضافة الى نوره ودعم لتناسق النفس .**)) (١٢) لذلك لا يمكن لحلم اليقظة أن يتحول الى عملية استرخاء لانه ، على النقيض من ذلك ، يسد أو تار النفس،ويلهب الحواس ، ويفجر طاقات الخيال الكامنة ، فهو فى جوهره تدفق لصيرورة وانبثاق لرؤية مستقبلية فكيف به لو ارجعناه الى جدلية الكبت وافراغه التى تميز حلم النائم . يقول الكاتب : ((**حلم اليقظة ظاهرة روحية طبيعية جدا - ومفيدة جدا ايضا للتوازن النفسى - حتى نعالجها كعملية متفرعة عن حلم النائم أو لكي ندخلها، بلا نقاش ، فى سياق ظواهر الاحلام .**)) (١٣)

ان خيال الشاعر - بانفتاحه على العالم وعلى سحره الاخاذ ، لا بد له أن يمجده ، وأن يرتفع به الى مرتبة المثالية وأن يحوله ، بتعبير آخر ، الى كون عظيم هائل : وهو بابعاده النفس عن ذاتها المتقوقعة ، التي أثقلتها الهموم وأضنتها الشجون ، يحررها من الواقع وضغوطه القاسية المؤلمة ليلقى بها فى احضان عالم شفاف ترفرف عليه السعادة وتملأه الراحة والثقة . انه يلغى عنصر الزمان ويردنا الى وحدتنا الاولية ، وحدتنا الطبيعية التي تجعل من الانسان مخلوقا كونيا عظيما ، وهو بما يتضمنه من ميل الى السكينة ونزعة الى الطمأنينة والهدوء يشبه طبيعة الانثى التى يحمل كل منا بعضا منها بين جوانحه ، ويرتبط بما يطلق عليه يونج (١٤) **روح الانثى** (Anima) التى تعبر ، على النقيض من **روح الذكر** (Animus) عن حب حميم يكاد يستوعب الوجود كله وعن رغبة دفينة قوية فى الاتحاد مع الطبيعة والذوبان فيها .

ان الخيال ، حينما يرتبط بحلم اليقظة ويبتعد عن أغوار اللاشعور المعتمة ، يصبح بلا مراء ظاهرة مباشرة تحيا فى مستوى السطح وتتألق أمام الابصار جلية واضحة ، واذا كانت فى الوقت نفسه لا تخلو من عمق ولا تنقصها ابعاد الزمان والمكان ، فذلك لا يخرج عن مستوى اللغة نفسها ، لأنها فى الحقيقة قوة من قوى اللغة وحياة دافقة متفجرة فى كلمات، تلك الكلمات التي لا تكتسب معناها ولا تبين عن اسرارها الا عند النطق بها أو كتابتها . ليس الخال ، بعبارة اخرى ، قناعا لغويا

---

(١٢) نفس المصدر ، ص - ٥

(١٣) نفس المصدر ، ص - ١٠

(١٤) نفس مصدر يونج السابق ، ص ١٣٨ - ١٥٩
روح الانثى ، فى نظر يونج ، استعداد ذاتي عند الانسان وهى جزء من طبيعة الانثى الكامنة فيه والتى تعرف نوعين من الاسقاط : الاول فى صورة الام والثانى اثر عمليةتحويل - فى صورة الحبيبة . الا أن باشلار يعطى لهذه الخاصية قيمة فى ذاتها بينما لا يعتبرها يونج ايجابية الا فى حالة واحدة وهى حالة تحقيق التوازن بين الشعور واللاشعور خلال عملية تكوين الشخصية . وتذكرنا هذه الثنائية المقابلة فى فلسفة التاوية (le Taoisme) حيث يتوازن العنصر المذكر (le Yin) مع العنصر المؤنث(le Yang) فى قلب الوجود الكلى . راجع ، ص ١٢٠ :
Roger Garaudy, **Dialogue des Civilisations.** Paris, Denoel, 1977, p. 120.

تلبسه الغريزة (١٥) أو يختفي وراءه الكبت لانه قوة وضاءة وقدرة هائلة على التسامي والارتفاع بالذات ، كذلك هو كشف لازدواجية الانسان الاول صاحب الطبيعتين : طبيعة الذكر وطبيعة الانثى، وهل أسطورة الرجل ـ الانثى (Androgyne) الا تعبيرا عن أمل الوحدة بين الطبيعتين ورغبة فى تحقيق التكامل والتجانس التام بينهما ؟ ان طبيعة الانثى تعبر عن حالة الراحة والسكينة الاولى التي كدرتها طبيعة الرجل بما ادخلته على الحياة من روح التنافس والتناحر والصراع، اذ أن روح الرجل فى مضمونها تعبر عن الايقاع المتقطع وعن المجهود الممزق المؤلم الذى بثته الضرورة الاجتماعية فى قلب السكينة فوضعت حدا لهذا الحلم العذب الرقيق الذى يملأ الذات زهوا وخيلاء حينما ترد اليها مرآة النرجسية صورتها فى أجمل ثوب واحلى رونق . الا أنه اذا كان من طبيعة الامور ان تتميز الطبيعتان وان تتنافرا ، فمن الطبيعي أيضا أن تتكاملا لأنهما لا تفترقان، ففى الجدلية التى تربط بينهما وتباعد بينهما تسقط كل منهما رغبائها واحكامها التقييمية على الاخرى خالقتين بذلك حركة انفلات من الواقع وتناقضاته هى لب النزعة الى السمو وجوهر لدفعه الى المثالية . وما هذه الحركة فى صميمها الا وظيفة من وظائف « اللاواقع » اذ يقول باشلار : **« تجد وظيفة اللاواقع استعمالها الاصيل فى عملية ارتقاء متسق الى المثالية والى السمو بالحياة ، وهي عملية تدخل الدفء على الفؤاد وتضفى طابعا حقيقيا على الحياة ... » (١٦)** بالاضافة الى ذلك ، ليس من شك فى أن عملية الاسقاط المتبادل بين الطبيعتين تربطنا على الدوام برؤية مستقبلية للوجود وتنقلنا الى عالم متجدد أبدا وتتميز دوما عن واقعنا الكئيب الرتيب ، بل وتدخل التغيير على النفوس الىدرجة تتبدل فيها الطبائع وتتحول الحقائق الى آمال والآمال الى حقائق ، ومن ثهم ظهرت شخصية **القرين** فى الادب الرومانسى (le Double) وهى ظاهرةتتجلى فى ابداع صورها **عند الفريد دوموسيه وجيرار دى نرفال** كما توجد لها جذور عند **شكسبير وهاين** .

ان حلم اليقظة ، حينما يغمر نفوسنا ويملأها بومضاته ، انما يرجع بنا فى الحقيقة الى جذور الوجود وينبوع الحياة الاول فيكشف لنا بذلك عن نواة كامنة للطفولة فى أعماقنا لا تتأثر بكر الزمان ولا بضربات الخطوب لأنها تعيش خارج الزمن والتاريخ اللذين نألفهما ـ ولا تحيا الا فى لحظات نادرة سامية هى لحظات الالهام الشاعرى وانبثاقه فى ضمير الشاعر أو الفنان الاصيل ، هذا الحلم الجميل يربط الحالمين بالكون ويفجر فى نفوسهم انطلاقة هي خلاصة الحياة المتدفقة وجوهر الرغبة الجامحة الى التمدد والتضوع الى مالا نهاية، وحينما يرتكز حلم الطفولة على **دفعة الزمان**

(١٥) Paul Ricoeur, **De l'Interpretation. Essai sur Freud.** Paris, Ed. du Seuil, 1965, pp. 13 44

يرى المؤلف أن كل منهج فى التفسير ينطلق من مبدا اساسى وهو ان للكلام معنيين ظاهر وباطن وان اللغة ـ بالتالى ـ ذات وظيفتين : وظيفة تعبيرية ووظيفة رمزية . وللرمز هنا مستويان فهو دلالة وأثر : دلالة لشيء اخر او لما هو كامن وخفى ، وأثر او نتاج لشيء آخر ـ كذلك ـ او هو كامن او خفى ، ومن ثم ظهرت مدرستان كبيرتان فى التفسير : الاولى تقول بتجميع المعنى واعادة بنائه على اساس ظهوره مشتتا فى البداية ، وتتمثل فى مناهج الفينومنولوجيا الدينية وفى طريقة الكاتب نفسه ، والثانية هى مدرسة الشك او سوء الظن وتضم من الاقطاب ماركس ونيتشه وفرويد الذين يقومون فى البداية بتحليل (تجزئه) المعنى المتجمع (فى شكل ايديولوجيا مثلا) ثم رده الى خلفيات كامنة وراءه .

(١٦) باشلار ، المصدر السابق ، ص ٦٣ (ملاحظة رقم ١٠)

الرأسية وعلى لحظة تألقها (١٧) المفاجىء فى الضمير ، يستبعد تلقائيا مفهوم **الاستمرارية الزمنية الموجود عند برجسون** ، لأن السيولة المستمرة للزمن تعود النفس على الرتابة وعلى السير فى اتجاه خطى بينها وبين هذه اللحظات المركزة التى تتفجر فيها فجـاة احـساسيس الدهشة ومشاعر التعجب التي تعد أساس التساؤل الانسانى ومصدر تطلعه الى المعرفة ، الامر الذى يفترض ضمنا حالة من البساطة والسذاجة تذكرنا ببساطة الاطفال وبراءتهم المحببة . واذا كان حلم اليقظة يحقق لنا ، على هذا النحو ، املنا فى الحرية المطلقة ، فهو فى الوقت نفسه يحيى فى نفوسنا الحنين الـى الماضى البعيد الذى تحيط به فى مخيلتنا حالة الاسطورة وسحرها العجيب ، فالماضى الذى نتوق اليه ونرغب فى العودة اليه ليس بالطبع مجموعة الاحداث والتواريخ التى تحفظهـا الذاكرة ، فهذا الماضى الموضوعى لا يخلو مـن آلام ومن لحظات قاسية ومن رضوض نفسية خلقتها عقد **الفطام والخصى وأوديب** . ان الماضى الذى يبعثه حلم الطفولة هو جوهـر الطفولة واصل الاصول والامل الاعظم فى العودة الى الجنة الاولى ، ان حلم الطفولة يدفعنا ، على هذا النحو ، الى أعماق الوجود الابدى حيث تتوقف الصيرورة ويلقى بنا فى قرار الزمان السحيق يفقد الزمن معناه وتتبدد صورة مسيرته المطردة فلا يحتفظ الا بشكله الدائرى ولبه المتجسد فى الفصول الاربعة ، فالفصول حينما تلتحم بالطبيعة تكون الصورة المثلى لاندماج الزمان بالمكـان أو هكـذا علـى الاقل بالنسبة للذكرى الصافية ، البعيدة عن الشوائب (١٨) .

وليس من شك فى أن **هذا الشكل الدائرى للزمان** يذكرنا فى قراره العميق **بالزمان المقدس** لدى الشعوب القديمة وهو الزمان الاسطورى الذى هو الزمان الاول ، زمان الخلق الـذى لا يسبقه زمان لأنه البداية التى تتجدد كل عام فتأخذ بالتالى شكلا دائريا ، لأن العام دورة كاملة ودائرة مغلقة لها بداية ونهاية فى حركة مستمرة وتجدد دائم (١٩) .

كذلك يسمح لنا حلم الطفولة بأن نحسر بوجودنا احساسا مطلقا بعيدا عن زيف العرض ووهم الحادث الطارىء ، احساسا بالهدوء الشامل والسكينة التامة التى هى جوهـر **الوجود المطابق لذاته ، المستقر فى راحة أبدية** . ان هذا الحلم ، بتفتقه خارج حدود الزمـان الواقعى وابعاد التاريخ المعروفة ، ليس الا نموذجا عاليا للسعادة البسيطة الساذجـة . ويعد نموذج حلم الطفولة مصدرا حيا لكثير من الصور المشرقة السعيدة : صور النار والضياء والماء لأنه همزة الوصل التى تربط بينها والعقدة السحرية التي ترتكز عليها . وهو المصدر الاسطورى لاحساس النقـاء والطهارة الذى يلازم مواقفـ الانذهـال

---

(١٧) Gaston Bachelard, **L'intuition de I'instant.** Paris, Gonthire, 1932, p. 104.

يقول باشلر : « يمكننا ان نجد اذا ، فى كل قصيدة صادقة،عناصر زمن متوقف لا يعرف القياس ، زمنا سوف نسميه راسيا لكى نميزه عن الزمن العادى الذى ينساب افقيا معالنهر ومع الريح العابرة : ومن ثم فكرة غريبة لابد ان نعلنها بوضوح : فبينما يعد زمان الصياغة الشعرية افقيا ،يعد زمان الشعر نفسه راسيا ، اذ ان الصياغة لا تنظم الا نغمات متتالية وايقاعات ولا تحكم فى اغلب الاحيان ـ للاسف ـ الا شطحات وجدانية وانفعالات غير متناسقة . وعلى ذلك فان فن الصياغة ، بقبوله نتائج اللحظة الشعرية يسمح لنفسه بالالتقاء مع النثر ، مع الشروح العقلية . قواعد النظم ليست الا وسائل ، مجرد وسائل جد قديمة . ان الغاية الشعرية تبقى العمودية والعمق او العلو ، انها اللحظة الثابتة حيث تنتظم كل المتتاليات لتدل على ان اللحظة الشعرية ذات بعد ميتافيزيقى . » ص ١٠٤

(١٨) Gaston Bachelard, **La poétique de la reverie** ; op. cit., pp. 94-100

(١٩) Mircea Eliade, **Le sacré et le profane.** Paris, Gallimard, (Idees), 1965, p. 66.

والدهشة عند المتخيل الحالم ، انه الحياة الهادئة التي لا تعرف الكدمات ولا الصدمات النفسية ، الحياة التي لا يحدث بها شيء ولا يكدر فيها شيء صفاء الوجود واتحاده البهى بذاته ، اللهم الا مس رفيق من كآبة يذكرنا بهذا لاحساس العميق القاطن فى جوانحنا الا وهو الحنين ، الحنين لا الى طفولة بعينها ، ولكن الى الطفولة على الاطلاق ، الى أصل الوجود . (٢٠)

ان الفرق الجوهرى بين حلم النوم وحلم اليقظة هو **الطابع اللا شخصي** للحلم الاول بينما لا يستطيع الحلم الاخير أن يعيش خارج ذات حالمة أو ضمير متخيل ، كذلك يعد حلم النائم ـ فى قراراته ، نوعا من غروب الحياة وانعدام الوجود : انه هوة الضياع السحيقة وليل الضلالة الدامس ، أليس هذا الحلم ، كما يقول باشلار : **« دليلا على الكائن الضائع او فى سبيل الضياع ، الكائن الهارب منا »** (٢١) ؟ فهو لابتعاده عن كل ركيزة وتنكره لكل الوشائج يصبح مثل هذا النقاب القائم الذى يحجب الضياء ويكدر النظر ، ويرده الانسان الى شبحه أو ظله لا يمكنه أن يشبع نهم دارسى الظاهرية الذى يبحث ، لا عن القوى الضاغطة التي تخنق الانسان وترده الى وظائفه الحيوانية الصرفة ، ولكن عن طاقات التيقظ والصحوة . لذلك كله يفضل هذا الدارس حلم اليقظة طالما تبقى وميض فى ضمير ومثل حالم فى حلمه . وبعد هذا القدر الادنى من الوعى ومن حضور الذات ضروريا لكى لا يتردى الحلم فى ظلام الاحداث والوقائع ولكى يبقى متلألئا فى سماء القيم الذاتية ، بعبارة اخرى ان ما يبحث عنه هذا الدارس هو عملية التقييم الذاتية للصورة الخيالية ، وهى عملية منشطة للنفس ومحفزة لطاقات الوجدان . وعلى هذا النحو يرتبط حلم اليقظة بتضوع الذات وزيادة الاحساس بالراحة فهو ليس استحضارا للاشياء على طريقة الفكر ـ الأمر الذى يفترض مسافة أو بعدا بين الضمير المدرك وموضوعه ، انه قوة الهام مباشرة (٢٢) تغمر الوجدان بنورها الكامل فى لحظة من لحظات السمو النادرة ، لذلك لا يمكن للصورة التي تنبثق به الا أن تكون برقا خاطفا ، تدفقا مفاجئا يوقظ الغافل ويثير الدهشة . ان المتخيل ، حينما تستغرق هذه الومضة الساطعة ذاته ، يحس بأن حياة دافقة تملأ عليه جوارحه وبأنه فى باطن لا ظاهر له . وما معنى أن يذوى الانسان فى دخيلته ؟ معناه أنه يسعى الى توحده ، وليس التوحد بحثا عن العزلة من أجل العزلة وانما هو تجنب لعالم التكلف والرياء وابتعاد

---

(٢٠) باشلار ، نفس المصدر ص ١١١ (ملاحظة رقم ١٨)

(٢١) باشلار ، نفس المصدر ص ١٢٦

(٢٢) صلاح عبد الصبور ، حياتى فى الشعر . دار العودة ، بيروت ١٩٧٧ يشبه هذا الالهام المباشر فى فعله مفهوم الوارد الذى يستعيره الشاعر من كتابات المتصوفين المسلمين . ويقول صلاح عبد الصبور معلقا : « وكلمة الوارد ادق دلالة من كلمة الحدس كما يستعملها فيلسوف كبرجسون فى مقدمته للميتافيزيقا ، فالحدس عند برجسون لا يستطيع ان يعمل مستقلا عن العقل وان كانت له طبيعته المخالفة لطبيعة التفكير العقلى . وعند برجسون ان الحدس لا يستطيع أن ينبثق ما لم يجمع العقل المواد الاولية التى يرتبها فى وحدة او تناسق ، ثم ينبثق الحدس بعد ذلك ليعلن النتيجة ، فالحدس البرجسونى نوع من الفطنة الثاقبة التى تسبقها مقدمات عقلية وتركيبية متعددة ... » ويضيف صلاح عبد الصبور : « والقصيدة كوارد قد تكون حين يرد الى الذهن مطلع القصيدة ، او مقطع من مقاطعها بغير ترتيب فى ألفاظ موسقة ، لا يكاد الشاعر نفسه يستبين معناها . قد ياتى هذا الوارد بين الناس او فى الوحدة ، فى العمل او فى المضجع ، لا يكاد يسبقه شىء يمالله او يستدعيه . ويعيده الشاعر على نفسه ، فيجد أن هذا الوارد قد يفتح له سبيلا الى خلق قصيدة ، وقد يعيده مرات ومرات حتى تنفتح أمامه احدى السبل ، لقد تم الحمل بالقصيدة فى صورة ما ، والذات تريد أن تعرض نفسها فى مرآتها . » ص ١٤ ـ ١٥

عن مجتمع التصنع والنفاق ، هو انغماس فى الكون — فى حدوثه العميق وصمته السحيق حيث يرقد مطمئنا زمان السكون . وما معنى العودة الى الكون والى عالم الطبيعة المطهر ؟ معناه اللقاء المجدد مع شاعرية العناصر : مع تأجج النار المحفز للحياة ، مع ينبوع المياه الراقدة ، مع أمومة التربة العميقة . ان العودة الى احضان الوجود معناه ان يقطنه الانسان من جديد ، ان يتنفس فيه ، أن يتحدث اليه كما هو يتحدث اليه فى صوت خافت رفيق هو صوت الشعر . (٢٣)

الخيال المادى :

لقد عرف عالم الخيال عند باشلار ، كما سبق أن أشرنا الى ذلك فى بداية هذه الدراسة ، مبدأين رئيسيين خلال تطوره : مبدأ **العناصر** أو المادة ومبدأ **الحركة** . وسوف نكرس هذا الجزء لدراسة المبدأ الاول .

ان الكتب التي يتحدث فيها باشلار عن عنصر من العناصر أو مادة من المواد لا تتجاوز الاربعة وهى مجمل دراساته عن النار والماء والتربة والفضاء .(٢٤) ويبدو جليا أن الكاتب لم يبلور بعد فى أول كتاباته عن الخيال ، أى فى دراسته التي اسماها « **التحليل النفسى للنار** » والتى انتهى من تحريرها عام ١٩٣٧ ولكنه لم ينشرها الا فى عام ١٩٤٩ ، مجمل أفكاره ومفاهيمه المتعلقة بعالم الخيال . الا انه ، مع ذلك ، كان قد فطن الى الخلافات التي تميز منهجه عن مناهج التحليل الفرويدى . لذلك نراه يتحدث — على سبيل المثال — عن كبت « واع » **أو عن لون من** **الجدلية يتغلب فيها الظريف والممتع عنه قوانين الضرورة العضوية** ويجمع افكاره حول مجموعة من المحاور الخيالية ، المستلهمة من يونج والمسماة **بالمركبات الثقافية** ، وهذه الاخيرة تمثل فى نظر باشلار مجموعة **من المواقف أو الاستعدادات القبلية التي تحكم عملية التفكير** نفسها وتوجه المادة الخيالية الى أطر وقنوات تتفق وروح الثقافة التى تتضوع من خلالها .

فى كتاب « **التحليل النفسانى للنار** » تسترعى انتباهنا أربعة مركبات ثقافية وهى مركبات « **برومثيوس** » ، « **نوفاليس** » ، « **أمبدوقليس** » و « **هوفمان** » ؟ **ومن المعروف** أن أسطورة برومثيوس ترتبط فى الاصل بسرقة النار الا أنها سرعان ما بلورت معانى اخرى مثل التمرد والثورة والاعتداد بالنفس والتحدى ويضيف باشلار الى هذه المعانى النزعة الى مساواة وتجاوز الآباء والاجداد والمعلمين فى مجال المعرفة والحياة العقلية ، الامر الذى يجعل من هذا المركب المرتبط بحب التعلم والرغبة فى المعرفة مكملا لعقدة أوديب الموضحة للحياة الغريزية الصرفة . أما مركب **نوفاليس** فهو يبلور مجموعة من الصور المتصلة بالاحتكاك المولد للحرارة والنار وما يتعلق بها من مشاعر الدفء والحنان اذ انه ليس من شك فى ان عملية الاحتكاك كانت ، قبل أن تصاغ فى قالب فكرى أو عقلانى ، ذات دلالات عاطفية وحسية تتناسب مع الرغبة فى المداعبة واللمس اللذين هما فى قرارهما نوع من الاحتكاك الرمزى المتسامى . اما مركب امبدوقليس فيمثل الحلم أمام نار المدفأة ،

(٢٣) باشلار ، المصدر السابق ، ص ١٤٤ — ١٦٠

(٢٤) Gaston Bachelard, La psychanalyse du . Paris, Gallimard, 1949.
Gaston Bachelard, L'eau et les reves. Essai sur l'imagination de la matiere. Paris, J. Corti, 1942.
Gaston Bachelard, La terre et les reveries du repos. Paris, J. Corti, 1948
Gaston Bachelard, La poetique de l'espace. Paris P.U.F., 1957

وهو الحلم الذى يجمع فى دفعته البراقة المتلألئة نحو الافاق البعيدة بين غريزة الحياة وغريزة الموت، فالنار هي القوة الحية النابضة المتأججة التى لا تعرف الهدوء ولا السكينة ، وهى القوة المدمرة الهائلة التى تبلور ارادة التغيير والتجاوز ، واخيرا يعد مركب **هوفمان** خير معبر عن شاعرية الشعلة وعن الاحاسيس التى تجمع بين الصور النارية والمائية من خلال المشروبات الكحولية ، الامر الذى يقود الى مبدأ هام من مبادىء الخيال وهو قدرته على **الازدواجية والتنافر** ، اذ أن الماء نقيض النار الا أن الخيال يستطيع ، مع ذلك ، أن يربط بينهما من خلال بعض الصور ، ولنذكر، على سبيل المثال ، صورة السيولة : الا تبدو لنا الحمم البركانية وهى تتدفق من البركان كأنها مياه تتدفق فى قوة من قدر يفور ويمور أو ليست تشبه ، بعد ذلك ، فى انسيابها من فوهة البركان الثائر الى الوادى المنبسط النهر الذى يتهادى مختالا بين شاطئيه ؟ (٢٥)

غير أن باشلار لا يبلور نظريته عن الخيال المادى بصورة متكاملة الا ابتداء من كتابه عن **« الماء والاحلام »** ، فهو فى هذه المرة يؤكد بوضوح انه يريد تجاوز ما يسميه « سيكولوجيا » المفهوم أو الاطار ، وهو الامر الذى يتضح من قول ميشيل مانسوى : **« كل ذلك مرجعه ، باختصار ، الى اعتبار العناصر او المواد كنوع من المحفزات القوية للخيال ، ليس عن طريق الاشكال التي تتخذها ، ولكن شحما ولحما . »** (٢٦) يقصد أن التأثير الذى تحدثه المادة فى الخيال لا يتم من خلال تصورات عقلية أو اطر شكلية بحتة ولكن من خلال تجربة حسية نمر بها فى حياتنا الجارية فعلا . ما هى اذن السمات المميزة لهذا النوع من الخيال ؟

على خلاف الخيال الصورى ، الذى يظل على السطح ويعتمد احداث المفاجأة والتأثيرات القائمة على الظرف المحبب والابداع اللفظى ، يغوص الخيال المادى الى أعماق الوجود والى قراره المكين حيث يلتحم بالابدية ويستقر فى مصدر الديمومة وينبوعها الاول . واذا كان الخيال الصورى يقوم على العلاقات الظاهرية والتشابه الخارجي بين الاشياء ، فان الخيال المادى هو نوع من الالهام الحدسى أو اللقطة المباشرة للمادة فى الصورة ، واذا كان الاول خفيفا ، فائرا وحيا ، فان الثانى ظليل . كثيف وبطىء . ان الخيال المادى يضفى قيمة على معانى العمق بينما الخيال الصورى يحبذ صور الانطلاق . لذلك يعتقد الكاتب أن باستطاعته ارجاع الصور المادية الى عناصر الفيزياء القديمة الاربعة : النار والهواء والماء والتربة التى كانت تقابلها فى الطب القديم الامزجة الاربعة : الصفراوى ، البلغمى ، اللمفاوى ، والدموى . (٢٧) وعلى هذا النحو، اذا ساد عنصر أو تركيب ما من هذه العناصر ـ لأن الجمع بين عنصرين جائز ـ العالم ـ الخيالى لأحد الشعراء ، فان ذلك يعكس بلا شك مزاجه الشاعرى ، الامر الذى يتيح ، وفقا لباشلار ، نوعا من التحليل « النفسى ـ الفيزيائي » والتحليل « النفسى ـ الكيميائى » للخيالات والاحلام . (٢٨) البحث اذن عن العنصر أو مادة الصور بالغ الاهمية لأن **الباعث المادى** هو الذى يحدد ، فى رأى باشلار ، البواعث الشكلية أى عملية اختيار الصور والصيغ ، **الا انمادية الصورة لا تعنى**

---

(٢٥) Gaston Bachelard, **La psychalyse du feu.** op. cit., p. 144

(٢٦) Michel Mansuy, „Maintenir et prolonger le Bachelardisme'', **inRevue d'Historire litteraire de laFrance.** 1970, no. 5-6, p. 877

(٢٧) نفس المصدر ، ص ٨٧٥

Gaston Bachelard, **L'eau et les reves., op. cit.**, pp. 1-6

بالضرورة عودتها الى عرى الطبيعة الاول اذ أنها لا تستطيع الانبثاق الا عبر « طعم » ثقافى ، فهذا الاخير هــو الذى ينقــل الــى الخيــال الصــورى خصوبــة المــادة وكثافتها . (٢٩) واذا كنا فعــلا بصــدد ثقافــة أصيلة ، فــان ذلك سوف يبين لنا أن المادة لا تخضع للادراك المباشر وأن الصورة ليست نسخة من الواقع لأنها لا تتم الا من خلال نسق تقييمى .

● ● ●

ان قراءة باشلار للصور المائية فى كتابه **« الماء والاحلام »** تتيح لنــا ، بفضــل مبــدأ ازدواجية الخيال ، تحديد مالا يقل عن اثنى عشر موضوعــا أو مركبــا تقافيا لهــا علاقــة بالعنصر المائي ، وهكذا تتاح لنا فرصة القيام برحلة ممتعة شيقة تستيقظ فيها حواسنا وترتقى فيها مشاعرنا درجات .

ان **« المياه الصافية »** هى مياه الربيع حيث تعكس أشعة الشمس الوضاءة خيوطها الفضية على صفحات الجداول والانهــار ، ومــرآة الطبيعة المختالة فى ثوبها القشيب حيث تتولد نرجسية لا حدود لها تسمو بذاتنا وتنطلق بها الى ما لا نهاية . ان هذه النرجسية ، التى تتيح لنا الالتقاء بصورتنا الذاتية وصــدى صوتنا المحبب ، ليست مجرد شعور بالزهو والخيلاء ، انها أكثر من ذلك وأبعد عمقا ، فهى تعبر عن رغبة أصيلة فى التضوع والتألق، والتحليق خارج الزمن على أجنحة الامــل المداعبة ، وهى ، حينما تعرض الذات نفسها فى مرآة العيون المائية ، تمثل طموحات الانسان الراقية نحو التمدد والاتحاد بالرحابة الكونية، اذ يحسب الانسان نفسه ، وهو فى قرار ماء لاقرار له وفى قلب صورة رائعة الصفاء ، كأنه مركز الوجود وبذرة الجمال السرمدى .

اضف الى ذلك أن المياه الصافية لا تفترق عن مشاعــر الانتعــاش وأحــاسيس اليقظــة والمــرح ، فالمــاء السلسبيــل فى انسيــابــه والجدول الرقراق فى جريانه نغمات يرددها الخرير ، وألحان تعزف فى قلوبنا لحن الطفولة المبسط ، وهى كذلك ببياضها الناصع، جسد السابحة المضىء أو روح بديلها طائر البجع الذى يمثل غناء احتضاره قمة الاغراء وهــو الموت حبا . (٣٠)

أما **« الماء الراكد »** فيرتبط ، على العكس من ذلك ، برؤيــة قاتمــة هي رؤيــة المــوت هذه الهوة السوداء الرهيبة ، ويذكر الماء عند **« ادجاربو »** بالذات ، بالموت على مستويين : « مسنوى السيولة » الذى يربط ، مــن الناحية الدينامية ، بين ظاهرة الانســيــاب والزوال ، **ومستوى الركود** الذى يربط ، من وجهة نظر نفسية الاعماق ، بــين المــوت والسبات . وتذكر بالموت ، كذلك ، عقــدة « قارون » وعقدة « أوفيليا » ، اذ يرمز قارب قارون ــ وهو موضوع يصوره « دانتى » فى جحيمه ، و « دولاكروا » فى احدى لوحاته ــ الى الاسى والعذاب ، وهو يربط بين صورة الموت وصورة الماء بواسطة فكرة الرحلــة ، ويقول باشلار فى ذلك : **« ان الخيال المادى يريد أن يكون للماء حصة فى الموت ، وهو فى حاجة الى الماء ليحتفظ للمــوت بمعنــى الرحلة . » (٣١)** أما العقدة الثانية فتمثل فيها شخصية **« أوفيليا » لشكسبير** الصورة النسائية للانتحار أو الموت غرقا فى البحيرة . ان هذه الصورة جد رائعة لكى نصدقها ، فهى لذلك أقرب الى حلم الموت ورغبة الانســان الدفينة فى الراحة الدائمة منها الى الفزع أمام حادث مروع . بالنسبة لهذه العقدة

(٢٩) نفس المصدر ، ص ١٤

(٣٠) نفس المصدر ، ص ٢٩ ــ ٥٣

(٣١) نفس المصدر ، ص ١٠٤

الاخيرة ، نرى أن خصلات الشعر المتطاير ، **التي تحرك مادة ولا تعبر عن شكل ،** هى أساس هذه العلاقة الحميمة بين الماء والموت . ولهذه العقدة ابعادها الكونية أيضا، خاصة حينما يلتقى القمر بالموج ويتحد ضوؤه بثنايا الماء ، اذ يصير القمر نفسه حينئذ « أوفيليا » ويصبح الوجود كله فى حالة احتضار ، الامر الذى يملأ قلوبنا رهبة ويبث فيها أجواء التأمل والكآبة . (٣٢)

وهناك «**المياه المركبة**» التى تنتج من قدرة الخيال المادى على التأليف بين العناصر، وهو أمر ــ كما قلنا ــ جائز بين عنصرين : بين الماء والأرض وبين الماء والنار ، بين الأرض والنار وبين الهواء والنار . وقد يرجع مصدر هذا التزاوج بين العناصر الى الطابع «الجنسى» اللازم لكل تركيب ثنائي ، والامثلة على ذلك كثيرة . هناك ــ مثلا ــ التآلف السابق الذكر بين الماء والنار ، وهو تآلف تجسده المشروبات الكحولية التى تبلور عقدة « هوفمان » الأحاسيس والانطباعات الناتجة عنها . ويمكن تشخيص الليل أو تجسيده ، مع أنه ليس جزءا من العناصر ، حال اتحاده مع الماء ، وهى الامكانية التي ولدت تعبيرا قويا مثل « بحر الظلمات » الذى كان يرمز الى الفزع عند كثير من الملاحين القدماء . كذلك يوحى التقاء التربة بالماء بكثير من صور العجائن ، كما أنه يعد أساسا ماديا متينا لتغذية مشاعر الالفة ، ورفد علاقات الحب والود الحميم . اضف الى ذلك، أن هذا التزاوج يثير فى نفوسنا احساسا باللزاجة ، الامر الذى يضفى على حياة الحلم كثافة ، انطولوجية « كبيرة ، ومن ثم يتبين **لنا أن الاتحاد القوى بين احاسيس اللمس وبين الصور المرئية هو أساس الطابع الحسى الجذرى الذى يقوم عليه خيال العناصر . (٣٣)**

أما بالنسبة لمياه « الامومة او الانوثة ، فهى اسقاط لصورة الام ومدلولاتها ، الطبيعية، فهذه تصير حينا أمنا الطبيعة ذات الصدر الحنون ، وحينا آخر ــ عندما تنزلق مشاعر الامومة الى الانوثة ــ فتاة أحلامنا الجميلة . وعلى كل حال ، ان معظم هذه الاحاسيس تعبر عن رغبتنا العميقة أوتوقنا الشديد الى الامتزاج بمادة دافئة حنون تغمرنا بعطفها وتشملنا برعايتها . بهذه الطريقة ، يمد حلم الماء جذوره العميقة الى قلب المادة باثا فيها روحه الخلاقة وانفاسه الحية . من جهة اخرى ، يذكرنا الماء بالام حتى ولو نظرنا اليه نظرة دينامية ، فهو مثلها عنصر مداعب هزاز يملأنا رخاوة ويذيبنا فى أحضان الطمأنينة والراحة . ماء الانوثة ، كذلك ، ماء عذب يحبذ صورة الينبوع على صورة البحر المحيط، فعين الماء ترتبط اساسا بمصدر حسي وبرغبة فى اللمس بينما المحيط يوسع الآفاق ويثير الرؤية البعيدة . والماء الحلو ذو طبيعة أسطورية ممتدة الجذور الى أحلام الطبيعة الاولى بينما ماء البحر المالح قاس وغير مجد يربط البحر بالاهوال والمخاطر والحكايات الغريبة . (٣٤)

ونحن اذا استبعدنا أى تقييم اجتماعى أو قدسى ، فان الماء يبقى رمزا أصيلا للنقاء ومصدرا طبيعيا للطهارة ، وعملية التطهير ــ كما يقول باشلار ــ : «**لا بد أن تصور كفعل لمادة ، اذ أن سيكولوجيا التطهير تنتمى الى الخيال المادى وليس الى تجربة خارجية .**»(٣٥) الا أن فعل المادة لا يمكن تخيله ، مع ذلك ،

---

(٣٢) نفس المصدر ، ص ١٠٥ ـ ١٢٤

(٣٣) نفس المصدر ، ص ١٣١ ـ ١٥٠

(٣٤) نفس المصدر ، ص ١٥٦ ـ ٢٠٧

(٣٥) نفس المصدر ، ص ١٩٣

منفصلا عن الفحوى أو المغزى الخلقى الذى يحويه ضمنا ، فهذا المغزى، فى الحقيقة، هو الذى يفتق حلمنا ويضفى عليه صورته الطيبة أو الخبيثة . وبواسطة رد الفعل ، من جهة اخرى ، يمكن لنا ينتمى الى السريرة أو النية أن يصير خاصية او ارادة للعنصر ذاته ، ومن ثم يصبح الماء شريرا أو رقيقا لطيفا ، ويمكنه ان يغرى بالهلاك كما يمكن أن يدعو الى الانتعاش والتجديد . وليس من شك فى أن الاحساس بالانتعاش والتجديد ينتمى الى عالمين : عالم الحس وعالم الاخلاق ، وان التقييم الخلقى هو الاساس الذى يعطى الماء القدرةعلى شحذ الطاقة والارادةوعلى الشفافية والتطهير الديني الذى يجمع بين الحياتين المادية والخلقية فى صورة حياة أكبر وأعظم وهى الحياة الكونية . (٣٦)

وبما أنه من الصعب الفصل الكامل بين خيال المادة وخيال الحركة ، فان الكاتب لا يستطيع ان يتجنب التصورات المتصلة بالفعل الخيالي للماء ، وهو ما يظهر بجلاء عندما ننظر الى الماء من منظور العنف ، اذ أن العنف يمكنه أن يبرز الجوانب النشطة أو الفعالة فى الخيال وأن يطور القوى أو الطاقات الكامنة فيه وان يصوغ علاقاتنا مع الوجود على أساس من النضال أو الصراع . لذلك اذا كانت الذات هى الارادة ، كما يذهب « شوبنهور » ، فان العالم يصير ــ مقابل ذلك ــ مصدر اثارة واستفزاز ، وتظهر هذه الجدلية بين الانسان والعناصر فى مركب « سوينبورن » الذى يلخص التجربة المزدوجة للسباحة حيث يختلط التعب بالفرحة وتجتمع السادية مع المازوكية . وانه لتوجد فرحة فعلا فى قهر عنف الموجه كما توجد لذة فى الشعور بسياط الماء وهي تلهب أجسادنا ، الا أنه يبدو أن المكونات السادية أكثر قدرة على اثارة التخيلات الحركية وعلى تفجير ارادة القوة عند الانسان ، وهي الارادة التي مكنته من السيطرة على الطبيعة . وأخيرا ، اذا رجعنا الى صورة أكثر هدوءا ، أليس هذا الترابط بين الماء والانسان دليلا على مصدرهما الواحد ونفسهما المشتركة ؟ ان هذه العلاقة الحميمة تبدو جلية فى الصورة المائية المأمورة عن الكلمة الشعرية اذ يقال عنها : « انها تتدفق من منبع » (٣٧)

وفى كتاب « **الارض واحلام الراحة** » (٣٨) تندرج الصور تحت لواء المشاعر الحميمة وأحاسيس الاعماق اذ أننا هنا بصدد خيال يمجد بواطن العناصر ويتيح للصور الشعرية المتصلة بها نوعا من التجاوز الهابط الى لب الوجود والى نوع من اللاشعور المتسامي . وبفضل هذا الغوص الى قرار المادة والى جوهرها المكنون ، نستطيع الوصول الى حالة من النشوى الهادئة السعيدة والى نوع من السكون الكوني هو بمثابة روح المادة الاصيلة . ولا شك أن هذه الرغبة فى الراحة وما يقابلها من توق الى الهدوء الجذرى هي الاساس النابض الحي لكل طموحاتنا الى المأوى والاندماج والاستقرار ، وهي أحاسيس تحكمها جميعا نفسية الالتفاف على الذات ورفض الانسلاخ عنها لما في ذلك من مشقة على النفس وجهد وعسر . الا انه ، مع ذلك ، لايمكننا ، بسبب ازدواجية الصور الخيالية ، أن نفصل بين رغبة الاعماق وارادة النفاذ ، وعلى هذا النحو ، يسهل تخيل هذا الغوص الى لب الوجود على أنه نوع من اغتصاب أسراره . وبهذه الازدواجية ، تستطيع الاحلام ان تعبر ،

---

(٣٦) نفس المصدر ، ص ١٩٥ ــ ٢٠٢

Gaston Bachelard, La terre et les reveries du repos., op. cit.,

(٣٧) نفس المصدر ، ص ٢١٣ ــ ٢٥٠

(٣٩) نفس المصدر ، ص ١٠ ــ ٣٣

على السواء ، عن رغبة قوية فى الراحة وعن تطلع الى المعرفة عارم . ولننظر الان الى الابعاد الاربعة التي تشكل ــ لدى باشلار ــ نواة المشاعر الحميمة والتي تعد أساس سيكولوجيا الاعماق ، أن الكاتب يسميها على التوالي :

ــ بعد الالغاء أو الرفض

ــ البعد الجدلي

ــ بعد الاندهال والدهشة

ــ بعد الكثافة المادية المثلانية

يقوم بعد الالغاء على رفض كل عمق وكل نظرة تتجه الى بواطن الاشياء ، اما البعد الجدلي فيتأرجح بين ظاهرة الكشف ونزعة الاخفاء ، بين حب الظهور والرغبة فى التخفي محققا بذلك نوعا من التذبذب والاخذ والعطاء بين الكون الصغير والكون الكبير ، بين ظاهر المادة وباطنها . ويعد هذا البعد الاخير أيضا أساسا لعلاقات التنافر التي تميز بين حلم الخدر الحيي وحلم السفور والتضوع . وبالنسبة لبعد الاندهال ، فهو يكشف عن ابداع الخلق وروعة الاعماق ، عن النعاس الحريرى للجمال النائم وتألق الالوان الزاهية ،عن بهاء الطلعة واغراء المظاهر . والبعد الرابع هو ، لاشك ــ أعمقها جميعا وأكثرها رسوخا ، لانه يغوص الى اعماق الوجود ، هناك حيث ترقد الاسرار الكونية وتقيم الابدية . (٣٩)

ان خيال الاعماق لايستطيع أن ينفصل عن عمل الكيميائي القديم الذى لايعني بالظواهر السطحية أو بتألق الاشكال وانما يبحث عن قوى الصيرورة التي تحكم المادة وتوجهها ، ويتبلور هذا التقييم الدينامي لنشاط الخيال عنده فى نزعته الى غسل بواطن العناصر ، الامر الذى يتفق مع اتجاه ثابت للنفس البشرية الا وهو حبها اللامتناهي للتطهير . ويبدو أن حب التطهر هذا يرتبط برغبة قوية فى الالفة الحميمة وفى وجود دافيء كاتم للاسرار . لقد ادرك التحليل النفسي حلم الاعماق هذا ورغبة الاختباء هذه فيما يسمى بنزعة ((**العودة الى الام**)) التي تعبر ، فى الواقع ، عن حالة رفض للتطور ، والتي يصحبها عادة رفض الرؤية والامتناع عن النظر ، وفي هذا الصدد يقول باشلار : ((**فى هذا الاتجاه نجد ، فعلا ، صور الكائن النائم ، الكائن ذى العيون المغلقة أو نصف المغلقة ، الرافض دوما للنظر ، وصور اللاشعور الاعمى الذى يشيد كل مقوماته الحسية على مشاعر الدفء والراحة .**))(٤٠)

ان خيال الاعماق والعلاقات الحميمة ، حيث يصعب فصل الذات الحالمة عن موضوع الحلم ، يتيح للكاتب تجاوز منظور علم النفس التقليدى الذى يعد الصورة نوعا من المعرفة المنقولة عن الصفات الحسية للمادة . ان باشلار يرفض أية قيمة موضوعية لهذه الصفات الحسية لان هذه لا يمكن أن تنفصل عن عملية التقييم التى تقوم بها بالذات ولانها مشحونة بالعواطف والمشاعر الى درجة تؤثر على معرفتها بطريقة مجردة . ويتم فعل الذات اما فى اتجاه **المزايدة والتفخيم** ، واما فى اتجاه **التركيز** ، وهو الامر الوارد فى حالة خيال الاعماق ، واذا كان ذلك كذلك يصبح فعل الذات هو السبب الحقيقى الذى يفجر دفعة الصورة وانبثاقها فى الضمير المرهف ، الامر الذى يجعله فى اتساق وتوافق مع وظيفة ((**اللاواقع**)) التى تحرك الحياة النفسية ، ولا تجعل من الصورة مجرد رمز أو قالب لاحساس أو فكرة وانما حياة زاخرة بنفسها . **ويلتقط باشلار وظيفة اللاواقع هذه فى مستوى الذات المعبرة ، فى مستوى اللغة نفسه بحيث لا يرتد الضمير المتكلم عبر الصورة الى ما ((يمكن)) خلفها اذ انه لا وجه لها ولا خلفية ، فهى قائمة فى ذاتها ومطابقة**

(٤٠) نفس المصدر ، ص ٤٧ ــ ٥٥

لذاتها ولا حياة لها خارج نسيج اللغة . ومن الواضح أن الصورة تحدد ، على هذا النحو ، كفعل خيالى صرف ونحس بها كلذة كلامية أو متعة تعبيرية بحتة ، أما وظيفة اللاواقع فتظهر لنا كنوع من التوافق التام ، التلقائي والساذج مع موضوع الخيال في لحظة انبثاقه ، غير أنها لا تتجمد فيه أو تذوب بسبب قوتها الدافقة ودفقتها الغامرة . لذلك يصعب تصور هذه الوظيفة خارج عملية « تقوية » تبرز من خلال فعلين : **الدفعة والاهتزاز** ، تعبر الدفعة عن توتر الكائن الشامل الذى يتفجر فجأة فى صورة مضيئة بالغة التركيز فأقل توترا وبالتالى أنسب للتعبيرات المجازية والايقاعات المركبة . **اذا كانت الدفعة هى قوة انبثاق الصورة ، فالاهتزاز هو تطورها خلال سلسلة من الاستعارات والتشبيهات . (٤١)**

يقدم لنا الكاتب فى هذا الكتاب أيضا مجموعة من الموضوعات والمركبات الثقافية الخاصة بخيال الاعماق والمشاعر الحميمة والراحة . منها نموذج بيت الميلاد وهو أساس البيت المثالى الذى نحلم به وعقدة « يونس » التى تدور حول موضوع البلع وعقدة الكهوف والمغارات والمتاهات التى تفجر أحلام الاغوار وموضوع الثعبان والجذر والكرمة وما يرتبط به من أحلام الطبيعة بشعبها الثلاث : الحيوانية ، النباتية والمعدنية .

يمد بيت الميلاد جذوره العميقة الى الطفولة البعيدة ، الطفولة المثالية الحالمة ، ويقول باشلار فى ذلك : **« اننا بدلامن أن نحلم بما كان ، نحلم بما كان يمكنه أن يكون ، ربما كان فى مقدوره تثبيت أحلامنا الحميمة الى الابد .** (٤٢) ويحمل هذا النموذج ــ بالقوة ــ معظم صور الاعماق والاحلام التى تدور فى فلكها ، فهو المغادرة السعيدة والمتاهة التى تحيى مخاوف الطفولة ، واذا نظرنا الى هذا النموذج الخيالى من منظور التحليل النفسى، وجدناه يرمز الى مجمل الحياة النفسية : فالقبو الغارق فى الظلال يمثل اللاشعور والسطح الغارق فى الضياء يمثل الحياة الواعية ، كذلك يعد البيت الاول مهدا للحرارة والدفء وملجأ نأوى اليه فيحمينا من الظلمات وقوى الطبيعة الخفية ويوفر لنا أحلام الراحة والسعادة والسكينة .

وبالنسبة لعقدة « يونس » فترتبط الى حد بعيد بامكانيات الخيال اللامتناهية ، لانها اذ تبلور أكبر قدر من السذاجة الممكنة تعد أعظم مورد للقصص الخرافية والروايات الخيالية ، وهى على وجه التخصيص ، بؤرة تلتقى فيها معظم الرموز المتصلة بلذة البلع وتصوراته وتتولد منها غالبية الحكايات العجيبة التى تثيرها هذه التصورات . ويربط باشلار بين هذه القصص الخيالية عن الابتلاع وبين ما يسميه ارادة المزاح التى تعبر عن احدى وسائل الدفاع الذاتى عن النفس ضد خشية تمتد جذورها الى اعماق اللاشعور الجمعى أو الاولى . ويربط ، كذلك ، بين هذا الموضوع وبين لذة التذوق والهضم من جهة وبينه وبين عقدة النطام فى حالة التخوف ورضوض الميلاد من جهة أخرى . الا أن أهم ما يستخلصه الكاتب من هذه التصورات جميعا هو صورة المأوى الذى يتمثل لنا على هيئة دائرة « أولية » وقدرة احاطة وشمول

---

(٤١) نفس المصدر ، ص ٨١ ــ ٩١

(٤٢) نفس المصدر ، ص ٩٨

عظيمة ، ولا شك أن هذه الدائرة التى نحلم بها تذكرنا ، لاشعوريا ، ببطن الام (٤٣) النابض بالحرارة والعامر بالراحة والامن ، كما يعد انغلاق الدائرة على نفسها ، وفى رمز الثعبان الذى يعض ذيله ، وبفضل اندماج الباطن بالظاهر ، قوة سحرية بالفة التأثير . يقول باشلار فى هذا الصدد : « **ان أكثر الصور ظاهرية مثل النهار والليل تصبح صورا داخلية حميمة ، وانها لتجد فى هذا الطابع الحميم قدرتها على الاقناع : اذ أنها تبقى في الظاهر وسيلة من وسائل الاتصال المعلن ، بينما الاتصال الباطنى أرسخ واعظم قيمة . ان عقدة يونس وبيت الاحلام والكهف الخيالى تعد من النماذج التى لا تحتاج الى تجارب فعلية لتؤثر على النفوس ـ فالليل يغمرنا بسحره وظلام المفارة والكهف يضمنا الى صدره الحنون .** » (٤٤) أضف الى ذلك أن هذه الصور التى تمثل لنا الاغوار والظلام كقوى من قوى العطف والود والحنان ـ لا شك ـ تذكرنا بوجه آخر من وجوه الموت ؛ بالوجه الرقيق الحنون الذى ينم عن الراحة الابدية ، اذ أن هذا الموت هو رمز السعادة الازلية وسر عظيم تتلألأ فى اعماقه السحيقة ضياء النشور . ان الخروج من البطن ـ كما يقول باشلار ـ هو الميلاد والخروج من التابوت هو البعث أو الميلاد الثانى . (٤٥)

أما صورة المفارة فترتبط ، هى الاخرى ، برغبة عميقة صادقة فى الراحة والسكينة ، وهى بفضل الخمائل الخضراء التى تحجبها عن الناظرين ـ سواء أكان ذلك حقيقة أم خيالا ـ تعد تطويرا لصورة المسكن الهادىء المصون وتعبيرا مكثفا عن حلم الانزواء والتأمل الداخلى الذى يتناقض مع الجرى وراء « القصور الخيالية » المعبرة عن نزعات الهرب والانطلاق . كذلك تفجر المفارة الخيالية موجة من الاصوات الخافتة والهمسات الناعمة مغلفة بصمتها الحريرى ومتوجة بمهابة ليلها الوقور . ان المفارة الخيالية رمز البصيرة وعينها المبصرة فى أحلك الظلمات ، اشعاع الجنة الاولى وشوقنا المتيم الى صدر الامهات ، وهى ، أخيرا ، موقع السحر من لا شعور الانسان حيث تتمثل لنا المنية فى صورة عطاء طبيعى تقدمه لنا الارض ـ أمنا الحنون . (٤٦)

وعلى العكس من ذلك ، تقدم لنا صور المتاهة رؤى هى أقرب الى التشاؤم والتعاسة منها الى التفاؤل والتيمن نظرا لارتباطها بصعوبة الحركة وضيق الصدر ، فالمتاهة ؛ فى الواقع ، هى بلورة خيالية لتجربة الانسان الضائع أو فى سبيل الضياع ، كابوس الكائن الحبيس ورهبه الزنزانة العميقة السوداء . يقول باشلار في ذلك : « **ان المتاهة زنزانة مطولة ودهليز الاحلام خيال حالم ينزلق ويتمدد .** » (٤٧) ولقد لاحظ الكاتب أيضا

---

(٤٣) لقد عالجت الزميلة الدكتورة سلوى ببراعة فائقةهذا الموضوع فى رسالتها عن الكاتب لسويسرى الاصل « بليز ساندرار » : Salwa Matar, **L'univers imaginaire de Blaise Cendrars.** Alexandrie, 1978.

ولقد عنى كذلك الكاتب الفرنسى المعاصر «كلوروا» بهذاالقصور الذى يعبر عن خلال رمز البطن عن حاجة دفينة الى الغاء الزمن والعيش فى قلب الوجود الدائم الذى اخرجنامنه الميلاد بعذابه ورضوخه•راجع الفصل الاول :«اللاذكرة» :

Claude Roy, **Moi Je.** Paris, Gallimard (NRF), 1969, pp. 11-28

(٤٤)جاستون باشلار ، المصدر السابق ، ص ١٣٠ ـ ١٧٧

(٤٥) نفس المصدر ، ص ١٨٢

(٤٦) نفس المصدر ، ص ١٨٤ ـ ٢٠٨

(٤٧) نفس المصدر ، ص ٢١١ ـ ٢٢٦

ان خيـال المتاهـة يمكنـه أن يجمـع بين احساسين مختلفين : **الصلابة والليونة** . ترمز الصلابة الى بداية الكابوس وتعبر عن التصلب المفاجىء لجدران المتاهة الخيالية ، الامر الذى قد يعنى تنكر المـادة لخصائصها المعروفـة وخيانتها لتوقعاتنا أو شعورا بالضيق المتزايد أما الليونة فترمز الى ظاهرة الخـروج مـن الكابوس لما يصاحبها من احساس بالزحف والشد المؤلم للجسد . ومن الواضح أن خيال المادة ، بالتقائه هنا مع خيال الحركة ، يضفى على هـذا الاخير طابعا تجسيديا راسـخا واصيلا . (٤٨)

ويعد الثعبان أقـرب الحيوانات الـى الارض لانه يوحى بصورة الجذور ويلعب دور همزة الوصل بين عالم النبات وعالم الحيوان كما أنه يبلور خوفا عميقا ورهبة ترجع بنـا الى ظلام الماضى السحيق ، وهو، بجانـب ذلـك ، يرمـز الى كـل صفـات اللزاجـة والاشمئزاز والبرودة الكريهة ، كمـا انهعلامة الشر والغواية والضياع . ويربـط التحليل النفسى بين صورته وبين المحرمات الجنسية؛ كما يصوره لنا خيال الحركة على هيئة قيد أو حبـل يتلوى ويلتف حـول عنـق الانسان فيخنقـه . وهـو أخـيرا ، رمـز الغمـوض والتحولات الغريبة وطالع شؤم ونحس . (٤٩)

أمـا الجذر فهـو موطـن التناقض والتنافر : هو كائن ميت بطبيعته الفائرة فى التربة وينبوع للحياة بقوته التى يبثها فى قلب النبات ، هـو جلمود صخـر نعتز بصلابته ، وطرة شعر نزهو بطلاوتها ، هو مبدأ الاحيـاء ومصدر الكلام ومنطوق الرغبة الدفينة فـى حاجتها الى التعبير وتوقها الى الظهـور . ويستطيع الجذر ، فى عالم الزراعة ، أن يحيى مجموعة كاملة مـن الصور المتحركة ، فهـو بمقاومته للخلع يعد رمزا لعالم صعب المراس، شديد البأس ، يستفز الـزارع ويحنقـه ، يدفعه الـى مضاعفة جهـده والـى التوعـد والسباب ، لذلك يصعب تخيله بعيدا عـن صورة لا يمتزج فيها العمل بالصياح . ويرمز الجذر ، كذلك ، الـى الاصل البعيد ، الـى الماضي ، الى المصدر القـديم حيث نستمـد طاقتنا ونستقى خبرتنـا ، ثم هوقوة عظيمة من قـوى الاندمـاج والتركيز وسـند متين لشجرة الحياة التى تمثـل فى انطلاقها نحـو اللانهاية تضـوع الحيـاة الروحية وشرّاقـة النفس السامية . واذا كان التحليل النفسى، الذى تؤرقه دائما قضـايا الجنس ، يريد أن يرى فى الجذر مدلولاته الخفية التى تتصـل بحياة الرغبـة المتشعبة في اللاشعور ، فـان الكاتب يأبى الا أن يبقى فى مستوى الصـورة الادبية الواعية ، الصورة الواضحة المنضبطة. (٥٠)

كذلك يعنى الكاتب بالصور الخياليـة للنبيد ، وخاصة مـا يتعلق منهـا بتصورات قدماء الكيميائيين (les alchimistes) ، وتنتمى هذه الصهباء الى عالمين : عالم النبات وعـالم المعـادن والاحجار النفيسة ، فهى العنقـود والياقوت ، الضوء المذاب والذهب السـائل . ولو كان باشلار ملما بالادب العربى لبهرتـه الصور الرائعة والتخيلات الفريدة لشـعراء الخمريات ، أو لم يقل ابوتمام حـول هـذه المعانى التى يألفها الكاتب الفرنسى ويشـغف بها أيما شغف :

« عنبية ذهبيـة سـكبت لهـا
ذهب المعانـى صاغـه الشعراء »

---

(٤٨) نفس المصدر ، ص ٢٢٨ ـ ٢٤٠

(٤٩) نفس المصدر ، ص ٢٦٢ ـ ٢٨١

(٥٠) نفس المصدر ، ص ٢٢٩ ـ ٣٢٠

وتبلور الخمر ، كذلك ، عند الكيمائيين صورة الجسد الحي الذي تلتقي فيه الارواح السماوية الخفية وأرواح الارض الثقيلة ، قوة النار والطاقة الغذائية للدم ، فهي بنت السماء الذي تقطر منه الذهب والشهاب الذي تستمد منه الماء العلوي ، هي سائل خلاق ومبدأ كوني . (٥١)

يعد باشلار من أحد الكتاب الذين لا يكفون عن مراجعة النفس وتجديد أعمالهم السابقة ، فهو لا يستطيع أن ينغلق على نفسه ولا أن يثبت فكره مرة واحدة في منهج ثابت جامد ، لذلك نراه في كتابه **« شاعرية المكان »** (٥٢) ، يعمق رؤيته الظاهرية ويحاول اقامة شاعرية أصيلة لصور البيت والمأوى . وينصحنا الكاتب ، لكي ندرك طبيعة الصورة الشعرية ، باعداد أنفسنا لنوع من المثول الشامل المباشر أمام تلقائية الصورة وأصالتها، **لان هذا المثول وحده هو القادر على دفعنا الى أعماق الوجود وقلب الحركة والى الانفتاح الصادق على صدى الصورة ورنينها الكوني ،** ووظيفة هذا المثول أن يخفف من اثقالنا وأن يرفع عناء الاعباء التي ترزح على صدورنا بحيث يمكننا التحرر من المنظور القديم الثقيل للعناصر الاربعة . على هذا النحو ، تصبح **الصورة ملتقى لشفافية النفوس وصفائها ، حقلا لانعتاق قوى العناصر وانطلاقها ، قدرة أولية وتعبيرا مباشرا عفويا للضمير الحالم .** كذلك لا يعرف كيان هذه الصورة وجسدها الى عتمة ما أو كثافة خاصة لأنه لا ينفصل بمستوييه : وقع الصورة المباشر ورنينها المتبقى في الضمير ، عن كيان اللغة نفسها . ان الصورة ، كما يقول باشلار : **تعبر عنا بالقدر الذي تشكلنا وتصوغنا فيما نعبر عنه . »**

(٥٣) هي اذن لا توجد **قبل أو بعد اللغة وانما تعيش في تطابق تام معها .** لذلك لا يجدر بنا ترجمتها أو تفسيرها ، وانما علينا أن ننظر الى القصيدة على أنها المكان الامثل الذي تتضوع فيه وتحيا . **ان موطن الصورة ليس الانسان ولا التاريخ ولكن الكلمة نفسها ،** الصورة ، مثل الكلمة ، تعيش في عالم الممكن وتأتينا من حيث لا ندري ... فلا توقع ولا انتظار .

تقوم الصورة في علاقتها بالمكان على أساسين : الاساس الاول يتعلق بحب المكان topophilie وما ينشأ حوله من صور السعادة والحبور ، والاساس الثاني يختص بعدوانية المكان apocalypse وما يتولد عنها من صور الحقد والاستفزاز . ان المكان السعيد الذي يكلف به باشلار كلفا شديدا يوحي لنا أو ل ما يوحي بصورة البيت الذي يؤويناوالذي يفجر في نفوسنا طاقات خيالية كامنة ترتبط بالمأوى الاولي ووظيفة أساسية لدى الانسان وهي حاجته الى الاستقرار والارتباط الفريزي بالتربة . (٥٤) تعبر صوره البيت عن رغبة عميقة في السكينة والهدوء وتبرز في ضميرنا على هيئة مهد دافيء يوفر لنا الحماية والامن ، وفي صورة أم تضمنا بجناحي رحمة وحنان . وتمثل ، كذلك ، الذكرى المكثفة في لحظة المطلق ، لحظة الباطن الخالص والسماء الظليلة التي تقدم اطارا دافئا لاحلامنا ، وقد تزدوج الصورة ، بسبب انعدام المنطق في عالم الخيال ، فيقدم لنا سطح المنزل رمزا لضوء الشمس الساطعة وسماء الضمير المذهب ، ويقدم لنا القبو خلاصة المخبأ الارضي وليل اللاشعور الحالك

---

٥١) نفس المصدر ، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٩

Gaston Bachelard, **Lapoetique de l'espace.** Paris, P.U.F., 1957.

(٥٣) نفس المصدر ، ص ٧

(٥٤) نفس المصدر ، ص ٨ ـ ٢٤

وقد سرت فيه رعشة الرغبة الجامحة . كذلك تغنى هذه الصورة أضعاف أضعاف وتكتسب أعماقا وأحاسيس لا حصر لها حينما يتوطد ارتباطها بالطبيعة وتقوى علاقتها بفصول السنة ، فالشتاء يدعم وظيفتها السكنية ويبرز طابعها المثالى كجنة الاحلام بالنسبة للطبيعة الخارجيةالتى اشتد بأسها بعد ان تجمد فى ثوبها الجليدى . ويرمز الشتاء ، بجانب ذلك ، الى شيخوخة الطبيعة وقد ابيض « شعرها » والى الماضي البعيد الذى يكلل الذكرى بهيبةالمشيب ... وبالرغم من أن باشلار لم يعن كثيرا ببقية الفصول ، الا أننانستطيع أن نحرص على العلاقةالتى قد ترتبط بين صورة البيت وبين بقية الفصول . فالصيف والربيع يعملان — لا شك — على دمج هذه الصورة بفرحة الطبيعة وسعادة الوجود ، اما الخريف فهو فصل الحزن والكآبة الذى يتملك النفوس أمام عدم الطبيعة العام كذلك يتفرغ بيت الاحلام الى شقين فهو تارة قصر يغذى فينا مطامح العظمة والظهور ، وتارة أخرى كوخ يطوينا فى عزلته البسيطة ويبعث فينا نوازع النسيان الدفين . (٥٥)

ان صورة « **البيت البسيط** » لا بد ان تذكرنا بصورة العش الهادىء الذى يوفر لنا الامان والدفء والحنان ، فالعش مأوى الاحبة وملتقى الود والالفة ، رمز الوفاء وباعث الذكرى والحنين الى الماضى . انه الركن المصون حيث تحظى السعادة بأكبر قدر من التركيز ، ويزودنا النعيم بأغزر طاقات الانكماش في قلب اللامتناهى فى الصغر . كذلك توفر حياة **الواقع** صورة المخبأ الغامض العجيب اذ انها تحمل بين طياتها حلم الغرابة والاندهاش ... أليست مرتبطة بهذا الاعجاز الذى يمثله تفجر الحياة من الصخور والذى يجعل من حادث الظهور طلعة قدسية ؟ **ان القوقعة تبلور حياة الاجسام المصغرة التى تنبثق منها المخلوقات الهائلة** ، فهى مأوى الجنيات ومستودع الخيالات والاحلام اللامتناهية وسجن تنفك منه نوازع الحرية . (٥٦)

غير أن المكان السعيد ليس العالم المصغر الذى يتحقق فيه أكبر قدر من التكثيف فحسب ، بل انه أيضا موطن احلام التمدد والاتساع ورغبات التضوع والانطلاق الى ما لا نهاية . لهذا يمكن القول بأن الاتساع الذى لا يكون لههدف واضح ومحدد هو كيان الخيال الخالص وعين جوهره الصافى . ان البحث فى الاتساع العظيم المهول هو مردود ارادتنا القوية ونزعتها الجانحة الى العظمة وتجاوز الوجود ، فالاتساع تعبير صادق عن رغبة التضوع والاتحاد مع الامتداد الكونى ، وهو ، كما نرى فى شعر « **بودلير** » امكانية كائن شاسع يحتوى الوجود ويشمله ، ويقول باشلار فى هذا الصدد : « **ان قدر الانسان الشاعرى هو كونه مرآة لاتساع الوجود ، أو بصورة أدق ، أن يعى هذا الاتساع فى ضميره ذاته .** » (٥٧) وليس الاتساع ، الذى نتحدث عنه ، نتاجا لتجربة مكانية أو نقلا لانطباع يساور الانسان أمام المشاهد العظيمة ، انه فى الحقيقة بناء من أبنية الخيال التكوينية وحاجة « انطولوجية » لدى الانسان الى التضوع والامتداد ، وبتعبير أدق ، هو البؤرة التى يلتقى فيها بصورة متسقة ومتوازنة الامتداد الظاهرى بالامتداد الباطنى . ان الاتساع يسمح لنا بتخطى الوجود المباشر وبالعيش فى المجال الاولى أو القبلى . وبفضل جدلية الباطن والظاهر ، تتوفر لدينا امكانية أعلى ، امكانية ادراك الوجود والعدم ، الايجاب

---

(٥٥) نفس المصدر ، ص ٢٥ — ٧٢

(٥٦) نفس المصدر ، ص ١٠٦ — ١٠٩

(٥٧) نفس المصدر ، ص ١٧٩

والسلب ، وتعد هذه الجدلية شرطا أوليا من شروط الخيال المكانى اذ أنها تتيح لابسط الاماكن تجاوز وضعه في اتجاه الاساس الاول وتحظى قيمته الى عالم المطلق . لذلك تأخذ أبسط الكلمات فى حياة الموجود ، مثل كلمة « هنا » قيمة عليا ، اذ أنها ترده الى مصدر أصيل ومنبت عميق الجذور فى الحياة ، الا أنها لا تستطيع ، مع ذلك ، أن تثبت كيانه على الدوام ، فهذا الكيان يتجاوز كل محاولة لتحديد أبعاده المكانية أو لتقليص امكانياته فى التجسد والظهور . وليس من شك فى أن **المكان الخيالى يختلف فى جدلية مثل هذه عن نظيره فى علم الهندسة أو فى مجال التناسق وتناسب الاحجام لأنه ، في مضمونه ، رمز الغموض ومجال الالتباس حيث تتأرجح النفس ويفقد العقل روح التنظيم ، وهو ، من جهة أخرى ، مكان يثبت فيه الانسان على سطح الوجود ولا يعرف فيه التكامل والتوازن الا من خلال الكلمة ، الكلمة الظاهرية . الا أن هذه الكلمة لاتعبر عن الوجود دفعة واحدة والا جمدته وقتلته ، فهى مقر السذاجة والغموض ومأوى التكتم والسفور (٥٨) .**

خيال الحركة

لقد كرس جاستون باشلار لهذا النوع من الخيال دراستين يمكن اعتبارهما من أفضل الدراسات التى قام بها فى هذا المجال، وهما كتابه عن « **الهواء والاحلام** » (٥٩) وكتابه عن « **الارض وأحلام الارادة .** » (٦٠)

يصور لنا المؤلف فى كتابه الاول الخيال فى شكل طاقة متحركة وقدرة هائلة على تبديل وتعديل الصور التى توفرها لنا وظيفة الادراك ، وبدلا من أن يربط بين هذه الوظيفة الجديدة للخيال وبين عملية التخزين التى تقوم بها الذاكرة وتكرسها العادة فانه يسعى الى ابراز الطابع الدينامى للخيال كقدرة تصويرية عالية وعملية خلق وابتكار لا حدود لها ، على هذا النحو ، لا يستطيع الخيال أن يستمد وجوده من الاسس الحسية للصورة ولا أن يرتكز على قوالبها المنبثقة واشكالها الجامدة ، **ان الخيال يصير ، فى هذه الحال ، ادراكا مباشرا لحركة مجردة وتجسيدا حيا لصيرورة الكلمة الشعرية . ويقول باشلار فى هذا الصدد بلهجة تكاد تشبه لهجة سارتر فى كتاباته عن الخيال : « ان الادراك والتخيل يتناقضان تماما كما يتناقض المثول مع الغياب فالتخيل هو الغياب وهو الانطلاق الى حياة جديدة .** » (٦١) والغياب المقصود هنا هو تجرد خيال الحركة عن عالم المادة وابتعاده عن المحسوسات ، اذ أنه يصير ، فى هذا المنظور الدينامى البحت ، دفعة خالصة نحوالمستقبل وتحليقا فى سماء حلم بلورى ساحر . ان هذه الانطلاقة من الواقع الى الخيال تتحقق بفعل « شاعرية » موضوع يؤثر فى النفس ويهز الضمير باحداث حالة من حالات الحنق والرفض واثارة احساس تتجاوب فيه العواطف الجياشة مع حالات من الايقاع أو التنغيم الداخلى ، ولا شك أننا ، بهذه الطريقة نصل الى جوهر فعل التجاوز في الشعر ، والى قدرته العظيمة على تخطى الواقع ، وكلها أمور تتفق ووظيفة « اللاواقع » الذى سبق الاشارة اليه . (٦٢) الا أن هذه الوظيفة تشمل ، بالرغم من ذلك ، ما يشبه تسلسل

---

(٥٨) نفس المصدر ، ص ١٩٠ – ٢٠٠

(٥٩) Gaston Bachelard, L'air et les songes. Essai sur l'imagination du mouvement. Paris, J. Corti, 1943.

(٦٠) Gaston Bachelard, La terre et les reveries de la volonté. Paris, J. Corti, 1948.

(٦١) الهواء والاحلام (ملاحظة رقم ٥٩) ص ٧ – ١٠

(٦٢) نفس المصدر ، ص ١١ – ١٣

النسب بين خيال الحركة وبين العناصر ولكن من غير أن يحكم عليها ذلك بالسكون أو الثبات فكل مادة تسمو الى مرتبة الخيال الدينامى تصبح قوة من قوى التسامى وقيمة عالية من قيم المثالية ، ويمكن القول فى هذا **بأن الحركة تحرر المادة وتحولها الى روح خالصة** . (٦٣)

ان خيال الهواء ، حينما يصور على هذا المنوال ، يجعلنا نعيش فى عالم اللامتناهى فى الكبر حيث ترتقى النفس الى تجربة فريدة تحرر فيها المادة من كل أبعادها ، وتسمع هذه التجربة القائمة على مبدأ التسامى بابتكار ما يسميه الكاتب **« سيكولوجيا الصعود »** التى تعتمد على اثارة مشاعر الخفة وانطباعات النشوى والفرح ، وهى تقوم جميعا على مبدأ **الزمان العمودى** ، وليست هذه العمودية الا محور عملية **التجاوز الشاعرى** ومبدأ عملية **التقييم الذاتى والخلقى** الذى نستمتع به فى الاستعارات والتشبيهات التى تدور حول الارتفاع والعلو أو العمق والسقوط . (٦٤) وتعتبر هذه العمودية ، بالقدر الذى يعيها الضمير المرهف ، مصدرالذات دينامية تدفع بخيال الشاعر فى اتجاهين جد مختلفين : الاتجاه الاول هو الاثراء والاخصاب ، والثانى نحو التحرر والانطلاق . يشمل الاتجاه الاول القيم الراسخة ذات الوزن والثقل التى تبلورها الصور المادية للتربة ، والثانى يضفى قيمة المحور المضاد ، محور الخفة والصعود الذى يتجسد فى الصور الهوائية ، غير أن الاثراء المادى لا يمكن الحصول عليه ، فى الحقيقة ، الا بقدر معين من افتقار الحركة ، كما أن الاسراع فى الحركة الخيالية لا يمكن أن يتم الا باضعاف دور المادة ، أى ان الفعل الاول عملية ترسيخ وتعميق ، بينما الفعل الثانى عملية : تجريد وتحليق . وليس من شك فى أن كلا المنظورين ليس فى مقدورهما أن يتحققا الا باختيار أولى ، ناتج عن حكم مسبق ، لاحد القطبين اللذين يعبران عن حاجتين أساسيتين فى نفسية الانسان : حاجته الى التضوع وحاجته الى الانكماش والانطواء على الذات . وليس من الضرورى أن يبقى هذان القطبان فى تنافر تام اذ انه يمكن تصورهما كلحظتين فى عملية شد وجذب وحالتين من حالات التبادل الجدلى . (٦٥)

ان خيال الهواء أو خيال الخفة يتشكل فيما يسمى **بحلم الطيران** . ويفسر التحليل النفسى هذا الحلم على أنه رمز لحالة توق وشوق الى الحلم نفسه ، وهذا أمر يرفضه باشلار ، لان الرمز يردنا هنا الى تصور عقلانى ومفهوم مسبق . أما المنظور الدينامى فيجعل منه رحلة خيالية حقة وانسيابا ناعما لحركة من حركات الرقة ، ومن ثم تحدث المعجزة ، معجزة قلب الادوار بين الحالم وحلمه ، اذ أن الحالم الذى يتأمل تصاعد منحنى الظرف والخفة ، يصير نفسه ظرفا متصاعدا وقوة سابحة من قوى اللطف المحبب ان اضفاء الحركة ، بهذه الطريقة ، على ذات الحالم بواسطة قلب القطب الموضوعى للحلم ، لا شك سوف يتضمن ــ على العكس من عملية التعميق والشد الى أسفل الذي يعنى به التحليل النفسى ــ جهدا فكريا ما ، ومستوى معينا من العقلانية والادراك .

ولا شك أن هذا الجهد الذى يتطلبه خيال الحركة هو جوهر عملية التجاوز ذاتها ومضمون حركة الاسقاط على المستقبل البعيد الذى يجد فى الاتجاه الخطى لحلم الطيران أفضل تجسيد له . ولكننا ، حينما نتحدث عن الجهد فانما نتحدث عن السهولة والرشاقة

---

(٦٣) نفس المصدر ، ص ١٤ ـ ١٥

(٦٤) نفس المصدر ، ص ١٦ ـ ١٨

(٦٥) نفس المصدر ، ص ٢٩٥ ـ ٣٠٢

والفرحة بالقدر الذى نتحدث فيه عن الاقلاع والانتزاع والعذاب . يقول باشلان : « **يخضع حلم الطيران ، بطبيعته ، الى جدلية الخفة والثقل . لهذا السبب يتفرع حلم الطيران الى نوعين مختلفين تماما : هناك أحلام خفيفة وهناك أحلام ثقيلة . وتتراكم حول هاتين السمتين معظم جدليات الفرحة والالم ، الانطلاقة والنصب ، السلبية والنشاط ، الندم والامل ، الشر والخير .** » (٦٦) على هذا النحو ، يمثل حلم الطيران ، لدى باشلار ، تركيبا حيا يلتقى فيه خيال العناصر مع خيال الحركة ، الامر الذى يسمع بتخيل ، وفقا لتعبير الكاتب ، نوع من « **الخفة المادية** » التى تعمل على تحريك الضمير ، وبث روح الانطلاق والتحرر فيه . (٦٧)

وخفة المادة هذه ، التى يشير اليها الكاتب ، هى العامل الاساسى الذي يساعدنا على مشاركة الطبيعة ظواهرها مشاركة حية وفعالة ، اذانه بفضل هذه الخفة ، التى تشبه انعدام الوزن ، نستطيع ان نحلق مع الريح والهواء ، وأن نتألق مع الضياء ، وأن نفوح مع الورود الزكية العطرة ، تماما كما هو الحال فى شعر « شيللى » ، وبفضل دينامية الخيال عند هذا الشاعر المرهف تسمو الصور الجوية الى درجة عالية من الشفافية الروحانية : فصورة « القارب » أو « الجزيرة العائمة » تحدث لدينا لفعل الحركة المستمرة والمستبطنة ، احساسا قويا بالصعود الى السموات البعيدة ، وليس هذا الصعود الا نتاجا لمطامحنا فى السمو والارتفاع وحاجتنا الاصيلة الى التحرر والخفة ، وهذا الصعود نفسه يتحقق عند « **بلزاك** » فى صورة « **السهم المنطلق** » التى عثر عليها باشلار فى قصة « **سيرافتيا** » الحالمة ، ولكن بطريقة بالغة القوة بحيث تنتقل الحركة من دور العلة الى دور المعلول ، ويصبح السبب ، بفضل عملية التقييم الذاتى والخلقى ، هدفا وغاية . هنا يصير الخيال ، كما يقول باشلار : « **خاضعا لغائية هائلة القوة ، فالسهم الانسانى لا يحيا دفعته فحسب ، بل يحيا غايته ويعيش سماءه كذلك . وحينما يعى الانسان قدرته الصاعدة ، يعى قدره الكلى ، وبعبارة أدق ، يدرك أنه مادة الرجاء وعنصر الامل .** » (٦٨)

بالاضافة الى هذه الرغبة في التخفف والانطلاق ، يستطيع خيال الجو ، بواسطة « **شاعرية الاجنحة** » ، أن يشبع حاجات نفسية أخرى متعددة ، ومن خلال هذا المنظور ، يمكن لحركة الطيران أن تحاكى عملية التجريد فكلاهما يشكل فى عالم الخيال دفعة الى أعلى ، ثم تحليقا متباعدا عن عالم المرئيات والمحسوبات ، ويمكن جوهر حلم الطيران فى تخطى الانطباعات الشكلية وتعديلها الى لب عملية الطيران التى لا تخرج ، فى نظر باشلار ، عن كونها عملية رائعة وبديعة ، فالتجريد هو الخفة ذاتها ، الخفة فى طهارتها الاولية وفي بساطتها ، الا أن التجريد ظاهرة تتميز عموما بفقرها ، فمن يقل بساطة ، يقل فقرا ، ويظر التجريد في أغلب الاحيان بعيدا عن كل تنميق شكلى ، اذ أن الطيران الخيالى ينتج ، فى الواقع ، زينته الخاصة به ، والوانه المتعلقة به والتى لا تتعدى ، فى حالة الطائر الخيالى ، اللونين : الازرق والاسود . يمثل الازرق ، الذى يعبر عن جوهر الطهارة ، انطلاقة العصفور وبالتالى دفعة الحلم التصاعدية ، أما الاسود ، لون الظلال ، فيجسد حركة السقوط أو الهبوط ، وليس من شك في أن الطائر وحده يملك ، وفقا

---

(٦٦) نفس المصدر ، ص ٣٠

(٦٧) نفس المصدر ، ص ٣٨

(٦٨) نفس المصدر ، ص ٧٢ ـ ٧٤

للكاتب ، مقدرة الكشف عن مصدر ((**الخفة الوجودية**)) فى نفس الانسان وفى الطيات العميقة الساكنة لحلم النضارة والشباب ، وبفضل هذه الرغبة الاولية فى الخفة والتخفف التى تمثل ((**شهوة الطهارة**)) كما يذهب باشلار ، يكتسب العصفور قيمته الادبية والخيالية العالية . وهكذا تستطيع جميع الانطباعات الكامنة فى اللاشعور من خفة وحيوية وشباب وطهارة ورقة أن تتبادل فيما بينها القيم والدلالات الرمزية . أما جناح الطائر ، فهو فى الحقيقة يأتى لاحقا ليجسد هذه المعانى والدلالات ولينقلها الى عالم الوجود النابض الحى . لذلك يصبح طائر الخيال طائرا خفيفا ، ذا لون أزرق صاف يجذبها معه فى رحلته خارج أطر الزمان الى بلاد الاحلام السعيدة . (٦٩)

ويقوم حلم الطهارة والصفاء ، الذى يمثل جوهر حلم الطيران ، من جهة أخرى ، باحداث تبديلات رائعة ومذهلة بين الصور الخيالية التى يفجرها ، فحرارة الطائر الداخلية ، مثلا ، تصبح ((**نار الصفاء الاولى**)) ومصدر الطاقة الدافعة له . كذلك هى تكمن وراء تصورنا للطيران على أنه ((**دفعة ساخنة**)) الا أن هذه الصفات المادية للصور ، ان جاز هذا التعبير ، لن تفلت من عملية التقييم . لذلك يقوم طيران العصفور الازرق ، الذى يستمد من السماء لونه وشفافيته ، بتمثيل حلم السعادة المضىء ، بينما يمثل الخفاش نوعا من الكابوس الاسود ويرمز الى معانى الدناءة والتشاؤم والشر . (٧٠)

وبما أن حلم الطيران حلم مجرد ، فان خيال الشاعر لا بد أن يستمد من العناصر بعض سماتها التصويرية . على هذا النحو ، نرى فى عالم الرسم ، مثلا ، أن حلم الطيران يستمد مادته أو يستلهم صوره من ((**حلم السباحة**)) ، فالملاك الطائر هو ، فى الحقيقة ، ملاك ((سابح)) يشق عنان السماء ، الا أن الاتجاه الصاعد لا يضيع ، مع ذلك ، لاننا ننتقل من عالم الثقل الى عالم الخفة والرشاقة كذلك يظل خيال الحركة محتفظا بأهميته ، بالنسبة للخيال الصورى ، لان الرسام غالبا ما يصور عملية الصعود فى خطوط رفيعة متصاعدة ، وأجمل مثال لطغيان صور الحركة على الجوانب الشكلية ، هو هذا البيت الجميل الذى يختاره باشلار من شعر ((**وليم بليك**)) : ((لقد اتخذ طائر البحر من دفعة أنواء الشتاء رداء .)) (٧١) حيث تستمد الحركة صورتها الرائعة من ثنايا الرداء الذى جعلت تعبث به الرياح والامطار . كذلك يلعب طائر القبر فى شاعرية الفضاء عند ((شيللى)) دورا كبيرا فى اضفاء الحركة والصوت على السماء : **((فالقبرة ، مثل السحاب النارى ، تعير أجنحتها للعمق الازرق . وبالنسبة لقدرة شيللى ، تعد الاغنية انطلاقة ، كما تعد**

---

(٦٩) نفس المصدر ، ص ٨٠ - ٨٣

(٧٠) نفس المصدر ، ص ٨٦ - ٩٠

(٧١) الخيال الدينامى بالغ الاهمية فى الشعر العربى ،ونسوق للتدليل على ذلك بعض الامثلة الطريفة من شعر المتنبى . يقول الشاعر فى ذم اسحق ابن الاعور :

((وإذا أشار محدثا فكأنه ... قرد يقهقه أو عجوز تلطم

يقلى مفارقة الاكف قذاله ... حتى يكاد على يد يتعمم

حيث تمتزج الاصوات المعبرة مثل صوت القهقهة وصوت اللطم المكتوم مع صورة الحركة الهزلية التى لا تخلو من عملية تقييم اذ أن قذال المهجو يقلى أى يبغض الابتعاد عن صفقات اليد . وانظر كذلك الى هذا البيت الذى يشبه فى تركيبه بيت ((وليم بليك)) المذكور :

يهز الجيش حولك جانبيه ... كما نفضت جناحيها العقاب

الانطلاقة أغنية ، فالانطلاقة هى السهم المدبب الذى يخترق دوائر الفضة)) (٧٢)

اما القطب المناقض للصعود فهو ما يسميه باشلار ((**بالسقوط الخيالى**)) الذى يبلور ، عادة ،نوعا من **الخوف البدائى** لدى الانسان ، وهو خشية السقوط أو التردى من منحدر ، ولا شك ان هذه الخشية تعتبر العامل المحرك لما ينتابنا أحيانا من خوف وما يصيبنا من هلع حينما يسدل علينا الظلام ستائره السوداء المقبضة . هذا الخوف يرادف سقطة حقيقية فى هوة الدياجير ليتبعها ارتداد وهمى الى أصل النوع أو النشأة الاولى . غير أننا لا يجب أن ننسى قط أن المحور الحقيقى للخيال الدينامى يتجه الى اعلى وليس الى أسفل ، اذ أن صور السقوط ليست ، فى الواقع ، غنية بمعانيها أو بمغازيها بل على العكس ، انها تكسر من وحدة الدفعة وتعترض عملية الصعود العمودى للصورة ، علما بأن عملية الصعود هذه هى ارادة الحلم نفسه وغايته المنشودة . ان هذا الصعود يعد انتصارا على الثقل والجاذبية اللذين يشدان الانسان الى الارض ويعوقان ــ بالتالى ــ عملية نموه وازدهاره . ويمكن لصورة السقوط ، من جهة أخرى ، أن تعكس السمة المميزة لدينامية الخيال ، فتمثل لنا ضربا من ((الحنين)) الى العلو ، اذ حينما تكتسب هذه الصورة حركة وفعالية ، تصبح قوة مفجرة للمنحدرات والمساقط ، وحينما تتفاعل مع القيم الروحية تنسج خيوطا متينة مع الاحساس بالذنب وتصبح رمزاً للقلق . يقول باشلار : **انها تجمع بين القلق والسقوط ، وتوحد وحدة عضوية ــ من خلال وحدتنا المادية ــ بين ما يضغط علينا وما يطرحنا أرضا ، حينئذ يصير الفضاء القريب ، الفضاء الذى يجدر به أن يمثل حريتنا ، سجننا ، سجنا ضيقا ، كما يصير الجو خانقا .**)) (٧٣) الا أننا اذا كنا ، كما هو الحال فى تجربة ((نوفاليس)) ، الرباط المتين الذى يربط بين الارض والسماء ، سوف نصير حينئذ ((مادتين فى فعل واحد)) ، وفقا لازدواجية الخيال التى أشرنااليها من قبل ، فالحركة الخيالية ، كما يقول باشلار : ((**حينما تبطىء تخلق الكائن الارضى ، وحينما تسرع تخلق كائن الفضاء .**)) (٧٤) هكذا يصبح الثقل عند **نوفاليس** ، بفضل التوازن الدينامى ، علاقة غير مرئية تحافظ على تناسق الوجود وسلامة توزيع عناصره ، أي انها تلعب دور الجاذبية الارضية ، التى لولاها لتطايرت الاشياء وتبددت فى السماء . ويقوم الخيال ، بفضل هذه الخاصية ، بدور الوسيط بين الارض والسماء ويستطيع أن يبرز العناصر المشتركه والسمات المتقاربة بين الكائنات الارضية والكائنات السماوية ، فاذا كانت زرقة حجر السفير هى لازورد السماء ، فان زرقة السماء هى نوع من هذا الياقوت المركز ، على هذا النحو ، نحصل علىنوعين من الخيال : **خيال النضوع والتفخيم، وخيال الكثافة والتركيز.** (٧٥)

ان صورة الصعود تمثل ، عامة ، القطب الايجابى لخيال الحركة ، وهو الامر الذى حدا بعالم النفس ((روبير دوزوال)) Robert Dosoille الى اللجوء الى هذه الخاصية النفسية ، وفق طريقة فنية تعتمد على خيال الصعود ، لمعالجة ظواهر الانطواء وازالة

---

(٧٢) نفس المصدر السابق ، ص ١٠٢

(٧٣) نفس المصدر ، ص ١٠٧ ــ ١٢٢

(٧٤) نفس المصدر ، ص ١٢٧

(٧٥) نفس المصدر ، ص ١٣٠

العقبات النفسية التى تحول دون تفتح الشخصية وانفراجها ، ويقوم منهج « دوزوال » على عملية التسامى أو تطوير خط تصاعدى يسمح بتحويل طاقة الاحلام الخيالية الى طاقة خلقية ونفسية . الا ان الخيال « الخلقى » هذا وارادة الاستقامة تلك ينتميان أكثر ، فى نظر باشلار ، الى عنصر المادة منهما الى عنصرى التعقل والفهم . لذلك يقول : « **ان السببية المثالية يمكنها أن تصبح سببية مادية حينما يتخيل الانسان أنه على اتفاق مع قوى العالم . وسوف يشعر الشخص الذى يحاول المساواة بين حياته وخياله بنوع من النبل المتزايد فى قرارة نفسه حينما يحلم بنمو عنصر أو يحلم بصعوده فى الجو .** » (٧٦) وغالبا ما ترافق ظاهرة الصعود هالة جوية من الالوان الزاهية المضيئة اذ سرعان ما يصبح الهواء ذهبا ولا زوردا . كذلك يفيد الصعود ــ لدى التحامه بخفة الهواء ورقته البللورية ــ من رمزية الماء ، فيغمرنا حينئذ بضوئه السماوى (٧٧) .

ان ظاهرة الصعود الخيالى تلعب دورا كبيرا فى العالم النفسى والخيالى « لنيتشه » فيلسوف ارادة القوة ، الذى يرى فى عنصر الهواء مادة غنية لسعادة « فوق انسانية » ، فالفضاء العلوى ، بالنسبة لهذا الفيلسوف ، يعدالوطن الاسمى بدعامتيه **البرودةوالعلو** . ويمثل الهواء ، لديه ، مادة الحرية ولبهـا الاصيل ، المتجرد عن كل صفة بالقدر الذى يسمو بنا على كل تجسيد واقعى ، لذلك يمكنه أن يبلور ، بجدارة ، رؤية الفيلسوف للانسان فى تطابقه مع حركة الصيرورة الشاملة . وبما أن الهواء ، من جهة أخرى ، يعد رمز الارادة الخالصة ، ففى قدرته طرد الروائح الكريهة وما يلازمها من أحاسيس ارضية ثقيلة . اننا فى عالمه اللافح نستيقف على اللحظة الحرة ، اللحظة القوية ، المحفزة ، وبما أنه لا يتضوع الا فى الاعالى الشاهقة ولا يتنفس الا على القمم الشامخة . فهو موطن البرودة والصمت . كما أنه ، بفعل ازدواجية الخيال ، نار التوتر الشفافة ، مجهود الصعود ، غضب الصاعقة وريق السيف المصلت . هكذا يكتسب الهواء ، بفضل عملية التقييم الخيالى ، صفتين أساسيتين : صفة **المادة** وصفة **القوة** . (٧٨)

ان الهواء يذكر الالباب بموطنه الشاسع ومملكته السماوية الزرقاء حيث يتيه ويصول بل انه ليصبح هو ذاته ، بعد تحول رائع وعجيب ، جزءا من القبة الزرقاء التى سرعان ما ترمز ، فى لغة الخيال الدينامى ، الى ارادة التحرر من اسار المادة والى الرغبة القوية فى الخفة والرشاقة والشفافية . ان هذه الزرقة فى نظر باشلار ، لون يميل الى الشحوب ، كما أن الشحوب يتوق الى النعومة ، نعومة الثوب الحريرى الذى يكاد يذوب رقة ولينا وحينما تصبح زرقة السماء عنصرا هوائيا صرفا ، أي حينما تتقمص أقل العناصر سمكا أو كثافة ، فانها تستطيع التعبير ، كما هو الامر عند « كولردج » ، عن جوهر الشعور ، الشعور الغائم الذى لا موضوع ولا حدود له ، والكناية عن نزعة التسامى ، هذه القوة المركزية الطاردة فى الانسان . أما عند الشاعر « اليوار » ، فالزرقة تمثل الطهارة عينها وقد التقطها حدس الشاعر وحسه المرهف فى دفعة واحدة غامرة وشاملة . **وهذه الطهارة بالنسبة لشاعر الهواء ، «صباح مطلق» وشفافية لامتناهية تلتقى فيها ذات**

---

(٧٦) نفس المصدر ص ١٣٠

(٧٧) نفس المصدر ص ١٣٧

(٧٨) نفس المصدر ، ص ١٥٢ ــ ١٦٠

الحالم بحلمه حتى ليصيرا كلا متكاملا لا فاصل بينهما ولا عائق . (٧٩)

أما **الكواكب والنجوم** فتثير انماطا اخرى من الاحلام والخيالات يرتكز معظمها على صورةالبطء والسفرالبعيدبين« قلائد »السماء المضيئة ولآلئها المتناثرة . ويلعب هذا البطء فى السماء المرصعة بالنجوم دورا مهدئا بالنسبة للنفس القلقة ، اذ انه يضفى عليها مسوح الهدوء وسمات السكينة والوقار ، ان هذا البطء الخيالى يوقف لدينا عجلة التفكير الدؤوب ، ويذيب المشاغل والهموم السريعة المتتالية التى تملأ علينا صدورنا وتمسك بنا فى دوامتها الصاخبة ، حتى تتاح لنا ، فى لحظة من لحظات الخلاص المفاجىء ان نتأمل جدية الحياة ووقارها وأن نعجب بطابعها الرصين المهيب . ان النجوم ، حينما تتلألأ فى السماء ، تثير لدينا أحلام الرؤية البعيدة وخيال النظرة الممتدة الى اغوار الزمان السحيقة ، اذ أن كل جسم له ضياء أو بريق هو نظرة ، نظرة عميقة نافذة توحد بيننا وبين السماء . (٨٠)

وتثير **السحب** ، من جهتها ، أحلام السهولة والحركة وخيالات الخفة والنزق . والخفة ، كما نرى هنا ، تكتسب معنى التقلب والطيش ، بينما كانت فى الصورة السابقة تعنى خفة الوزن والتحرر من قيود الجسد ، الا ان السحب تستطيع أن تقوم أيضا ، بسبب قدرتها الفائقة على التحول والتغير ، بدور الخيال الخلاق ، صانع المعجزات .وهى لا ترتبط فقط بالصور المرئية وانما تتحكم كذلك فى صور اللمس التى تعبر ، عند الكاتب « **سوبرڤيل** » مثلا ، عن حركات الفنان أو الصانع التشكيلى . ونظرا لقدرة السحاب الأبيض على تمثيل حلم الحركة والمهارةوخيال الطراوة والالوان الباهتة ، فانه يرمز ، فى يسر ، الى صور الصعود والتسامى بالرغبات التى لا تكف عن التوالد.أما السحابالرمادى، المثقل بالمطر ، فانه ، على العكس من ذلك ، يمثل تهديدا لنا وقوة سوداء مسلطة على رؤوسنا ، فبدلا من أن نصعد معه الى عليين ، نصعق أو نخفس فى أسفل سافلين . (٨١)

وتقوم احلام « المجرد » مثل احلام النجوم ، على تصورات التحول البطىء والتبديل الفوضوى ، كما انها بما تحتويه ــ فى دنيا الخيال ــ من عناصر لزجة ورخوة، تذكرنا باللبن والعجائن ، الأمر الذى يساعد على انبثاق خيالات الانفتاح والغليان .ويذكرنا باشلار فى هذا الصدد بأقوال « **اندريه ارنيفالد** » المتمة : « **كنت أرى نوعا من الفوضى النابضة بالتوهج، وعجينة منالسحب النارية متغيرة الأبعاد والكثافة والامتداد أبدا. وكانت خصلات شعر اللهيب المدببةوانتفاضات طرته تمتد فى كل صوب ،كما كانت افرازاته الفائرة تتطاير ، عند التقائها ببرد الفضاء ، فى صورة رذاذ من الجمر المتقد .** » (٨٢)

بالنسبة لأحلام الصعود ، تستطيعكذلك صور الشجرة توليدها ، لأن هذه الصورة توحى بالعمودية والاستواء ، والشجرة المقصودة هى ، بالطبع ، الشجرة الباسقة التى تطل براسها شامخة على الاجواء العليا . ان هذه الشجرة تطلق أحلام الانسان المتكىء الى جذعها نحو آفاق تلتقى فيها السماء الممتدة مع قمم الاشجار البعيدة والفضاء الكونى . وهى ، من جهة أخرى ، باحتوائها

---

(٧٩) نفس المصدر ، ص ١٩٢

(٨٠) نفس المصدر ، ص ٢٠٢ ــ ٢١٠

(٨١) نفس المصدر

(٨٢) نفس المصدر نفس المصدر ، ص ٢٢٥ ــ ٢٢٩

فى أعاليها ((**العش المعلق**)) تفجر خيالات التسلق وحلم الحركة المتأرجحة فوق الهوة السحيقة التى نخشى السقوط فى فتحتها المترقبة . الا أن هناك اهتزازا آخر اكثر اتزانا تبعثه صورة العصفور المتأرجح على الفرع المائس . كما أن الشجرة ، بالاضافة الى ذلك كله ، كائن حى يعيش وينبض ويئن تحت وطأة الريح العاتية كما يتعذب ويكافح ويقاوم ، غير أن هذا الكائن ، بفضل ماء الحياة الذى يدب فى عروقه ، أقوى من الزمن، الا نراه يتحدى العصور ويتيه مختالا على نغمات الأبدية ! (٨٣)

اما الريح ، فهى تمثل غضبة الهواء وثورة الكون الخالصة ، ثورته العفوية التى لا تقوم على حجة ظاهرة ولا تستند الى سبب واضح . ويبدو ان هذه الثورة او الغضبة العفوية هى المبدأ الأول للارادة والخيال ، أليست أساس « الزوبعة » الاولى التى بثت الحياة فى الكون ومصدر ((**الصرخة**)) التى ولدت الكلمة وفجرت ضياء الفكر . الا أن الصرخة ليست دائما علامة القوة أو رمزا لغضب الرجولة اذ غالبا ما نراها ممزوجة بأصوات الشكاية وانفاس القلق المتقطعة . ان الريح فى جبروتها كائن عات وقوى ، ولكنها حين ترق وتهدأ سورتها تصبح كائن النسيم الرقيق الحنون الوديع . (٨٤)

والهواء ، اذا نظرنا اليه نظرة أعمق ، نراه يجسد نفخة الروح ولفحة الوجود ، انه ينبوع الالهام الذى تتدفق منه القصيدة وتستمد منه حياتها وايقاعها . وهو حياة الشهيق ونفس الزفير فى جدلية التنفس الثنائية . **لذلك نراه ينفذ الى صميم العملية الشعرية فى صورة نبضات وحركات تتآلف مع ايقاعات الأبيات وتنسجم مع تتالى المقاطع.** ان الشعر فى صورة الهبوب الذى يبدع نغمات العنصر الهوائى ، يبدو كأنه ((**الظاهرة الاولى لارادة الانسان الجمالية**)) ، فهو يعد ، فى قلب السكون الشامل ، **المفجر الأول لهذه الجذرية لدى الانسان ، ألا وهى حاجته الى تأكيد الذات والفناء . (٨٥)**

• • •

يتابع الكاتب فى مؤلفه عن ((**الأرض وأحلام الارادة**)) (٨٦) ، رحلته على أجنحة خيال الحركة . ونحن هنا بصدد تصور للمادة يربط بينها وبين **القوة العضلية** وبينها وبين المجهود والعمل الخلاق . ومن الواضح أن صورة المادة ، التى تبدو هنا كأنها أكثر التصاقا بالحياة الأرضية ، ليست انعكاسا لعملية الادراك ولا وظيفة تابعة للذاكرة . انها ترتبط كالمعتاد ، على ضوء منهاج يونج ، بنموذج أولى ، غير أنها تصوغه وتعيد تشكيله بطريقة جديدة . وليست هذه النزعة التجديدية ، فى الواقع ، الا ابرازا لظاهرة الخلق والابتكار الملازمة – بالضرورة – للغة الشعر . **ان تصور الشعر هنا يقوم على مفهوم ((ارادة الجمال)) التى تعد فى نطاق الخيال ((طاقة سحرية حقيقية)) (٨٧)**

تقوم الطاقة الخيالية على محورين أو اتجاهين رئيسيين . الاول ، نحو الظاهر ، والثانى **نحو الباطن** . ويقود الاتجاه الاول الى الاحلام الدينامية الفعالة التى تقوم **بتحويل**

---

(٨٣) نفس المصدر ، ص ٢٣٢ – ٢٥٥

(٨٤) نفس المصدر ، ص ٢٥٦ – ٢٦٥

(٨٥) نفس المصدر ، ص ٢٧١ – ٢٧٨

(٨٦) Gaston Bachelard, La terre et les reveries de la yolonté., op. cit.,

(٨٧) نفس المصدر ، ص ١ – ٩

المادة وتمجيد ارادة الذات الحالمية . اما الاتجاه الثانى ، فيرتبط بعملية استبطان الخيال وارتداد الحلم الى ذات الحالم معبرا بذلك عن رغبة عميقة فى الراحة والتمتع بجوهر النفس الحميم . ولقد رأينا ، فى كتاب باشلار السابق عن « **الارض وأحلام الراحة** » ، امثلة عديدة على هذا الاتجاه الاخير . لذلك لن نعنى هنا الا بالاتجاه الدينامى الظاهرى .

ان مقاومة المادة تتخذ شكلين من أشكال العناصر : **الليونة والصلابة وهما** شكلان من السهل تحويلهما الى استعارات وصور شعرية انه يجب أن ندرك ، مع ذلك ، **أن تصور المقاومة ليس موضوعيا خالصا اذ انه لا يمكنه ان يلغى كل علاقة مع ارادتنا « المضادة » للأشياء .** وليس من شك فى انه من خلال هذه العملية الجدلية ، التى تخلقها المقاومة بيننا وبين الأشياء ، يستطيع كياننا أن يستيقظ على « **أسرار الطاقة** » وان يلتقى مع قدره الكونى . ان المقاومة الخيالية ، فى الحقيقة ، ليست مجرد مقاومة ، فهى تفترض فى العناصر عمقا معينا وغورا خاصا ، كما أنها تضفى على العالم والوجود نوايا من الصراع والتحدى والعناد . يقول باشلار فى ذلك : « **لا بد للخيال من حيوية جدلية ، تعاش على أنها اجابات الموضوع على أعمال عنف مقصودة ، كما تعطى للعمل دوره كمبادرة استفزازية .** » (٨٨)

ان مقاومة المادة ترتبط بالعامل أو الصانع عن طريق فعل العمل نفسه ، الذى لا يمكنه الانفصال عن ديمومة معينة للمقاومة . ومن خلال هذه الديمومة « المادية » يمكن للكائن أن يتحقق كبعد من أبعاد الصيرورة وأن يحقق نوعا من الارتقاء الأصيل .. ان الشىء باختصار ، يقدم مادة معينة للارادة واطارا زمنيا لنشاطها ، الأمر الذى يدعم قوته ويزيد من حدته من جهة ، كما يدفعنا الى مضاعفة الجهد وقبول التحدى من جهة أخرى . ان مقاومة المواد الصلبة تفجر نوعا من العنف الشديد القاسى ، بينما مقاومة المواد اللدنة تتطلب بعض المرونة أو ما يسميه باشلار « القوة الخبيثة » . وهكذا يستمد شعور العداوة صفاته من المادة ذاتها ، التى تزودنا ، على هذا النحو ، قوة خلاقة جبارة وتملأنا بمشاعر الخلق العظيمة . كما أنه يبدو من خلال علاقاتنا الجدلية مع العناصر ، أن المقاومة الحقة تثير كثيرا من الأحلام الدينامية التى تثير ، بدورها ، مقاومة كامنة فى قلب الأشياء . **لذلك لا بد لجدلية المادة المشغولة واليد الصانعة أن تنتمى الى خيال الطاقة وقوى التجاوز والنمو الوجودى ، فهى فى جوهرها عملية تحد وارادة تغيير وتمجيد.** (٨٩)

تطور المقاومة ، اذا نظرنا اليها من المنظور الاجتماعى ، نوعا من « سيكولوجيا التضاد » ، التى تقوى روح التحدى والمعارضة كما تبرز الصراع النفسى بين الانا والأنا الاعلى ، اى بين الذات والمجتمع بما يمثله من عادات وقوانين ضاغطة ، الأمر الذى يدعم قوة الشخصية ويحول بينها وبين الطمس والاندثار من قبل القواعد والتقاليد الجمعية . ان الشخصية تكتسب قوة ومناعة فى حالات التوحد ، كما تكتسب نفاذ البصيرة والقدرة الفائقة على التغيير والتجديد . انه يوجد هنا ، وفقا لباشلار ، جانب « مادى » يزج بالارادة الانسانية فى مواجهة مباشرة مع الطبيعة بعيدا عن حياة الجماعة وتقاليدها ، الأمر الذى يتيح « **لوظائف اليد الدينامية** » البزوغ من « **لا شعور الطاقة البشرية** » ، بعيدا عن كل ضبط عقلانى وبمنأى عن كل ضغط واع . ان الارادة ، التى يعنيها الكاتب ، هى هذه « **الارادة العاملة** » **التى تمثل قوة**

---

(٨٨) نفس المصدر ، ١٠ ـ ٢١

(٨٩) نفس المصدر ، ص ٢٢ ـ ٢٧

فعلية من قوى التحويل والتشكيل ، والتى تتجلى فى العمل المباشر والاتصال الملموس مع المادة بعيدا عن جميع المظاهر والتقاليد الاجتماعية . تضع هذه الارادة العامل فى قلب الوجود ، وليس فى قلب الجماعة ، وهى تخضع لقوتين من قوى الخيال : **قوة اللهب وقوة البلل** ، بعبارة أخرى ، انها تتوزع بين عالم الحداد الذى يعالج المواد الصلبة وعالم صانع الفخار الذى يشكل الاجسام الرخوة . هى ، باختصار ، قوة الخلق التى تفجر فرحة الصانع وتعد احدى محفزات عمله الأساسية ، والمجهود المرح الذى يصاحب العمل ، أكثر من كونها علامة الرضا التى تبرز فى نهاية العمل المتقن . (٩٠)

ان المعالجة اليدوية للمادة تعد بمثابة نفاذ الى قلب العناصر وانفتاح للخيال على ثروات هائلة سواء أكان الأمر متعلقا بالذات الحالمة أو بموضوع الحلم ، انها تشبه ، فى عالم الخيال ، حركة النغم أو الايقاع الذى يربط بين المستويين : مستوى الباطن ومستوى الظاهر ، فيبعث فى نفوسنا تارة أحاسيس التفوقع والاستبطان ، وتارة أخرى مشاعر التألق والظهور . ان الأحاسيس الاولى تفجر ضروبا من الحيلة والمهارة فى مواجهة المقاومة العنيدة والخفية للمادة ، أما الأخيرة فتبلور نوازع القوة التى تتطلبها المقاومة الصريحة والمباشرة لبعض العناصر . (٩١)

ان مقاومة المادة أو العالم تحرك « ارادة عاملة » ، وتثير موقفا ديناميا يتعارض مع حالة التأمل لدى الفيلسوف أو الحكيم . الا أن العالم ، بالنسبة لليد العادية ، قوة عاتية ، ويمثل بالمقارنة الى عجزها مجموعة من القوى الغامضة المجهولة والطاقات السحرية اللاعقلية . أما بالنسبة لليد المسلحة بالآلة ، فان مقاومة الأشياء تصبح محفزة ، دافعة الى مزيد من الجهد ومطورة للخيال المبدع والارادة الخلاقة المبتكرة . لذلك نرى أن معظم أحلام الارادة ترتبط بتصورات الآلة وقدراتها اللا متناهية ، كما نرى أن الارادة العاملة تعنى بالوسائل بقدر ما تعنى بالغايات ، أى أن الغاية والوسيلة لديها تمتزجان . ان هذه الارادة الصانعة تعتبر هجوما مباشرا وصريحا ضد الواقع . لذلك يقول باشلار فى ذلك : « **يرتقى عالم المقاومة بالذات الى مرتبة الوجود الدينامى والى صيرورة الوجود النشطة الفعالة ، ومن ثم الى وجودية القوة** . » (٩٢) وتتخذ هذه الوجودية أشكالا مختلفة ، فهى تصير ، على المستوى الاجتماعى أشبه بما يسميه « **جان بول سارتر** » « سوء النية » La mauvaise foi أى أنها تلبس رداء النفاق وتضع قناع المداراة والحيلة ، وهى ، على المستوى العضوى أو الطبيعى ، تشكل ضربة جانبية ونوعا من السادية الملتوية . (٩٣)

ونحن اذا نظرنا الى عصرنا العلمى على ضوء تاريخ التقنية وفنون الصناعة ، نجده قد أبعد الانسان عن أوليات أو قبليات المادة ، لأن التقنية تعد المواد وتجهزها بحيث تتلاءم مع حاجات محددة ، بيد أن الأمر يختلف تماما فى العمل البدائى ، اذ أن المادة هى التى تحدد فيه وظيفة الآلة على هذا النحو ، تساعد العظام ، كمادة صلبة ، على صنع الادوات الثاقبة ، كما تساعد عروق الشجر ، كمادة لدنة ، على صنع الأربطة ، ومع ظهور فنون النار تبزغ الى النور قدرات

---

(٩٠) نفس المصدر ، ص ٢٩ ــ ٣٢

(٩١) نفس المصدر ، ص ٣٣ ــ ٣٥

(٩٢) نفس المصدر ، ص ٣٧ ــ ٣٩

(٩٣) نفس المصدر ، ص ٤١

تحويلية أخرى ، لأن النار قد هزمت المادة فى الصميم ونفذت الى أسرارها الاولية . وهكذا يمكن للخيال الدينامى أن يتضوع وان يحلق ، كما يمكن للتصور الدينامى للوجود أن ينشأ ويترعوع . وتمثل هذه اللحظة ، لحظة ظهور خيال الحركة النشط الخلاق بداية دخولنا الى عالم « **القوة المنظمة** »وبداية قدرتنا على قهر بواطن العناصر الخفية وعلى تحرير الصانع من كل « **أوهام الدفعات البدائية** » وبهذه الطريقة ، يستطيع الصانع، بعد أن تحرر ، وبفضل مجهوده وطاقات عمله المبدع ، **أن يتجاوز موقف الفيلسوف التاملى الكسول** . (٩٤)

ان الاداة او الآلة لا تنفصل ، فى خيال الحركة ، عن المادة ومقاومتها بالقدر الذى تتجاوب فيه هذه مع دفعة اليد وديناميتها الخلاقة ، وهذا امر يجعل من كل قدرة على البراعة والمهارة مصدر احساس بالقوة لا تنفصل فيه الارادة عن الخيال ، فكل خيال مادى ــ فى نظر باشلار ــ يدفعنا الى الحركة ويلزمنا بها . والمادة ، بالفعل ، لا تكون جامدة أبدا ، لأن الصورة التى نضفيها عليها لا يمكن فصلها عن قدر من « **التوتر المادى** » الذى نعيشه فى علاقتنا معها ، والذى يشكل ، ان صح هذا القول ، معناها ومغزاها بالنسبة لنا . (٩٥)

ان خيال المقاومة يتجسد فى شكل استعارات تبلور صفات الصلابة والليونة ، وهى صفات لا يمكن فصلها ، فى حد ذاتها ، عن عملية التقييم التى تقوم بها تلقائيا الذات الحالمة . لهذا السبب ، يعتقد باشلار أن صورة الصلابة تتحكم فى ظاهرة ادراكها نفسه بحيث تصبح الذات : « **مصدرا لقوة انسانية، علامة للغضب أو للكبرياء وأحيانا للاحتقار**»(٩٦)

ويذهب باشلار الى حد القول **بأن عملية التقييم الذاتى هى ، فى حد ذاتها ، أساس الواقع الموضوعى لأنها هى التى تحدد معناه وتضفى عليه طابع الصلابة كسمة مميزة .** بهذه الطريقة ، لا تستطيع صورة شجرة الصنوبر ذات العقد ان تكتسب كل قيمتها التعبيرية الا محمولة ضمنا بصورة الحبل المعقود او العقدة المحكمة . وخيال الصلابة ــ عامة ــ ذو طبيعة مزدوجة ، فهو اما تعبير عن قوة دعم ومساعدة ، واما بلورة لحالة من النفور على اثر توقف لدفعة أو تحطم لانطلاقه . وفى كلتا الحالتين ، لا يتعلق الأمر بموقف معين بقدر ما يتعلق بحركة أو طاقة خيالية تضفى طابعا ديناميا على المحيط . على هذا النحو ، تصبح الصلابة لونا من النشاط او الفعالية التى توقظ الضمير النائم وتقضى على حالة الرخاوة الملازمة لحلم النائم . (٩٧)

وتعبر صورة العجائن عن احلام وسطى تجمع بين الصلابة والليونة وعن مزيج فعال يؤلف بين الماء والتربة ، الأمر الذى يتيح لها ، فى منظور التحليل النفسى ، القدرة على الكناية عن الجنس والاشارة الرمزية الى ملابساته . غير أن باشلار **لا يعتقد بان الرمز مطابق لذاته مثل الصورة ، اذ أن قدرته التعبيرية تكمن فى حالته او اشارته الى الآخر ،** اى أنه ذو طبيعة مفارقة بالضرورة . اما

(٩٤) Pierre Quillet, **Bachelard.** Paris, Seghers, 1964.
تسمع هذه المفاهيم لهذا الكاتب بتقديم « الباشلاردية » علىأنها فلسفة للعمل الخلاق من أجل ذاته ، وليس كصيغة كشف للوجود او كمشروع نتجاوزه بالتامل على طريقة هيدجر ... » راجع ص ١٠

(٩٥) باشلار ، المصدر السابق ، ص ٥٣ ــ ٥٦

(٩٦) نفس المصدر ، ص ٦٤

(٩٧) نفس المصدر ، ص ٦٥ ــ ٧٢

الصورة — كما يفهمها باشلار — فلا يمكنها ، على العكس من ذلك ، أن تحصر فى دور ثانوى أو أن تعبر على مستوى الوعى عما هو ضمنى أو غير معلن . ان باشلار ، يحدد ، بهذه الطريقة ، **وظيفة الصورة الدينامية فى ذروتها على تحريك الامكانيات الخيالية الكامنة فى مستوى الكلام فقط . ونستطيع** ، مع ذلك على ضوء هذه المفاهيم الظاهرية — وبفضل الصفتين الأساسيتين للعجائن وهما الصلابة والمرونة — الوصول الى حياة خيالية خصبة، ولكنها فى جوهرها لا تخرج عن نطاق هاتين الصفتين ، فالمرونة — مثلا — توقظ فينا مشاعر الرقة والحنان ، والصلابة ، التى نجربها أو نحس بها خلال عملية الخبز ،يسهل تصورها فى هيئة صيرورة العجينة وتطورها. يقول باشلار : « ان عملية الخبز تبدو لنا هكذا كصيرورة كبرى للمادة ، صيرورةتنطلق من الشحوب الىالحالة الذهبية، ومنالعجينة الى قشرة الرغيف . » (٩٨) بالاضافة الى ذلك ، تقدم عملية الخبز باثارة مجموعةمتنوعة من الصور التى تربط بين الخباز وبين نار الفرن ، فهذه النار ، بدلا من أن تفزعالخباز وتدفعه الى التقهقر ، تحفزه وتثيره وتلهب حماسه وتشعل حميته . ان الصانع ، على هذا النحو ، يشارك فى عملية الاشتعال والحرارة مشاركة فعالة وليس مشاركة تقوم على التأمل والترقب ، انه يشارك العجينة نموها وتطورها ، ويمر بجميع المراحل التى تمر بها من حالة الرخاوة والضعف الى حالة الصلابة الذهبية والمتانة المتباهية . (٩٩)

اما الرخاوة ، فيمكن للصانع ، الذى يجمع بين الارادة والخيال فى عمله الخلاق المجدد ، ان يتصورها كمرحلة انتقالية عليه أن يتخطاها ، وكوضع مؤقت عليه ان يتجاوزه الى ما هو أسمى وامتن ، فسمك المادةوطابعها اللزج اللذن صفات لن تكون أبدا ، بالنسبة له ، غاية فى ذاتها ، اذ انها لن تتعدى كونها جزءا أو مرحلة من العمل الواجب انجازه . ومع ذلك ، فبالنسبة لفيلسوف مثل **سارتر**، الذى يفضل البقاء ، فى رواية « الغثيان » بالذات ، فى حالة الرخاوة على ان يقوم بتشكيلها ، فان لزاجة المادة تصبح لديهمرضا من أمراض النفس وعلامة من علامات الضمير الشقى . (١٠٠) **ان اللزاجة تمثل لديهالانحلال التام للكائن — من — اجل — ذاته** Le pour-soi **أى الانسان وذوبانه فى الكائن — فى — ذاته** Le'en-soi **أى المادة أو الموضوع المتشىء الأمر الذى يعوق قيام علاقات فعالة بين الانسان وعالم العناصر والأشياء** . الا أن باشلار يتغاضى للأسف فى هذا المجال عنحقيقة هامة وهى أن القيمة الاخلاقية عند سارتر ، وان كانت تقوم على أسس تاريخية ، ليست فى لزاجة الكائن — فى — ذاته وانما فى المجهود الذى يبذله الانسان لانتزاع حريته منها ، وعلى هذا الاساس ، نرى أن معظم القيم الحقيقية فى رواية الغثيان تكتسب صفات الصلابة مثل اللحن الجميل والعالم التاريخى الخيالى الذى يعيش فيه البطل ليهرب من واقعه الرتيب البغيض (١٠١)

---

(٩٨) نفس المصدر ، ص ٧٤ ٨٥

(٩٩)نفس المصدر ، ص ٨٥

(١٠٠) نفس المصدر ، ص ١٠٨ — ١١٣ ، و ١١٥ — ١٢١

(١٠١) Marguerite Iskandar, **Les modalités de l'en-soi dens la Nausés.** Université d'Alexandria, 173, pp.33-43.

وفقا للباحثة ، التى اعدت هذا البحث تحت اشرافنا ، تعبرحالة اللزاجة عند سارتر عن مجموعة الصفات السلبية مثل الكسل ، العفونة ، عدم الاستقرار عدم التناسق . التقلب.العجز والتحلل ، بينما كل القيم المحررة للانسان تتخذ شكل الصلابة .

ان المادة المشغولة تثير احلاما وخيالات تصبح فيها الحركة العنيفة للايدى المدعمة بالادوات أو الآلة قوة هائلة من قوى الخلق والتحويل . وهذه الصورة تتحقق ، بشكل مدهش ، من خلال عملية **الحدادة** ، اذ أن عمل الحداد يتطلب ، بالفعل ، درجة كبيرة من المهارة والدقة ومجهودا محسوبا ، من القوة العضلية ، وسيطرة عظيمة على النفس . لهذه الاسباب جميعا ، يقول لنا باشلار بأن **«صور الحدادة فى الادب تعد من أعظم أحلام الارادة .»** (١٠٢) وتستطيع هذه الارادة أن تبلغ أبعادا كونية فى صورة **«الشمس الغاربة»** التى تفعل فعل **« مطرقة أسطورية »** وسحرية على **« سندان الأفق »** الارجوانى . الا أن هذه الصورة الغريبة ، التى لا يألفها الذوق العربى ، لا تكتسب معناها العميق ، بالنسبة للكاتب ، الا انطلاقا من خيال بروميثى ، مضاد لمبدأ السكون أو **«النيرفانا»** فى الديانة البوذية ، اذ انه بدلا من أن يصور الشمس فى هيئة كائن مسالم وهادىء أتى ليستريح على صدر الليل الحنون ، يتخيلها فى صورة مخلوق مكافح عنيف « يرغب فى الحصول على طاقة الفجر الكامنة خلف نيرفانا الليل الذى بدأ . » (١٠٣)

أما صورة الصلابة ، فيمثلها الصخر خير تمثيل ، لأنه يلازم فكرة الصلابة ، ويقدم أعظم نموذج لها فى شكل **« الجرانيت »** . اما ما تمثله الصلابة فى صورة الاحجار الضخمة ، عامة ، فمرتبط بمشاعر العظمة والجبروت واحاسيس المهابة والسيطرة ، وهو ما نراه جميعا فى الاهرامات وكثير من الآثار المصرية القديمة التى نشعر حيالها بالضآلة والانسحاق كذلك يمثل الصخر ، فى الأرض الوعرة المليئة بالمرتفعات والمنحدرات ، قوى الضغط والضيق ويبث فى نفوسنا احاسيس الانزعاج والخوف . أضف الى ذلك انه بصمته وجموده الخرافى يمثل قوة غامضة تتهددنا ، ولغزا محيرا مثل تمثال ابى الهول الذى يروعنا بصمته اللامتناهى وترتبط الصخرة عند كاتب مثل « رابلية » بصورة الضخامة المضحكة التى تعبر بدعوتها الى الهزل والمزاح ، عن رغبتنا فى حماية أنفسنا ضد مخاوف الانسحاق ، وهذا هو عين ما نعبر عنه بالعربية حينما نقول عن طويل البنية بانه « هبيل » . واخيرا تمثل الصخرة ، فى المحيط البحرى ، بكفاحها المستميت ضد الامواج العاتية ، نموذجا رائعا للشجاعة والشهامة ، كما تعطينا درسا عظيما فى التحمل والصمود . (١٠٤)

ويثير خيال الصخور ، من جهة أخرى ، صور التحجر والجمود التى تقضى على نضارة الحياة وتبث فينا احاسيس العنف والعداوة ، وهو خيال اسود يغلب على شاعرية «هيزمانس» Huysmans الذى يكلف بالخبث والقروح وتقوم العلاقة عند هذا الكاتب ، بين الجرح والحجر على أساس التشابه الذى يربط بين صلابة هذا الأخير وبين بطء الحركة ، أو فقدانها الذى ينتاب الجريح . ان هذا التشاؤم الملازم لفعل التحجر ، يجعل من ضوء القمر لونا أبيض شاحبا يشبه شحوب الموتى ، ومن الصمت الكونى مواتا عالميا . ويمكننا ، كذلك أن نكتشف فى ظاهرة التحجر صورة من صور الغضب المكتوم والرغبات المكبوتة . الا ان ظاهرة التحجر تعبر عامة عند **« هيزمانس »** عن الاحلام القمرية القاسية الصعبة وعن احاسيس النتوء والخشونة والبرودة القارسة ،

---

(١٠٢) باشلار ، نفس المصدر ، ص ١٣٤ ـ ١٥٦

(١٠٣) نفس المصدر ، ص ١٥٧ ـ ١٦٥

(١٠٤) نفس المصدر ، ص ١٨٣ ـ ١٩٩

وهى ظواهر تعبر جميعا عن تشاؤم الكاتب الجذرى . (١٠٥)

تعبر الصور المعدنية أيضا عن انطباع الصلابة ، الا أن هذه الصور تبدو فقيرة فى الآداب المعاصرة ، لأن التقدم العلمى قد غلب المفاهيم العلمية على التصورات الخيالية للمادة . ولا شك أن باشلار يقصد هنا بالصور المعدنية تلك التى تقوم على تصور الخيال فى شكل طاقة عاملة أو صانعة والا لما أغفل أهمية الصورة المعدنية للجمال عند شاعرمثل **بودلير** الذى يولع بتصوير عشيقته السوداء « **جان دوفال** » فى هيئة التمثال المتناسق ويغرم بالاشارة المتكررة الى الحلى والاحجار النفيسة. اما بالنسبة للشعوب القديمة ، فان « **حلم المعادن** » كان يعبر عن ثورة النار وتأججها ، كما كان يبلور القوة البهيمة . وبالنسبة للكيميائى القديم ، فان النار لا تنفصل لديه عن الزئبق ، لان سيولة الزئبق ضرورة لاذابة المعدن . الا ان المعدن ، خارج اطار هذا التأثير القائم على مبدأ السيولة ، يعد كذلك رمزا للقوة والشباب الدائم ، وهو ، بفضل ماضية الممتد الى أعماق الزمان البعيد ، يرتبط بنشأةالحياة وبداية الزمان والوجود (١٠٦) .

اما بالنسبة للبلور ، فهو يطور أحلاما تتجاوز العنصر الارضي لانه يمزج في مرآته الصافية معظم العناصر من ماء وارض وهواء ونار . وتجمع البللورة بين ضياء الشمس الساطعة وبين صلابةالماس ، امابريق الماس فيصل الحلم البللورى بأحلام النجوم ، لان الاحجارالنفسية هىنجومالارض كما انالنجوم هىأحجار السماء النفسية. وبما أن البللورهو النور الشفافوالضياء الرائعة النقية فانه لا ينفصل عنحلم« اللانهاية ».انه يدفعالخيالالى التحليقفى السماء الزرقاء ،فى البحراللامحدود فى خضرة الغابة العميقة وفى الليل المرصع بالنجوم . وهو من جهة أخرى ، قوة تركيز عظيمة تلتقى فيها الورود مع الجواهروالجمال السماوى مع روعة الوجود الخيالية . وهو كذلك ، بصلابته وشفافيته ، ماء مجمد ، وبنقاوتهوطهارته، زرقة السماءالصافية وقد تجمعت أشعتها فى حجر السفير . اما الماس ، الذى يجمع بين ضوء النهار ونور الحجار وبين لألاء النجوم وبريق العيون الفاتكة ، فيبلور ، على السواء ، ارادة الهيمنة وقوة التنويم . (١٠٧) كذلك تحظى الجواهر والحلى بقدراتخارقة أخرى . فهى صافية شفافة مثل ماء الينبوع،ملساء ناعمةمثل الحرير ،صهباء متقدة فى لون اللهب . وهى تعبر ، على مستوى الذات الحالمة ، عن رغبة فى التألق والظهور ، والزهور والخيلاء ، اذ أنها تردنا الى مرآة النظر المتباهية وعين الفتنة الزاهية . ان الماس ينظر الينا فعلا ، ويثير فينا أحاسيس الشهوة والطمع وحب المشاركة فى بريقه وفى جماله السرمدى . اما اللؤلؤة فماء مقطر ونَدىالصباح البلورى الذى أودع جواهره السماويه بين أيدى أزهار الحديقة ، وفجر صبوح منعش يحقق للانسان السعادة والفرحة والنعيم . (١٠٨)

وكما سمح خيال الهواء باعداد نوع من « سيكولوجيا » الصعود ، فان خيال التربة يسمحباعداد مايمكن تسميته « **بسيكولوجيا الثقل** . وهذه الصورة الاخيرة ليست الا الحركة المقابلة الحركة الاولى فى جدلية

---

(١٠٥) نفس المصدر ، ص ٢٠٦ ـ ٢١٥

(١٠٦) نفس المصدر ، ص ٢٣٣ ـ ٢٤١

(١٠٧) نفس المصدر ، ص ٢٩٠ ـ ٣٠٧

(١٠٨) نفس المصدر ، ص ٣٠٩ ـ ٣٣٠

الصعود والهبوط والتجاذب بين الاعلى والاسفل ، اذ أنه من الصعب ادراك الثقل من غير تصور الخفة أو العالى من غير تصور الدانى . ويعرفنا الكاتب كذلك أن « **نواة ثقلنا** » و « **حياة خفتنا النباتية** » تتكونان فى سريرتنا على شكل هالة نفسية أشبه ما تكون الى صورة المحبرة ، وغالبا ما يقوم الدوار ، بالنسبة لخيال الثقل ، بتحريك احاسيس السقوط السريع التى تدخل على نفوسنا الهلع والشعور بالوحدة المفاجئة ، وليس الدوار ، على كل حال ، الا حركة السقوط وما تفجره من فزع أولى كامن فى اعماق اللاشعور . (١٠٩)

وتقوم سيكولوجيا الثقل ، من جانب آخر ، على ثنائية جدلية تجمع بين حركتين هما **حركة الطاعة والخنوع وحركة المقاومة والتمرد** . وتقابل الحركة الاولى الصور الدينامية لعملية السقوط ، اما الثانية فتمثل حركة الانتفاضة والانطلاق . وتعبر ارادة الانتفاضة عن عملية التسامى التى يمكن اعتبارها من أهم وظائف النفس الدينامية ، ويسهل على هده الوظيفة ان تجد لها صدى فى حالات الصراع ضد احاسيس السحق والاختناق وحالات « **الطفرة العضلية** » امام قوى الطبيعة والوجود . وهنا يمكن ايجاد مكان لما يسمبه باشلار « عقدة اطلس » . فى هذه العقدة ، التى يحدث خلالها عملية تقييم شاعرية الحمل وحامله ، يكتسب اطلس ابعاد السيادة الكونية التي تتيح له السيطرة على العالم والتلذذ بمهمته الشاقة العسيرة .
ويقول باشلار بأن هذه العقدة : **تمثل التعلق بالقوى الخارقة .. بالقوى الهائلة ولكن غير الضارة ، بقوى لا يقصد منها الا مساعدة الاخرين ..** » (١١٠) الا أن أحب الناس لا يعد الوتر العاطفى الوحيد الذى تستطيع هذه العقدة أن تحركه ، اذ أن له أيضا جانبه العنيف والسادى ، فالصراع ـ مثلا ـ ضد الجبل هو رغبة في اثارته وفى السيطرة عليه. لذلك لا تنفصل هواية المتسلق عن ارادة القوة والتعطش الى الهيمنة والسيادة . واذا امتزجت هذه الهواية برغبة النظر الى الابعاد اللامتناهية وحب التمركز فى قلب الوجود ، فانه ـ لا شك ـ سوف ينضم اليهما أغراض وحاجات اخرى . مثل الشغف بالمشاهد العظيمة والبحث عن التفوق والسمو . (١١١)

• • •

هل يمكننا الان ، بعد تتبع مراحل نظرية او فلسفة الخيال عند جاسون باشلار، أن نتحدث عن تطور ما فى مفاهيم هذه النظرية،وخاصة فيما يتعلق بتعريف الصورة الخيالية وتحديد موقعها من الضمير المتخيل . اننا ، فى الحقيقة ، لا يمكن ان نصل الى ذلك عبر هذه الدراسة التى كرسناها فقط لما كتبه باشلار صراحة عن شاعرية الخيال ، المادى منه والدينامى . الا اننا اذا ادخلنا فى الاعتبار موقفه فى الدراسات «الابستمولوجية» سوف نرى **أنه كان فى البداية ينظر الى الصورة على انها عقبة فى تاريخ تطور العلوم**، وهذا صحيح فى موضعه ، لان تأسيس العلوم الحديثة تطلب ، كما يرى الكاتب بحق ، نوعا من « **الفصم المعرفى** coupure epistemologique الحاسم بين ماضيها وحاضرها ، وهكذا كان الامر بالنسبة الكيمياء الحديثة التى اسسها « لافوازيه » ، فهى ليست لها اية علاقة بكيمياء العصر الوسيط او بالكيمياء « الفلوجيستكية » phologistique وبالنسبة للطب الذى انفصل نهائيا عن

---

(١٠٩) نفس المصدر ، ص ٣٤٢ ـ ٣٥٢

(١١٠) نفس المصدر ، ص ٣٥٥ ـ ٣٧٢

(١١١) نفس المصدر ، ص ٣٧٣ ـ ٣٨٦

الخلفيات الفلسفية فى القرن التاسع عشر وبالنسبة للرياضيات التى نقلها نيوتن من مستوى الباطن الى مستوى الظاهر ، ولقد كانت حتى ديكارت وسبينوزا على انها ادراك لجوهر الاشياء كأنما للوجود طبيعة رياضية أو جوهر رياضى ، وقل ذلك تقريبا بالنسبة لمعظم العلوم . أما نظرة باشلار بعد ذلك ، الى **الصورة على أنها قيمة فى ذاتها ،** وكائن ممتلىء بذاته ، كما نرى ذلك بوضوح من خلال هذه الدراسة ، فلا نعدها تطورا حقيقيا بقدر ما نعدها اضافة الى ما سبق أو ــ بعبارة أدق ــ نوعا من رد اعتبار الصورة والخيال اللذين كانا يعدان أقل شأنا واحط قدرا من المعرفة العقلية . كذلك بالنسبة لنظرته الى فرويد واعتماده على يونج ، واذا كان لا يمكن ، بأية حال من الاحوال ، اضافة كلام يونج وخاصة ما يؤمن به من تصورات أولية ونماذج قبلية الى كلام فرويد ، الا أن ما يأتى به باشلار ، تلميذ يونج ، لا يقوض دعائم الفرويدية ، التى ما زالت تتجدد حاليا على يد **«لاكان»** ومدرسته البنيوية ، بل يضيف اليها ، فى نظرنا ، أبعادا كانت تهملها . **الخطأ اذن هو أن تقدم الحقيقة النفسية التى لا تكون حقيقة في الواقع الا بقبولنا اياها واقتناعنا بها ، من جانب واحد ، وأن تصور بعد ذلك على أنها المطلق الذى لايقبل التناقض أو الجدال .**

نظرية باشلار فى الخيال **لا تضع حدا اذن للتحليل النفسى الفرويدى ، انها** توضح فقط جانبا اخر من جوانب النفس البشرية ، وربما الجديد فيها خلال عبورها من اللاشعور الى الشعور ــ وهو عبور يخضع الحكم عليه للخطأ والصواب لانه فى ذاته حكم قيمة ــ هو **فى احلالها التفسيرات الغائية محل التفسيرات السببية ،** الا ان هذا المنحني لا يلغى ، مع ذلك ، كل الجوانب الاخرى المعتمة فى حياة اللاشعور ولا يلقى الضوء بالذات على تلك المنطقة من الظلال التى يرد اليها باشلار احلام الراحة والانكماش على الذات . والحقيقة ان الاضواء « الباشلاردية » لا تبدد ظلام اللاشعور ، وليس ذلك أيضا من مصلحتها ، لانها فى حاجة اليه لتقيم الجدلية الثنائية التى يكلف بها الكاتب ويقيم عليها مجمل نظريته . نقول باختصار : **ان الجوانب المشرقة ــ لا شك ــ موجودة فى الانسان ، ولكنها لا تكتسب جل معناها الا اذا أخذنا** فى الاعتبار الجوانب المظلمة فيه . وهذا هو عين العلاقة الفرقية التى أبرزها علم اللسان البنيوى ، والتى سبق أن أشار اليها بحدسه وحسه المرهف شاعرنا الكبير ابو الطيب المتنبي حين قال :

(ونذيمهم وبهم عرفنا فضله
وبضدها تتبين الاشياء)

أما بالنسبة للخلاف فى وضع الصورة الخيالية من الناحية « الانطولوجية » بين باشلار وسارتر ، فهو خلاف لا وجود له ، فى الحقيقة ، خارج تصور محدد الشاعرية اللحظة . واللحظة المقصودة هنا هى المطلق عينه الذى يتسنى لنا أن نعيشه من خلالها فى حالة تطابق تام بيننا وبينها ، فلا أمام ولا وراء ، ولا سابق ولا لاحق ، هى المطلق ، لانها لحظة الدفعة الحيوية ، لحظة الالهام المفاجىء التى يغمر الضمير بنوره ويملأ عليه كل دروب الوعى فلا يفلت منه الا بالصحوة أو باليقظة التى تهدد أركان الجسد وترضى النفس رضا فيصبح الشاعر أشبه بحالة النبى التى ترتعد فرائصه تحت وطأة الوحى . وهذه الحالة لا تقضى جذريا على مفهوم العدم السارترى ، **لان الضمير المملوء بذاته فى الصورة لايستطيع أن يظل على هذا الوضع الا مدة لحظة ، وهى لحظة التطابق بين الذات وموضوعها والغاء الزمن .** ويقول باشلار ، مناقضا نفسه مؤيدا هذه الفكرة ضمنا فى نقده لمفهوم الاستمرارية الزمنية عند برجستون : **« لا تعرف الاستمرار**

في الشعور أو في التأمل أو في التفكير أو في الارادة ، ان كيانها لا يعرف الاستمرار أصلا . لماذا اذن الذهاب بعيدا بحثا عن العدم ؟ ولماذا نبحث عنه في الاشياء؟ انه موجود بداخلنا ومتناثر على طريق ديمومتنا بحيث يقطع في كل لحظة ما نعكس به من حب أو ايمان أو ارادة أو تصور . » (١١٢)

ان العدم بهذا المفهوم لا يقل أهمية عن الكينونة ، اذ أنه علامة أقوى على صدق الحياة وسمة اليق بحرية الضمير ، **وان كانت الحرية ، عند سارتر ، صفة مجردة فى حد ذاتها لا تكتسب قيمتها ومعناها الا عبر « موقف » يحدد هويتها ويدعم جذورها .** وانى لفكرة العدم أن تكون غير ذلك عند باشلار صاحب مفهوم « الفصم المعرفى » الذى لا يمكن أن تكون له قائمة الا استنادا على فكرة انقطاع الاستمرارية التى تقوم بتحطيم سلسلة الفكر الخطى بحيث يتاح للعقل المبتكر أن يحدث طفراته المبدعة الخلاقة . ان الادراك الانطولوجى للصورة الخيالية ، عند باشلار ، يشبه كثيرا ، فى رأينا ، تعريف الحدس الذى يقدمه لنا « كونشفسكى » فى كتابه عن **« السيكولوجيا الدينامية والفكر المعاشى »** (١١٣) حيث يبرزه كصورة دينامية ، متحركة فجائية وقصيرة . ان الحدس ، عنده، يستمد جذوره من المادة ويفيد من الاحاسيس . لذلك يمكننا أن نقول عن الصورة الخيالية ، عند باشلار ، ما يقولة الكاتب المذكور عن الحدس بأنها « تفيد من كل احساس يعمل على التوازن الداخلى ويعمق الحساسية ويثير الاحلام . » (١١٤)

★ ★ ★

---

(١١٢) Gaston Bachelard, **La dislectious de la durée.** Paris, P.U.F., 1963, p. 29

C. Konczewski, **La psychologis dynamique et la pensée vécue.** Paris, Flammarion, 1970, p. 302.

(١١٤) نفس المصدر ، ص ٣٠٦

النصوص والاشارات
قراءة فى فكر رولان بارت

« الادب يمثل عالما لا متناهيا ، أما النص فانه يمثل لانهائية اللغة » .

احمد ابوزيد

أستاذ الانثربولوجيا بجامعة الاسكندرية
عميد كلية الاداب السابق بجامعة الاسكندرية

ربما كان رولان بارت Roland Barthes (١٩١٥ — ١٩٨٠) أكثر المثقفين الفرنسيين المعاصرين تأثيرا فى الفكر الفرنسي بعد سارتر الذى توفى على أية حال بعده بأسابيع قليلة .

وحين مات بارت يوم ٢٦ مارس ١٩٨٠ وهو لم يكتمل الرابعة والستين ، بعد أن دعمته سيارة يوم ٢٥ فبراير وظل طريحا فى المستشفى شهرا كاملا ، شعرت فرنسا والعالم المثقف بفداحة الخسارة ، وكان شعور من عرفه من المثقفين فى مصر بالذات اليما للغاية ، فقد عرفته جامعة الاسكندرية أستاذا بكلية الآداب في آخر الاربعينات وأول الخمسينات ، وهو لا يزال فى بداية حياته الفكرية الخصبة التى بدأت متأخرة بعض الشيء عن أقرانه نتيجة للمرض الطويل فى صباه وشبابه الأول . ولكن بارت لم يكن مع ذلك كاتبا عاديا كغيره من الكتاب الكثيرين الذين تمتلىء بهم الحياة الادبية والفلسفية والفكرية فى فرنسا ، وانما كان مفكرا ناقد النظرة عميق الفكرة ، بحيث نجد ادوارد روتشتاين Edward Rothstein يقول فى عرضه لكتاب « **برج ايفل وأساطير أخرى** » الذى يضم بعض مقالاته المترجمة ، وهو العرض الذى قدر له أن يظهر بعد موت بارت بأسبوع واحد « ان بارت لم يكن (متفرجا) عاديا حين كان ينظر الى باريس من اعلى برج ايفل الذي كان يعجب به أشد الاعجاب . ولقد شغل بارت في الحياة الادبية والفكرية فى فرنسا نفس المكانة التى يشغلها برج ايفل فى حياة باريس . فكما أن المرء لا يستطيع ان يذهب الى أى مكان فى باريس دون أن يحس بوجود برج ايفل العملاق ، كذلك لا يمكن للمثقف ان يذهب الى أى مكان فيها دون أن يحس بوجود بارت الذى يتغلغل فى كل الاوساط الادبية والفكرية ، ودون ان يسمع اسمه يتردد في هذه الاوساط ، ودون أن يرى كتبه معروضة فى المكتبات » ... ولقد عرفت تلك الاوساط الفكرية الراقية بارت كأحد « جماعة النقاد الأدبيين » ، بل ومن أكبر ممثلى تلك الحركة

النقدية الحديثة ، ولكنه لم يكن **مجرد** ناقد أدبى بالمعنى القديم الشائع للكلمة ، وانما كان **بطلا** من ابطال الفكر حسب تعبير جون وايتمان John Weightman الذى يقول في مرثيته التى نشرها فى **الاوبزرفر** يوم ١٦ ابريل ١٩٨٠ : انه ليس من المبالغة فى شيء أن نقول ان فرنسا فقدت بموته « بطلا قوميا » واحد « نجوم الفكر والثقافة » الذى انتخب منذ ثلاث سنوات فقط ، وهو فى الثانية والستين من عمره ـ لشغل كرسى « علم الاشارات » او السيميائية Semio'ogie ‏(١) ـ كما يحب جاك بيرك Jacques Berque ان يسميها . وقد انشيءذلك الكرسي خصيصا له فى الكوليج دوفرانس ، وكان ذلك بمثابة اعتراف جماعى بمكانته وتأثيره في الحياة الثقافية . ولذا فقد شعر الكثيرون من المثقفين فى انجلترا بالذات بان **جريدة التايمز** Times لم تكن منصفة حين وصفته بعد موته بأنه كان « ناقدا عميق التأثير » فحسب ، ورأوا فى ذلك القول (وصفا) شديد البرودة يبعث القشعريرة فى الجسم لأنه لايعطى فكرة واضحة عن مدى ما أسهم به فى الحياة الفكرية داخل فرنسا وخارجها على السواء ... فعلى الرغم من أن فرنسا تتغير ـ كغيرها من المجتمعات ـ بسرعة فائقة فانها لا تزال ـ حسب قول وايتمان ايضا ـ تحتفظ بخاصية أساسية فريدة ومميزة ، الا وهى القدرة الفائقة على خلق الشخصيات الفذة العملاقة ، او الشخصيات الكاريزمية ، الذين يمكن وصفهم بأنهم « أبطال الفكر » ، بنفس الطريقة والمعنى اللذين « تنتج » بهما روسيا « أبطال الشطرنج ولا تزال عبارة ديكارت الشهيرة :«انا موجود مادمت افكر » ـ لا تزال هذه العبارة الشهيرة

---

(١) كان أول من استخدم كلمة « سيميولوجيا Sémiologie **واقترح قيام علم يحمل هذا الاسم الذىيعنى « عام الاشارات » أو علم العلاماتهو العالم اللغوى الشهير فردينان دوسوسير** Ferdinand de Saussure **الذى يقول فى كتابه (دروس فى علم اللغويات العام** Cours de Linguistique Générale **الذى نشر عام ١٩١٥ : « ان من الميسور قيام علم يدرسحياة العلامات أو الاشارات فى المجتمع ، على أن يكون جزءا من علم النفس الاجتماعى ، وبالتالى جزءا من علم النفسالعام . وسوف أطلق على هذا العلم اسم علم الاشارات** Sémiologie **(من الكلمة اليونانية** Semeion **اى اشارة او علامة) . وسوف يعنى هذا العلم بتبين مكونات الاشارات او العلامات والقوانين التى تحكمها . ونظرا لأنهذا العلم لم يقم حتى وقتنا هذا فيجب أن نخصص له مكانا من الآن . والواقع ان اللغويات ذاتها لن تكون سوى جزءمن علم السيميولوجيا العام ، كما أن القوانين التى تكتشفها السيميولوجيا سوف تطبق على اللغويات التى سوفتختص بمجال محدد وواضح ضمن الدراسات الانثربولوجية» (صفحة ١٦) . ومع ان دو سوسير يرى ان تدخلالسيميولوجيا فى نطاق علم النفس الاجتماعى فان الكتاب المحدثين يرون أن مجال هذا العلم الجديد يمتد الىموضوعات لا تدخل فى علم النفس الاجتماعى او علم النفس العام مثل التحليل الفنى . ولكن المهم هنا هو أن علمالاشارات يهتم فى المحل الاول بدراسة انساق الاشارات او العلامات والرموز** Signes **بنفس الطريقة التى يدرسبها علم اللغويات** Linquistics **اللغة . ولقد تبنت المدرسة البنائية وبخاصة فى فرنسا هذا العلم الجديدوارتبطت به أسماء عدد كبير من المفكرين والكتاب والأدباء والبنائيين الفرنسيين ، ومن أهمهم بطبيعة الحال رولانبارت ، وقد ظهر ذلك واضحا حتى فى كتاباته المبكرة ،واعنى بها سلسلة المقالات التى ظهرت فى** Combat **عام ١٩٤٧ ،والتى أعاد كتابتها ونشرها عام ١٩٥٣ فى اول كتبه « الكتابة عند درجة الصفر » الذى سوف نشير اليه فيما بعد .بل انه كتب كتابا خاصا فى الموضوع عام ١٩٦٥ بعنوان « مبادىء علم الاشارات** Elements de Semiologie **كما اعتمد على السيميولوجيا فى كتابه « اساطير** Mythologies **حيث يحلل بعض الاساطير الفامنةوراء عدد من الظواهر الحديثة فى المجتمع الفرنسى مثل الموضة والرياضة والاعلانات وغيرها من أساليب التعبيرغير اللفظى التى تستخدم للتعبير والاشارة عن بعض المواقف والاوضاع الاجتماعية . (انظر فى ذلك ايضا :**

Philip Pettit ; The Concept of Structuralism ; p. 33

قائمة وصادقة وتمثل ركيزة من ركائز العقل الفرنسى ، ومبدأ من مادئه العامة .

ويذكر لنا واينمان انه حين كان(وايتمان نفسه) لا يزال في مقتبل شبابه كان هناك (ثلاثى) — أو على الأصح (ثالوث) رائع من كبار « أساتذة الفكر » فى فرنسا يتألف من اندريه جيد André Gide وبول فاليرى Paul Valéry وآلان Alain ، ثم ظهر بعد الحرب العالمية الثانية « ذلك الثنائى المتعادى » المؤلف من جان بول سارتر Jean-Paul Sartr والبير كامى Albert Camus، ومن بعدهما جاء (مزيج) من المفكرين يضم كلود ليفى ستروس Claude Lévi-Strauss وجان لاكان Jean Lacan وميشيل فوكو Michel Foucault وبارت نفسه ومن بين هؤلاء الاربعة الاخيرين كان بارت يحظى — فى رأى وايتمان — بأكبر قدر من الاتباع والمعجبين داخل فرنسا . (ويلاحظ هنا ان وايتمان يعطي لبارت اولوية فى هذا الصدد على كلود ليفى ستروس نفسه الذى ارتبط اسمه أكثر من غيره بالبنائية ، وذاع صيته ذيوعا كبيرا بين علماء الانثربولوجيا بالذات) (٢) . وقد بلغ هؤلاء الاربعة جميعا درجة عالية جدا من الشهرة والمكانة والعظمة الفكرية، كانت تجعل الكثيرين من صغار الكتاب والمريدين يشفقون على انفسهم من أن يتعرضوا لهم ولأسمائهم وأعمالهم بالنقد أو التجريح . وهذه هى خاصة (الكاريزما) التى يتكلم عنها عالم الاجتماع الالماني ماكس فيبر Max Weber والتى انتقلت الى غيره من الكتاب ، والتى

---

(٢) ليس من شك فى أن بارت أسهم اسهاما وافرا مع عدد من كبار المفكرين والكتاب الفرنسيين المحدثين من امثال ليفى ستروس فى وضع أسس « البنائية » التى تحتل فى الوقت الحالى مكانة مرموقة فى الفكر الفرنسى رغم كل ما يوجه اليها من انتقادات . وكثيرا ما يخطىء الكتاب والمثقفون وبخاصة فى العالم العربى فيعتبرون البنائية مذهبا فلسفيا كالوجودية مثلا . والواقع أن البنائية هى منهج للبحث والتفكير وموقف يلتزم به المفكر فى معالجة الاشياء وتفسيرها ، اى انها ليست فلسفة او طريقة للسلوك اوأسلوبا للحياة . وكما يقول ستاروك : ان الانسان لا يمكنه ان يكون بنائيا بنفس المعنى الذى يستطيع أن يكون به وجوديا ، وأنه ليس هناك « نواد ليلية بنائية ولا ملابس بنائية ولا أسلوب للحياة بنائى مثلما كانت هناك نواد وملابس وأساليب سلوكية وجودية (ستاروك : صفحة ٢) . ومع ان الاتجاه البنائى ازدهر فى باريس فى الستينات الا انه ظهر فى حقيقة الأمر قبل ذلك فى أماكن اخرى . وعلى اى حال فقد ارتبطت البنائية وبخاصة فى مجال البحث الانثربولوجى باسم كلود ليفى ستروس . ومع أن بارت يدخل ضمن زمرة المفكرين البنائيين الكبار فى فرنسا فالظاهر أنه هو نفسه لم يكن شديد التمسك بهذا (الوصف) خاصة وان تفكيره وقراءاته وثقافته الواسعة كانت (انتقائية) أو (انتخابية) ، ويظهر ذلك واضحا فى المنهج الذى اتبعه فى دراساته الادبية وكذلك ايمانه العميق بالحاجة الدائمة الى الانتقال من موقف نظرى معين الى موقف آخر، بحيث انه كثيرا ما كان يتبنى المناهج التى تعلمها من مجالات العلوم الاخرى . وزيادة على ذلك فان بارت على عكس الكثيرين من البنائيين ، لم يكن يقنع بالدراسة الاستاتيكية وانما كان يعطى جانبا كبيرا من اهتمامه للبعد التاريخى للفكر وتطوره خلال الزمن ومتضمناته بالنسبة للمجتمعات الانسانية مما كان يجعله بالضرورة ينظر الى الاشياء نظرة نسبية . وهذه كلها امور سوف نعود اليها فى المقال . ولقد كانت أداة بارت فى موقفه البنائى ، ودراسة كل ما يتعرض له من موضوعات دراسة بنائية ، هى اللغة ، وذلك عن طريق الرجوع الى ما يسميه « معجم المعانى » . فالمفكر او الكاتب البنائى الجاد او الملتزم انما يستخدم فى تحليله مصطلحات فنية معينة يستمدها من اللغويات البنائية . واحد المصطلحات الاساسية التى اصبحت بمثابة المحور فى كتاباته هو مصطلح « الاشارة Signe » او العلامة . وكما هو الحال بالنسبة لكل البنائيين الفرنسيين بالذات فان هذا «المعجم» كان مستمدا الى حد كبير من أعمال دو سوسير النظرية عن اللغة « الطبيعية » أو اللغة الانسانية . فهذه الآراء والنظريات التى وضعها دو سوسير فى بداية هذا القرن كانت هى اساس البنائية الحديثة ، ومن هنا كان اهتمام البنائيين الفرنسيين باللغة ، وبخاصة بالوحدة الاساسية فى اى لغة ، وهى ما يسمونه « العلامة اللغوية » او «الاشارة اللغوية » ، وهو مصطلح من الصعب جدا تعريفه باعتراف البنائيين واللغويين انفسهم . وكل ما يمكن قوله فى هذا الصدد هو أن أى كلمة فى اى لغة هى « اشارة » او «علامة» وأن اللغة عبارة عن نسق من هذه الاشارات او العلامات .

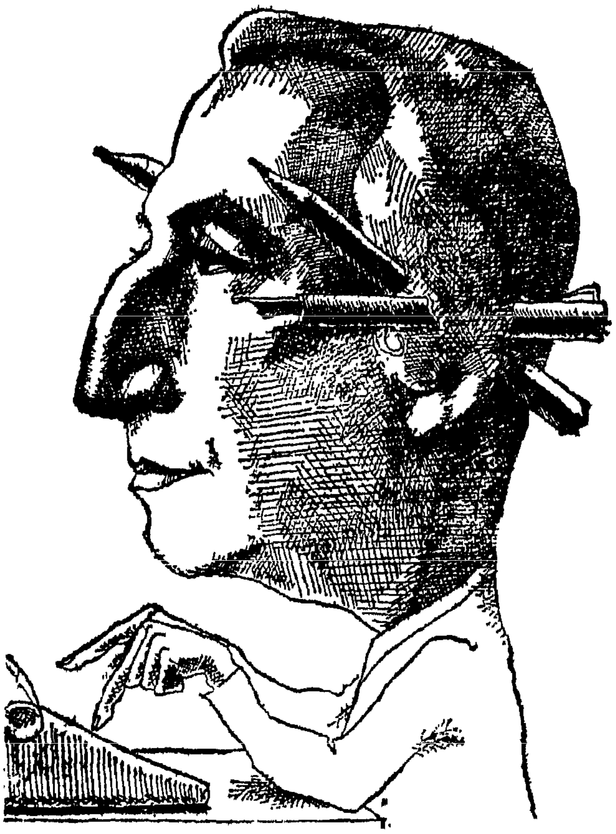

لانكاد نجد لها ترجمة عربية دقيقة ، وانما أصبحت الكلمة على أي حال مصطلحا يستخدم فى كل اللغات بغير ترجمة .. لقد أصبح هؤلاء الكتاب الأربعة « موضوعا للحب العقلى أو الكراهية العقلية فحسب » ، لدرجة أن تلاميذهم واتباعهم يقسمون بهم ويحلفون بأسمائهم ، في الوقت الذى يثير مجرد ذكر اسمهم — من الناحية الاخرى — السخط والحنق فى نفوس أعدائهم (العقليين) . وهذه الحماسة لبعض المفكرين او ضدهم تعتبر ايضا من أهم ملامح الحياة الثقافية فى فرنسا ، ولا نكاد نجد لها مثيلا فى أى بلد آخر .

وعلى الرغم من اشتغال بارت فى شبابه بالتدريس بجامعة الاسكندرية ، ومن قبلها بجامعة بوخارست ، فانه لم يهب نفسه تماما للحياة الاكاديمية ولم ينقطع كلية للتدريس باحدى الجامعات . وقد يكون ذلك راجعا الى الظروف الصحية السيئة التى منعته في شبابه من أن يسلك طريق التعليم الذى يؤدى بصاحبه فى آخر الامر الى تلك الحياة الاكاديمية . ومع ذلك فلم يكن هذا شرا كله ، بل ربما كان فيه الكثير جدا من الخير بالنسبة لبارت وتطوره الفكرى ، لأنه أتاح له الفرصة للتحرر من القوالب الفكرية الاكاديمية التقليدية التى لا تخلو من بعض الجمود . ومع ذلك فقد كان لبارت حلقته الدراسية الخاصة به (سيمينار) فى مدرسة الدراسات العليا بباريس Ecole des Houtes Eutdes منذ عام ١٩٦٢ ، وقد انتشر اسمه وذاع صيته منذ ذلك الحين سواء عن طريق محاضراته أو كتاباته .

ولقد كان لبارت أسلوبه الخاص المتميز جدا فى الكتابة ، وهو أسلوب ملىء بالألفاظ والتعبيرات اللغوية الجديدة مثلما كان يتميز بالدقة الشديدة فى انتقاء الكلمات . وقد حاول الكثيرون تقليده ومحاكاته . ومع ذلك فان تحديد مكانته بين المفكرين الفرنسيين يعتبر في نظر الكثيرين مسألة سهلة وصعبة فى الوقت ذاته ، على الرغم مما قد يبدو فى هذا القول من تناقض . فهو يعتبر — من ناحية — مثالا طيبا للكاتب المفكر البورجوازي الذى يقف موقف العداء من البورجوازيين ، وشأنه فى ذلك شأن اندريه جيد وسارتر ، بحيث كان يسخر كل مصادر ثقافته الواسعة العريضة المتنوعة فى الهجوم على المجتمع الفرنسي المعاصر الذى كان يعتبر فى نظره ، ونظر الكثيرين غيره من المفكرين والمثقفين ، مجرد مجموعة هائلة من (الاغترابات) ، مما كان يثير التساؤل عما اذا كان من الحكمة الابقاء على هذا النوع من المجتمع ، واذا لم يكن من الافضل تدميره والقضاء عليه تماما . ولقد تناول بارت فى كتابه **« أساطير »** Mythologies كثيرا من مظاهر الحياة فى هذا المجتمع الفرنسي البورجوازي محاولا بطريقته الخاصة أن يبين لنا كيف يعمل هذا المجتمع وكيف يتصرف الناس فيه، ونوع الأوهام التى تتحكم فى حياته وحياتهم ، وهو أمر سوف نعود اليه فيما بعد . ولقد دفعه ذلك الى أن يقف دائما فى صف كتاب « الطليعة» ويعمل على تشجيعهم ، لأنهم يمثلون الحركة وكل ما هو جديد ومثير ووجودى ، فى مقابل (الماهيات) التى كانت النزعات الانسانية (الهيومانيزم) البورجوازية التقليدية تعتبرها أهم خصائص الطبيعية البشرية ... ولكن من الناحية الأخرى فان بارت كان يتمتع بذلك النوع من العقلية المتوثبة غير المستقرة والقادرة على الارتياد وعلى التمييز والاختيار والانتقاء والتوفيق بين ما تجمعه من مختلف المدارس والنظريات والاتجاهات والمواقف ، بحيث استطاع أن يستخدم هذا كله في صنع نسيج موحد يضم خيوطا من الماركسية والفرويدية والوجودية السارترية وفينومنولوجيه باشلار **(انظر مقال الدكتور الكردى فى هذا العدد)** ولغويات دوسوسير De Saussure وما بعده والبنائية وغير ذلك ومن كل هذا المزيج الثقافى والفكرى الهائل المعقد حدد موقفه من العالم ومن الثقافة ، وهو موقف يعتبر العالم وكل ما فيه مجرد اشارات أو علامات Signes . فالانسان يحيا بالاشارات والعلامات والرموز

التى تتجمع بشكل أو بآخر وتنتظم فى شكل انساق وأنماط تسمى أحيانا بالدين ، وأحيانا اخرى بالسياسة او الادب او الاقتصاد السياسى أو ما الى ذلك ، وكلها تعتمد فى آخر الامر على اللغة التى هى نسق الاشارات الاساسى .

والواقع أن كل انتاج بارت الفكرى وكل كتاباته ، ابتداء من كتابه Le Degré Zéro de l'ecruture حتى آخر أعماله وهو كتابه الغريب Fragments d'un Discours Amoureux يمكن اعتبارها نوعا من التأمل الطويل المتنوع فى اللغة .

• • •

ووعلى الرغم من ارتباط اسم بارت **بعلم الاشارات** فان معظم ما كتب عنه حتى الان يدور حول اسهامه الغزير العميق فى المجال الادبي . وفى ذلك يقول جون ستاروك John Sturrock فى الكتاب القيم الذى نشره مؤخرا (١٩٧٠) بعنوان : Structuralism And Since بقدر ما أسهم بارت فى احياء واستثارة العقل الادبى بشكل لا يدانيه جهود غيره من الكتاب ، وبقدر ماكان يخاطر ويجازف فى ارتياد مجالات جديدة من أجل الوصول لصياغة مبادىء مستحدثة لفهم الادب ، فانه كان يثير عليه نقمة الاخرين لرفضه المبادىء القديمة ومهاجمتها » . وخليق بقراءة كتاباته أن تدفع القارىء الى التفكير بطريقة أكثر ذكاء وعمقا ومتعة فى ماهية الادب وممارسة الكتابة ووظيفتها على السواء . ولقد جدد بارت النقد الادبى فى فرنسا بحيث أصبح مجاله الان أكثر تنوعا مما كان عليه من قبل . بل ان آراءه تجاوزت فرنسا وأصبحت تؤثر فى تحديد النقد الادبى وتوجيهه في أنحاء كثيرة من العالم ، نتيجة لترجمة كتبه الى عدة لغات . والطريف فى الامر هو أن بارت لم يحقق ذلك كله عن طريق تكوين موقف نظرى محدد وثابت ازاء الادب والتمسك بهذا الموقف والالتصاق به فى عناد طيلة الوقت ، بل ان الامر كان على العكس من ذلك تماما . فبارت مشهور بتنقلاته وتحولاته ، وبقدرته على تجاوز المواقف والاتجاهات القديمة ، بما فىذلك مواقفه السابقة هو نفسه ، ثم اعتناق مواقف ووجهات نظر جديدة لم تكن متوقعة منه ، بحيث يمكن القول أن كل كتاب من كتبه كان يمثل نقطة انطلاق فى اتجاه جديد أكثر مما هو توكيد لموقف قديم كان يعتنقه من قبل ، ولكن ذلك لا يعنى أبدا أن كتاباته ككل تفتقر الى الاتساق والاطراد والتماسك والانسجام ، وهذه حقيقة كثيرا ما تفوت على الكثيرين ممن يقنعون بتتبع الجوانب الجديدة فى فكره أو مظاهر التجديد فى كل كتاب من كتبه على حدة دون أن يأخذوا أعماله كلها **كوحدة** . وتكشف هذه التحولات والمواقف الجديدة بغير شك عن رغبة أكيدة فى متابعة الاحداث والاتجاهات مثلما تكشف عن مدى حيوية تفكيره ، بحيث أنه لم يكن يسمح اطلاقا لافكاره واتجاهاته وآرائه وتفسيراته وتأويلاته للادب أن تبقى لفترة طويلة داخل قالب نظرى جامد ومتزمت . **ولقد انتبه بارت نفسه الى هذه الخاصة الاساسية فى تفكيره** بحيث نجده يقول فى كتابه الذى أصدره عام ١٩٧٥ بعنوان (**رولان بارت بقلم رولان بارت** او **رولان بارت ينظر الى نفسه** Roland Barthes par Roland Barthes « ان رولان بارت يرفض تماما ان تكون له صورة محددة واضحة ، ولا يحتمل أن يكون له تعريف محدد » . وهذا معناه بقول آخر ــ حسب رأي ستاروك ــ « انه كان يقف ضد أية محاولة تستهدف جعله موضوعا يثير الاهتمام ويعارض ذلك أشد المعارضة ، لان الموضوعات والاشياء هى وحدها التى يمكن تعريفها وتحديدها وتوضيحها بحيث تصبح خالية من الغموض، دون أن يكون لها فى الوقت ذاته القدرة على تغيير نفسها تغييرا جوهريا . وهذا موقف

مألوف فى الحياة الفكرية فى فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية ، ويتمثل الى حد كبير فى الاتجاهات الوجودية بعد الحرب ، وهى الفلسفة التى كان لها أكبر تأثير فى فرنسا منذ عام ١٩٤٥ حتى أواخر الخمسينات » .

ولقد ولد رولان بارت عام ١٩١٥ ، وبذلك كان عمره ثلاثين عاما عند نهاية الحرب العاية الثانية ، ولكنه كان قد قاسى طويلا من مرض السل وبخاصة بين عامى ١٩٤٢ و١٩٤٧ وهى فترة أمضاها في احدى المصحات . ومن هنا جاء نضوجه الفكرى متأخرا بعض الشىء عن أقرانه كما سبق أنذكرنا . ولقد خضع بارت فى أول الامر لتأثير وجودية سارتر ، ويبدو ان ذلك التأثير كان قويا وعميقا بحيث بقيت بعض ملامحه واضحة حتى فى كتاباته المتأخرة ، وتمثل هذا بوجه خاص فى رفضه ونفوره الشديد من الفلسفة التى كانت تعارضها الوجودية ،ونعنى بها « الجوهرية » Essentialism التي تقول بتقديم الجوهر على الوجود وترى أنه يوجد فى كل فرد انسانى جوهر أو ماهية نهائية لا تتغير ، وتملي عليه ان يسلك ويتصرف ضمن اطار أو حدود يمكن التنبؤ بها بشكل او بآخر على ما يقول ستاروك . فهى بذلك فلسفة جبرية الى حد كبير ، بعكس الوجودية التي تبشر بحرية الفرد الكاملة للتغير باستمرار والتخلص من القيود التى يفرضها عليه ماضيه ، وكذلك الهروب من أية تحديدات أو « تعريفات » نهائية يفرضها عليه الاخرون . فالوجود اذن أسبق على الماهية أو الجوهر ، والانسان لا يصبح ماهية « الا بعد أن يموت بالفعل ... فكأن بارت كان يعظم ويبجل الوجود المتغير المرن الذي يختلف كل الاختلاف عن جمود الجوهر والماهية ، ومن هنا كان رفضه لتلك الفلسفة التي كانت تعتبر بمثابة ايديولوجيا يؤمن بها الكثيرون من المفكرين والمثقفين الفرنسيين التقليديين الذين ينتسبون الى البورجوازية أو يؤازرونها ، فالجواهر والماهيات ، وكذلك كل اشكال « التوازنات » من شأنها ان تؤدى الى جمود العقل وشل حركته ، ولذا فهى أشبه شىء « **بالابراج الفلكية** » التي تحدد مسبقا للعالم مصيره ومستقبله .

ولقد ذهب بارت فى ذلك الى أبعد مما ذهب اليه سارتر . فلقد كان سارتر يؤمن على الاقل ــ بأن الفرد الانسانى يتمتع بقدر من التماسك والوحدة ، بينما كان بارت على العكس من ذلك تماما ، يؤمن بالتفكك والتحلل والتفسخ والتعدد ، ويذهب الى أن الوحدة « المزعومة » للفرد لا تلبث أن تتحلل وتذوب وتختفي فى التعدد والكثرة ، ولذا كان بارت يميل الى توكيد كل ما هو متعدد وغير متواصل ويبد ذلك واضحا من موقفه من كتب « سيرة الحياة » Biographies « كشكل من اشكال الادب ، فقد كان يرفضها على زعم انها تعطي انطباعا « بالتكامل المزيف » للشخص الذى تدور حوله ويصفها بأنها « ذكرى مزيفة » لشخص لا يزال حيا ، ويرد ما فيها من زيف الى انها « تبدو منطقية » بشكل يتنافى مع الحقيقة والواقع وظروف الحياة .

ولقد أصبح هذا « التفضيل » غير المألوف للتعدد والتشتت بدلا من الوحدة والالتئام والتماسك من أهم ما يميز كتابات بارت ، وازداد هذا الميل وضوحا بتقدمه فى الكتابة ... لقد كان يرفض منذ البداية أن يتقبل « وجهة النظر السائدة » عن الاشياء ، لان مثل هذه النظرة ، التى يقبلها الناس فى العادة بغير مناقشة ويسلمون بها ، كثيرا ، ما تعمى أبصارهم عن احتمال وجود وجهات نظر اخرى عن تلك الاشياء ذاتها . ولذا كرس بارت جانبا كبيرا من جهده وفكره لنقض وجهات النظر المقبولة الراسخة فى الادب ، وهي فى العادة وجهات النظر التى كان يتمسك بها الاكاديميون من أساتذة الجامعات . وبلغ فى معارضته ونقده لتلك الاراء (التقليدية) حدا دفع بالبعض الى الاعتقاد بانه لم ينجح فى تدعيم اسمه لانه جعل من نفسه (سوطا)

يلهب ظهر النقد الادبى الاكاديمى . وكان من السهل عليه أن يفعل ذلك على أي حال ، خاصة وأنه لم يكن أستاذا جامعيا ، رغم كل ماذكرناه عن اشتغاله بالتدريس فى اواخر الاربعينات فى بوخارست والاسكندرية ، وما قلناه عن حلقته الدراسية فى مدرسة الدراسات العليا فى باريس ، ومن أنه أنهى حياته أستاذا فى الكوليج دو فرانس . فلقد أعطاه (حرمانه) من العمل الاكاديمى قدرا من الحرية ومن الدافع لان يضع لنفسه نظرية مستقلة فى الادب ، وهى نظرية تحاول فى حذق ومهارة وواقعية أن تملأ الثغرة التى كانت تنصل بين الدراسة الاكاديمية والممارسة الفعلية للكتابة (Sturrock, p. 55) .

• • •

ولقد كان بارت يأخذ على النقد المعاصر عددا من المآخذ . وقد أثرت هذه النظرة المعارضة عليه حين بدأ هو نفسه فى الكتابة وظهرت واضحة فى كل مؤلفاته . ويلخص ستاروك هذه المآخذ أو الانتقادات فى أربعة انتقادات رئيسية هى :

أولا — ان النقد الادبى فى فرنسا كان **نقدا لا تاريخيا** ، بمعنى أنه كان يصدر من الناقد وينظر الى العمل الادبى ويعالج **النصوص** كما لو كانت القيم الاخلاقية والقيم الصورية أو الشكلية المتعلقة بهذا النص غير مرتبطة بزمن معين ولا تعتمد بحال على طبيعة المجتمع الذى (أفرز) هذه **النصوص** او الذى كتبت فيه هذه **النصوص** اولا ونشرت وقرئت لاول مرة . وهذا ، كما هو واضح ، هو موقف ماركس ، أو على الاقل اعتراض الماركسية الجديدة ، ولو أن بارت لم ينتم أبدا الى الحزب الشيوعي . من هنا كان بارت ينبذ كل الكتب التى تحاول التأريخ للادب الفرنسى على أنها مجرد سجلات للاسماء والتواريخ وبذلك فانها تخلو من المعنى ، وتعتبر لغوا وهراء ... انها مجرد **تأريخ وضعى** ، بأسوأ معانى هذه الكلمة . وتكشف عن جهل مؤرخى الادب بالاسلوب السليم الذى يجب اتباعه ، وعدم ادراكهم للتغيرات التي طرأت على طريقة دراسة التاريخ دراسة (حقيقية) وأن اتباع مناهج بعض المؤرخين العظام من أمثال لوسيان فيفر Lucien Febvre كان خليقا بأن يجعلهم يفهمون ما كان بارت يسميه « الوظيفة الادبية » أو « وظيفة الادب » La fonction literaire ويقصد بها الدور الذى يلعبه الادب في أى مجتمع من المجتمعات عن طريق دراسة بعض الظاهر الاجتماعية المعينة ، مثل طبقات الناس الذين يكتبون الكتب ، وطبقات القراء الذين يشترون هذه الكتب ، وما الى ذلك فمثل هذا (التاريخ) للادب يمكن ان يبدأ بدراسة الحقائق والوقائع الاجتماعيةاو الاقتصادية ، ويصعدالىالظواهر الادبية الخالصة،وبذلك يعطي صورة واضحة عن العلاقة الجدلية بين الادب والمجتمع الذى انتجه ، أو بين مرحلة ادبية معينة والمرحلة التي تليها وهكذا . وقد تمثل هذا الى حد كبير فى أول كتاب كتبه وهو « الكتابة عنددرجة الصفر Le Dégré Zéro de L'écriture » الذى نشره عام ١٩٥٣ وهو فى الثامنة والثلاثين من العمر . وهذا الكتاب هو أقرب الى المقالة المطولة منه الى الكتاب ، وقد حاول بارت ان يبين فيه كيف ظهر ما يسميه « الكتابة البورجوازية » مشيرا بذلك الى الكلاسيكية الفرنسية ، وكيف ان هذه الكتابة (البورجوازية) بدأت تتهاوى ليحل محلها « كتابات » عديدة متنوعة يمكن للكاتب ان يختار من بينها ، وهذا الاختيار انما يصدر

عن فعل معين من افعال « الالتزام » ، كماينم عليه .
ونحن نعرف الى اي مدى كانت كلمة(الالتزام) تتردد بكثرة فى كتابات سارتر والوجوديين بوجه عام ، ولكننا نجد بارت فى هذا الكتاب يذهب الى القول بأن عدم التزام الكاتب في كتابته لن يترك امامه فرصة الا الكتابة (المحايدة) التي تعنى عدم قدرته على تحمل أية مسئولية . ومثل هذه الكتابة (المحايدة) لن تكون فى أفضل صورها الا كتابة (جوفاء) فارغة من المعنى وخالية تماما من اى محددات تاريخية ... وعلى الرغم من قصر الكتاب وصعوبته فان قوة حجته وعمقه وبلاغةاسلوبه ساعدت على ان يحتل بارت مكانا لابأس به فى الادب اليسارى او بين « اليسار الادبي » . الا ان بارت لم يفلح مع ذلك فى الكشف بوضوح عن تلك المحكات التي يمكن الاعتماد عليها فى التمييز بين (كتابة) واخرى ، او بين (أسلوب) واخر - اذ يبدو انه كان يستخدم كلمة écriture بمعنى أسلوب Style ، كما ان الكثيرين من الكتاب يتشككون فيما اذا كان يمكن وصف اعمال جميع الكتاب الفرنسيين الذين ظهروا خلال قرنين كاملين بين عامي ١٦٥٠ و ١٨٥٠ بأنها كتابات « برجوازية » .

المأخذ الثاني الذى كان بارت يأخذه على النقد (الاكاديمي) هو انه كان نقدا يتميزبدرجة عالية من السذاجة من الناحية السيكولوجية كما انه كان نقدا (جبريا) الى حد كبير - ان صحت هذه الصفة ، وكانت هذه السذاجة وتلك (الجبرية) تصلان الى حد (الابتذال) - كما يقول - حين كان الناقد يحاول تفسير مضمون النص في ضوء المعلومات المتوفرة عن حياة الكاتب وبالاشارة اليها ، لان هذا معناه تفسير العمل الادبي بالحياة ، وهو أمر يرفضه بارت ، وان كان يعلم فى الوقت ذاته أن هذه الطريقة فى التفسير لم تكن قاصرة على النقاد الفرنسيين ، وانما كانت شائعة بين كثيرين جدا من النقاد فى مختلف أنحاء العالم . وكان بارت يذهب ، كما يذهب البنائيون ، الى ضرورة فهم عناصر العمل الادبي فى علاقتها بعضها ببعض ، اى تفسير العمل الادبي بالعمل ذاته وليس بعناصر من خارج الادب تماما . (وهذا يعيد الى الاذهان عبارة اميل دوركايم Emile Durkheim المشهورة عن ضرورة تفسير ما هو اجتماعي) . فمن الخطأ الاعتقاد بأن الحقائق السيكولوجية في العمل الادبي هي تمثيل مباشر للحقائق السيكولوجية فى الحياة ، لان هذا - كما يرى بارت - يتناقض مع ما أثبته التحليل النفسى ، أو على الاصح يتنافي مع الحقائق الاولية فى التحليل النفسي الذى يبين ان الصلة بين هاتين المجموعتين من الحقائق ليست على كل هذه الدرجة من البساطة ، وأن أى حقيقة سيكولوجية ، سواء كانت هي الرغبة او الشهوة او الزمت او الاحباط ، قد ينجم عنها « تمثيلات » مناقضة لها تماما ، وأنه كثيرا ما ينجم عن أحد الدوافع الحقيقية سلوك يناقض تماما ذلك الدافع . وهذا معناه ببساطة أنه من الخطأ ان نحاول تفسير الافكار بالرجوع الى حياة المؤلف . **فهناك فصل قاطع وحاسم اذن بين النص والمؤلف او الكاتب ، وأنه من الممكن تحليل النص ذاته سيكولوجيا وتبيين ما فيه من نوازع وعصابات وانحرافات وما الى ذلك دون أن نزعم اننا حللنا فى الوقت ذاته الكاتب نفسه سيكولوجيا** . وكما يقول ستاروك فان بارت كان يحترم الغموض البالغ المتطرف الذى يلف علاقة الكاتب بما يكتب .

المأخذ الثالث الذى يأخذه بارت على النقاد الاكاديميين هو أنهم - كفئة - او سلالة race - كما يصفهم - يعانون مما يسميه

باللارمزية أوضد الرمزية a-Symbolia وذلك لانهم لم يكونوا يستطيعون ان يروا فى النص الا معنى واحدا يهتمون به ويركزون عليه . وهذا المعنى الواحد كان في الاغلب هو « **المعنى الحرفى** » البسيط ، معتقدين أنه هو **المعنى الحقيقي** للنص ، وأنه من غير المجدى ، بل ومن العبث ، محاولة البحث للنص عن معانى أخرى بديلة او حتى معانى مكملة لذلك المعنى « الحرفي » البسيط الواضح .

ومن هنا كان بارت يرى فى هؤلاء النقاد الاكاديميين رجالا على جانب كبير من الميل الى التسلط وضيق الافق والتزمت والغرور ، بحيث كانوا يتصورون تزمتهم نوعا من الدقة « العلمية » . لقد كانت عقول هؤلاء النقاد الاكاديميين قاصرة ـ فى رأيه ـ عن أن تتغلغل الى أسرار اللغة ، وتعجز عن فهم غموضها ، بل انها كانت تضيق بتلك الاسرار وترفض فكرة امكان وجود معانى كثير مختلفة ومتنوعة داخل الصيغة اللغوية الواحدة ، وهذا معناه ببساطة انه لم يكن فى امكانهم ادراك ما تتضمنه الصيغ اللغوية من رمزية . وهنا نجد ان بارت يفسر موقفه القديم الذى كان يعتنقه فى كتابه « **الكتابة عند درجة الصفر** » ويفصل فصلا تاما بين « العمل الادبي » والظروف التي أحاطت بانتاجه ، **فالادب غامض بالتعريف** ، والعمل الادبي ، كما يقول في كتابه « **النقد والحقيقة** Critique et Verité » الذى صدر عام ١٩٦٦ لايمكن اخضاعه او تحديده او توجيهه بأى موقف معين ، كما انه لا يمكن الاستدلال على معناه من ظروف الحياة العملية واحداثها . والنقاد الذين يفشلون فى رؤية الرمزية التي يتضمنها الاستخدام الادبي للغة لن يمكنهم الوصول الى حقيقة النص ، او التغلغل الى اعماقه ، وحتى اذا أمكنهم التعرف على أكثر من معنى للنص فانهم يميلون الى توكيد وابراز أحد تلك المعاني والاغضاء عن المعاني الاخرى واهمالها ، لانهم يؤمنون بوجود معاني « صحيحة » وأخرى « خاطئة » . وهذه ناحية معيارية ينكرها بارت كل الانكار . فهو يرى أنه كلما كان النص يحتوى على عدد أكبر من المعاني كان ذلك افضل بالنسبة للناقد ، ولكنه يعترف فى الوقت نفسه بأنه ليس ثمة ما يسوغ او يبرر اعطاء أحد تلك المعاني اولوية على المعاني الاخرى . فالنص الجيد يزخر عادة بالمعاني ، ولذا فليس من المعقول ان نزعم ان القارىء يخرج بمعنى واحد نهائي وأخير حين يفرغ من قراءة ذلك النص .

والمأخذ الرابع والاخير الذى كان يأخذه على النقاد التقليديين هو انهم لم يعلنوا قط عن الايديولوجيا التي يؤمنون بها ، وانهم فى كثير من الاحيان لم يكونوا يعترفون بأن نقدهم كان صادرا عن موقف أيديولوجي معين ، أو انه كان موجها توجيها أيديولوجيا ، اى انهم لم يكونوا يفصحون عن القيم التي كانوا يطبقونها فى دراستهم للعمل الادبي ، متظاهرين بأن موقفهم موقف (وضعي) بحت ، وزاعمين ان القيم (الوضعية) قيم (عامة) او كلية لايمكن تحديها أو التشكيك فيها لانها لاتنتمي الى طبقة أو فئة معينة ، او الى قطاع معين من مجتمع معين في زمن معين . وهذه فى نظره ـ وكما سبق أن ذكرنا ـ هي الوضعية فى أسوأ صورها . وكان بارت يعتبر ذلك الموقف نوعا من التهرب والتفرير و (التعمية) والالغاز والتضليل الذى لا يخلو من عنصر غير أخلاقى لانه يحاول ان يضفي على الظواهر التاريخية طابع الظواهر الطبيعية ، وان هذا الالغاز وتلك التعمية يجب توضيحها وكشف الغطاء عنهما عن طريق (فضح) المناهج والاساليب

(المنحرفة) الملتوية التي يتبعها هؤلاء النقاد . (٣) بل انه كان يذهب الى حد اعتبار فضح هذه المناهج نوعا من التنوير الاجتماعي والسياسي .

هذه اذن هي المآخذ الاربعة الرئيسية التي كان بارت يأخذها على النقد والنقاد التقليديين الذين كان يرميهم بالنعنت وضيق الافق ، وهو فى الاغلب نوع النقد الذى كان يصدر عن أساتذة الادب فى الجامعات الفرنسية . ولكن هذه الانتقادات ذاتها لا تخلو من المبالغة والمغالاة ، اذ ليس ما يدل على أن النقد فى فرنسا كان « محافظا » أو «رجعيا» قط كما يحب بارت أن يوهمنا فى كتاباته . ومع ذلك فقد كان لهجوم بارت وحملاته التى شنها على النقد هو **وبعض الكتاب الآخرين الذين لم يكونوا ينتمون لهيئات التدريس فى الجامعات** تأثير قوى وفعال فى ظهور حركة « النقد الجديد La Nouvelle Critique » التى سبقت الاشارة اليها .

وهذه التسمية هى مجرد (شعار) — على ما يقول ستاروك — أكثر مما هى مدرسة واضحة المعالم ومتكاملة وتضم أشخاصا متشابهين فى الفكر . ومع ذلك فان (وجود) هذا (الشعار) وترديده والاشارة اليه بكثرة فى مختلف الكتابات توحى كلها بأن هناك أكثر من شكل واحد للنقد ، وانه يتعين على « الوضعيين » فى المستقبل أن يبرروا وسائلهم ومناهجهم فى النقد بدلا من الاكتفاء بفرضها فرضا على القراء Sturrock, pp. 55-60

• • •

ولقد كرس بارت كثيرا فى اهتمامه فى بداية حياته الفكرية للمشكلات السياسية وللفكر السياسى ، وكان فى ذلك يرفض كل ما يبدو لاول وهلة وضعا « طبيعيا » ومسلما به ويعارضه أشد المعارضة ، على أساس أن كل ما يبدو طبيعيا ، أو ما يؤخذ كقضية مسلمة ، هو فى الحقيقة وضع مفروض من

---

(٣) يمكن توجيه هذا النقد الى « الوضعيين » فى مختلف الدراسات الانسانية ، الذين يزعمون ان آراءهم وافكارهم ومعالجتهم للموضوعات التى يتناولونها لا تصدر عن مواقف ايديولوجية مسبقة وانها غير موجهة توجيها ايديولوجيا . ويصدق هذا بوجه خاص على العلوم الاجتماعية والانثربولوجية حيث يحاول العلماء (الوضعيون) معالجة الظواهر الاجتماعية بنفس الطريقة والمنهج والاسلوب المتبعة فى دراسة الظواهر الطبيعية والبيولوجية ويذهبون فى ذلك الى القول بانهم لا يتاثرون بالايديولوجيات السائدة فى عصرهم مع ان الامر على العكس من ذلك تماما فى الواقع والحقيقة . فعلم الاجتماع بالذات يدين بظهوره كعلم متمايز الى الظروف والملابسات والحركات الفكرية والتحررية التى لازمت القرن التاسع عشر بصفة عامة ، كما ان النظريات الاجتماعية الكبرى التى ظهرت فى اواخر ذلك القرن واوائل القرن الحالى اخذت فى اعتبارها — الى حد ما على الاقل — الايديولوجية الاشتراكية الماركسية « ودخلت معها فى حوار يختلف بين اللين والشدة ، بين القبول المتحفظ والرفض القاطع ، ومحاولة التوفيق بين مختلف وجهات النظر » ، بحيث يمكن ان تتقبل ما يذهب اليه زايتلين من ان « الماركسية لعبت دورا هاما فى تطوير النظرية الاجتماعية ليست فقط من حيث الآراء والافكار التى بذرها ماركس والماركسيون فى ذلك الميدان ، بل وايضا ... من حيث استثارتها لكثير من وجهات النظر المعارضة والمناوئة التى ادت فى آخر الامر الى قيام عدد كبير من مدارس علم الاجتماع » . والواقع ان هناك من بين مؤرخى الفكر الاجتماعى المحدثين من يذهب الى القول بان الحركة الوضعية فى العلوم الانسانية بعامة وفى علم الاجتماع بخاصة ، انما هى رد فعل للماركسية بالذات ، بل ان الاستاذ زايتلين ... يرى ان الكثيرين من كبار علماء الاجتماع كتبوا وامامهم ما يسميه (شبح ماركس) او ان كتاباتهم وآراءهم على الاصح كانت نوعا من (المناظرة) مع ذلك الشبح ... وعلى الرغم من كل ما يقوله اتباع المدرسة الوضعية من ضرورة الابتعاد عن الايديولوجيات المختلفة التى تبعد الباحث عن الطريق العلمى الصحيح وتلون نظرته الى المجتمع الذى يدرسه فان هذا الاتجاه ذاته الذى يختفى وراء دعوى الوضعية الموضوعية يمكن ان يؤخذ على انه تعبير عن النظرة المحافظة التقليدية او حتى الرجعية . » (انظر فى ذلك مقالنا عن : « العلوم الانسانية والصراع الايديولوجى » — مجلة عالم الفكر — المجلد الثانى ، العدد الثانى ، صفحات ٤٤٩ وما بعدها .)

قوى أعلى من الفرد الانسانى . وهذا هو ما يدفع الانسان الى الاغتراب . ويبلغ هذا الاغتراب ذروته حين تعمد الطبقة الحاكمة في المجتمع الى تضليل الشعب والتغرير به وخداعه عن طريق الايحاء اليه بأن الاوضاع الاجتماعية السائدة فى المجتمع ليست من صنع البشر ، وانما هى من صنع الطبيعة أو حتى من خلق الله ، لان هذا سوف يعنى حرمان الناس من ممارسة حقهم الطبيعى المشروع فى مناقشة تلك النظم وفحصها ونقدها والعمل على تغييرها . وسوف يترتب على كل هذا قبول الناس للامر الواقع ، بل الاخطر والادهى من ذلك هو اقتناع الناس بضرورة التمسك بتلك الاوضاع وعدم تغييرها ، على الرغم من أن المستفيد الوحيد من استمرار هذه الاوضاع فى الوجود هو الفئة الحاكمة وحدها التى أفلحت فى أن توحى للشعب بأن تلك الاوضاع باقية بالضرورة وانها غير قابلة على الاطلاق للتغيير ... ان **صوت « الطبيعى » كما يقول بارت ، هو بالضرورة صوت فى صالح « الامر الواقع »** ، ولذا كان التعرض لهذا الامر الطبيعى أو الواقعى بقصد كشفه وفضحه وتعريته يعتبر دائما عملا ثوريا ، أو على الاقل تحريضا ضد النظام القائم فى المجتمع . **ومع ذلك فلم يكن بارت كاتبا ثوريا بالمعنى الدقيق للكلمة** على الرغم من كل ما يقوله عن ضرورة ازالة الغموض والكشف عن محاولات التعتيم والتعمية . ومع أن كتاباته المبكرة بوجه خاص تحفل بالازدراء والاحتقار للبورجوازية والتحامل عليها فانه لم يطالب قط بالقضاء عليها ، أو حسب تعبير ستاروك ــ لم يطالب برؤوس البورجوازيين ، وانما كان على العكس من ذلك تماما رجل سلام ، وهى نزعة ازدادت قوة ووضوحا عنده بتقدمه فى السن ، كما أنه كان يجد لذة عميقة فى محاولة التوفيق بين وجهات النظر المتنافرة ، بحيث تتعايش معا بدلا من ان تحاول احداها القضاء على الاخرى وازالتها . فلقد كانت اهتمامات بارت اهتمامات ثقافية فى المحل الاول ، وليست اهتمامات سياسية خالصة ، كما أن دعوته الى تعرية الاوضاع المسلم بها فى المجتمع ، والكشف عن محاولات التعتيم والتعمية انما كانت تقصد لذاتها نظرا لما يعطيه ذلك له من متعة ذهنية عميقة ، وليس بهدف الافادة منه فى القيام بأي عمل سياسى عنيف .

فالمجتمع « مشهد مسرحى » يمكن شرحه وتفسيره عن طريق الكشف عن الميكانيزمات التى استخدمت فى اخفاء ما فيه من افتعال وتصنع . ولقد كان بارت حريصا ، وبخاصة فى كتابه Mythologies على فضح « الاساطير » التى يتعلق بها المجتمع ويسلم بها فى ايمان ، والكشف عن الاسس التى قامت عليها هذه « الاساطير » وتوضيح الغموض والاسرار التى تحيط بها . ويرى ستاروك أن هذا الكتاب **« أساطير »** هو أعظم اسهامات بارت فى مجال محاولة ازالة الغموض الثقافي . وكانت وسيلته فى ذلك دراسة عدد من الامور العادية المألوفة فى الحياة اليومية التى يتقبلها الناس ويسلمون بها بغير مناقشة أو تفكير واخضاع هذه الامور للبحث والتحليل من زاوية جديدة لتبيين « الاخلاقية الخفية » التى تتضمنها هذه الامور المعتادة وربما كانت مقالته النظرية عن « الاسطورة فى الوقت الحاضر » التى يستشهد بها ستاروك تصلح أساسا ومثالا لتوضيح منهج بارت ، لانه فى هذه المقالة يضع منهجا خاصا « لقراءة » الاساطير وتتبعها بنفسه بدلا من أن يخضع للمناهج والاساليب التقليدية التى جرى العرف على اتباعها فى دراسة الاساطير وتحليلها . ويستمد بارت ذلك المنهج ايضا من علم اللغويات أو بالاحرى **علم الاشارات** Semiologie وهو علم يعنى ــ كما رأينا ــ بدراسة أنساق الاشارات ومعانيها . والطريف فى هذا المنهج هو بساطته وعدم اغراقه فى المسائل الفنية المعقدة لانه لا يتطلب سوى قدر أكبر من الانتباه واليقظة من جانب دراسى الاساطير

للاختلاف بين الدلالة أو المعنى الحرفي denotation للعلامة أو الاشارة ومعناها الاسطورى connotation الذى يمكن أن نصنفه ضمن الرمزيات ، أي ما ترمز اليه الاسطورة ، لان هذا المعنى الاسطورى هو معنى اضافي يوجد الى جانب المعنى الحرفي للاشارة أو العلامة التى هى موضوع الدراسة .

ويضرب لنا بارت لتوضيح ذلك عددا من الامثلة . والمثال الذى نستشهد به هنا هو احدى « العلامات » أو « الاشارات » التى ظهرت فى احدى المجلات الفرنسية ، وهى عبارة عن صورة بالالوان لجندى أسود فى ملابسه العسكرية يحيى العلم الفرنسى . فهذه (علامة) بسيطة ومألوفة قد لا توحى للعقل (الساذج) بأكثر من دلالتها الظاهرية ، وبخاصة اذا اخذنا بالاعتبار الجملةالتوضيحية المطبوعة أسفل الصورة والتى لا تخرج فى معناها عن ذلك .. ولكن بارت يتخطى هنا المعنى الحرفى ويتجاوزه يكتشف (المعنى) الحقيقى الذى يكمن وراء الصورة والتعليق المكتوب أسفلها ، اى انه كان يبحث عن معنى الصورة (ككل) . ويذهب بارت الى القول انه لكى نصل الى هذا المعنى الحقيقى فان الامر يتطلب منا أن نعرف أولا أين ظهرت الصورة ومتى ظهرت . وكانت الصورة قد نشرت على غلاف مجلة Paris-Match التى تصبح بذلك هى **حاملة المعنى أو الاشارة الدالة** **Signifiant** ، أي أن الدلالة تستمد فى هذه الحالة من المجلة ككل وليس من العناصر المختلفة التى تكون الصورة . ولكن ما المعنى المقصود أو المتضمن **Signifié** من هذه الاشارة الدالة ؟ (٤) يرى بارت أن

---

(٤) المصطلحان « العلامة الدالة Signifiant **و « العلامة المقصودة أو المدلول عليها** Signifie **» مستمدان هما ايضا من دو سوسير الذى يحلل الاشارات او العلامات الى عنصرين مكونين ، الاول منهما هو الصوت او العنصر الصوتى** acoustique **بينما العنصر الثانى عنصر عقلى او تصورى . ويتجاهل دو سوسير فى هذا التحليل الاشياء ذاتها التى تستخدم « العلامات اللغوية » للاشارة اليها . فالمعنى المتضمن فى العلامة او المعنى المقصود ليس شيئا وانما هو « فكرة عن شىء » ، اى ما يتوارد الى الذهن (ذهن المتكلم او السامع) حين تذكر العلامة او الاشارة الدالة** Signifiant **. وعلى ذلك فان الاشارة او العلامة الدالة تؤلف المظهر او الجانب المادى للغة . ففى حالة اللغة المنطوقة (الكلام) تكون العلامة الدالة هى اى صوت له معنى ، أما فى حالة اللغة المكتوبة فان العلامة الدالة تكون هى العلامة التى لها معنى والتى توضع على الورق . اما العلامة المقصودة او المتضمنة** Signifié **فهى الجانب العقلى للغة . والفصل بين المظهرين اى بين العلامة الدالة والعلامة المقصودة او المتضمنة فانه فصل نظرى يهتم به المشتغلون بالنظرية اللغوية ، اما فى الواقع وفى الحياة العملية فان هذين المظهرين لا ينفصلان . وبطبيعة الحال فان الصوت الذى لا معنى له لا يعتبر اشارة او علامة دالة لانه لا يدل على شىء ولا يعنى شيئا ، اذ لا يمكن ان يكون هناك رمز دال دون أن يكون ثمة ما يدل عليه ، وبالتالى فانه لا يمكن ان يكون هناك تصور ما** concepte **الا اذا كان يمكن التعبير عنه داخليا كفكرة او خارجيا فى الكلام ، اى انه لا يمكن ان يكون هناك شىء مدلول عليه بدون علامة او اشارة دالة تدل عليه . وعلى اى حال فان العلامة او الاشارة** Signe **وعنصريها المكونين تؤلف معا « معجم المعنى** Lexicon of Signification **» الذى سبقت الاشارة اليه والذى يعتبر وجوده ـ فى نظر بارت وبعض اللغويين البنائيين ـ دليلا كافيا على انتماء الكاتب الى المدرسة البنائية . كذلك فان التمييز بين هذين العنصرين لا يقتصر على اللغة وانما يصدق على كل العلامات والاشارات التى تزخر بها الحياة اليومية ، اى انه يصدق على كل المواقف والرموز غير اللفظية كالصور والرسوم ومااِلى ذلك . وهذا معناه أن يمكن اعتبار كل شىء تقريبا فى حياتنا اليومية بمثابة علامة أو اشارة مادام يمكن استخدامه لتوصيل رسالة ما ، او للدلالة على شىء ما . فالزهرة التى تنمو فى الخلاء بعيدا عن الناس بحيث لا يراها انسان او يستعملها لا تعتبر علامة او اشارة مادام لا يوجد شخص يراها بالفعل ويستخدمها بالفعل كعلامة او كرمز .. ولكن الزهور تصبح علامات واشارات فى اى ثقافة حين تستخدم فى شكل باقات ترسل للتهانى او فى شكل اكاليل ترسل الى الجنازات ، لانها فى هذه الحالة تحمل رسالة ويكون لها دلالة ومعنى .**

المعنى الخفى أو الرمزى للصورة هو « النزعة الفرنسية الاستعمارية » ، وهــذا المعنــى الحقيقى أو الرمزى يصعب التوصل اليه الا اذا أخذنا فى الاعتبــار الملابسات التاريخية التى عاصرت نشر الصورة على غلاف المجلة . فقد ظهرت الصورة أثناء الفترة التــى كانت فيها الامبراطوريــة الفرنسية تتفكك وتتهاوى وبخاصة حين كان الرأي العام داخل فرنســا ذاتها منقسما حــول اذا ما كــان يجب منح (الاســتعمار) وتؤازر الامبريالية ، كمــا أن الجندى الزنجى في هذه الحالــة يرمــز الى اندماج أبناء المستعمرات الملونين مع جنــود فرنسا البيض فى خدمة العلــم الفرنسى ذي الالوان الثلاثة . ويقول اخر فان الصورة هى « العلامة الدالة » البريئة على ما يسميه بارت بالرســالة التــىتستحق الازدراء وهــى أن « فرنسا امبراطورية عظيمــة وأن أبناءهــا جميعا ، بصرف النظر عــن لــون بشرتهم ، يخدمون تحت العلم الفرنسى بولاء واخلاص ، وانه ليس هناك من رد على أعداء الاســتعمار (المزعوم) أفضل وأوقــع مــن هذا الحماس الذى يبديه ذلك الجندى الزنجى فــى خدمة (أسياده ومضطهديه المزعومين) . فهذا اذن مثال جيد لما يريده بارت من قراءة الاسطورة التى هى فى هذا المثال مجرد صورة يأخذهــا الرجل العادى على أنها مسألة « طبيعيــة » لا تستوقف نظره ولا تحتاج منه أية مناقشة أو تساؤل عــن معناها **الرمزى** أو **الاضافى** . وماقيل عن هذه الصورة يمكن أن يصدق على غيرها من الصور المماثلة ، بل وعلى كثير مــن المواد **التــى تحفل بها أساليــب الاتصــال الجماهيرى ووسائل الاعلام** التى يقبل الناس (الرسائل) التى تحملها اليهم دون أن يحاولوا من ناحيتهم ســبر أغوارهــا للتعرف عــلى معانيها الرمزية الكامنة وراء ذلك المعنى الحرفى الظاهر . ومن هنا فانه يقع على عاتق دارسى الاساطير عبء ومسئولية توضيح لطــرق والوسائل التى يمكن بها الكشف عــن هــذه المعانى الرمزية ، وبالتالــى تغيير الثقافــة (الطبيعية) بأخــرى (تفسيرية) . وهــكذا يلقى بارت على المثقفين (الفرنسيين) أعبــاء ومسئوليات جديدة نحو مجتمعهم فى مجالات طريفة ومفيدة . وعلى أية حــال فان أحــد الاهداف الرئيسية التى تهدف اليها دراسة (الاساطير) بهذه الكيفية هــو اثارة شــكوك الناس وايقاظ تفكيرهم وشحذ حواسهم ازاء الامور التى يتقبلونها بغير تردد أو مناقشــة باعتبارها مسائل مسلم بها .

كذلك يذهب بارت فى « الاسطورة فى الوقت الحاضر » الى القول بأن الاســطورة تتكون نتيجة لغيــاب الخاصــة التاريخيــة للاشــياء أو حتــى ضياعهــا تمــاما . ففــى الاسطورة تفقد الاشياء « ذكرى صنعها » ـ وفى هذه النقطة بالذات ـ أي عملية الصنع ـ يلتقى بارت دارس الاساطير ببارت المفكــر الادبى ،حسب تعبير ستاروك . ذلك أن بارت وشأنه فى ذلك شأن جميع الادباء المفكرين من أبناء جيله ـ لا يؤمن بامكان دراسة الاعمــال الادبية بمعزل عن طريق (صنعها) . أو انتاجها فالاعمال الادبيــة هى **أعمــال** قبل كل شىء يمكن تشبيهها بالمنتوجات التــى ينتجهــا اى مصنع أو ورشة . **وانشاء اي عمل أدبى ـ أي الطريقة التى يصنع بها ـ لها أهميــة قصوى بالنسبة للناقــد البنائى** ، لان اغفــال هــذه العملية سوف يؤدى الى الغموض والتعمية ، اذ سوف يؤخذ العمل الادبى فى هذه الحالة على انه « كل طبيعيومكتمل »ونتائج للالهام أو حتى (السحر) بدلا مــن أن يعتبر نتاجــا للمجهود الذهنى الشاق .

والواقع أنالاخفاق فى اعتبار الكتابة نوعا من (العمل) يرجع الى ذلك « التحالف غــير المقدس » بين الرومانســية والواقعيــة ، لان الرومانسية تميل الى عدمالخوض فى الكلام عن الجهد المبذول فى عملية التكوين والانشــاء، وتنظر الى الادباء المبدعين على أنهم كائنــات اسمى واكثر أصالة من أن تربط بينهم وبين انــواع وفئات (العمال) الادنــى ، بينمــا الواقعية تعتبر الكتابة مجرد تمثيل لشــىء

كان موجودا بالفعل قبل أن يشرع الكاتب فى العمل ، وان هذا الشىء هو اما الحقيقة في ذاتها ، واما الافكار السائدة عن الحقيقة والتى يختزنها الكاتب فى رأسه لحين الحاجة ... وهذه تصورات يرفضها بارت تماما لانها تعطى فكرة فجة عن ماهو الادب وتفشل فى التمييز بين ما هو أدب وما هو غير ذلك ، وهو تمييز يرتكز على النظرة الى **اللغة** . ولقد كان بارت يقف موقفا عدائيا صريحا من المذهب الواقعى أو المدرسة الواقعية لانها نوع من « تنتيض الفن » ولانها تجعل من الادب خادما للواقع والحقيقة وذلك نتيجة لنظرتها (الآلية) للغة، أي اعتبارها اللغة مجرد أداة ووسيلة . انها تعتبر اللغة « شفافة » — ان صحت هذه الكلمة ، وأنه من « خلال » الكلمات يمكن النظر الى الحياة وبذلك فهي تضحى بالعلامات الدالة Significants فى سبيل الامور المقصودة أو المتضمنة Signifiés وتزعم أنه فى ممارسة الكتابة فان المعانى تسبق الاصوات أو الكلمات ، وان الكلمات التى يستخدمها الكاتب انما يتم تحديدها مسبقا عن طريق المعنى الذى يريد نقله أو توصيله للقراء ، وبذلك تكون لغته لغة هادفة أو مغرضة وخالية من الغموض ... ويعترف بارت بأن اللغة كثيرا ماتستخدم بهذه الطريقة اذ قد يكون للكاتب هدف أو مرمى يهدف اليه ولذا فانه يرتب كلماته لكى يحقق هذا الهدف. ويحدث ذلك بوجه خاص حين يكون لدى الكاتب شىء يريد أن (يخبر) القارىء عنه أو ينبئه به ، **ولكن هذا ليس استخداما أدبيا للغة بالمعنى الصحيح للكلمة ، اذ ليس من وظيفة الادب الاخبار أو الانباء أو الاعلام بهذا الاسلوب (البرجمانى) المبتذل ، وانما يحاول الادب على العكس من ذلك تخليص اللغة وتحريرها من الاستخدامات اليومية العملية . فلغة الادب اذن ليست لغة هادفة ، وحين نقرأها فاننا لا نشعر باننا مطالبون بأن نؤدى أشياء معينة بالذات كنتيجة مباشرة لهذه القراءة** . وعلى اي حال فان الكاتب الحقيقى المبدع يجمع بين وعى الكتابة : الكتابة الهادفة التى ترمى الى توصيل معنى مسبق ، والكتابة الادبية الخالصة التى **هى نوع من اللعب** باللغة للتعرف على ما يمكن ان يؤدى اليه ذلك فى آخر الامر ، ولو أن الاهتمام بالجانب الثانى هو الاهم فى نظر بارت . وربما لم يكن المجتمع على استعداد لتقبل مثل هؤلاء الكتاب الذين يعطون للغة والالفاظ — **أو للنص بقول آخر** — كل هذه الاهمية والاولوية المطلقة . ولكن بارت يرى أن هذا النوع من الكتابة سيكون بغير شك هو أدب « المستقبل » . وليس معنى هذا أنه يدعو الى انزواء الكاتب فى « برجه العاجى » ، اذ على الرغم من أن مثل هذا الكاتب الحقيقى قد يبتعد عن المجتمع أثناء ممارسته الفعلية للكتابة التى تتطلب كثيرا من المعاناة فى تناوله اللغة واللعب بالالفاظ ، فان هذا لا يعنى ابدا انه ينبذ المجتمع أو (يغسل يديه) منه ، كما يقال . انما هو العكس من ذلك يعتبر (ضمير المجتمع) ، خاصة وأنه يعكف أثناء عمله على اختبار المدى الذى يمكن للغة القومية أن تصل اليه . ان الكاتب الحقيقى — ببساطة — لا يبدأ من المعانى ، وانما هو يعمل للوصول الى المعانى ، أو كما يقول بارت فى ذلك ، ان المعنى يأتى « فيما بعد » . فالكاتب المبدع يعتبر الادب غاية فى ذاته . اننا نفترض دائما أن عملية توضيح المعنى تبدأ من الشىء الذى يرادتوضيح معناهالى العلامة الدالة على المعنى Signifiant ، وانالكاتب يعرف أولاما يريد أن يقوله ثم يقرر الطريقة التى يقول بها ما يريد قوله ، ولذا فلن يكون من السهل علينا أن نقبل ما يذهب اليه بارت من أن الكاتب يقرر أولا الطريقة التى يقول بها ما يريد توصيله ثم يكتشف بعد ذلك فقط الشىء الذى يريد أن يقوله .. وقد يبدو لاول وهلة أن مثل هذا الكلام الذىهو عكس المألوف فيه افتئات وامتهان لكل فكرة التأليف بالفعل لا نه على أقل تقدير لا يفترض وجود الامور التى يراد نقلها ، والتىقدلا يكون لها وجود الا

فى ذهن الكاتب ، قبل أن يتم العثور على الرموز والعلامات والمعانى التى تدل عليها .

وكما تختلف أهداف ونشاط **الكاتب العادى** écrivant **والكاتب المبدع** écrivain كذلك تختلف (السلع) التى ينتجها كل منهما . فالكاتب المبدع ينتج **نصا** Texte ، أما ما ينتجه الكاتب العادى فهو مجرد **عمل** . والذى يهم فى نظر بارت هو **النص** : والنص على اية حال هو مجرد فرض أو احتمال للمستقبل ، ولكنه فى الوقت ذاته يعتبر مقياسا تقاس اليه اعمال الماضى والحاضر ... ان النص كمايقول عبارة عن (مهرجان للكلمات) ، يتم فيه **انتقاء الكلمة** واختيارها بدقة وعناية بحيث تبرز عن بقية الكلا مالعادى الذى يصدر عن الانسان فى الحياة اليومية . فالمعاناة التى يخوضها الكاتب المبدع مع اللغة ينتج عنها اذن نوع من (المشهد) اللغوى ، وعلى القارىء أن يستمتع بهذا المشهد فى ذاته ، ولذاته ، بدلا من أن يحاول ان يتوصل الى العالم من خلال تلك الكلمات . ان **النص** ينجم فى الحقيقة من (مداعبة) العلامات أو الاشارات الدالة Signifiants دون أن يعطى اهتماما كبيرا للامور والمسائل المقصودة أو المتضمنة فيه Signifiés ... **النص هو نوع من « شعر النثر » ان صحت هذه التسمية .**

ولعل اقرب شىء الى ما يعنيه بارت بالنص الحقيقى هو Finnegans Wake للكاتب الايرلندى الشهير جميس جويس James Joyce ، وهو عمل وجد له بعض الرواج فى فرنسا نتيجة لنظرية بارت ، ولو **أنه يعتبر عملا شاذا فى نظر القارىء الانجليزى الذى تعود على أن ينظر الى الاعمال الادبية على انها (اعمال) وليست نصوصا** ، ولهذا **فان هذا القارىء** ـ كما يقول ستاروك ـ **يقاسى من هذا الكتاب ويعانى أشد المعاناة** ويعتبره خاليا من المعنى ، لانه لا يكاد فى الاغلب يعطى أ ي قدر من اهتمامه لما فى الكتاب من ابداع قوى يقتضى منه أن يأخذ كلمة كلمة وجملة جملة ، لان هذه هى الوسيلة الوحيدة التى تكتشف بواسطتها المعانى التى يضمها هذا العمل الصعب . فالكتاب اذن عمل (نصى) حسب تعبير بارت نفسه ، وعبقريته تتمثل فى انه **يساعد على تشتيت ذهن القارىء بدلا من أن يعمل على تركيزه ...** انه عمل بدون غاية على ما قد يبدو للقارىء ، وكل ما ليس له غاية يعتبر عملا جيدا وطيبا فى نظر بارت . ويكفى أن قراءة هذا النص تعطى القارىء لذة ومتعة تتزايد تدريجيا وباستمرار كلما تقدم فى القراءة ، وهذه متعة لا تعادلها متعة أخرى .

هذا الكلام ذاته يصدق على كتاب بارت **Fragments d'un discours Amoureux** الذى نشر عام ١٩٧٧ والذى يوصف فى كثير من الكتابات التى ظهرتعن بارت وأعماله بأنه **كتاب غريب** ، فهو أيضايكاد (يخلو من الغائية) ويبدو للقارىء بأنه لا هدف له ، وانه يصدر عن منطق يكاد يختلف تماما عن المنطق السائد بين الناس . ففى هذا الكتاب يقول بارت : « اننى أشعر بالسعادة والشقاء معا وفى وقت واحد برغم ما قد يبدو فى هذا القول من تناقض ... اننى اقبل الامور بل وأجزم بهادون نظر الى ، أو اعتبار ، للصدق والكذب أو النجاح والفشل . اننى بعيد تماما عن الغائية . اننى أعيش كيفما اتفق » ... ولقد حاول بارت من ناحية أخرى أن يبعد الكتاب بقدر الامكان عن الشكل القصصي أو الروائى المألوف ، بحيث نجد ستاروك يقول فى ذلك : ان شكل الكتاب جاء كما لو كان يهدف الى « تشبيط الهمة عن البحث عن معنى » . **فالحب ـ كالنص ـ كلاهما يؤدى الى لا شىء ولكن كلا منهما ملىء دائما بالمعنى العميق المركز** ، كما ان العاشق يجد نفسه فى **« أتون المعنى »** ـ وهو تعبير بارت ـ نظرا لحاجته الشديدة الملحة التى لا تقاوم لتفسير

العلامات والاشارات الغامضة التى يزخر بها سلوك المحبوب . فالعاشق هو أيضا قارىء ، ولكنه قارىء من نوع خاص ، هو ذلك النوع الذى يستحقه نص يكتبه كاتب مبدع حقيقى ، لان ما يحاول العاشق أن يفعله هو أن يفهم النص من الداخل وأن يعيد « كتابته » أو « نسخه » لنفسه . فالنص – بالتعريف – قابل لان تعاد كتابته أو نسخه أو نقله Scriptible ، بعكس « العمل » المطبوع الذى لا يعيد القارىء نقله وانما يكتفى بقراءته .

ويميز بارت بين نوعين من الاستجابة للنص : اللذة Plaisir والمتعة او الاستمتاع Jouissance ، ومع أن المعاني الاضافية أو الرمزية Connotations للمتعة فى اللغة الفرنسية هى معان جنسية الى حد كبير ، الا أن بارت يعتبرها اساسية هنا بالنسبة للتمييز الذى يقيمه بين نوعى الاستجابة .. فاللذة احساس هادىء لطيف عادى ومألوف ، بل انه يمكن القول انها **احساس برجوازى** يتلاءم مع الجلسة الهادئة بجوار المدفأة ، ومع كتابة ما يمكن قراءته lisible ، وذلك بعكس المتعة التى هى احساس عارم وعميق وتتلاءم مع كتابة ما يمكن نقله ونسخه Scriptible أى النص . « ان اللذة يمكن الكلام عنها ووصفها بعكس المتعة التي كثيرا ما تؤدى الى شعور المرء بالحيرة بل والضياع وعدم الارتياح الذى قد يصل الى حد الملل ، كما أنها تهز أركان الاسس التاريخية والثقافية والسيكولوجية للقارىء وتصدم ذوقه وقيمة ذكرياته ، وقد تؤدى الى خلق ازمة فى علاقاته مع اللغة » كما يقول فى كتابه (**لذة النص** Le Plaisir d Texte) الذى نشره عام ١٩٧٣ والذى يصفه ستاروك بأنه كتاب محير وغير قاطع فى كثيرمن المواضع . ومع أن بارت يعترف بأن كثيرا من القراء لم يمروا بمثل هذه التجربة (المتعة) أثناء قراءاتهم ، بل وقد لا تتاح لهم الفرصة أبدا لان يمروا بها ، الا انها تجربة يمكن استثارتها عن طريق العكوف على دراسة الالفاظ ودلالاتها ، وهو أمر خليق بالاهتمام على اية حال ، كما أن الجهدالذى يبذل فى ذلك جهد غير ضائع . الا أن الكثيرين ممن تعرضوا لآراء بارت من أمثال ستاروك وفيليب بيتيت Philip Pettit فى كتابه **The Concept of Stracturalism : A Critical Analysis** يرونأن ما ذهب اليه بارت من توجيه الكتاب المبدعين فى المستقبل جانبا كبيرا من جهودهم للعب باللغة والكلمات وما سوف يترتب على ذلك من اثارة **المتعة** فى اذهان قراء **نصوصهم القابلة للنسخ والنقل** ليست سوى « عصا يستخدمها بارت لضرب الحاضر » ، وبخاصة ما يعتقده الكتاب المعاصرون من ضرورة تكامل ووحدة الاشخاص والاعمال الادبية على السواء . وبناء على ذلك فان بارت لا يتصور أن الكاتب المبدع يعبر عن « نفسه » حين يكتب ، لان هذا سيكون ضربا من المثالية Idealisme التى تؤمن بأن الكاتب له « نفس » أو « ذات » مستقلة عما يكتب ولها وجود سابق على كتاباته ، وانه حين يكتب انما يشرع فى تمثيل نفسه أو تصويرها مستخدما اللغة كأداة لذلك . وهو ما لا يقبله بارت الذى يعتقد أن الكاتب لا يستطيع أن يكتب نفسه ، وانه بمجرد أن يحاول ذلك فان هذه (النفس) أو (الذات) تتضاءل وتنكمش وتصبح عديمة الجدوى ، ولذا نجده فى كتابه **(رولان بارت بقلم رولان بارت)** يستخدم دائما ضمير الغائب (هو) أو الحرفين الاولين من اسمه (ر.ب) وذلك بعكس الحال فى كتابه **« شذرات »** **Fragments** فانه يستخدم دائما ضمير المتكلم (انا) على الرغم من انه لم يقصد من ذلك الكتاب أن يكون ترجمة ذاتية له أو أن يكون سيرة حياته

هو . فاستخدام (أنا) فى الكتاب هو من قبيل استخدام ذلك الضمير فى الكتابات الفلسفية مثلا حين يريد الكاتب ضرب الامثلة لتوضيح ما يريد أن يقوله (لو فعلت انا كذا وكذا ...) ،أي انه يستخدم على المستوى المجرد دون أن يقصد الكاتب من استخدامه الاشارة الى ذاته هو بالفعل . **انها (أنا) غير مشخصة ، أو (أنا) بنائية ،** وعلى هذا الاساس فانها تعتبر (صورة فارغة) يمكن لاي شخص أن يستخدمها . والمهم هنا هو أن يؤخذ النص فى ذاته دون نظر الى صاحبه او محاولة التعرف فيه على مؤلفه كما كان الحال فى (الماضى) حين كان النقاد يتصورون أن للمؤلف وجودا ماديا يمكن التعرف عليه (وراء) النص ، غير منتبهين الى أن الكاتب (يسكن) أو (يقيم) كصورة فقط فى النص الذى يكتبه ، وان (الانا) الحقيقية لا يمكن أن تظهر ابدا فى كتابته رغم انها تنتشر فى كل موضع منها .

وفى هذا الكلام كثير من الغموض المتعمد فلم يكن بارت يهتم كثيرا بمسألة الوضوح بل ويراه عيبا يجب على الكاتب المبدع أن يتخلص منه . (٥) وليس ثمة شك فى أن فكرة (النص بدون مؤلف) فكرة لا يستسيغها الكثيرون ولا يتقبلونها بسهولة . فالنص يعتبر فى الاغلب علامة أو رمزا خارجيا يعبر عن وجود ما (مؤلف) كامن وراءه . ولكن بارت يرى ان هذه هى النظرة الغربية للاشياء ، وان هناك وجهات نظر مخالفة فى ثقافات ومجتمعات أخرى تتفق مع رأيه وتؤكد وجهة نظره .

واليابان هى احدى هذه الثقافات التى تتوفر فيها الامثلة على صدق ما يذهب اليه . فحين قام بارت برحلته الى اليابان وجد من الدلائل مايشير ــ فى رأيه ــ الى وجود ميتافيزيقا مناقضة للميتافيزيقا الغربية ... ميتافيزيقا الفراغ . فالثقافة اليابانية ــ فى رأيه أيضا ــ ترى أن ظاهر الشىء هو الشىء ، أما باطن الشىء فهو عنصر غير مرئى وبالتالى لا يمكن الاستدلال منه على الشىء . واليابان بلد ملىء بالرموز او العلامات والاشارات الدالة signifiants التى تستمد أهميتها وسحرها من عدم وجود مضمونات او مدلولات يراد الدلالة عليها Signifiés . ومن هنا كان كتاب بارت عن هذه الرحلة يظهر بعنوان له مغزاه فى هذا الصدد : « **امبراطورية العلامات** » L'Empire des Signes » . وقد صدر الكتاب فى جنيف عام ١٩٧٠ وعالج فيه بارت كثيرا من الممارسات وأحداث السلوك اليومي ومظاهر الثقافة كالطهى والاهتمام بالحدائق والزهور واسلوب تقديم الهدايا او على الاصح طريقة تغليف الطرود وما الى ذلك . ووجد انها كلها تعكس نفس النمط من « اغفال المعنى » على مايقول . فهى جميعا عبارة عن ظاهر او سطح بدون أعماق حقيقية او مستترة ، كما انه لايوجد فيها « مركز » أو « روح » . ففى حالة تقديم هدية مثلا او استلام احدى اللفائف او أحد الطرود يسارع الاوربي « المثالى » بازالة الغلاف لكى يصل بأسرع ما يمكن الى محتويات الطرد ، اما فى اليابان فالظاهر ان الغلاف ذاته

(٥) لا يهتم بارت كثيرا بمسألة الوضوح clarté فى كتاباته ، او على الأصح لا يوافق على أن مسألة الوضوح هى أمر لازم أو واجب فى الكتابة . وقد يبدو موقفه غريبا فى ذلك ، خاصة وان الفرنسيين عموما ينظرون الى وضوح الفكرة والكتابة على أنه من العلامات المميزة للعقلية الفرنسية ويعتبرونها احدى « الخصائص القومية » التى يفخرون بها . ولقد عنى بارت منذ وقت مبكر فى كتاباته بالتهوين من شأن عنصر الوضوح ، بل وعمل على تسخيف الجهود التى يقوم بها الكتاب لتوضيح افكارهم الى حد المبالغة فى ذلك ، وذهب الى أن التمسك بالوضوح انما جاء نتيجة رغبة البورجوازية المتطلعة الى فرض ارادتها على الطبقات الاخرى الادنى منها فى السلم الاجتماعى ، وكانت وسيلتهم فى ذلك هى الوضوح فى الحديث من أجل الاقناع وبالتالى السيطرة .

هو الذى يهم وهو الذى يلقى الاستحسان والتقدير ، اما المحتويات فقد تكون أشياء تافهة او لاوجود لها على الاطلاق . بل ان مقارنة وجه الرجل اليابانى ووجه الرجل الغربي تعكس نفس النمط : فعيون الغربيين تظهر غائرة فى الوجه وتعتبر علامات واشارات على الروح الكامنة فى الاعماق،أما عيون الرجل الياباني فانها تقوم على نفس مستوى الوجه ولا تكشف عما يدور بداخله . وقد يكون لليابانيين انفسهم تفسيراتهم الخاصة وآراؤهم فيما يتعلق بأسلوب تصرفهم ازاء استلام الهدايا والطرود ، او فيما يتعلق بمدى دلالة وضع عيونهم فى وجودهم على مايدور بداخلهم ، ولكن المهم هنا هو أن بارت ، الذى عاش مغربا الى حد كبير عن المجتمع البورجوازى فى فرنسا وجد فى ذلك الاغتراب الذى جعله يلجأ الى ثقافات اخرى مثل الثقافة اليابانية مايساعده على القاء بعض الاضواء على الثقافة الفرنسية ذاتها ، تماما مثلما وجد فى ملامح تلك الثقافات مايعزز وجهة نظره فى ضرورة الاهتمام بالنص لذاته ودون محاولة التعرف على الكاتب الذى يكمن وراءه .

● ● ●

ان أحد الدروس التى كان بارت يحرص على أن يلقنها لنا هو أننا لانكاد نملك الحق فى أن نزعم أن لغتنا هي ملك لنا ، لأن اللغة نسق ينبغى أن ننزل له عن جانب كبير من فرديتنا اذا أردنا أن ندخل فيه (٦) . ان الشخص ــ أى شخص ــ حين يتكلم أو يكتب ، لايكون ــ حسب تعبيره ــ أكثر من مجرد « ظرف خطاب كبير فارغ » حول الكلمات . وفى ذلك يقول ستاروك : « ان بارت ــ المؤلف ــ قد لايكون سوى اسم لظرف خطاب ، ولكن ليس هناك شخص فى السنوات الاخيرة استخدم اللغة الفرنسية بطريقة أعمق وأكثر أصالة وذكاء منه » . (ص ٧٩) .

★ ★ ★

(٦) تحتل اللغة مكانا هاما فى تفكير بارت وكل البنائيين الفرنسيين نتيجة لتاثرهم بكتابات فردينان دو سوسير كما ذكرنا . والواقع انهم جميعا كانت تسيطر عليهم مشكلة طبيعة اللغة باعتبارها نسقا اجتماعيا وثقافيا ، كما شغلتهم مسالة جدوى استخدام اللغة وطرق استخدامها وما يمكن ان يؤدى اليه (اللعب) بالكلام من نتائج . وينظر البنائيون عموما الى اللغة على انها (نظام) او نسق اجتماعى وثقافى لا يرتبط وجوده بوجود الفرد ، بل أن الفرد هو الذى يدخل الى هذا النسق منذ الولادة فيتربى فيه ، وبذلك تعتبر اللغة اهم عنصر فى عملية التنشئة الاجتماعية ، كما انها توصف فى العادة بانها (لا شخصية) لانها تعلو وترتفع وتسمو علينا وتتجاوزنا كافراد . وهذه على العموم هى النظرة السائدة الى اللغة فى كتابات مدرسة علم الاجتماع الفرنسى.

المراجع :

المرجع الاساسى الذى اعتمدنا عليه فى هذا المقال هـو كتاب :

John Sturrock (Ed.) ; **Structuralism and Since : From Levi-Strauss to Derrida,** Oxford U.P. 1979.

وذلك بالاضافة الى المعلومات القيمة التى استمددناها، وبخاصة فيما يتعلق بتاثر البنائية باللغويات ، من الكتب التالية :

Boudon, R. ; **The Uses of Structuralism,** Hei emann, London, 1971.

De George, R. and De George, F. (eds) **The Structuralists from Marx to Levi-Strauss,** Doubledday 1972.

Douglas, Mary ; **Natural Symbols** ; Penguin 1973.

Ehrmann, J. (ed.) ; **Structuralism,** Doubleday, 1970.

Lane, M. ; **Structuralism ; A Reader,** Cape, 1980.

Petit, Philip, **The concept of Structuralism : A Critical Analysis,** California U.P., 1975.

Piaget, Jean, **Structuralism,** R.K.P. 1971.

Saussure, F. De ; **Course in General Linguistics,** Mc Graw-Hill, 1966.

اما عن كتب بارت نفسه فان الكتب التالية تتصـــل اتصالا مباشرا بالموضوعات التى عالجناها فى المقال :

Le Degre Zero de I'Eeriture, 1953.

Mythologies, 1957.

Elements de Semiologie, 1965.

Le Plaisir du Texte, 1973

Roland Barthes Par Roland Barthes, 1954.

وقد نقلت كلها الى اللغة الانجليزية .

★ ★ ★

اضواء جديدة على "ملاح" فاسكو دي جاما

محمد عبد العال احمد

مدرس التاريخ الاسلامي بمعهد البحوث والدراسات الافريقية جامعة القاهرة .

بدأ النشاط الصليبى فى الظهور ، واخذ فى الاشتداد من جديد خلال القرن التاسع الهجرى (١٥ م) حتى اذا ما أوشك هذا القرن على الانتهاء ، كان ذلك الصراع قد بلغ مداه. ففى أقصى الغرب الاوربى ، وكزت مملكة قشتالة على تصفية الوجود الاسلامى فى الاندلس ، وذلك بالقضاء على مملكة غرناطة – آخر المعاقل الاسلامية فيها – واسفرت هذه الجهود عن سقوط تلك المملكة سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٦٢ م (١) ، واجبر المسلمون فيها على الفرار منها ، او الارتداد عن دينهم واعتناق المسيحية ، تفاديا للتعذيب الوحشى والقتل (٢) .

اما البرتغال ، فقد تجسدت الروح الصليبية فيها ، ولهذا عملت على تطويق العالم الاسلامى (٣) ، وتوجيه الضربة اليه من الخلف، بعد أن فشلت المواجهات الامامية المتكررة من البحر المتوسط ، فى انتزاع المناطق التى كانوا يسيطرون عليها فى الشام وخاصة بعد سقوط آخر معاقلهم في عكا سنة

(١) السلاوي : الاستقصاء لاخبار المغرب الاقصى – الدار البيضاء ١٩٥٤ – ج ٤ ص ١٠٣ – ١٠٤ ، احمد مختار العبادي : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ١٩٦٨ ، ص ٤٦٨ .

(٢) احمد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٠ ، ٧٠ ، ٩٤ – ٩٨ ، ١٠٣ ، ١١١ – ١١٢، ١٢٧، ١٣٤.

(٣) Macro (E.): Yemen and the Western World Since 1571, London, 1968, p. I.

٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م (٤) . فبعد أن استولى الملك البرتغالى خوان الاول على سبتة سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م ، واقطعها لولده الامير هنرى الشهير بالملاح ، والمعروف بحقده وكراهيته المتناهية للاسلام والمسلمين (٥) بدات الجهود البرتغالية التى تبناها هذا الامير ، وكرس حياته لاكتشاف طريق جديد حول افريقية لتحقيق أحلامه فى ضربهم . وكانت أولى حملات الكشف البحرية سنة ١٤١٨ م لسواحل غرب افريقية (٦) .

ومع استمرار الحملات البحرية البرتغالية على طول الساحل الافريقى الغربى ، تمكن بارثلميو دياز Bartholomew Diaz من الوصول الى أقصى نقطة لهذا الجانب من افريقية ، واكتشاف منطقة (راس العواصف) سنة ١٤٨٧ م (٧) ، وهى التى أطلق عليها ملك البرتغال اسم راس الرجاء الصالح ، لانفتاح الطريق الى الهند بعد ذلك على مصراعيه ، مما ساعد فاسكودى جاما Vasco de Gama على اتمام الدوران بأسطوله حول افريقية سنة ١٤٩٧ م (٨) ، أى بعد تسعين عاما من بدء حركة الكشوف .

وبهذا اخذ أمل البرتغاليين يزداد فى امكان تحقيق أهدافهم الرئيسية ، التى تمثلت فى العمل على السيطرة على مواطن التوابل (٩) ، وفرض الحصار الاقتصادى وخاصة على البحر الاحمر ، كبداية أساسية لانتزاع احتكار تجارة الشرق من مصر ، وحرمانها من المكاسب الكبيرة التى كانت تشكل الجزء الاكبر من اقتصادها الذى تعتمد قوتها عليه ، والعمل على الاتصال بالحبشة المسيحية ، وتحقيق التعاون معها من أجل ضرب مصر عسكريا من الخلف ، والقضاء على المسلمين ومقدساتهم ، مما يؤكد أن حركة الكشوف

---

(٤) ابن تغر بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة القاهرة ، ج ٨ ص ٨ ، ١٠ ،
Stevenson : The Crusaders in the East, Cambridge, 1907, pp., 354 f.

(٥) السلاوي : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٩٢ ، احمدمختار العبادي : نفس المرجع ، ص ٤٥٥ وما بعدها .

(٦) سونيا هاو : فى طلب التوابل ، ترجمة محمدعزيز رفعت ، ومراجعة د . محمود النحاس ، الكتاب رقم (٩٨) من مجموعة الالف كتاب ، ص ٩٤ ـ ٩٥ .

(٧) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ١٣١ ـ ١٣٢ ، بانيكار : اسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٢٩ ،
Kammerer : La Mer Rouge, L'Abyssinie et L'Arabie depuis L'antiquité, Essai d'hist. et géogr. hist. T. II, p. 75.

(٨) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، ترجمة د. احمد عزت عبد الكريم ، و د. توفيق اسكندر القاهرة ١٩٤٨ ، ص ١٤٥ ، بانيكار : نفس المرجع ، ص١٩ ، أحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ، بيروت ١٩٧٢ ، القسم الثاني ، ص ٢٦٦ .

(٩) Ingham (Kenneth) : A History of East Africa., ed. Longman, p. 6.

البرتغالية كانت — فى حقيقتها — امتدادا للحروب الصليبية (١٠) .

ولما كان كشف البرتغاليين عن اهدافهم فى تلك المرحلة ، من شأنه أن يثير مشاعر العداء ضدهم ، ويهدد بالقضاء على جهودهم وآمالهم ويعرضها لاخطار محققة ، لهذا عمل دى جاما على معاملة أهالى المناطق التى يصل اليها بالحسنى ، ولم يلجأ الى العنف الا اذا اقتضت الضرورة ذلك . يتضح ذلك من بعض تصرفاته فقد حدث أثناء تقدمه على الشاطىء الافريقى الشرقى ، شمالا ، أن وجد قاربا عند موزمبيق ، على متنه بعض الزنوج واحد البحارة ، ظنه البرتغاليون فى بداية الامر من المغاربة ، فلما اقتربت السفن البرتغالية ، هرع الزنوج والقوا بأنفسهم فى البحر وفروا الى الساحل ، أما البحار فقد تم نقله الى سفينة القيادة البرتغالية ، حيث احسن دى جاما استقباله ، واكتشف أن الرجل هندى ، وليس عربيا مغربيا ، وانه من اهل كمباى (Cambay) بالهند ويدعى داقان ، وقد اتخذه دى جاما مستشارا له ، لانه كان خبيرا بالتوابل ومن سماسرتها . وقد وافق هذا الملاح على مرافقة البرتغاليين الى الهند ، وتعهد بتزويدهم بحمولة من التوابل نظير توصيله الى بلاده ، (١١) . وفى ميناء موزمبيق ، كان وصول الاسطول البرتغالى ، فى وقت كانت فيه أربع سفن محملة بالتوابل وغيرها من بضائع الهند راسية فى الميناء ، فلم يتعرض البرتغاليون لها بسوء ، بل على العكس من ذلك ، فقد استضاف دى جاما طاقم هذه السفن الهندية ، وقدمت لهم الانبذة ، التى قيل أن اقبالهم عليها كان كبيرا (١٢) . كما استجاب شيخ موزمبيق لطلب دى جاما ، وزوده باثنين من المرشدين ، الا انهما تمكنا من الفرار والعودة عندما تأكدا أن البرتغاليين من المسيحيين ، مما ادى الى استخدام البرتغاليين العنف ضد الاهالى (١٣) . ولهذا لم يغامر دى جاما بالرسو بأسطوله فى منبسة ، عندما شك فى احتمال قيام ملكها بتدمير سفنه واغراقها انتقاما لما فعله ضد أهالى موزمبيق (١٤) .

ولما وصل البرتغاليون بعد ذلك الى ميناء مالندى — الواقعة حاليا فى كينيا — لقى دى جاما فيها ترحيبا من ملكها ، خوفا أو ضعفا (١٥) فلما عزم على مغادرتها بعد عدة أسابيع ، طلب من صاحبها امداده بملاح يرشده الى الهند ، فاستجاب له الملك وامده بملاح ماهر ، قاد

---

(١٠) Serjeant (R.B.) : The Portuguese off the South Arabian Coast, Oxford, 1963, p. 2.

(١١) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ١٩٢ — ١٩٣ .

(١٢) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ١٩٣ ، ١٩٥.

(١٣) Strandes (J.) : The Portuguese Period in East Africa, trans. by Wallwork, Nairobi, 1961, pp.21-24.

(١٤) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ١٩٥ — ١٩٦.

(١٥) The History of Kilwa, ed. from an Arabic MS. by Arthur Strong, (J.R.A.S.), London, 1895, pp. 397, 428.

أسطوله الى قاليقوط . فوصلها فى مايو سنة ١٤٩٨ (١٦) .

وعلى عاتق هذا الملاح ، ألقى البعض مسئولية وصول البرتغاليين الى الهند ، وما ترتب على ذلك من نتائج . ولا شك أن هذا الحكم جاء غاية في القسوة ، وهو بعيد كل البعد عن التفسير العلمى السليم ، ذلك أن البرتغاليين تستروا ـ خلال تلك الفترة ـ بالواجهة التجارية ، ولم يكشفوا عن أهدافهم الحقيقية ، ولهذا كان من السهل عليهم العثور على من يتعاون معهم ، طالما كانت معاملتهم حسنة ، وتكفلوا باعطاء الأجر المناسب . واذا كان البعض قد امتنع عن التعامل معهم أو لجأوا الى الهرب والفرار عندما اكتشفوا أنهم مسيحيون ، فان ذلك لم يكن عند البعض الآخر سببا كافيا لانتهاج هذا المسلك معهم ، اذ لم تخل منطقة شرق افريقية أو الهند من المسيحيين الذين كانوا يعيشون جنبا الى جنب مع مسلمى تلك المناطق . ومن ناحية أخرى ، فانه لو لم يتيسر لفاسكو دى جاما الحصول على الملاح المنشود ، فلن يكون ذلك ـ بالطبع ـ نهاية للجهود البرتغالية ، بل من المؤكد أن تلك المحاولات كانت ستستمر مهما كانت التضحيات ، اذ كيف يقضى البرتغاليون تسعين عاما دون كلل أو ملل فى أعمال الكشوف للسواحل الافريقية ، معتمدين على أنفسهم وخبراتهم البحرية وما اكتسبوه من خبرات تدريجية خلال عمليات الكشوف حتى توصلوا الى الساحل الافريقى الشرقى ـ وهى مرحلة من أصعب المراحل ـ ثم يتوقفون بعد ذلك ، لمجرد امتناع المرشدين عن قيادة أسطولهم الى الهند ؟ . وحتى لو سلمنا جدلا بامكان مقاطعة الملاحين لهم ، فقد كان فى الامكان الاهتداء ببعض السفن المتجهة ـ فى موسمها ـ الى تلك المنطقة ، واقتفاء أثرها دون كبير عناء ، أو اختطاف الملاحين واجبارهم على ارشادهم بالقوة .

والموضوع الذى نعرض له بالمناقشة فى هذا المجال يتعلق بمحاولة التعرف على ملاح فاسكو دى جاما وجنسيته .

ويعتبر النهروالى ، أول من أشار ـ من المؤرخين العرب ـ الى موضوع الملاح وحدد اسمه ، قال ، :

(وقع فى أول القرن العاشر من الحوادث الفوادح النوادر ، دخول الفرتقال (البرتغال) اللعين من طائفة الفرنج الملاعين الى ديار الهند . وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبتة في البحر ، ويلجون فى (بحر) الظلمات ويمرون بموضع قريب من جبال القمر ... ويصلون الى المشرق ، ويمرون بموضع قريب من الساحل فى مضيق ، أحد جانبيه جبل ، والجانب الثاني بحر الظلمات ، فى مكان كثير الامواج لا تستقر به سفائنهم وتنكسر ولا ينجو منهم أحد . واستمروا على ذلك مدة ، وهم

---

(١٦) جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريفية الشرقية ، نقلة الى العربية يوسف كمال ، الطبعة الاولى ١٩٢٧ ، ص ٢٠٩ ، سونيا هاو : فى طلب التوابل ،ص ١٩٧ ، كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافى العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، ١٩٦٥ ، القسم الثاني،ص ٥٧٣ ، جورج فاضلو حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ترجمة د . يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٥٨ ،ص ٢٣٧ ، انور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، سلسلة اعلام العرب ، العدد ٦٣ ، مارس ١٩٦٧ ، ص ٢٧ ، ٢٨ ،٤٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد (١٣) ، يناير ١٩٧٩ ، ص١٢٦ ، ١٢٧ ، جمال زكريا قاسم : الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٧٠ ،

Strong : op. cit., pp. 397, 428.

Ferrand : Introduction à I'astronomie nautique Arabe, Paris, 1928, pp. 183-184, Le Pilote Arabe de Vasco de, Gama et les instructions nautiques des arabes au XVe siecle, Annales de Géographie, Paris, 1922, p. 292.

يهلكون فى ذلك المكان ، ولا يخلص من طائفتهم أحد الى بحر الهند ، الى أن خلص منهم غراب الى الهند ، فلا زالوا يتوصلون الى معرفة هذا البحر ، الى أن دلهم شخص ماهر يقال له احمد بن ماجد ، صاحبه كبير الفرنج – وكان يقال له الى ملندى – وعاشره فى السكر ، فعلمه الطريق فى حال سكره ، وقال لهم ، : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا فى البحر . ثم عودوا ، فلا تنالكم الامواج . فلما فعلوا ذلك ، صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم . فكثروا فى بحر الهند ... وصارت الامدادات تترادف عليهم من البرتغال. فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين اسرا ونهبا ، ويأخذون كل سفينة غصبا ، الى ان كثر ضررهم على المسلمين ، وعم أذاهم على المسافرين (١٧) .

وعلى هذا النص اعتمد المستشرق الفرنسى جبرييل فران(G. Ferrand) فيما ذهب اليه ، من أن احمد بن ماجد العربى المسلم هو الملاح الذى قاد أسطول فاسكو دى جاما من مالندى الى موطن التوابل فى قاليقوط (١٨) . وبذلك حمله أصحاب هذا الرأى وزر ما ترتب على ذلك العمل من نتائج ضد المصالح العربية والاسلامية (١٩) . بعد أن تمكن البرتغاليون من سرعة تثبيت وجودهم وسيطرتهم ، ولم يتمكن العرب من التصدى لهم ، أو لمن جاء بعدهم من العناصر الاوربية الاخرى أو منافستهم (٢٠) .

فى حين ينفى آخرون تورط ابن ماجد المسلم التقى الورع فى معاونة البرتغاليين الصليبيين ، ويستبعدون أن يتسبب ملاح عربى كبير مثله فى تسهيل تثبيت الوجود البرتغالى فى المنطقة ، والقضاء على الملاحة العربية فى المياه الشرقية . وقد استند أصحاب هذا الرأى على عدم تعرض المصادر العربية المعاصرة للاشارة الى ابن ماجد ، سواء بالتصريح أو التلميح (٢١) . اذ أن النهروالى (ت ٩٩٠ هـ/١٥٨٢ م) متاخر كثيرا ، ثم أنه لم يوضح المصدر الذي اعتمد عليه فيما أورده . يعزز ذلك أن المصادر البرتغالية التى أرخت لتلك الحوادث ، قد نصت على غير ذلك ، ولم تذكر شيئا عن اتصال فاسكو دى جاما بابن ماجد .

وفيما بين الاثبات والنفى ، أصبح موضوع ابن ماجد قضية ، يتمسك كل طرف فيها برأيه ويتحمس له ، فى حين يحاول

---

(١٧) البرق اليماني في الفتح العثماني – اشرف على طبعه حمد الجاسر ، الطبعة الاولى ١٩٦٧ – ص ١٨ – ١٩، وقارن ، الشبلي اليمني : السنا الباهر بتكميل النور السافر فى أخبار القرن العاشر ، مخطوط رقم ٢٠٢٣ تاريخ تيمور بدار الكتب المصرية ، ص ٧ – ٨ ، (فعلى الرغم من ان الشبلي لم يشر الى النقل عن النهروالي ، الا انه يتضح بالمقارنة اعتماده عليه والنقل حرفيا عنه) .

(١٨) Ferrand : Le Pilote Arabe de Vasco de Gama ; pp. 290-307, Art. Shihab AL-Din, p. 368, in ENC. of Islam, vol. IV.

(١٩) شوموفسكي : مقدمة كتاب (ثلاث ازهار فى معرفة البحار ، لابن ماجد) ترجمة د. محمد منير مرسي ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٩ .

(٢٠) جورج فاضلو حوراني : نفس المرجع : ص٢٣٧ .

(٢١) انظر ، انور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، ص ١٣٢ . (حيث عدل عن رأيه السابق). قارن كتابه ، ابن ماجد الملاح ، ص ٧ ، ٥١ – ٥٢. (واعتبران موضوع قيادة ابن ماجد للاسطول البرتغالي ، ما هو الا أسطورة روج لها كل من جابر ييل فران والمستشرق الروسي تيودور شوموفسكي من بعده) . ويقرر الدكتور عبد العليم ، : « بكثير من الثقة والاطمئنان بان ابن ماجد لم يكن هو الدليل او المرشد اللاحي لمراكب دي جاما ، ولا لغيره من الاميرالات البرتغاليين » .

آخرون هدم القضية من أساسها ، بانكار وجود ملاح عربى بهذا الاسم .

على أن الأمر ليس اجتهادا فى توجيه اتهام باطل ، أو نفى حقيقة ثابتة ، وانما المفروض أن تستهدف الدراسات والبحوث التاريخية الوصول الى الحقائق المجردة ، أو الاقتراب منها قدر المستطاع ، مع تدعيم ما يتم التوصل اليه بالأدلة والبراهين ، مع بيان الظروف التى أحاطت بالواقعة أو الوقائع ، والاسباب التى أدت اليها ، مما يضع الامور فى نصابها دون أدنى خجل ، ومهما كانت النتائج مؤسفة . اذ لا يجب أن ينصب الاهتمام على نقاط معينة من التاريخ دون غيرها ، كما أنه ليس من الظرورى أن تكون الحوادث الهامة ، أو ما يمكن وصفه بالجانب المشرق للتاريخ ، هو وحده الذى يثير الاهتمام أو تقتصر الدراسات عليه ، فالتاريخ بحوادثه المختلفة ــ المشرقة أو غير المشرقة أو المؤسفة ــ كل لا يتجزأ ، عظة وعبرة . وليس الامر مباراة أو مناظرة يجتهد كل طرف فيها باقناع الطرف الآخر ــ بالحق أو الباطل ــ بوجهة نظره . وفيما يتعلق بموضوعنا ، فانه لا يجب أن يبلغ الاشتطاط الى حد انكار وجود احمد بن ماجد . اذ أنه من الواضح أن أصحاب هذا الرأى انما يستهدفون تخليص العرب ــ ممثلين في ابن ماجد العربى المسلم ــ من تهمة قيادة الاسطول البرتغالى ، وما يترتب على ذلك من آثار .

فابن ماجد ، حقيقة واقعة لا مراء فيها . فهو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبى معلق السعدى بن أبي الركائب النجدى (٢٢) وهو وان كان أصلا من نجد الحجاز ، الا أنه ولد وشب فى ظفار بعمان ، وهو سليل أسرة عريقة فى الملاحة ، ضليعة فى علوم البحار ، فقد كان أبوه وجده من الملاحين المشهورين (٢٣) وقد سجل والده تجاربه البحرية فى مصنف ضخم اطلق عليه « الارجوزة الحجازية » ، فى وصف الملاحة فى البحر الاحمر ، فعرف بـ « ربان البرين » (٢٤) (أى العربى والافريقى للبحر الأحمر) .

ولهذا ، فلم يكن غريبا أن يبرع ابن ماجد ويعلو نجمه فى هذا المضمار ، حتى أصبح فريد عصره في هذا الفن ، وقد نيفت مؤلفاته على الثلاثين (٢٥) . فيها من التواريخ ما يثبت تواجده فى ذلك العصر بالتحديد .

وهكذا حاز ابن ماجد شهرة كبيرة استمرت الى ما بعد عصره بقرون ، فقد

---

(٢٢) شوموفسكي : نفس الدراسة ، ص ٧٧ ــ ٧٨، ٩٥ ، أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، ص ١٢ ، الملاحة وعلوم البحار ، ص ١٣٩ ، وانظر ، محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ، القاهرة ١٩٥٠ ، ج ١ ص٢٣٩ (حيث لقب ابن ماجد بـ « البصري ») .

Ferrand : Art. Shihab AL-Din Ahmad B. Madjid, p. 365.

(٢٣) كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافى العربي ، القسم الثاني ، ص ٥٧٣ ،

Ferrand : Introduction a I, astronomie nautique Arabe, pp. 221-222, L'élément Persan dans les textes nautiques Arabes des XVe et XVIe siècles, (J.A., vol. 204, 1924), pp. 197-209.

(٢٤) كراتشكوفسكي : نفس الرجع والصفحة ، انورعبد العليم : ابن ماجد الملاح ، ص ١٣ ،

Ferrand : Art. Shihab AL-Din. p. 365.

(٢٥) شوموفسكي : الدراسة التاريخية ، لكتاب (ثلاث أزهار) ، ص ٧٧ ، وانظر ، أنور عبد العليم : نفس المرجع ، ص ٦٤ ، (حيث ذكر ان مؤلفات ابن ماجد بلغت الاربعين) .

شـاهد الرحالة الانجليزى ريتشارد بيرتون (٢٦) (Richard F. Burton) عند رحيله من بندر المعلى فى عـدن سـنة ١٨٥٤ ، أن ملاحى عدن كانوا يقراون الفاتحة على روح ابن ماجد كلما أقلعوا منهـا اعترافا بفضله (٢٧) ، اذ استمر الاعتماد علـى مصنفاته الى ما بعد ذلك ، وانه كان معروفا أيضا فى الهند وجزر الملديف فى النصف الاول مـن القرن التاسع عشـر ، فقـد ذكـر جيمس برنسب (James Prinsep) انه كان يبحث عن بوصلة عربية ، فلمـا اخفق فى مسعاه ، قدم له أحد أصدقائه الملديفيين رسما لها ، انتزعه له من احدى المخطوطات لابن ماجد ، وقد فضل الناخوذة ـ الذى كان المخطوط فى حوزته ـ قطع ورقة الخريطة ، لانه لـم يكـن يستطيع الاستغناء عـن المخطوط او التفريط فيه لاهميته (٢٨) .

هذا فيمـا يتعلق باثبـات حقيقةوجـود شخصية ابن ماجد . أما فيما يختص بنفى قيامه بقيادة أسطول فاسكو دى جـاما الى الهند ، فان أصحاب هـذا الرأى يعتمدون بالاضافة الى ما وجهوه مـن نقـد لروايـة النهروالى ـ على ما ذكرته المصادر البرتغالية من أن مـلاح فاسكو دى جاما ، كـان ربانا مسلما من كجرات بالهند (٢٩) ، تعـرف عليـه دى جامـا فى مالندى . وذكرت تلـك المصادر أن هـذا المـلاح هو ، : (معلم كانا Malem Cana) (٣٠) ، أو (معلمو كاناكا Malemo Canaque (٣٠) ، أو (معلمو كاناكـا Canage) أو (كاناك (Kanak (٣٢) . وان هذا الربان هـو الذى دل دى جاما ، وأوصل سـفنه الى ميناء قاليقوط

---

(٢٦) First Footsteps in East Africa or an Exploration of Harar, (London, 1856, p. 3f.

(٢٧) كراتشكوفسكي : نفس المرجع والصفحة : انورعبد العليم : نفس المرجع ، ص ٢٦ ،
Ferrand : Introduction a I'astronomie Arabe, PP.227-228,& Art. Shihab AL-Din Ahmad B.Madjid,P. 368.

(٢٨) Ferrand : Art. Shihab AL-Din, p. 368.

(٢٩) Barros : The Book of Duarte Barbosa, ed. · MLongworth Dames, Hakl. Soc., 1921, II, pp. 61f. Pearce (F.B.) : Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa, 1967, p. 59.

(٣٠) كراتشكوفسكي : نفس المرجع ، ص ٥٦٣ ،شوموفسكي : نفس الدراسة ، ص ٨٥ ـ ٨٦ ، انـور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٤،
Joào da Barros : Decade Primeira de Asia (Thelittle ed. 1778), BK. IV., ch. VI, pp. 319f. Pearce: op. cit., p. 97.

(٣١) كراتشكوفسكي : نفس المرجع ، ص ٥٦٩ ، شوموفسكي : نفس الدراسة ، ص ٨٦ ، ألدو ميبلي : العلم عند العرب ، واثره فى تطور العلم العالمي ، ترجمةعبد الحليم النجار ، ومحمد يوسف موسى ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٥٣٣ ، انور عبد العليم : المرجع السابق ، ص ١٢٦ ،١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٤ ، ابن ماجد الملاح ، ص ٤٨ ، ٤٩ ،
Castanheda : Hitoria do descrobimento e Conquista da India Pelos Portuguezes, 1833, BK. I, p. 41. Damiao de Goes : Chronica do Sernissimo Rei D. Manuel, Coimbra, 1790, vol. I, ch. XXXVIII, p. 87, Ferrand : op. cit., 183f, Strandes : op. cit., p. 30, Ingrams (W.) : Zanzibar, its history and its People, (London, 1931) p. 97.

(٣٢) Kammerer : La Mer Rouge, p. 75.

الهندى . واستنادا على ذلك ، يكون الملاح هنديا وليس عربيا ، مما ينفى قيام أحمد بن ماجد بهذه المهمة .

غير أن هذه الالفاظ التى أطلقتها تلك المصادر على هذا الملاح ، تبدو غامضة للوهلة الاولى ، فكلمة (معلمو Malemo) ، كلمة سواحلية مأخوذة عن الاصل العربى (معلم) (٣٣) ، وهى تعنى (الاستاذ) . واستخدمت لدى ملاحى تلك الفترة بمعنى (الريس) أو (الربان) (٣٤) .

أما كلمة (كانا Cana) أو (كاناكا Canaque أو مترادفاتهما ، فيذكر المستشرق الفرنسي فران (Ferrand) أنها كلمات مستخدمة فى مليار وهى ترجع الى الاصل السنسكريتى (Ganaka) أى (الحاسب) أو (المنجم) (٣٥) . وعلى ذلك يكون اصطلاح (معلمو كانا) أو (كاناكا) بمعنى الملاح أو الربان المتمرس فى الملاحة الفلكية (٣٦) ، اى الذى يسترشد بالنجوم (٣٧) .

وربما تكون الكلمة مأخوذة عن (جنك Junk) وجمعها (جنوك) ، وهو الاسم الذى عرفت به المواكب الصينية الضخمة (٣٧) . وعلى ذلك يكون المقصود ملاح أو ربان الجنك . وباعتبار أن تلك المراكب من أضخم المراكب العاملة فى بحار الصين والهند ومياه جنوب الجزيرة العربية ، وشرق افريقية ، وأن ربان تلك السفن من شأنه أن يكون ذا خبرة كبيرة بالمياه الشرقية

---

(٣٣) كراتشكوفسكي : نفس المرجع ، ص ٥٦٩ ،

Ferrand : op. cit., pp. 182f, Le Pilote Arabe de Vasco da Gama, p. 292, n.2.

(٣٤) شوموفسكي : نفس الدراسة ، ص ٨١ .

(٣٥) Ferrand : Art Shihab AL-Din (Ency. of Islam) vol. IV, p. 363.

(٣٦) كراتشكوفسكي : نفس المرجع ، ٥٦٩ ـ ٥٧٠ ، الدو ميبلي : العلم عند العرب ، ص ٥٣٣ ، أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، ص ٤٩ ، الملاحة وعلوم البحار ، ص ١٢٧ .

Ferrand : Le Pilote Arabe de Vasco da Gama, p. 292, Kammerer : La Mer Rouge, p. 75.

(٣٧) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ١٩٧ .

(٣٨) الجنوك ، سفن كبيرة ضخمة ، ذات اربعةظهور فيها البيوت (الغرف) والمصاري (غرف النوم) والغرف للتجار ، وهذا النوع من السفن مجهز باثنى عشر قلما ، ونحو عشرين مجذافا كبيرا كالصوارى ، يجتمع على الواحد منها العشرة والخمسة عشر رجلا ، ويجذفون بهاوقوفا صفين متقابلين ، وفى كل مجذاف حبلان عظيمان ، ويخدم المركب الواحد الف رجل ، منهم ستمائة من البحارةوأربعمائة من المقاتلة (انظر ، ابن بطوطة : تحفة النظار ، القاهرة ١٩٣٨ ج ٢ ص ١١٦ ، ١٥٧ ، ١٦١ ـ ٦٢ ، درويش النخيلي : السفن الاسلامية على حروف المعجم ، طبعة جامعة الاسكندرية ١٩٧٤ ص ٢٩ ـ ٣٠ .

Kindermann (H.) : Schiff im Arabischen untersuchung Uber Vorkommen und bedeutung der Termini, Zwickau, i, sa, 1934, pp. 20f, Dozy (R.) :

Supplément Aux Dictionnaires Arabe, (Reproduction de l'Édition Originale De 1881) Beyrouth 1968, T. I, p. 225.

الى بلاد الصين (٣٩) . واذا كانت الجنوك صينية الصنـــع ، الا أن امتلاكها أو العمل عليها ليس قاصرا على الصينيين (٤٠) .

وأيا ما كان الامر ، فان ما أطلقته المصادر البرتغالية ليس اسما لملاح فاسكو دى جاما ، وانما صفة لمهنته أو خبرته وتعريفا بها .

وقد أخـــذ كراتشكوفســكى بما ذهب اليه فران (Ferrand) مـــن تفسير ما أطلقته

---

(٣٩) عرفت الجنوك الصينية طريقها ـ منذ زمن طويل ـ الى عدن وغيرها من موانىء منطقتي جنوب الجزيرة العربية وشرق افريقية ، وشاركت غيرها من مراكب الهندوالسند وكرمان وفارس وعمان فى نقل السلع والبضائع من والى موانىء تلك المناطق (ابن الوردي : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، القاهرة ١٣٠٩ هـ ، ص ٥٦ ، ابو الفدا: تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ ، ص ٧٨ ، الدمشقي :نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ليزج ، ص ٢١٦) وكانت عدن تمثل حلقة الوصل ، ومركز التبادل التجاري بين بلدان الشرق ومصر عبر البحر الاحمر . ونشطت الحركة التجارية نتيجة اهتمام سلاطين اليمن بها ، مما كان لـه أعظم الاثر في ازدهار حركة التجارة العالمية فى عدن والبحر الاحمر ، وقد استمر الامر على ذلك بصفة عامة حتى القرن التاسع الهجري (١٥م) ، فمع بداية العقد الثالث من ذلك القرن تغيرت سياسة سلاطين اليمن ، وتعسفوا مع التجار ، واساءوا معاملتهم ، واضطر المقيمون فيها من التجار الى الفرار منها الى جدة والهند ومليبار ، تخلصا من تلك المظالم (با مخرمة : قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ـ مخطوط بمكتبة بنى جامع بالآستانة رقم ٨٨ مصور بدار الكتب برقم ١٦٧ تاريخ ، ج ٣ ، ص ١١١٣ ، تاريخ ثغر عدن ، تحقيق اوسكار لوففرين ، ليدن ١٩٣٦ ـ ١٩٥٠ ، ج ١ ص ١٢) ، وكان ذلك سببا لما قام به احد تجار الهند من التوجه رأسا ـ ولاول مرة ـ الى باب المندب سنـة ٨٢٥هـ /١٤٢٢ م لتحقيق التعامل المباشر مع جدة ، وبعد عدة محاولات ، تكللت جهـــوده بالنجاح ، بعد اقتنـــاع السلطان برسباي وترحيبه بهذه الفرصة التي سنحت له بالتعامل مباشرة مع تجار الشرق ، مما أدى الى انقطـاع وصول المراكب الى عدن (بامخرمة : قلادة النحر ، ج ٣ ص ١١٠٣ ، الفاسي : شفاء الغرام باخبار البلد الحرام ، القاهرة ١٩٥٦ ، ج ٢ ص ٢١٠ ، القريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق سعيد عاشور ١٩٧٠ ـ ١٩٧٢ ، ج ٤ ص ٦٨١ ، ٧٠٧ ـ ٧٠٨ ، ابن شاهين الظاهري : كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بولس رافيس ، باريس ١٨٩٤ ، ص ١٤ ، ابراهيم علي طرخان : مصر فى عصر المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، احمد دراج : ايضاحات جديدة عن التحول وتحولت السفن مباشرة الى جدة التى ازدهرت وارتفع محاضرات الجمعية التاريخية ، ١٩٦٨ ، ١٨٧ ،

Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1936, p. 310, Wiet (G.) : Histoire de la Nation Egyptienne, T. IV, (L'Egypte Arabe) Paris, 1937, pp. 573-576).

وتحولت السفن مباشرة الى جدة التـــى ازدهرت وارتفع شانها واصبحت بندرا عظيما ، واحتلت مكانة عدن التـي تاثر مركزها التجاري ، وتدهورت احوالها ، أما بالنسبة للمراكب الصينية (الجنوك) فقد بعث ملك الصين ســفارة الى سلطان اليمن الناصر احمد الرسولي سنة ٨٣٢ هـ/١٤٢٠م لاقناعه بضرورة حسن معاملة التجارة (الخزرجي : المسجد المسبوك ـ مخطوط ـ ص ٥٨٥ ـ ٥٨٦ ، ان الديبع : قرة العيون فى اخبار اليمن الميمون ـ مخطوط ـ ورقة ١١١ أ ، بغية المستفيد فى اخبار زبيد ـ مخطوط ـ ص ٧٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الاماني فى اخبار القطر اليماني ـ تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٥٦٥) وقد بلغ من ضعف عدن انه لم يمكن تصريف حمولة سفينتين صينيتين سنة ٨٣٥ هـ/١٤٣٢م ، فاضطر ربانهما الى مراسلة ناظر جدة الذي اذن له فى الوصول (المقريزي : السلوك ، ج ٤ ص ٨٧٢ ـ ٨٧٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، طبع دار الكتب ، ج ١٤ ص ٣٦٢

De La Ronciére (Ch.) : Le découverte de I' Afrique au Moyen Age, Le Caire, 1925-27, T.II, p. 118, Lewis (B.) : Egypt and Syria (The Cambridge History of Islam,) Camb. 1970, vol. I. p. 224).

= فكانت تلك هي المرة الاولى التي وصلت فيها الجنوك الصينية الى البحر الاحمر ، وبداية التعامل المباشر بين ميناء جدة واليمن .

(٤٠) ذكر ابن بطوطة « أن من اهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة ، يبعث بها وكلاءه ، الى البلاد » ثم اشار الى الجنوك الثلاث عشر التي كان يمتلكها صاحب قاليقوط ، وكان وكيل أحد هذه الجنوك رجل من اهل الشام يدعى سليمان الصفدي (تحفة النظار ، ج ٢ ص ١١٧) كما اشار الى انه عندما أراد العودة من ميناء الزيتون بالصين الـى الهند وجد جنكا « للملك الظاهر صاحب الجاوة ، أهله مسلمون » (نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٧٢) .

المصادر البرتغالية ، من أن الملاح (مسلم من كجرات) ، أن ذلك لا يعني جنسيته أو موطنه ، وأن المقصود هو خبراته البحرية ، النظرية والتطبيقية أو العملية الكبيرة ، المتعلقة بصلته وارتباطه بالهند ، من حيث كثرة تردده عليها . أما عن تلقيبه بالكجراتي ، فربما لكون كجرات كانت مركزا لعملياته البحرية (٤١) . وكنتيجة لهذا التفسير ، فان هذه الخاصية تنطبق على احمد بن ماجد « رئيس علم البحر » علميا ، و « أسد البحر » عمليا في تلك الفترة . لذلك رأى فران (Ferrand) أن ابن ماجد هو الذي أرشد دي جاما ، وأوصله الى الهند ، ويدعم رأيه ــ كما سبق أن ذكرنا ــ باعتماده على نص النهروالي ، الذي ذكر الاسم صراحة .

على أنه من أجل الوصول الى الحقيقة التاريخية ، أو الاقتراب منها ، نرى أن ذلك يستوجب العودة الى نص النهروالي ، تتأمله كله ، أو الجزء الاخير منه على الاقل ، في محاولة للتعمق في فهمه وتحليله قدر الطاقة . فقد أشار هذا المؤلف الى المتاعب التي تعرض البرتغاليون لها ، ثم استطرد موضحا ومؤكدا عجزهم عن التوصل لمعرفة الطريق الى الهند ، وجهلهم أسرار الملاحة في هذه المياه ، وأن الفضل انما يرجع الى الملاح العربي أحمد بن ماجد فيما تحقق لهم من الوصول الى مواطن التوابل ، وقال ، :

« فلا زالوا يتوصلون الى معرفة هذا البحر الى أن دلهم شخص ماهر يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبه كبير الفرنج ــ وكان يقال له ، الى ملندى ــ وعاشره في السكر ، فعلمه الطريق في حال سكره . وقال لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا في البحر ثم عودوا ، فلا تنالكم الامواج . فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من سفنهم » .

ولا شك انه من الضروري ــ قبل الخوض فيما حدده النهروالي عن ابن ماجد ــ تفسير او نقد بعض النقاط ، وتحديد مفاهيمها ، مما يساعد على توضيح النص والوصول الى المعنى الحقيقي أو التقريبي الذي استهدفه المؤلف .

فقد حددت المصادر البرتغالية ــ كما سبق أن ذكرنا ــ أن فاسكو دي جاما تعرف على ملاحه في ميناء مالندى (٤٢) ، في حين لم يشر النهروالي الى مكان هذا اللقاء ، وأطلق ــ في نفس الوقت ــ كلمة (الى ملندى) على كبير الفرنج ، وهي كلمة تبدو غير عربية ، الا انها تشبه اسم المدينة ، مما قد يثير نوعا من الشك حول حقيقة هذه الكلمة عند النهروالي ، لاحتمال وقوع خلط عنده بين اسم المدينة واسم القائد أو لقبه . الا انه يمكن القول بأن المقصود فعلا بهذا التعريف هو (كبير الفرنج) دي جاما وليس المدينة ، فقد ذكر فران (Ferrand) أن كلمة (الى ملندى) أو (الأملندى) ما هي الا تحريف للفظ البرتغالي (الميرانتي) (Almirante) (٤٤) الذي يقابل في

---

(٤١) كراتشكوفسكي : نفس المرجع ، ص ٥٧٣ ،

Ferrand : Introduction a I'astronomie nautique arabe, p. 228, L'Element Persan dans les textes nautique arabes, p. 194.

(٤٢) انظر ما سبق .

(٤٣) كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي ،ص ٥٧٠ ، ٥٧١ ، شوموفسكي : نفس الدراسة ، ص ٨٧، انور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، ص ٥٠ ، ٥٢ ،الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، ص ١٢٨ .

Ferrand : Introduction a I'astronomie nautique Arabe, pp. 188f. Art. Shihab AL-Din Ahmad B. Madjid (ENCY, of Islam) vol. IV, p. 362.

الانجليزية (Admiral) (٤٤) ، اى اميرال أو أمير البحر . الا أن الاختلاف قد يبدو كبيرا بين كلمتى (الى ملندى) و (الميرانتى) ، غير انه بالرجوع الى تاريخ كلوة ، المعروف باسم « السلوة فى أخبار كلوة » نجد أنه عندما تعرض لذكر أخبار وصول البرتغاليين الى ميناء مالندى ، يقول ، : « واسم ناخذاهم المرتى » (٤٥) ، وعلى ذلك يكون المقصود فعلا بهذه الاشارة هو القائد البرتغالى ، وكلمة (المرتى) وان بدت مختلفة ومحرفة عما ذكره النهروالى ، الا انها اقل تحريفا بالنسبة للفظ البرتغالى، وتتفق تحديدا ومعنى معه ، مما يدل على ان الكلمة لم يقصد بها اسم المدينة ، وانما كانت لقبا بحريا كان فاسكو دى جاما يحمله على ما يبدو .

اما ما ذكره النهروالي عن ابن ماجد ، وان كبير الفرنج « عاشره فى السكر » ، فانه وان كان معروفا ان كثيرا من البحارة ، قد درجوا — فى كل زمان ومكان — على شرب الخمر ، الا أنه نظرا لما هو معروف عن تدين ابن ماجد ومتانة خلقه وعفته — وهو ما يظهر جليا فى مؤلفاته (٤٦) فان تهمة تعاطى ابن ماجد الخمر تكون مستبعدة ، اذ قد يكون النهروالى قد وضعها لتبرير قيامه بتعريف البرتغاليين أسرار الطريق الى الهند (٤٧). كما انه لا يعقل أن يتولى ابن ماجد قيادة الاسطول البرتغالى ، وهو فى حالة سكر مستمرة ، قرابة شهر من الزمان ، وهى الفترة التى استغرقتها الرحلة من مالندى الى قاليقوط (٤٨) .

وفيما يتعلق بما ورد فى النص ، من ان ابن ماجد « دلهم » الى معرفة هذا البحر ، بعد ان « صاحبه كبير الفرنج » ، فان كلمة (دل) هنا ، لا تعنى قيادة سفنهم ، بل هى بمعنى (أشار عليهم) أو (وضح لهم) ما كان مستغلقا عليهم . اما كلمة « صاحبه » ، فهي بمعنى (قربه) واظهر المودة نحوه ، وعمل على اكتساب صداقته .

وان نظرة الى النص ، لكافية لتأييد هذا التفسير ، فكلمة « صاحبه » وضحها النهروالي ذلك بكلمة « عاشره » ، اما كلمة دله أو « دلهم » ، فجعلها بمعنى « علمه» أو علمهم . يؤكد هذا التفسير ويدعمه ما اورده المؤلف نفسه عندما حصر عمل ابن ماجد فى القول دون القيادة ، وهو ما يتضح من قوله ، ان ابن ماجد : « قال لهم ، لا تقربوا الساحل ... وتوغلوا فى البحر ، ثم عودوا ، فلا تنالكم الامواج . فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من سفنهم » .

وبهذا يتحدد أن ما قام به ابن ماجد — طبقا لنص النهروالى — ينحصر فى تعليم البرتغاليين الطريق قولا ووصفا ، وليس عملا وقيادة ، أى أن الامر لم يتعد مجرد اسداء النصح وتقديم المشورة ، وامدادهم بالمعلومات التي من شأنها تسهيل مهمة الوصول الى الهند .

---

(٤٤) Lamb (N.J.) : Collins Portuguese Gem Dictionary., 1974.

(٤٥) Strong : The History of Kilwa, pp. 396, 398, 427, 428.

(٤٦) انظر ، احمد بن ماجد : ثلاث ازهار ، ص١٨ ، ٥٢ ، ٦٨ ، انور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، ص ٥٢ ، الملاحة وعلوم البحار ، ص ١٣٣ .

(٤٧) كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي ، ص ٥٧١ ، Ferrand : Art. Shihab AL-Din ,p. 362

(٤٨) شوموفسكي : الدراسة التاريخية ، ص ٨٦ .

وبهذه المناسبة ، فانه لا بأس من وقفة عند موضوع السكر مرة أخرى ، اذ لو صح ما أشار اليه النهروالى فى هذا الصدد ، لكان دليلا على رفض ابن ماجد التصريح بسر الطريق ، وانه لم يبح به الا بعد أن أجبره دي جاما على شرب الخمر ، او انه استطاع ـ عندما قدمها له ـ اقناعه بأنه ما هو الا شراب وطنى مفيد ، فشربه ابن ماجد دون ان يدرك حقيقته ، ربما لان مذاقه لم يثر الشك في نفسه (٤٩) . فلما لعبت الخمر براسه وفقد سيطرته ، أصبح من السهل على فاسكو دى جاما انتزاع السر منه .

واذا كان ابن ماجد قد أشار الى الافرنج (البرتغاليين) فى مؤلفاته ، وبالتحديد فى « الارجوزة السفالية » (٥٠) الا أنه لم يضمنها ما يمكن الاستناد اليه ، أو الحكم بموجبه بأنه هو الملاح الذى قاد الاسطول البرتغالى ، أو حتى مجرد الاتصال بفاسكو دي جاما . الا انه ليس من المستبعد ان يكون قد قام بزيارة للاسطول البرتغالى فى ميناء مالندى ، لسبب أو أكثر مما يلى : ـ

١ ـ قد تكون الزيارة استجابة لدعوة دى جاما ، الذى عمل خلال تلك الرحلة على توطيد أواصر الصداقة مع الوطنيين ، أو اطقم السفن التى يجدها فى الموانى التى يرسو باسطوله فيها ، فكان يدعو سلاطين أو حكام تلك الموانى ، واطقم السفن الراسية فيها ، فيحتفى بهم ويكرمهم (٥١) ، ويعمل على التقرب اليهم ـ وهى سياسة سار البرتغاليون عليها خلال تلك المرحلة ـ من أجل ادخال الطمأنينة فى نفوس من يتعامل معهم فى تلك المناطق ، واكتساب ثقتهم وضمان عدم التعرض لمقاومتهم ، مما يساعد على تسهيل مهمته .

٢ ـ أو أن الزيارة كانت مجاملة من ابن ماجد لصديقه ملك مالندى الذى رحب بالبرتغاليين (٥٢) خوفا أو ضعفا (٥٣) ، او ان ملك مالندي كان يهدف الى توطيد العلاقات معهم ، لامكان الاستفادة منهم ضد عدوه ملك منبسة . ولهذا طلب من دى جاما المرور بمالندى عند عودته من رحلة الهند (٥٤) ليبعث معه وفدا رسميا الى ملك البرتغال للتحالف معه (٥٥) ولهذا كان على

---

(٤٩) أشارت سونيا هاو ، الى ان دي جاما كان قداستضاف عند وصوله الى موزمبيق بعض بحارة اطقم السفن التي كانت راسية فى الميناء ، ودعاهم الى مادبة على ظهراحدى سفنه ، وقدم لهم « اجود الانبذة التي اقبل الضيوف عليها باستحسان » (فى طلب التوابل ، ص ١٩٣) مما يدل على ان مذاقها لم يكن مالوفا لديهم ، او انه كان مقبولا مما يبرر ما قد يكون من اقبال ابن ماجد عليها ـ اذا كان ذلك قد حدث فعلا ـ دون ان يشك في امرها .

(٥٠) احمد بن ماجد : ثلاث ازهار ، ص ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، انور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، ص ٩٦ ، الملاحة وعلوم البحار ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

(٥١) سونيا هاو : في طلب التوابل ، ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .

(٥٢) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ١٩٦ .

(٥٣) The History of Kilwa, pp. 397, 428.

(٥٤) Strandes : The Portuguese Period in east Africa, pp. 30, 32.

(٥٥) جيبان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقية الشرقية ، ص ٢٠٩ . (وقيل بانه عندما عاد دى جاما من رحلة الهند الى مالندي ، طلب منه ملكها السماح لاثنين من المرشدين بمرافقته الى البرتغال لاتاحة الفرصة لهما لدراسة الشاطىء وملاحظة معالمه ، ليتمكنا من مساعدة من ياتي من البرتغاليين بعده ، فاستجاب له دى جاما) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ٢٠٣ (ذلك ان الصداقة كانت قد توطدت بين القائد البرتغالي وملك مالندي ، وكان من بين الهدايا التي اعدها ملك مالندي كتلة من العنبر الند ، طولها اكثر من متر « وعرضها كعرض خاصرة الرجل » وتبادل دى جاما الهدايا معه ، وقدم له عشرة صناديق ، وهي معظم السلع والهدايا التي كان قد اعدها قبيل رحلة الطواف حول طريق رأس الرجاء الصالح ، ولم يكن قد تصرف فيها) سونيا هاو : نفس المرجع والصفحة .

ابـن ماجـد أن يجامـل ملـك مالنـدى ، ويتسجيب له فى الاتصال بالقائد البرتغالي .

٣ ــ أو كانت مقابلة ابن ماجد لدى جاما، بتكليف من ملك مالندى أو استجابة لرجائه من أجل تخليص احـد اقربـاء ذلك الملك ، الذي كان دي جاما قد اختطفه واحتجـزه رهينـة الى أن يدبـر لـه الملك من يمـده بالمعلومات التى تساعده على الوصول الـى الهند (٥٦) .

٤ ــ أو أنه وافق على الاجتماع بفاسكو دى جاما ــ كما يقول شوموفسكى نقـلا عن فران (Ferrand) وقبـل التعاون مـع البرتغاليين نظـير مكافاة مجزيـة (٥٧) بالاضافة الى حرصه على ارضاء ملك مالندى من أجـل ضمان استمرار العلاقات الطيبة معه (٥٨) . الا انه يمكن الرد على موضوع الاجر ــ على ضـوء ما تقدم ــ بأنه يتعلـق بالملاح الذى توجه فعـلا مع البرتغاليين الى قاليقوط .

وايا ما كان سبب تلك الزيارة ، فلا شك ان حديثا دار ــ عن طريق مترجم برتغالى ممن يجيدون العربية ــ بين القائد البرتغالى وابن ماجـد حـول الالات الملاحيـة التى كان البرتغاليون يستخدمونها ، أو تلك التى كانت مستعملة فى البحار الشرقية ، وان الحديث تطرق بالضرورة الى الموضوع الاساسى وهو كيفية الوصول الى الهند ، « فعلمه الطريق » « وقـال لـهم ، : لا تقربوا السـاحـل ... وتوغلوا في البحر ، ثم عودوا ، فـلا تنالكم الامواج ، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من سفنهم » . وبهذا تنتهى مهمة ابن ماجد عند حد تقديم المعلومات القيمة لفاسكو دى جاما .

واذا كنا قد توصلنا بعد هذه الدراسـة التحليلية ، الـى هـذه النتيجة الجديدة ، فانه تبقى لدينا نقطتان ينبغى استيفاءهما :

أولاهما : ــ لماذا اقتصر ابن ماجـد على تقديم المشورة لفاسكو دى جاما ؟ ، وما هى أسباب عدم قيامه بقيادة الاسطول البرتغالى الى الهند بنفسـه ؟ .

وثانيتهما : ــ من هو الملاح الذى استعان به القائد البرتغالى ، وتولـى القيام بهـذه المهمة ؟ .

ففيما يتعلق بالنقطة الاولى ، فانه يمكن القول بأن ابن ماجد كان موجودا فى مالندى وقت وصول البرتغاليين اليها ، أو انه جاءها أثناء تواجدهم فى مينائها . ومن ناحية أخرى فانه اذا كان قـد وصلها باعتباره مرشـدا لبعض السفن التجارية ، فمن المعروف ان قواعد وأصـول الملاحـة تقضى بمسئولية الربـان الكاملة علـى سفينته وحمولتها ، بالاضافة الى ضرورة المحافظة علـى أرواح طاقمها وركابها، وضمان وصول كل ذلك بسلام الى الميناء المقصود ، كما أن الربان هو آخر من يتخلى عن سفينته ، ومن أهم واجباته الا يتركها حتى الرمق الاخير (٥٩) . قال برزك ابن شهريار ، : « نحن الملاحين تصعد علـى

---

(٥٦) انظر ، أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ،ص ٥٢ ،

(٥٧) Strandes : op. cit., p. 30.
Ferrand : Art. Shihab AL-Din B. Madjid, p. 362.

(٥٨) شوموفسكي : نفس الدراسة التاريخية ،ص ١٤٠ هامش ٥١ ،
Strandes : op. cit., p. 30.

(٥٩) شوموفسكي : نفس الدراسة التاريخية ،ص ٧٩ ، أنور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار ، ص ٢١٦ ــ ٢١٧ .

ظهر السفينة ، وبهذا ترتبط بها حياتنا ومصيرنا فاذا نجت السفينة نجونا ، واذا هلكت هلكنا معها » (٦٠) . والمعلم (أى المسئول عن قيادة السفينة ، أو الربان) هو كالامام ، ولا يمكنه أينما كان ، أن يحصل على اذن بترك السفينة (٦١) .

وهكذا فان تخلى ابن ماجد عن سفينته وترك قيادتها ، وانتقاله لقيادة الاسطول البرتغالى لمما يتنافى مع قواعد وأصول الملاحة .

أما اذا كان تواجد ابن ماجد فى مالندى بغير سفن ، فقد يكون نازلا فى ذلك الوقت ضيفا على صديقه ملك مالندى ، ومن المحتمل فى تلك الحالة أن يكون قد اعتزل الارشاد ، ولهذا فان قراره بعدم قبول القيام بالسفر مع البرتغاليين وقيادة سفنهم ؛ قد يرجع الى أنه اكتشف أنهم مسيحيون ، وانه شك فى نواياهم ـ لانهم لم يكونوا حتى ذلك الوقت قد أعلنوا عن أهدافهم ـ ولهذا كان من السهل عليه الاعتذار بكبر سنه وعدم قدرته على القيام بهذا العمل ، لانه كان قد تجاوز الستين من عمره (٦٢) .

اما بالنسبة للنقطة الثانية والاخيرة في هذا المجال ، والمتعلقة بالملاح الذى شارك فاسكو دى جاما رحلته الاولى الى الهند ، فربما كان أحد مساعدى ابن ماجد ، أو غيره ممن تصادف وجوده فى مالندى ، وانه اضطر الى تقديمه أو ترشيحه ليتولى القيام بدله بتلك المهمة من أجل التخلص من البرتغاليين الذين لا بد وأنهم أصروا على الاستعانة به شخصيا ، ولا شك انه اختلق المعاذير حتى قبلوا البديل ، مكتفين من ابن ماجد بما أسداه لهم من معلومات أساسية ، سهلت لهم عملية متابعة ما قام به ذلك الملاح الذى انتهت مهمته الملاحية بالوصول بهم الى الساحل الغربى للهند عند قاليقوط .

ويبدو أن ذلك الملاح لم يكن على درجة كبيرة من الكفاءة ، أو لم يكن متمرسا فى الملاحة بين شرق افريقية وقاليقوط مباشرة ، وأن اعتماد البرتغاليين كان مركزا على المعلومات التى أمدهم بها ابن ماجد . يؤيد ذلك ما ذكرته المصادر البرتغالية من أن ملاح مالندي قال ـ عندما اشرفت السفن البرتغالية على الساحل الهندى عند قاليقوط ـ : « لو أن فنى لا يخدعنى ، أمامنا ذى دولة قاليقوط » (٦٣) ، وهى عبارة محاطة بظلال من الشك وعدم التأكد ، لا يعقل ان تصدر من مثل ابن ماجد الذى كان رائد عصره فى الملاحة عملا ، وصاحب أشمل وأكمل موسوعة ملاحية ، اعتمد فى تأليفها على خبراته الشخصية العملية بصفة خاصة .

ومما يدل على أن ملاح فاسكو دى جاما لم يكن عربيا ، ما ورد صريحا فى المصادر البرتغالية التى شارت الى زيادة للاسطول البرتغالى بميناء مالندى ، قام بها جماعة من التجار الهندوس ومعهم أحد مسلمى كجرات ، أطلقت تلك المصادر عليه اسم

---

(٦٠) كتاب عجائب الهند بره ، وبحره ، وجزائره ،نشر النص العربي P. A. Vandder Lith وترجمه للفرنسية L'Marcel Devic, Leyde, 1883-1886, p.

(٦١) Ferrand : Introdution a I'astronomie nautique Arabe, pp. 182-183.

(٦٢) انظر ، انور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ،ص ١٧ ، الملاحة وعلوم البحار ، ص ١٤١ .

(٦٣) انظر ، شوموفسكي : نفس الدراسة التاريخية، ص ١٤٠ هامش ٤٩ .

(معلمو كانا Malemo Cana (٦٤) أو (معلمو كاناكا (Malemo Canaque وقد وجد دى جاما فى ذلك الرجل بغيته ، فاتفق معه على قيادة الاسطول وارشاده الى الهند . ومما يذكر أن هذا الملاح اخبر القائد البرتغالى بأن بحارة كمباى ـ شأنهم فى ذلك شأن جميع بحارة الهند ـ يسترشدون بالنجوم فى رحلاتهم البحرية (٦٦) ومن الملاحظ أن الحديث لم يتطرق الى الملاحين العرب ، واقتصر على أخبار الملاحة عند الهنود . ولو كان ذلك المرشد عربيا لتضمن حديثه ـ الذى نقلته تلك المصادر ـ ما يدل على ذلك .

وعلى الرغم من اعتراف المستشرق الفرنسى فران Ferrand بأنه ليس للمصادر البرتغالية مصلحة فى اخفاء حقيقة أمر ذلك الملاح ، الا انه يعجب فى نفس الوقت لكون ما وردته يناقض ما يعتقده ، استنادا لتفسيره لنص النهروالى من أن الملاح الذى قاد البرتغاليين هو الملاح العربى أحمد بن ماجد وليس ملاح كجرات المسلم معلمو كانا (Cana)أو(Canaque) (٦٧) .

ويعتمد شوموفسكى على ما توصل اليه فران Ferrand ويزيد عليه باتهام المصادر البرتغالية بالجهل لنسبتها الملاح الى أصل هندى (٦٨) .

على انه يمكن القول بأن فران Ferrand ومن حذا حذوه ، كانوا متأثرين بدوافع سياسية كشف شوموفسكى نفسه عن جانب منها عندما تطرق الى أسباب الاهتمام بموضوع الملاحة فى المحيط الهندى ، ففى دراسته التاريخية التى الحقها بتحقيقه لكتاب « ثلاث أزهار فى معرفة البحار » لابن ماجد والتى انتهى من تجهيزها سنة ١٩٤٧ أي عقب الحرب العالمية الثانية ، حيث قال ، : « وقلما راودنا حتى الان التفكير فى هذا الجانب من الثقافة العربية ، فالمحيط الهندى بعيد عنا ، ولم يكن لنا به اهتمام مطلقا ، وغالبا ما كانت صوره التى وصلت الينا قائمة على أساس متزن من البحث العلمى ، احتجبت فيه العناصر الشاعرية ». ويستطرد شوموفسكى متهما الفرنسيين بقوله ، : « وقد أخذ المبادرة منا فران Ferrand وزملاؤه من العلماء الممثلين للامبراطورية الفرنسية ، والذين ساعدوا على تغلغل نفوذها الى الشرق . وعلمنا يحركه غرض نبيل نحو شعوب الشرق ، ويجب أن نسمع صوته ، ونعلى كلمته فى مجال أدب الملاحة العربية » (٦٩) .

ويلقى هؤلاء التبعة على ابن ماجد ، ويتخذ شوموفسكى مما ذكره ابن ماجد من اشارات لاخبار البرتغاليين فى « الارجوزة السفالية » دليلا على صحة تفسير فران Ferrand لنص النهروالى من أن ابن ماجد هو الذى تولى مهمة ارشاد البرتغاليين ، الذين يعتبر ذكره لهم فى تلك الارجوزة من باب « تأنيب ضميره المر لما شاهده من سياسة البرتغاليين » (٧٠) ذلك أن الوجود البرتغالى اثار فيه

---

(٦٤) Joao da Barros : op. cit. pp. 319f.

(٦٥) Castanheda : op. cit., p. 41, Damiao de Goes : op. cit., p. 87.

(٦٦) شوموفسكي : نفس الدراسة التاريخية ، ص٨٥ ، Joao da Barros : op. cit., pp. 319

(٦٧) Ferrand : Art. Shihab AL-Din, pp. 362f.

(٦٨) شوموفسكي : نفس الدراسة التاريخية ، ص٧٨ .

(٦٩) نفس الدراسة التاريخية ، ص ٧٦ ــ ٧٧ .

شعورا بالمرارة (٧١) ، لان ما حدث أدى الى فتح باب الاستعمار على مصراعيه ، وكان « بداية الاستعباد الاستعمارى لشعوب الشرق » (٧٢) .

الا أنه على ضوء ما سبق من تفسيرنا الجديد لنص النهروالى ، اتضح أن فران Ferrand ومن اخذ عنه ، قد حملوا هذا النص فوق طاقته بكثير . كما رافضوا ماأوردته المصادر البرتغالية دون الاستناد الى أدلة قاطعة أو مقنعة لتبرير هذا الرفض . اذ ليس من المقبول شكلا او موضوعا أن يصل الشك في تلك المصادر ، دون سند ، الى هذا الحد . ذلك ان تلك المكاتبات كانت فى حقيقتها تسجيلا لواقع ، ولهذا كانت بمثابة المرشد والمعين للرحلات التالية ، ولو كانت تتضمن اخبارا او معلومات خاطئة لحدث مالا يحمد عقباه ، ولمنيت الكشوف البرتغالية ـ فى المياه الهندية ـ بانتكاسات شديدة ، لاعتمادها على معلومات غير صحيحة ، ولكن الوقائع تثبت أن كل رحلة استفادت من التجارب والخبرات السابقة لها ، وأن كل قائد بني على ما أسسه سابقوه ، مما يدل على صحة معلومات تلك المصادر .

وفيما يتعلق بالملاحين الذين استعان البرتغاليون بهم ، فقد وردت بشأنهم اشارات متفرقة ، ذلك أنه كلما تقدم البرتغاليون الى منطقة جديدة فى المياه الشرقية ، كان رائدهم البحث عن ملاح خبير بها ، وركزت المدونات البرتغالية على ذكر جنسية الملاحين فى أغلب الاحيان ، وقلما ذكرت اسمه ، كما حرصت على صحة تلك المعلومات ، ونعرض ـ فيما يلى ـ لبعض الامثلة المؤيدة لذلك : ـ

فبعد نجاح دى جاما فى الدوران حول افريقية ، عثر على الملاح الهندى (داڤان) (٧٣) بالقرب من موزمبيق ، ولم تتحرج المصادر البرتغالية من التصريح بما كان معتقدا فى بداية الامر ، من أن الملاح مغربي (أى عربي) ثم تبينوا أنه هندى من كمباى ، فأشاروا الى ذلك وذكروا اسمه .

وفي موزمبيق ، أمدهم سلطان الجزيرة بمرشد أوصلهم الى مالندى (٧٤) ، ولم تشر تلك المصادر الى اسمه أو جنسيته .

وعندما وصل بدرو الفاريز كبرال Pedro Alvarez Cabral الى موزمبيق سنة ١٥٠٠ م حصل على مرشد للاستعانة به فى الوصول الى مالندى ، لم تشر المصادر البرتغالية الى اسمه أو جنسيته ، فى حين ذكرت أنه حصل فى مالندى على اثنين من المرشدين من أهل كجرات ـ لم تذكر اسمها ـ وذلك لارشاد اسطوله الى قاليقوط (٧٥) .

وعندما هاجم دالبوكيرك d'Albuquerque جزيرة سقطره سنة ١٥٠٧ ، ذكرت تلك المصادر أنه امسك ملاحا عربيا من هرمز اسمه عمر ، واستولى منه على خريطة

---

(٧٠) المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(٧١) المرجع السابق ، ص ١١٣ .

(٧٢) المرجع السابق ، ص ٩ ، وانظر ، جورج فاضلو حوراني : نفس المرجع ، ص ٢٣٧ .

(٧٣) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ١٩٢ ـ ١٩٣ .

(٧٤) المرجع السابق ، ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .

(٧٥) أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، ص ٤٥ ، الملاحة وعلوم البحار ، ص ١٢٣ ،
Kammerer : La Mer Rouge, T. II, p. 92.

ملاحية هامة ، من تصميمه ، لشواطىء جنوب الجزيرة العربية والخليج (٧٦)

وعندما وصل دالبوكيرك الى جزائر ملوك ، استعان بواحد من تجار جاوه ، لم تذكر المصادر اسمه ، ليعلم البرتغاليين طريقة التعامل مع اهالي هذه الجزر (٧٧)

وفى سنة ١٥١٣ استعان دالبوكيرك بمرشد هندى — كان قد أسره من ميناء شول — لم تذكر المصادر اسمه ، وقد تولى ذلك الملاح مهمة ارشاده من جزيرة سقطره الى عدن (٧٨)

وعندما أراد دالبوكيرك اكتشاف الخليج الفارسي سنة ١٥١٤ ، استعان بمرشدين من هرمز ، لم تذكر المصادر اسماءهم (٧٩)

اما الملاح الذى قاد دالبوكيرك عبر المحيط فى طريق عودته من الهند الى موزمبيق ، فكان عربيا ولم تشر تلك المصادر الى اسمه (٨٠).

ولما توجه لوبو سواريز Lopo Scares فى حملته على البحر الاحمر سنة ١٥١٧ ، وكان قد تمكن من توطيد علاقاته بالامير مرجان الظافرى — حاكم عدن من قبل السلطان الظاهرى الظافر عامر الثاني — ابدى هذا الحاكم استعداده لارضاء البرتغاليين وتلبية رغباتهم ، حتى أنه عرض مفاتيح البلد على القائد البرتغالي . ولكن ذلك القائد كان قد ركز اهتمامه وقتئذ على تحقيق مفاجأة الاسطول المصرى في مياه جده ، ولذلك اكتفى بطلب مرشدين لقيادة أسطوله فى البحر الاحمر فبادر حاكم عدن على الفور بالاستجابة اليه وتلبية طلبه ، وأمده بأربعة من اكفأ المرشدين (٨١)، لم تذكر المصادر البرتغالية جنسياتهم او اسماءهم ، أما المصادر اليمنية ، فانها وان لم تحدد عددهم او اسماءهم ، الا انها ذكرت أنهم من أهل الشام ، وان الامير مرجان سلمهم للبرتغاليين ، واكرههم على العمل فى الاسطول البرتغالي بالقوة « كفاية لشر الفرنج (البرتغاليين) » (٨٢)

وهكذا يتضح من تلك الامثلة ، ان تركيز المصادر البرتغالية ، كان منصبا — فيما يتعلق بالمرشدين الذين استعان البرتغاليون بهم — على ذكر جنسياتهم اكثر من الاهتمام بأمر اسمائهم .

وعلى ذلك يمكن الاخذ بما ذكرته المصادر البرتغالية ، من ان ملاح فاسكو دى جاما كان ملاحا هنديا ، خاصة وان تلك المصادر لم تكتف بنسبته الى الهند بصفة عامة ، اذ لو حدث ذلك ، فربما كان فى ذلك نظر ، الا أن

---

(٧٦) انظر ، انور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، ص ٥٧، الملاحة وعلوم البحار ، ص ١٣٦ ،
Kammerer : op. cit., p. 82.

(٧٧) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ٢٢٠ .

(٧٨) Kammerer : op. cit., p. 185.

(٧٩) Danvers : The Portuguese in India, being a history of the rise and decline of their Eastern Empire, London 1894, vol. I, pp. 303f, Kammerer : op. cit., p. 206.

(٨٠) Kammerer : op. cit., p. 105.

(٨١) Kammerer : op. cit., pp. 266f.

(٨٢) با مخرمة : قلادة النحر فى وفيات اعيان الدهر ، مخطوط رقم ٨٨ بمكتبة ينى جامع بالاستانة ، مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٦٧ ، لوحة ١٢٠٥ .

الامر لم يقتصر على ذلك ، او على أنه من كجرات ، بل بالتحديد من احدى مدنها وهـي كامبي (٨٣) ، مما يدل على الدقة ، خاصة وان الذين أنيط بهم مهمة تسجيل تلك الاحداث انما دونوا ما شاهدوه دون أن يكون لهم حق الحذف أو الاضافة أو التغيير أو التبديل ، حتى اذا مـا اتضح خطأ ما دونوه ، لـم يحذفوه ، وعادوا الى ذكر ما تبين لهم صحته طبقا للواقع .

اما فيما يتعلق بما أطلقته المصادر البرتغالية ، من أن ذلك الملاح هو (معلمو كانا) أو (معلمو كاناكا Malemo Canaque) ، وان ذلك ليس أسما له ، فيبدو ان البرتغاليين اكتفوا بتعريف الملاح بصفته ، باعتباره خبيرا بالملاحة الفلكية ، وهو ما استلفت أنظارهم باعتبار ذلك أسلوبا جديدا عليهم ، مما جعلهم يهتمون باطلاق هذا المصطلح ، الذى أصبح علما عليه، وبذلك لم يعد اسمه يشكل لديهم أهمية تذكر ، اذا ما قورن بصفته كملاح يستخدم النجوم فى العمليـات الملاحية .

ونخلص من ذلك كله الـى التوفيـق بـين الروايات ، واثبات صحة ما اوردته المصادر ، عربية كانت أم برتغالية .

فطبقا لرواية النهروالى ينحصر دور ابـن ماجد فى اسداء النصح وتقديم المشورة للقائد البرتغالي فاسكو دى جاما ، وامداده بالمعلومات التي تساعد على سلامة سفنه ، وتعليمه الطريق قولا ووصفا ، وليس عملا وقيادة .

اما الملاح الذى قام بمهمة ارشاد الاسطول البرتغالي الى الهند ، فهو ذلك الملاح المسلم الذى أشارت اليه المصادر البرتغالية ، وذكرت أنه من مدينة كمباى باقليم كجـرات بالهند ، وان اغفلت تلك المصادر اسمه ، اكتفاء بصفته كملاح متمرس فى الملاحة الفلكية .

★ ★ ★

(٨٣) Strandes : The Portuguese Period in East Africa, p. 30.

المصادر والمراجع :

أولا : العربية

ابراهيم على طرخان (دكتور) : مصر فى عصر المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٥٩ .

أحمد دراج (دكتور) : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى ، القاهرة ١٩٦١ .
ايضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحر الاحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجرى ، محاضرات الجمعية التاريخية المصرية ١٩٦٨ .

أحمد بن ماجد : ثلاث أزهار فى معرفة البحار ، تحقيق ونشر تيودور شوموفسكى ، ترجمة وتعليق د. محمد منير مرسى ، القاهرة ١٩٦٩ .

أحمد مختار العبادى (دكتور) : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، ١٩٦٨ .

تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ، بالاشتراك مع الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، بيروت ، ١٩٧٢ .

الدو ميبيلى : العلم عند العرب ، وأثره فى تطور العلم العالمى ، ترجمة عبد الحليم النجار ، ومحمد يوسف موسى ، القاهرة ١٩٦٢ .

انور عبد العليم (دكتور) : ابن ماجد الملاح ، سلسلة أعلام العرب ، العدد ٦٣ ، مارس ١٩٦٧ .

الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، سلسلة عالم المعرفة العدد ١٣ يناير ١٩٧٩ .

بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، ١٩٦٢ .

بزرك بن شهريار : كتاب عجائب الهند بره وبحره وجزائره ، نشر النص العربى وترجمة الى الفرنسية ، ليدن ، ١٨٨٣ - ١٨٨٦ .

ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، القاهرة ١٩٣٨ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة القاهرة .

جمال زكريا قاسم (دكتور) : الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ، القاهرة ١٩٧٥ .

جورج فاضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ترجمة د. يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٥٨ .

جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقية الشرقية ، ترجمة يوسف كمال ، الطبعة الاولى ١٩٢٧ .

الخزرجى : المسجد المسبوك فيمن ولى اليمن من الملوك ، مخطوط رقم ١٢٦٥ ب بمكتبة بلدية الاسكندرية .

درويش النخيلى (دكتور) : السفن الاسلامية على حروف المعجم ، طبعة جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٤ .

الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ليبزج ١٩٢٣ .

ابن الديبع : قرة العيون فى اخبار اليمن الميمون ، مخطوط رقم ١٣٥٥ تاريخ بدار الكتب المصرية .

السلاوى : الاستقصاء لاخبار المغرب الاقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ .

سونيا هاو : فى طلب التوابل ، ترجمة محمد عزيز رفعت ومراجعة د. محمود النحاس ، الالف كتاب ، رقم ٩٨

شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، ترجمة د. أحمد عزت عبد الكريم ود . توفيق اسكندر ، ١٩٤٨ .

ابن شاهين الظاهرى : كتاب كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بوتس راويس ، باريس ١٨٩٤ .

الشبلى اليمنى : السنا الباهر بتكميل النور السافر فى اخبار القرن العاشر ، مخطوط رقم ٢٠٣٣ تاريخ تيمور .

الفاسى : شفاء الغرام باخبار البلد الحرام ، القاهرة ١٩٥٦ .

ابو الفدا : تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ .

كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ١٩٦٥ .

محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، القاهرة ١٩٥٠ .

بامخرمة : قلادة النحر فى وفيات اعيان الدهر ، مخطوط بمكتبة بنى جامع بالاستانة رقم ٨٨ ، مصور بدار الكتب المصرية برقم ١٦٧ تاريخ .

تاريخ ثغر عدن ، تحقيق أوسكار لوففرين ، ليدن١٩٣٦ .
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق د. سعيدعاشور ، القاهرة ١٩٧٠ .
النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، أشرف على طبعه حمد الجاسر ، الطبعة الاولى ١٩٦٧ .
ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، القاهرة ١٣٠٩ هـ .
يحيى بن الحسين : غاية الامانى فى أخبار القطر اليمانى، تحقيق د. سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٦٨ .

ثانيا : المصادر والمراجع الأجنبية : ـ

Barros : The Book of Duarte Barbosa, ed. M. Longworth Dames, Hakl. Soc., 1921.
Castanheda : Historia do descrobimento e Conquist da India Portugues, 1883, BK. I,.
Damiao de Goes : Chronica do Sernissimo Rei D. Manuel, Coimbral, 1970, vol. I.
Danvers : The Portuguese in India being a history of the rise and decline of their Eastern Empire, London, 1894.
De la Ronciére (Ch.) : Le découverte de I'Afrique au Moyan Age, Le Caire, 1925-27.
Dozy (R.) : Supplement Aux Dictionnaires Arabes, (Reprodution de I'Édition Originale De 1881), Beyrouth 1968.
Ferrand : Introduction à I'astronomie nautique Arabe, Paris, 1928.
—Le Pilote Arabe de Vasco de Gama et les instructions nautiques des arabes au XVe siécle, Annales de géographie, Paris, 1922.
—Shihab AL-Din Ahmad B, Madjid (ENC. of Isl.)
—L'élément Persan dans les textes nautiques Arabes des XVe et XVIe siécles (J.A.) vol. 204, 1924.
Ingham (Kenneth) : A History of East Africa, ed. Longman.
Ingrams (W.) : Zanzibar, its history and its People, London, 1931.
Joao da Barros : Decada Primeira de Asia (The little ed. 1778), BK. IV, Ch. VI.
Kammerer : La Mer Rouge, L'Abyssinie et L'Arabie depuis L'antiquité, Essai d'hist. et géogr. hist., 1929-1935.
Kindermann (H.) : Schiff im Arabischen untersuchung Uber Vorkommen und bedeutung der Termini, Zwickau, i, sa, 1934.
Lamb (N.J.) : Collins Portuguese Gem Dictionary, 1974.
Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1936.
Lewis (B.) : Egypt and Syria (The Cambridge Hist. of Islam) Camb. 1970.
Macro (E.) Yemen and the Western World Since 1571, London, 1968.
Pearce (F.B.) : Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa, 1967.
Richard F. Burton : First Footsteps in East Africa or an Exploration of Harar, London, 1856.
Serjeant (R.B.) : The Portuguese off the South Arabian Coast, Oxford 1963.
Stevenson : The Crusaders in the East, Cambridge, 1907.
Strandes (J.) : The Portuguese Period in East Africa, trans. by Wallwork, Nairobi, 1961.
Strong (Arthur) : The History of Kilwa, ed. from an Arabic MS. (J.R.A.S.), London, 1895.
Wiet (G.) : Hisoire de la Nation Egyptienne, T. II, (L'Egypte Arabe), Paris, 1937.

صدر حديثاً

سياسة وسائل الاتصال *

عرض وتحليل: د. محمود ابو زيد

يتميز العصر الحديث بسيطرة وسائل الاتصال على الانسان ، وخضوعه بشكل يكاد يكون لا شعوريا لتأثيراتها المختلفة .

ولما كانت عملية الاتصال هى العملية التى تتم بها ومن خلالها التغييرات السياسية والاجتماعية والحضارية المتعددة ، مما يجعلها ميدانا لتنازع القوى المسيطرة التي تسعى الى توجيهها الوجهة التى تخدم مصالحها واغراضها ، نقد اتجهت جهود الباحثين والعلماء الى دراسة العملية الاتصالية والكشف عن تأثيراتها والوقوف على طبيعة العلاقات والروابط التى تقوم بين أطرافها .

والكتاب الذى نحن بصدد عرضه واحد من الكتب التى تتخذ من مجال الاتصال موضوعا للبحث ، وتجعل من سياسة الاتصال فى المملكة المتحدة موضوعا للدراسة فيناقش المؤلف الدور المتعاظم الذى يقوم به الاتصال فى بريطانيا ، ويبحث فى طبيعة القوى والمؤثرات التى تتحكم فيه وتسيطر عليه ، وتحدد له اتجاهاته ومضامينه ، وبالتالى يكشف عن مظاهر الصراع بين هذه القوى وهى تحاول أن تفرض نفسها وتحدث ما تريده من تغييرات .

ويعتبر الكتاب حصيلة معرفة اكاديمية واسعة ، وخبرة عملية طويلة . فمؤلفه « جون وال » تعلم فى ونشستر وفى كلية كوربس كريستى Corpus Christi بجامعة اكسفورد . وعمل فى عام ١٩٥٨ مذيعا بالقسم الانجليزى فى الاذاعة الفرنسية ثم اشتغل فى الفترة من عام ١٩٦٠ الى عام ١٩٦٩ صحفيا بقسم الاخبار بالتلفزيون ، قضى منها اربعة أعوام كمراسل سياسى ، وعامين آخرين مراسلا من واشنطن . ومنذ هذا التاريخ وهو يتمتع بشهرة مرموقة كمعلق فى **الصنداى تايمز** Sunday Times

* Whale, John:, **The Politics of the Media**, Fontan, 1977

حيث وضح لديه اهتمام خاص بالسياسة البريطانية والايرلندية وبقضايا الدين والاتصال . وله مؤلفان فى هذا المجال المتخصص هما :

ـ العين نصف المغمضة (السياسة والتلفزيون فى بريطانيا وأمريكا)

ـ الحكومة والصحافة .

ويقع الكتاب فى ١٧٦ صفحة من القطع المتوسط ، منها ١٦٨ صفحة خصصها المؤلف للمتن وثمانى صفحات للتعليقات والتذييلات . وينقسم الكتاب بوجه عام الى مدخل قصير من صفحتين اثنتين ، وثلاثة أقسام تضم تسعة فصول يعالج فيها المؤلف العديد من القضايا والموضوعات ذات الدلالة ، والتى لها اهميتها النظرية والعملية على السواء .

ففى القسم الاول من الكتاب ، الذى يشتمل على ثلاثة فصول ، يعرض المؤلف لابعاد مشكلة الاتصال فى المملكة المتحدة ، والتطورات التى لحقت بهذا الميدان منذ الحرب العالمية الثانية. وفى تأصيله للمشكلة يرى المؤلف ان الاتصال فى بريطانيا طوال هذه الفترة كان يمثل القضية المحورية فى السياسة البريطانية ، ومن ثم الاهتمام بالكشف عن مصادر القوة والسيطرة والنفوذ فى هذا المجال ، وطبيعة العلاقات القائمة بينها .

وقد خصص المؤلف **الفصل الاول** من هذا القسم للحديث عن الفترة من عام ١٩٤٥ الى عام ١٩٥٥ . ويبدأ بتحديد مصطلح وسائل الاتصال Media فيقصد به مصادر الاخبار الرئيسية فى المملكة المتحدة وهى الصحف القومية والاذاعة الصوتية (الراديو) والاذاعة المرئية (التلفزيون) . ثم ينتقل من ذلك الى توضيح فكرة أساسية مؤداها أن رجال السياسة ، وهم يحركون الرأى العام ويسعون الى التأثير فيه ، يعتقدون تماما أن بمقدور وسائل الاتصال ، وبخاصة الصحافة ، أن تكون أدوات لها فى تحقيق هذه الغاية . ونظرا لاهمية هذه المسألة بالنسبة اليهم من حيث أن مشاركة الصحفيين لآرائهم وأحكامهم تعتبر أمرا حيويا للغاية ، فان هذا يفسر محاولاتهم المستمرة التى يدفعون بها الحكومات الى السيطرة على وسائل الاتصال واحداث ما يرونه من تغييرات فى اداراتها بغية ضمان مساندة الصحفيين لهم والاطمئنان الى مؤازرتهم .

ويخصص المؤلف جانبا كبيرا من هذا الفصل لتطور العلاقة بين الصحف والحكومة البريطانية ، فيعرض بالتفصيل للاطار القانونى لهذه العلاقة ، وللتغييرات التى طرات على قوانين الرقابة والتراخيص والتمغة ، الى أن أصبحت الصحافة منذ وزارة بالمرستون الاولى فى ١٨٨٥ مستقلة تماما عن الدولة . وذلك بخلاف الحال بالنسبة الى الاذاعة التى كانت خاضعة منذ البداية لمناورات الحكومة وسيطرتها ، ويبين المؤلف أن هذه الاتجاهات لم تكن مجرد صدى لسياسات حزبية معينة بقدر ما كانت قضية عامة تستهدف صون مصالح الدولة ، خاصة فى وقت الحرب ، اذ كان على رجال السياسة باستمرار أن يبحثوا عن الوسائل التى يضمنوا بها خضوع الصحافة المناوئة لنفوذ الدولة ، وهو ما أسفر عن سلسلة من القوانين والقواعد المنظمة لملكية وسائل الاتصال ولطرق وأساليب ادارتها . وبعد ذلك ينتقل الى مناقشة الظروف التى دعت فى أواخر الاربعينات الى تكوين لجنة روص Ross الخاصة بالصحافة ولجنة بيفريدج Beveridge الخاصة بالاذاعة (وهما أولى ثلاث لجان مزدوجة تشكلت لدراسة أحوال الاتصال فى بريطانيا ، واللجنتان الاخريان هما لجنة شوكرس Shawcross

وبيلكنجتون Pillhington فى أوائل الستينات ولجنة انان Annan وماكجريجور Mcgregor فى منتصف السبعينات) فيبرز الميول الاحتكارية التى تسيطر على هذا المجال ، وظهور ما يسمى بالصحف السلسلية Chain Newspapers التى تركزت ملكيتها فى أيدى قلة من المحافظين وابتلعت كثيرا من الصحف فى قلب لندن وغيرهامن المدن الرئيسية مثل ابردن وكارديف وبريستول . ثم يناقش المتضمنات التى اشتمل عليها تقرير اللجنة ، ويعرض للتوصيات التى اتخذتها لاصلاح الاحوال وتطويرها فى الصحافة وفى الاذاعة كما يعرض أيضا للعقبات التي اخرت الاخذ بها ، والتى تمثلت فى مواقف واتجاهات المحافظين بوجه عام ، وكذلك تزايد الدعوة الى الاذاعة التجارية ، تلك الدعوة التى دعمتها مجموعة واسعة من المصالح المرتبطة بالدعاية والاعلان من ناحية وبمروجى اللهو والتسلية من ناحية ثانية .

وفى **الفصل الثانى** يتحدث المؤلف عن الظروف التى عاشها الاتصال البريطانى فى الفترة من ١٩٥٥ الى ١٩٦٦ ، فيعرض للاسجابات التى لجات اليها وسائل الاتصال لكى تعوض خسائرها فى علاقاتها بالحكومة، ولتكيف نفسها مع الوضعيات الجديدة . ويبين كيف أن الاذاعة مع وجود المنافسة قد اضطرت الى ان تعدل من برامجها وفقا لهذه الاوضاع ، وان تخضع كثيرا لاذواق الجماهير . كما يعرض لمراحل النزاع بين الاذاعة والبرلمانالانجليزى بصدد رغبة الاولى فى أن تنقل الى المستمعين والمشاهدين جلسات مجلس العموم ، ورفض الاخير لهذه الرغبة « خشية أن يرى الناخبون ممثليهم وهم يغطون فى سباتهم العميق » .

كذلك لم تكن الصحافة بعيدة عن المتاعب التى كان بطلها روى تومسون Thomson ملك الصحافة والتليفزيون الامريكي . فمع تزايد المنافسة اشترى تومسون Scotsman فى خريف عام ١٩٥٣ والتليفزيون الاسكتلندى فىمايو ١٩٥٥ ، كما اشترى أيضا صحف لورد كيمسلى Kimsley فى سبع مدن هامة ،بالاضافة الىبعض الصحف القومية التى تمثلها مجموعة الصنداى . وقد بلغت وطأة الاحتكارات ذروتها خلال الستينات عندما ابتلعت امبراطورية تومسون **الصنداى جرافيك** فى لندن والامباير نيوز Empire News فى مانشستر . كما اغلقت الكرونيكل News Chronicle أبوابها واختفت معها فى الوقت نفسه صحيفة « الستار » Star التى تعتبر واحدة من أكبر ثلاث صحف مسائية فى لندن . ذلك بخلاف المتاعب المالية التى اخذتتواجه مختلف الصحف وفى مقدمتها الديلى هيرالد والصنداى بيبول والديلى ميرور والهيرالد . ويقول المؤلف ان هذه الظروف جميعا كانت داعية بشدة الى البحث من جديد فى ظروف الاتصال وأحواله ، فتشكلت لجنة بيلكنجتون لتقصى الامور فى الاذاعة فى سبتمبر ١٩٦٠ ولجنة شوكروس فى فبراير لدراسة أحوال الصحافة .

وبعد ذلك يناقش المؤلف تقارير هاتين اللجنتين ويركز بصفة خاصة على ما انتهت اليه من أن المنافسة التى اشتدت حدتها نتيجة التحلل منالقيود التى فرضتها ظروف الحرب فى الخمسينات هى القاتل الحقيقى لدور الصحافة . ولكنه عارض فى الوقت نفسه دعوتها الى اعادة النظر فى توزيع حصص الصحف من الاعلانات التجارية كوسيلة لتعويضها بعض خسائرها ، فمثل هذا الاجراء يمثل من وجهة نظره سيفا مسلطا على حرية الصحافة لا يجب الاعتراف به .

وفى ختام هذا الفصل يعرض المؤلف لاوضاع الاذاعة فى ضوء تأثرها بالاعلانات التجارية ، ويناقش التوصيات التى حاولت انقاذها من براثن المعلنين ، ولكنه يوضح كيف أنه لم تطرأ أية تغيرات جذرية على العلاقة بينها وبين الحكومة خاصة بعدما عاود البرلمان الانجليزى رفضه لدخول عدسات التليفزيون وميكروفون الراديو الى قاعاته لنقل جلساته وتصويرها .

أما الفصل الثالث فيركز فيه المؤلف على تلك الظروف العصيبة التى عاشتها بريطانيا أثناء العقد الثالث بعد الحرب بسبب التدهور الاقتصادى الناجم عن أزمة الاسترلينى التى تعرضت لها فى عام ١٩٦٦ ، والتى اعتبرت سببا كافيا لتوتر العلاقات بين الحكومة والصحافة وكل منهما يكيل الاتهامات الصريحة والضمنية ويلقى بها فى وجه الآخر . وهنا يعرض المؤلف نماذج لما اعتبرته الحكومة تهجما عليها وجراءة فى افشاء ما ينبغى الاحتفاظ به من أسرار ، ويشير فى هذا الصدد الى الضجة التى أقامتها الصحافة حول اتهام جيرمي ثورب Thorpe بحكومة كالاهان بالانحراف الجنسى ، والتى تسببت فى احراج العمال وأدت فى النهاية الى استقالته . ويربط المؤلف بين هذه الظروف جميعها وبين ما أصاب الصحف من تدهور فى أحوالها المالية وفساد فى اداراتها ، مما جعل الاصوات ترتفع مطالبة بتقصى الامور فى هذه النواحى ، واعتبر هذا كافيا لتشكيل لجنة ملكية ثالثة ، يقول المؤلف انه كان عليها أن تواجه ثانية المشكلات ذاتها التى التقت بها اللجنتان السابقتان ، وهى تحاول بحث طبيعة القوى التى تتنازع السلطة في ميدان الصحافة ومدى تأثير هذه القوى على ظروف النشر السياسى بوجه خاص وسلوك العاملين بميدان الاتصال بوجه عام .

أما القسم الثانى من الكتاب ، فيشتمل على خمسة فصول يعرض فيها المؤلف للنظم والجماعات والمؤسسات التى تمثل مناطق النفوذ والتأثير . ونزولا على اتساق الترتيب العددى لفصول الكتاب فقد بدأ فى **الفصل الرابع** (الاول فى هذا القسم) يناقش بناء واتجاهات جماعة الملاك Owners . الذين تتركز فى أيديهم ملكية وسائل الاتصال .

ويطرح المؤلف تساؤلات كثيرة تتعلق بطبيعة علاقة هؤلاء الملاك بالاجهزة الصحفية والعاملين بها من ناحية ، وبأجهزة الدولة واداراتها من ناحية ثانية . ويوضح كيف أنهم كانوا ذوى مواهب خاصة فى جمع المال أكثر منهم فى صنع السيارات التى تسير عليها صحفهم ، وهى المهمة التى تركوها فى أيدى كبار المحررين . كما ناقش مزايا وعيوب الملكيات الضخمة المسيطرة تماما على الصحافة، وعرض لمظاهر السيطرة ، وأبرز كيف أن خضوع ميدان الاتصال لاصحاب رؤوس الاموال الخاصة قد جعل من الصحافة بالذات بؤرة من بؤرات الصراع السياسى . ثم عرض للعلاقة بين هؤلاء وبين الاحزاب البريطانية المسيطرة فذهب الى أنه لما كان معظم أصحاب دور الصحف والمؤسسات الصحفية الكبرى من المحافظين ، لذا كانت الصحافة بوجه عام أميل الى هذا الجناح المحافظ وأكثر تعاطفا معه فى مختلف القضايا والمسائل . وان كان المؤلف قد أشار مع ذلك الى دور القراء باعتبارهم قوة أخرى لها تأثيرها على سياسات هذه الصحف التي تجد نفسها مطالبة دائما ـ بالرغم من نزعتها المحافظة ـ بأن للقارىء ما يريده ويتطلع اليه من معلومات واخبار ، ومن هنا تتأكد طبيعة الصلة المعقدة بين رأس المال المحافظ وادارته ، وبين الرغبة فى ارضاء جماهير القراء والعمل على توسيع قاعدتهم ، الامر الذى يجعل منهم فى النهاية عاملا من عوامل استمرار الجريدة أو المؤسسة الصحفية لا يمكن تجاهله .

وفى الفصل الخامس يتحدث المؤلف عن دور المعلنين Advertisers باعتبارهم ـ سواء أكانوا أفرادا أو منظمات أو مؤسسات ـ الجماعة الثانية التى تمارس ضغوطها على الاتصال . ويضع المؤلف مشكلة الاعلان فى الصحف فى صورة تبرز أبعادها المتشابكة ومن حيث المبدأ تستطيع الجريدة عن طريق بيع المساحات الاعلانية أن تدبر المال اللازم لدفع نفقات المحررين والكتاب والفنانين ومئات العاملين بها . ويعنى هذا فى الظاهر أن المعلن يدفع قيمة المساحة التى يشتريها ، وفى الوقت نفسه يساهم فى نفقات المادة التحريرية من اخبار ومقالات ، والتى يجب أن يدفع القارىء نفقاتها ، وهذا يثير تساؤلا : لماذا لا يتحمل هؤلاء نفقات المساحات التحريرية التى أعدت من اجلهم ويكون على المعلن ان يتحمل فقط من الاسعار ما يكفى لقيام ادارة الاعلانات بعملها ، فيدفع النفقات الفعلية اللازمة لطباعة اعلاناته ؟؟

ولكن هذا غير ممكن التطبيق فى الواقع لانه أيا كان المبلغ الذى يكفى لاصدار الجريدة فان القراء يمكن أن يتوقفوا عن شرائها لسبب أو لآخر ، واذا حدث فالمتوقع تماما أن توزيعها سوف يهبط الى رقم لا يكاد يذكر وتنتفى بالتالى قيمتها كوسيلة اعلانية ، وفى هذه الحالة فان أي سعر يدفعه المعلن فى المساحة الاعلانية مهما كان ضئيلا سيكون اسرافا لا فائدة من ورائه . بمعنى آخر يذهب المؤلف الى أن المعلن عندما يشترى بضعة سنتيمترات أو مساحة ما بيضاء فهو يشترى التوزيع كله ، سواء من ناحية كمه أو نوعه الخاص والعام ، أي انه يشترى اهتمام القراء الذى ينشأ عن المساحات التحريرية ، وهو ما لا يتأتى الاعن طريق تنظيم تحريرى باهظ النفقات . بل ان المعلن يشترى انتباه المستهلكين والذى يوجده مكان معين للاعلان يتم انتقاؤه بعناية فى علاقة مع الاخبار والمواد المقروءة فى الجريدة . فكأن الصحيفة تقدم للمعلن فرصة معينة لعرض بضاعته بتكلفة معينة ، وتقدم للقارىء مادة تحريرية معينة بسعر معين ، والحصيلة التى تتحقق من كل منهما تصب فى النهاية فى وعاء واحد يستخدم فى استمرار انتاج الصحيفة بطريقة مجزية لكل من القارىء والمعلن معا . ففى نفس الوقت الذى تصبح فيه الجريدة ضعيفة القراء تزول قيمتها الاعلانية، وكأن الايراد الذى يأتى من المعلن وينفق على التحرير ينفق فى الحقيقة والى حد بعيد على مصلحة المعلنين أنفسهم الذين دفعوه .

ومن أهم النقاط التى ناقشها المؤلف فى هذا الصدد ان قضية الاعلان بهذه الصورة تثير صراعا مستمرا بين المحررين أو ادارات التحرير من ناحية وادارات الاعلانات من ناحية ثانية . فلما كانت المؤسسات الصحفية تسعى بكل السبل الى الاحتفاظ بكبار المعلنين لديها ، فقد اعتبر هذا سببا كافيا ليثير لدى الصحفيين غير قليل من القلق والمخاوف من أن تكون قوة العملاء وتزايد سيطرتهم ، أو على الاقل الرغبة فى ارضائهم على حساب المساحات التحريرية . وعلى الرغم من أن المؤلف قد حول التخفيف من حدة آثار هذا الاحساس باعتبار انه من مهام الادارة الصحفية الناجحة ان تحقق التوازن المطلوب الذى يضمن غايتها فى الاعلان باعتباره مصدر التمويل الرئيسى ، وفى الوقت نفسه الارتقاء بمستوى المواد التحريرية حفاظا على القارىء الا انه ينتهى فى مناقشته لهذا الموضوع الى الاعتراف بأنه من المؤسف حقا ان اصبحت

للاعلانات مثل هذه الخطورة ، وهى مسألة يرى فى النهاية انها حتمية ، ومن ثم فينبغي أن تتحمل كافة الاطراف مساوىء هذه الوضعية التى لم يكن هناك مفر منها .

بعدذلك يخصص المؤلف **الفصل السادس** للاتحادات العمالية التى تقف على الناحية الاخرى في مواجهة رأس المال الذى تمثل فى الملاك والمعلنين . ويعرض المؤلف هنا لنشأة هذه الاتحادات وتطورها ، ويوضح أبعاد العلاقات المتبادلة بينهما وبين غيرها من التنظيمات والجماعات ذات التأثير الحقيقى فى ميدان الاتصال والعملية السياسية بوجه عام .

ومما هو جدير بالذكر انه يبدى بعض التحفظات بالنسبة الى الطريقة التى تمارس بها هذه الاتحادات نشاطها حيث انها لا تمارس دورا ضابطا أو تنظيميا بقدر ما شغلت نفسها بالوظيفة التقليدية التى تنحصر فى محاولة تطوير ظروف العمل والنزول فى عمليات المفاوضات لاجل تحسين الاجور وضمان المستويات اللائقة بالعاملين فى الميدان . وان كان هذا له ولا شك تأثيره غير المباشر على كافة العلاقات .

وفى الفصل السابع يناقش المؤلف علاقة الدولة State وأداتها الحكومية بوسائل الاتصال ، فأوضح انها علاقة ذات طابع معين مثير للتساؤل ، فهى تعكس من ناحية توترا ملحوظا يفصل ويباعد بينهما ، ومن الناحية الثانية عددا من الصلات والروابط التى تقترب بينهما وتجمعهما .

وقد عرض للعوامل التى غذت التنافر بين الصحفيين ورجال السياسة، فأشار الى بعض الاسباب التقليدية لهذا الموقف ، ومن أهمها سعى الصحافة الدائم وراء تلك الامور التى يعتبرها رجال السياسة أسرارا يحاولون جهدهم لاخفائها . أما الروابط التى لا يمكن تخطيها فتتمثل فى أن الدولة هى التى تهيىء الاطار العام للقانون الذى لا تستطيع الصحافة أن تعمل بدونه ، بالاضافة الى أن ممثلى الدولة هم فى الواقع الاصحاب الحقيقيون للاذاعة ، كما أن الحكومة بكافة أجهزتها واقسامها واداراتها هى المصدر النهائى لكافة المعلومات والاخبار التى تعتبر المادة الاساسية للصحافة علاوة على أن عملية الادارة والحكم ذاتها تصبح شيئا مستحيلا دون مساعدة الصحافة والاذاعة ، باعتبارها قنوات الاتصال اللازم قيامها بين الدولة وبين الجماهير . وأخيرا فان الدوله هى صاحبة الولاء الذى يشعر به الصحفيون باعتبارهم مواطنين . ثم يتناول ناحية التمويل التى يعتبرها من أشد جوانب هذه العلاقة حساسية ، ويوضح أنه بسبب اعتماد الاذاعة اعتمادا كاملا على الدوله فى هذه الناحية فقد اعتبرت دائما أداة لها ولسانا لحالها . وبالرغم من أن الصحافة من هذه الزاوية تبدو أسعد حظا نظرا لاستقلالها المادى فان المؤلف يرى أن هذا الوضع يخلق لها كثيرا من المشكلات ، خاصة من حيث أن هذا الاستقلال يجعلها أكثر حرية وجراءة فى مراقبتها لاعمال الدولة وتصرفاتها ، وبالتالى فى تقديم ما تراه مادة مناسبة ومشوقة لقرائها ، حتى وان كان على غير ما تريد الدولة أن يكون . وفى ضوء هذا يذهب المؤلف الى انه من الخطأ اذن التسليم تماما بأن الصحافة والدولة غريمان متقاربان ، ولكنهما بالاحرى غريمان يعتمد كل منهما على الآخر ولا يستطيع منه فكاكا .

أما الفصل الثانى فقد عالج فيه المؤلف موقف القانون وعلاقته بميدان الاتصال . وعرض للأسس التى تقوم عليها هذه العلاقة وحدد فى ذلك نقطتين جوهريتين هما أولا أن الدولة هى التى تضع القانون وتفرضه ، وثانيا أن هذا يجعل الصحفى فى موقف الخصم الاضعف باستمرار .

صحيح ان القانون فى الدولة الديموقراطية يحمى كافة المواطنين ويرشدهم بدرجة واحدة باعتباره نتاج الحكمة الجمعية ، ولكن هذا لم يحل فى كثير من الاحايين دون وقوع غير قليل من الضرر بالصحافة والصحفيين أمام سمع القانون وبصره .

ونزولا علىهذا ينتقل المؤلف الى مناقشة الابعاد المرتبطة بالمسألة ، فأكد على حرية الصحافة أمام القانون ، وعرض للاتهامات التى طالما وجهت الى الصحافة كتدخلها فى المنازعات القضائية ، وافشائها أسرارها أثناء عرضها ، وغير ذلك من المواقف التى تندرج تحت بنود القذف والطعن وكلها ذات حدود دقيقة للغاية ، خاصة اذا ما مست الامور المتعلقة بالسرية وأمن الدولة وأيضا خصوصيات الافراد . وأوضح فى ذلك كله أن المناخ القانونى الذى تعمل الصحافة من خلاله هو مناخ يتصف بالتغير وبعدم الوضوح والاستقرار . فعلى الرغم من ان حرية الصحافة مكفولة بحكم القانون ، الا أن هذا القانون نفسه ليس منحوتا فى الصخر ، بمعنى انه يتأثر بكل التغييرات التى تدخلها الهيئة التشريعية عليه ، فضلا عن انه عرضة للاختلاف فى الشرح والتفسير مما يجعل الصحفيين فى كل الاوقات فريسة لغير قليل من القلق ، الذى يرجع أساسا الى عدم الاتفاق على ما يعينه القانون حتى بالنسبة الى المواقف المتشابهة أو الواحدة .

أما القسم الثالث من الكتاب وهو بعنوان بدائل السياسات والتطورات المحتملة فيتكون من فصل واحد أفرده المؤلف أساسا للحديث عن المستقبل . وقد حاول فيه أن يبين كيف أنه منذ الحرب العالمية الثانية لم يطرأ على موازين القوى فى ميدان الاتصال تغيرات مؤثرة رغم كل الجدل والنقاش اللذين دارا من حول قضاياها . فخلال ثلاثة عقود بقيت العلاقة بين القوى المختلفة وكذلك سياساتها على ما هى عليه ، فلم تستطع أى منها أن تطغى على الاخرى أو تهزمها تماما . ويستثنى من ذلك القارىء الذى أصبح يمثل قوة حقيقية واعية يعمل حسابها فى الصحافة وبدرجة أقل بالنسبة الى الراديو والتليفزيون فقد أصبح لهؤلاء دورهم فى تحديد البرامج وتحديد مضمونها رغم أنها مؤسسات تابعة للدولة أساسا ، أو أن الدولة تتدخل فى الاشراف عليها اذا كانت محطات أهلية .

وقد حاول المؤلف أن يقدم نموذجا للعلاقة السليمة يتمشى مع التغيرات الجديدة التى يشهدها المجتمع الانجليزى المعاصر ، ويهدف فى الوقت نفسه الى تحقيق توازن اكثر فاعلية وتأثيرا فناقش الدعوة الى الاخذ بمبدأ التعدد والتغاير ، وأبرز عيوبها وفوائدها ، ونبه الى ما تضمنته من اتجاهات محافظة تسعى الى السيطرة والرقابة والتحكم . كما أوضح أن الشىء المهم ليس هو أن يتم تفتيت الوحدات ، وانما الاهم من ذلك كله هو ان أو انشاء وحدات أو محطات اذاعية جديدة ، أو حتى ادماج ما هو قائم فى عدد اقل من الوحدات ، وانما الاهم من ذلك كله هو أن

ينبع التطوير من الداخل ، أي عن طريق النمو الذاتي بالتأثير في الظروف المحيطة ، وتغيير علاقات الاجهزة بمراكز القوة المسيطرة ، واقتراح السياسات الصالحة وتنفيذها .

أما بالنسبة الى الصحافة فقد بلور موقفا معارضا تماما لاية صورة من صور التدخل الحكومي التي تختفي وراء حجج الاصلاح والتنظيم والتطوير ، ففي اعتقاد المؤلف انه لكي تكون الصحافة أقدر على القيام بدورها فينبغي أن تكون للعاملين فيها حرية الكلمة وحرية الرأي والتعبير ، بعيدا عن أي لون من الوان الرقابة أو الضغوط الا مايمليه ضمير الصحفي وأخلاقيات المهنة وشعوره بالانتماء الى الوطن . فالصحافيون ينبغي ان يظلوا سادة انفسهم وسادة اقدارهم ، وهم وحدهم المسئولون عن تحسين وتطوير مهنتهم حتى وان تجشموا في سبيل ذلك كل المشقة والعناء .

● ● ●

وعموما فيعتبر الكتاب رفضا صريحا لكل ما من شانه أن يمس حرية الصحافة ، ففي كل فصل من فصوله نرى ايمانا بشرف الكلمة وقدرتها على احداث التغيير ، فقط اذا ما تحررت من الخوف ومدت لها أسباب الحياة ومن هنا تأتي قيمة الكتاب وأهميته العلمية والتطبيقية في ميدان أصبح اليوم من أخطر الميادين وأبعدها تأثيرا في حياة الانسان .

★ ★ ★

ميكانيكا العقل

تأليف: كولين بليكمور

عرض وتحليل: د. عبد المحسن صالح

ليس هناك ما هو أكثر غموضا من أسرار المخ ، وخبايا العقل ، اذ كلما تعمقنا فى تلك الاسرار ، زادت حيرتنا ، وتشعبت متاهاتنا .. فرغم البحوث الكثيرة والعميقة التي قام بها العلماء على أمخاخ الحيوان والانسان ، الا ان أحدا لم يستطع أن يصل الى القول الفصل فى هذا المجال .. فالانسان يريد أن يدرك ذاته ، ويعرف نفسه من خلال هذه الكتلة اللينة من الخلايا التي تسكن راسه ، لكن ذلك ـ كما يبدو ـ امر بالغ الدقة والصعوبة ، أو ربما كانت نجوم السماوات اقرب الى مداركنا من المدارك التي نريد أن نحصل عليها من أمخاخنا .

اذكر اننى قرأت كتابا حديثا نسبيا بعنوان « طبيعة الذاكرة الجزئية » وهو كتاب يتناول ـ بالشرح والتعليق والتحليل ـ مئات البحوث التي تمت على ذاكرة الانسان والحيوان من الناحية النفسية والتشريحية والكيميائية والبيولوجية ، ورغم اننى تهت مع المؤلف في تلك المعمعة التي ليس لها من قرار ، الا انني احسست براحة مشوبة بالاسف عندما يفاجئنا مؤلف الكتاب ادوارد جوروفيتز فى النهاية باستنتاج يقول فيه « بعرض كل المراجع التي تناولتها فى هذا المجال المعقد ، فان الحقيقة التي تبدو لنا الآن واضحة ، هي نقص الوضوح » !

والواقع ان هناك كتبا كثيرة ـ متخصصة وغير متخصصة ـ قد الفت فى هذا الموضوع الذى سنتناوله هنا بالعرض والتحليل ، الا ان ذلك لا يعنى أن مؤلفيها قد وضعوا بين ايدينا صورة واضحة عن المخ او العقل او العقل والمخ ، او المخ الذى اظهر العقل ، او العقل الذى اظهر المخ ، اذ ان هناك آراء

ونظريات علمية وفلسفية عميقة تتناول هذا الموضوع الشيق من زوايا عديدة ، دون أن يستطيع احد ان يحدد ما الذى اظهر الآخر : هل العقل نبع من المخ ؟ .. او المخ هو الذى وهب العقل ؟ .. أم انهما شىء واحد ؟

الكتاب والكاتب

والكاتب الذى يبين ايدينا الآن ــ ميكانيكا العقل ــ Mechanics of the Mind من الكتب الممتازة فى هذا المجال العويص ، ورغم ان الموضوع معقد ، الا ان مؤلفه قد عرضه عرضا طيبا وسلسا وشيقا وبعيدا ــ فى معظم الاحيان ــ عن التعقيدات العلمية ، ولهذا فهو مفيد للمتخصصين ولغير المتخصصين والكتاب يقع فى ٢٠٨ صفحات ويحتوى على ستة فصول . ومزود بحوالى ١٨٠ شكلا توضيحيا وصورة ، وبعض هذه الصور جاء ملونا : مما اضفى على الكتاب جاذبية خاصة ، وبالكتاب ايضا قائمة باكثر من مائة وعشرين مرجعا ليرجع اليها من يريد الاستزادة من هذا الموضوع ، وبعض هذه المراجع كتب عامة ، وبعضها بحوث متخصصة حديثة ، اذ ان الكتاب طبع حديثا ــ اى فى عام (١٩٧٧م) .

وسر جاذبية هذا الكتاب انه كان فى الاصل سلسلة من الاحاديث الاذاعية التي القاها مؤلفها فى الاذاعة البريطانية ، فكان لها بين الناس صدى واسع ، وطبيعى ان الكاتب قد بذل قصارى جهده ليتعرض لسرد اغرب ما اكتشفه العلماء فى امخاخ الحيوان والانسان ، وكيف تؤثر هذه الامخاخ فى سلوك المخلوقات، فتحدد شخصيتها ، وتشعرها بوعيها ، وبما يدور فيها وحولها ، كما أن الكتاب مزيج من العلم والادب والفلسفة ، وهو يتعرض فيه لآراء القدماء ، ثم كيف تطورت هذه الآراء حتى وقتنا الحاضر ثم نراه لا يغمط العلماء العرب حقهم فى هذا المجال ، فيذكر آراء ابن سينا وابن الهيثم وابى الفضل ... الخ ، ولا شك ان الكتاب ــ فى مجمله ــ قد جمع شتات هذا الموضوع فى عمل واحد مركز وشيق ، ليغرى بالقراءة ويدعو للتأمل فى اسرار ليس لها من قرار ، لكن الشىء الذى يمكن اخذه على هذا الكتاب ، انه ازدحم بقضايا علمية كثيرة ، دون التعمق فى قضية واحدة ، وقد يكون للمؤلف عذره ، اذ ان معظم ما جاء فى الكتاب ــ كما سبق ان ذكرنا ــ كان قد ظهر على هيئة أحاديث اذاعية وهو يريد بذلك الا يشق على القارىء العادى أو المثقف ، او يزج به فى معمعة علمية قد يحيد بهذا الكتاب عن الفرض الذى جاء من أجله ــ اى ليفيد أكبر عدد ممكن من الناس الذين يميلون الى معرفة ما يجرى فى مجال العلوم دون الزامهم بالتعمق فى تفاصيلها ، فهذا التعمق لا يهم ــ فى اغلب الاحيان ــ الا العلماء انفسهم .

ومؤلف كتاب ميكانيكا العقل هو دكتور كولين بليكمور Colin Blakemore الذى يعمل محاضرا فى الفسيولوجيا بكلية داوننج Downing College التابعة لجامعة كمبريدج ببريطانيا ، وهو فى الوقت نفسه يشغل منصب مدير للبحوث الطبية بالجامعة ذاتها ، وزميل الجمعية الملكية للبحوث ، ولقد قامت دار نشر جامعة كمبردج بطبع الكتاب طباعة انيقة ومريحة ، فجاء عملا ممتازا للمتخصصين وغير المتخصيصين .

ويجدر بنا الآن ان نعرض ملخصا لاهم ما ورد فى فصول هذا الكتاب .

ففى الفصل الاول وتحت عنوان « اقدس أو اسمى جزء فينا » يستهل تقديمه بفقرة من اقوال افلاطون التي يشير فيها الى ان رؤوسنا

- على حسب نظرة فلاسفة اليونان القدامى - بمثابة كرة او دائرة أو كون اصغر من داخل كرة أو دائرة أو كون أكبر !

ويدخل بليكمور الى الموضوع بمقدمة ذكية فيقول ان عام ١٨٤٨ شهد ثورة سياسية واجتماعية هائلة عندما نشر كارل ماركس وفريدريك انجلزالمبادىء الاساسيةللشيوعية، لكن هذا العام ايضا شهد حادثة مثيرة فتحت لنا الباب لكى نبدأ ثورة علمية لندرك بعض اسرار المخ البشرى من خلال حادثة لا يكاد العقل يصدقها . ففى اثناء انشاء احدى خطوط السكك الحديدية بامريكا الشمالية انفجرت عبوة ناسفة ، وحملت قضيبا من الحديد طوله حوالي متر ، وقطره حوالى ثلاثة سنتيمترات ، ووزنه ١٣ رطلا ، فاصابت الشاب فينياس جيج تحت عينه اليسرى مباشرة ، ثم تدخل رأسه ، وتخترق مقدمة مخه ، لتخرج من أعلى جبهته كقذيفة تستقر على مسافة ٥٠ يارة من الضحية !

وطبيعى ان جيج قد سقط فى الحال وهو يتلوى ، ولقد ظن الذين شهدوا هذه الحادثة المروعة أنه ميت لا محالة ، لكن الغريب والمثير حقا ان جيج قد قام بعد عدة دقائق، واستطاع ان يتخاطب مع من حوله ، وعندما وصل الخبر الى طبيبى المنطقة، لم يصدقا ما سمعا، لكنهما عندما شاهدا الحالة تعجبا وسارعا بنقل جيج الى المستشفى ، حيث تم شفاؤه بعد اسابيع ثلاثة .. لكن فينياس جيج لم يخرج من المستشفى كفينياس جيج ، اذ تغيرت شخصيته ، واختلف سلوكه ، ولم يعد هو ذلك الشاب الهادىء الرزين الطموح المحبوب ، بل كان على العكس من كل هذه الصفات ، واخذ يجوب البلاد على غير هدى ، حتى مات فى سان فرانسيسكو .. ولغرابة هذه القصة ، فقد حفظت جمجمة جيج المثقوبة وكذلك القضيب الحديدى الذى اخترق راسه بمتحف مدرسة الطب بجامعة هارفارد كشاهد على غرابة ما قد كان !

ولقد كانت نظرة العلماء والاطباء للمخ فى القرن التاسع عشر تختلف اختلافا بينا عن نظرة علماء القرن العشرين ، ففى بداية القرن التاسع عشر يجىء الطبيب النمساوى فرانز جوزيف جول ويحاول ان يربط بين العقل وبعض الصفات الظاهرية على الرأس والوجه، فهو مثلا يعتقد ان العيون الكبيرة البارزة دليل على قوة الذاكرة ، وانه قد عرف هذا منذ أن كان صبيا ، ثم بدأ في شبابه يضع نظرية تقول : ان شكل رؤوسنا ووجوهنا يعكس ما يجرى داخل امخاخنا ، أو أنه - اى الشكل - يحدد شخصيتنا ، ومن أجل هذا طاف البلاد طولا وعرضا عن هذه الحالات ، ويجمع عنها المعلومات ، عله يحقق نظريته التي باءت - فيما بعد - بالفشل ، اذ ليس بشكل الرأس يكون العقل !

لكن الملاحظة الطويلة والدقيقة التي جمعها الاطباء والجراحون عن سلوك الناس الذين اصيبوا فى امخاخهم بأورام أو تهتكات أو صدمات .. الخ ، هذه الملاحظات بدات تتجمع بمرور عشرات السنين ، وأكدت لنا أن شخصياتنا تكمن بالفعل فى امخاخنا .. الا ان المؤلف يستدرك ويعود الى القول بان العلاقة بين امخاخنا وما قد يصيبها من صحة أو مرض، ثم ما قد ينعكس منها على انماط تفكيرنا ، ليس وليد القرن التاسع عشر حقا ، بل يرجع الامر الى (ابو قراط) الذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد فبالرغم من أن تعاليمه كانت تعزو بعض الامراض الى قوى غيبية ، الا انه ادرك مثلا أن المرض « المقدس » المعروف باسم الصرع (أو حتى الجنون نفسه) انما يرجع الى اضطرابات فى المخ ، ولقد ذهبت مدرسة أبو قراط الى ابعد من ذلك وقالت : ان ملذاتنا ومسراتنا ، ليست فقط هي التي تنبع من امخاخنا ، بل نبعت منها ايضا احزاننا وآلامنا ودموعنا ، فبالمخ وحده نفكر وندرك ونرى ونسمع ونميز بين القبح والجمال ، وبين الطيب والردىء ، والخير والشر .

ثم يتعرض لنظرة قدماء المصريين والآشوريين والسومريين للمخ، فيقول انهم لم يعطوه حقه، كما اعطوا ذلك للقلب والكبد والامعاء ، إذ ظنوا ان جوهر النفس او الروح تكمن فى تلك الاعضاء ، ومن أجل هذا دمر الفراعنة مثلا المخ بسحبه من خلال الانف على هيئة « مفرومة » ، وكأنما هو بغير ذات فائدة ، فى حين انهم حفظوا القلب والاحشاء كما هي في أوان أنيقة .. على ان الفكر القديم ايضا قد اعتبر ان الدم والكبد هما مركزا الروح والعقل ، ولقد تبنى الفيلسوف اليونانى ارسطو هذا الرأى ايضا ، واشار الى ان مركز العقل اوالروح أو العاطفة فى القلب الذى يوزع الروح فى الدم ، ولا زالت هذه الظنون سارية بين عامة الناس حتى الآن ، فتراهم مثلا يرجعون العواطف والانفعالات الى القلوب دون العقول ، او انهم يتغنون بالقلوب ، وكانما القلب هو مركز الاحاسيس !

وينطلق المؤلف فى سرده للموضوع سريعا من العصور القديمة الى العصور الوسطى التي عاب عليها التخلف من خلال القيود الرهيبة التي وضعتها الكنيسة على افكار العلماء عامة ، وعلى تشريح الجسم البشرى خاصة ، ولقد حاول بعض رجال الكنيسة ان « يزاوجوا » بين معتقداتهم الدينية وبين افكار المدارس اليونانية ، فقالوا ان العقل أو الجوهر يتركز فى القلب والمخ والكبد والدم ، وان التكامل بين هذه الاعضاء يؤدى الى ما أسموه بالروح الحيوانية .

ثم يتعرض الكاتب بعد ذلك لآراء العديد من العلماء والفلاسفة والمفكرين مثل جالين وليوناردو وابن سينا وديكارت ... الخ ، وكيف انهم أثروا بافكارهم على من جاء بعدهم ، ولا زالت بعض هذه الافكار تنتشر بين كتب الطب والفلسفة والعلوم والتشريح ، وهى ليست كلها ــ بطبيعة الحال ــ خطأ ، او كلها صوابا ، بل ان علمنا الحديث من شأنه ان يفصل الغث عن السمن .

ويبدأ المؤلف الفصل الثاني من كتابه بعنوان غريب « شوانج تسو والفراشة » .. وهو عنوان ــ كما يبدو ــ لا صلة له بالعقل ولا بميكانيكيته :نما اراد بليكمور أن يستعيض عن العناوين التقليدية بعناوين فيها بعض الاثارة والغموض ، وهذا ما نلحظه فى كل فصول الكتاب .. والعنوان على اية حال مأخوذة من مذكرات كان قد كتبها « تسو » فى القرن الثالث قبل الميلاد ويجىء فيها « فى يوم من الايام انا ــ شوانج تسو ــ قد رأيت فى المنام اننى فراشة ، أحلق هنا وهناك بسعادة ، وفجاة استيقظت لاجد نفسى شوانج تسو » !. ولهذا فان بليكمور قد تعرض فى ذلك الفصل من الكتاب للنوم والاحلام والوعي فى عالمي اليقظة والنوم .

ويقدم لنا المؤلف فى بداية هذا الفصل سلسة من التجارب المثيرة التي اجراها اثنان من العلماء الامريكان على نفسيهما فى كهف « الماموث » بولاية كنتوكي ليعرفا ايقاعية الزمن على امخاخنا وسلوكنا وعملياتنا الفسيولوجية والبيوكيميائية ، فكانا يقضيان أيامنا طويلة بمعزل عن دورة الليل والنهار التقليدية ، ويستعيضان عنها بفترات من الضوء والظلام الصناعيين التي تمتد الى ٢٨ ساعة يوميا (أى اطول من ايامنا العادية باربع ساعات) ، ومن هذه التجارب استنتجا ان امخاخنا تحمل فى طياتها « سجلات » للزمن ، وان التلاعب بها ، قد يؤدى الى تغيرات فى الجسد والفكر .. اى كانما فسيولوجية اجسامنا تسير وفق « ساعة » بيولوجية تضبط فينا ايقاعية الحياة التى تكيفت بتعاقب الليل والنهار (١) .

(١) الواقع ان هذه الظاهرة ليست مقصورة فقط على الانسان ، بل نراها تنتشر فى عالم الحيوان واحيانا فى عالم النبات ، ولمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع انظر دراستنا « الزمن البيولوجى » ــ عالم الفكر ــ العدد الثانى من المجلد الثامن ــ ١٩٧٧ .

ولقد حيرت طبيعة هذا الشعور الغامض بين اليقظة والاحلام (او الوعي واللاوعي) عقول الفلاسفة والعلماء ، ويشير المؤلف الى آراء بعض مشاهير المفكرين ، لكن هذه الآراء قد لا ترقى الى ما يرقى اليه البحث العلمي الذى يقوم على منهج تجريبي. صحيح اننا لانستطيع أن نزن العقل أو الوعى أو الذاكرة بموازين مادية ، ولا ان ندركها كما ندرك الماديات ، بل هي نابعة اساسا من كتلة مادية منظمة ادق تنظيم من بلايين الخلايا العصبية التى تتداخل فى شبكة معقدة من الاتصالات الخلوية ، وكلما زاد تعقيد هذه الشبكة ، واكتسبت تطورا ، زاد فيها استيعاب الذاكرة ، وظهر الذكاء ، وانبثق الادراك ليصبح كل هذا تتويجا لمخ الانســان وعقله .

ويسرد بليكمور العديد من التجارب الكثيرة والمعقــدة التي قام بها العلماء على الحيــوان والانسان علهم يدركون السر الكامن فى دؤوسنا، والذى ينعكس على انماط تفكيرنا ، ويؤدى الى ظهور هذا الشىء المثير الذى نطلق عليه اسم الوعى او العقل (او الروح فى التصور القديم)، فيذكر ضمن ما يذكر تلك الوسيلة القديمــة جدا فى طمس الشعور بالالم ، والتي تتمثل لنا فى الابر الصينية ، ويعلل استجابة اهل الصين لها اكثر من غيرهم من الشعوب ، لانها اصبحت نوعا من التكيف البيئي والحضارى ، فأطفال الصين ــ منذ نعومة اظافرهم ــ يتلقون اصول هذا الفن الذى استمر فيهم لاجيال طويلة ، بحيث اصبح جزءا من حياتهم ، ولهذا كان غرز الابر نوعا من الاقتنــاع أو الايحــاء أو العقيدة باختفاء الآلام والاوجاع ، وقد تختفى فعلا تحت هذا التأثير النفسي .

ويذهب المؤلف الى تأكيد ذلك بسرد بعض التجارب الرائدة التي قام بها العالم الروسي الشهير ايفان بافلوف على الكلاب وغيرها من حيوانات ، اذ كان الالم عندها ــ بالممارســة أو التعود ــ يتحول الى لذة ، وملخص هــذه التجارب ان بافلوف كان يقدم للكلاب ــ بعد تجويعها ــ وجبة شــهية يسيل لها لعابها ، لكن قبل ان تقرب طعــامها ، كان يصدمهــا صدمة كهربية مباغتة تجعلها تعوى من الالم، وبتكرار هذه العملية ، عرفت الكلاب ان الصدمة معناها طعاما شهيا ، ولهذا كانت تهز ذيولها ــ بعد ذلك ــ للصدمة ، دلالة على لذة قادمة ــ هى فى الاساس الحصول على الطعام ، أي أن الالم قد تحول الى ظاهرة سعيدة فى حياتها ، وربما كان اثر الابرة الصينية ــ على حد رأى بايكمــور ــ بين الصينيين ، كاثر الصــدمة الكهربية بين الكلاب !

ولقد دفعت هذه التجارب وغيرها المؤلف ليتحدث باختصار عن ميكانيكية الالم ، وكيف حاول الناس من قديم الزمن التغلب علــى آلامهــم من خلال تعاطيهــم المواد المســكرة والمخدرة ، ثم يشير الى كشف حديث ومثير عن كيفية تغلب اجسامنا على آلامهــا (أو بالتحديد امخاخنا) ، فهي ايضا تصنع مادتها المخدرة على جزيئات بروتينية صغيرة اطلقوا عليها اسم انيكفالين enkephalin (وهذه يمكن ترجمتها الى دماغين نسبة الى الدماغ، لانها تصنع فيه) ، فهي ايضا تتداخل فى تخفيف اوجاع الدماغ ، او تطمس الاثر الناتج مــن الآلام التي قد تتعرض لها الاعضاء والتي تصب فى النهاية فى امخاخنا ، اى كانما الدماغ يصنع لنفسه «افيونته» التى تعدل مزاجه ، وتطمس بعض آلامه ، لكن هنــاك فرقا جوهريا بــين الانكيفالين والمواد المخدرة ، فليس من وراء الاولى اى أثر للادمان كما هو الحال فى الثانية .

ومن خلال هذا الاكتشاف ايضا يعود ليذكر أن الصينيين قد اكتشفوا بدورهم ان غرس الابر الصينية فى جسم ارنب قد دفعته دفعا لتخليق مادة فى مخه ، وانه باستخلاص هذه المادة وحقنها فى مخ ارنب آخر ، تبين انــه يتحمل الآلام بدرجات اكبر ، وربما كانت هذه المادة هي مادة الدماغين أو مادة قريبة منها .

ويعود المؤلف بعد ذلك الى التعرض لطبيعة الاحلام ، وكيف ان الكتب السماوية الثلاثة

قد اعتبرت رؤيا الانبياء حقيقة ، ويذكر ان الرسول محمدا قد راى فى منامه انه ركب دابة من فضة اسمها البراق ، وانه عرج بها الى السماء (٢) ، وبعد ان ناقش موضوع الاحلام من الوجهة العقائدية والفلسفية ، عرج على معالجتها من الوجهة العلمية ، فاشار الى تطور فكرة جهاز رسام المخ الكهربي ، وكيف انه ساعدنا على تسجيل حالات الانسان اثناء النوم ، وان المخ يستطيع ان يبعث بموجات تختلف شدة أو ترددا فى حالات النوم المختلفة (اى نوم عميق أو متوسط أو سطحي) ، وانه من الممكن أن يسجل فترات الاحلام من خلال التغير الحادث فى طبيعة الموجات ، وان كل هذا قد يساعدنا على فهم امخاخنا ، وما قد يعتريها اثناء النوم واليقظة ، لكن المؤلف لم يوضح لنا طبيعة هذا الفهم ، وما المقصود به حقا ، وربما كان يقصد التغيرات الكيميائية والكهربية والعصبية التى تتسلط على خلايا امخاخنا فيكون الوعى واللاوعي الذى يسيطر على اجزاء من المخ اثناء نومنا ويقظتنا .

وفى الفصل الثالث وبعنوان « صورة من الحقيقة » ، وهو مأخوذ من قول مأثور لوليام بليك « ان كل شىء يمكن تصديقه ، انما هو صورة من الحقيقة » . وفى هذا الفصل يتعرض المؤلف لواحدة من الحواس الهامة فى حياة الانسان والحيوان ـ حاسة البصر ـ ويشير الى وجود حالات من بشر ذوى عيون سليمة لكنها غير مبصرة ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال الى ان العين ما هى الا وسيلة لنقل صورة من عالمنا ، وارسالها على هيئة سيل من نبضات عصبية لتصب فى مركز محدد فى المخ (مركز الابصار) ، وهو الوحيد الذى يستطيع ان يفك رموز النبضات ، ويحولها الى صورة مجسدة ايا كان شكلها ولونها وحجمها ، لكن مركز الابصار لم يكشف فجأة ، بل ان من وراء اكتشافه وتحديد مكانه فى المخ العديد من العلماء الذين أجروا تجارب كثيرة على الانسان والحيوان ، ومن هؤلاء مارى جين فلورنس الفرنسي ، وهيرمان مونك الالماني ، وسير جوردون هولمز البريطاني ، ويشير المؤلف الى أن اصابات الحروب كان لها الاثر الاكبر فى رسم خريطة واضحة للمخ ، اذ كانت الحالات الكثيرة التى تقع بين أيدى الجراحين والتى اصيبت فى امخاخها اصابات مختلفة ، ثم ما يتبع ذلك من أثر فى مناطق الحواس ذاتها ، أو فى اداء الاعضاء التي يحتويها جسم الانسان .. كل هذا وغيره قد وضع بين ايدينا أن المخ ليس الا «لوحة» عصبية للاستقبال والتوجيه وفك لغات ورموز هذا العالم الذى نعيش فيه .

وعن نقل الصورة بواسطة العين نرى عرضا للنظريات القديمة والحديثة ، فلقد كان الظن السائد قديما أن العين ترى الاشياء عن طريق اشعاع يخرج من العين ليقع على المرئيات ، لكن ابن الهيثم ـ العالم العربى ـ كان اول من صحح هذا المفهوم فى حوالي عام ١٠٠٠ م ، اذ قال أن الضوء هو الذى ينعكس من المرئيات الى العين ، وليس العكس ، ثم عرض المؤلف علينا صورة للعين ولاعصابها ولاداء وظيفتها كما قدمها ابن الهيثم ، ويرجع الفضل بعد ذلك الى رينيه ديكارت فى أنه أول من أجرى تجربة فى القرن السابع عشر على انعكاس المرئيات على شبكية عين ثور ، اذا استخرج هذه العين، وقطع جزءها الخلفي ، واستبدل به شريطا من الورق ، وعلى هذا الشريط استقبل صورة مصغرة ومعكوسة لحجرته المضيئة ، الا اننا ـ فى الواقع ـ لا نرى عالمنا معكوسا ، ولا مصغرا ، ولا ذات بعدين اثنين كما هو مبين على الشبكية أو الورق ، بل نرى العالم بكل ما فيه من ابداع وتجسيد ، وبكل ابعاده ومعانيه، وهذا ما شحذ افكار العلماء والفلاسفة

(٢) الواقع ان المؤلف قد نقل ذلك عن منمنة فارسية قديمة ، وهو لم يتعرض ـ بطبيعة الحال ـ للآراء المتداولة فى هذا الشان بين علماء المسلمين ، فربما كان ذلك ليس مجالها .

على حد سواء ، ثم ما حدث بينهم من جدل كثير حول وجود العالم كما نراه ، أو كما تصوره لنا عقولنا ، فواحد مثل جورج بيركلى قد شكك فى وجود أى شىء مادى خارج العقل، وراح يعلن أن العقل هو الذى يرسم لنا صور عالمنا ، فنحن مثلا عندما نلمس النار ، نحس بالالم ، اذن ليس الالم فى النار ، انما الالم فينا ، وعندما نتذوق قطعة من السكر ، فاننا نحس بمتعة ، لكن المتعة ذاتها ــ كما يقول ــ ليست فى السكر ، بل هى حاسة فينا فلماذا ؟ ــ اذن ــ نعتقد ان احساسنا بالشكل واللون وارتفاع النغمة أو انخفاضها تنبع اساسا من الاشياء دون ان تنبع من داخلنا ؟

ويقارن المؤلف بين هذا الشك ، وشك ديكارت فى وجوده ، ثم اثبات هذا الوجود بقوله « أنا افكر » اذن فأنا موجود .. لذلك يقول بيركلى « لكي توجد الاشياء فلا بد أن تدرك » .. لكن بيركلى لا يستنتج من ذلك ان الاشياء مثلا تختفى بمجرد ان ندير لها ظهورنا ، أو أن الامتعة الموجودة فى حجرة ما لا وجود لها فى غياب الضوء ، بل لا بد ان تكون موجودة ، لان هناك عينا اخرى ترقبها ــ هي عين الله ، هذا ومما يذكر أن جورج بيركلي اسقف ديني مشهور .

لكن آراء الفلاسفة أو رجال الدين لا تقوم اساسا على منهج علمي تساندة التجربة .. صحيح ان التجارب التي اجراها العلماء حتى الان لم تستطع أن توضح لنا بدقة كيفية ادراكنا أو شعورنا بما يجرى حولنا ، ولا كيف تتحول صور المرئيات فى امخاخنا الى عالم حقيقي بكل أبعاده ومعانيه ، ومع ذلك فقد وضعت التجربة العلمية امامنا حقائق كثيرة عن الوسيلة التي تدرك بها امخاخنا .

فعالم الاعصاب البريطاني جون هولنجز جاكسون قد قدم لنا المخ ــ فى السبعينات من القرن التاسع عشر ــ على هيئة خريطة او قارة مقسمة الى مناطق ، ولكل منطقة جزء محدد فى الجسم لتؤثر فيه ، وتتأثر به ، فلكل عقلة من اصبع فى ايدينا أو أرجلنا ، ولكل عضلة فى وجوهنا أو ظهورنا منطقة محددة فى أمخاخنا ، وأن هذه المناطق يمكن تشبيهها بلوحة مفاتيح فى بيانو ، وأن أوتارها تتمثل فى عضلاتنا التي تتقبل الاوامر من المخ بالحركة فتتحرك .

ومنذ ذلك الحين أخذ العلماء يستنبطون الوسائل العلمية للكشف عن مزيد من المناطق الحيوية فى أمخاخ الانسان والحيوان ، وعلاقتها بالامراض العصبية والنفسية والجسدية ، على ان اغرب ما اكتشفه العلماء أن وجود اجسامنا ذاتها مسجل فى امخاخنا ، فالاصابات التي قد يتعرض لها المخ فى المنطقة الواقعة خلف منطقة حاسة اللمس (فى الفص الجانبي من المخ) قد تؤدى الى الاخلال بالعلاقة أو الاتصال القائم دائما بين الجسم والعقل .. فالمرضى الذين يتعرضون للاصابات فى تلك المنطقة قد لا يحسون بنصفهم الايمن أو الايسر ، وكأن هذا النصف أو ذاك لا وجود له فى امخاخهم ، فتراهم مثلا يحلقون نصف لحيتهم اليمنى ، ولا يشعرون اطلاقا بوجود النصف الايسر من وجوههم فلا يقربونه ، أو قد يمشطون نصف رؤوسهم ويتركون النصف الآخر ، أو قد يتصورون ان هناك من يشاركهم مخدعهم ، فيشيرون الى ذراعهم الايمن او الى ساقهم الايسر ، ويطلبون ابعاده ، لشعورهم بانه ذراع أو ساق انسان آخر يسترخى على اجسامهم !

ويعود بليكمور مرة أخرى الى مركز الابصار ، فيقول انه اعجب واغرب منطقة فى امخاخنا ، لكنه ليس مركزا وحيدا او متجانسا ، بل يبدو انه بدوره مقسم الى مناطق أو خرائط كالتى يرسمها الجغرافى او الجيولوجى لتوزيع الامطار والسكان والصحارى والمعادن الارضية على خرائطه ... الخ ، وكذلك كانت « خريطة » الابصار فعليها أكثر من اثنى عشر موقعا خساسا ، فموقع للالوان ، وثان لتقدير المسافات ، وثالث للاشياء المتحركة ... الخ ، ثم ان اي تدمير لاي موقع من تلك المواقع ، ينعكس

على فقدان الكائن الحى لمظهر هام من مظاهر عالمه المنظور .

ويسوق المؤلف بعد ذلك حقائق مثيرة عن امخاخنا ، ويشير أنه يتعين علينا أن نبحث فى الوحدات الاساسية التى تكون المخ ــ اي الخلايا العصبية ، ففى مخ الانسان حوالى عشرة آلاف مليون خلية عصبية ، او ان كل بوصة مكعبة من نسيج قشرة المخ التى تحتوى من الالياف العصبيةمايزيد طوله على عشرة آلاف ميل، وهذا يعنى ان تلك الالياف او الوصلات او «الخطوط» التى تربط بين هذه البلايين من خلايا المخ يمكن أن تصل الى القمر وتعود منه لو انها اتصلت فى خيط واحد « اي يبلغ طولها الاجمالى أكثر من ٨٠٠ الف كيلو متر » ، ولهذا ، فان تلك المتاهات أو الشبكة المدهشة الكامنة فى رؤوسنا هى التى تشعرنا بوجودنا ، فكل خلية عصبية تتصل بعدة آلاف من الوصلات الليفية العصبية مع جيرانها، وبهذه الوصلات والاتصالات تستطيع أن « تتفاهم » وتؤدى وظيفتها .

وعلى هذه الخلية العصبية بدات بحوث العلماء العميقة ، فلكى ندرك طبيعة امخاخنا كان لا بد أن ندرك أولا سر هذه الخلية ، ولقد كان لورد آدريان من جامعة كيمبريدج أول من قام ــ فى عام ١٩٢٥ ــ بتسجيل النشاط العصبى لخلية عصبية وحيدة معزولة ، ويتمثل هذا النشاط فى ارسال نبضات كهربية محددة خلال الالياف الممتدة بين الخلايا ، فتحس بها ، كما ان هذه النبضات تختلف أيضا فى ترددها أو شدتها، وقد يصل هذا التردد الى الف فى الثانية الواحدة ، وفى مثل هذا التيه العظيم يمكن للمخ ان يتعامل مع طوفان هائل من المعلومات التى تصل اليه من عالمه الداخلى « الجسم » ومن عالمه الخارجى .. فنقل صور عالمنا بواسطة العين يستلزم وجود حزمة من الالياف العصبية التى يربو عددها على مائة مليون لكى تربط بين العين ومركز الابصار، وفى النهاية يتعرض المؤلف لتكيف العين فى الحيوانات المختلفة ، لتكون مناسبة لبيئتها، وملائمة لاستمرار حياتها .

وينتقل المؤلف من هذا الفصل الممتع الى الفصل الرابع بعنوان « طفل حتى تلك اللحظة » ويستهله بشعر لشكسبير من « هاملت » ، وهذا الفصل خاص بالذاكرة والتذكر ، فيقدم لنا حالة مريض اسمه هنرى ، وهذا المريض لا يستطيع أن يتذكر الا لحظته التى يعيش فيها ، فعلى سبيل المثال نذكر ان عالمة الاعصاب بريندا ميلز من معهد مونتريال للبحوث العصبية قد قضت مع هذا المريض أكثر من عشرين عاما فى دراسة مستفيضة لحالته ، وبالرغم من كل آلاف الزيارات والمقابلات التى تمت بينهما ، الا ان هنرى لم يتذكر انه رآها قبل ذلك مرة واحدة ، وكان يتعين عليها أن تقدم له نفسها فى كل مرة . صحيح ان ذكاء هنرى لا غبار عليه ، انما مشكلته تتركز فى انه لا يحتفظ فى ذاكرته بأية خبرة تمر به ، فعمه ــ مثلا ــ قد مات منذ ثلاث سنوات من اصابته بهذه الحالة ، الا انهم كلما ذكروا له وفاة عمه ، تظهر عليه علامات حزن وكأن عمه قد مات فى التو واللحظة ، أو كأنما هو يسمع هذا الخبر لاول مرة ، ولهذا نراه يعبر عن حالته تلك بقوله : ان ما يقلقنى هو اننى كمن يقوم من نوم طويل ، اننى لا اتذكر شيئا ، فكل يوم فى حياتى قائم بذاته ، فلا أعرف فيه بعد ذلك ما جرى مهما كان سارا أو محزنا .. اي أنه ابن لحظته ، فلا ماضى له ، ولا يدرى كيف يتصور المستقبل .

وفى عام ١٨٩٢ لاحظ عالم الفسيولوجيا الالمانى فريدريك جولتز حالة مشابهة فى الكلاب التى أجرى عليها عمليات تدميرية فى بعض أجزاء من قشرة المخ ، ففقدت بذلك كل ما كانت تتذكره لتجارب سابقة مرت بها ،

ووعتها فى ذاكرتها ، ولهذا نرى جولتز يصف هذا النوع من الكلاب بانه « طفل لحظته » . وهنرى أيضا ! .. رمن هـذه الدراسـات وغيرها يستنتج العلماء أن هناك ذاكرة وقتية وذاكرة مستديمة (٣) .

لقد فقد هنرى ذاكرته من خلال عملية جراحية فى المخ ، اذ انه قـد أصيب بحالـة رهيبة من الصرع ، فاستلزم ذلك ــ رحمـة به ــ ازالة جزء مـن المخ يعرف باسم قـرن آمون أو حصان البحر (لانـه يشبه هـذا الحيوان فى التواء جسمه) .. وهـذا القرن يتكون من جزئين صغيرين يقعان بين فصى المخ . هذا ومما يذكـر أن الجراحين قـد أزالوا احد هذين الجزئين فى حـالات سابقة دون أن يصاب المريض بمضاعفات خطيرة ، لكن حالـة الصـرع الشديدة عنـد هنرى استوجبت ازالة جزئى قرن آمون ، فأصبح بدونه من غير ذاكرة تذكر .. اذن فهنــاك علاقة بين هذا القرن وبين الذاكرة والتذكر .

وفى الوقت الذى كانت حالة هنرى فيه تحت الدراسـة (فى الاربعينات مـن هـذا القرن) كان جراح المـخ والاعصاب العـالم الشـهير ويلدرينفيلد الكندى يجمـع مـن المعلومات ما يشـير الى أن مخـزن الذاكرة يوجـد فى فصى المـخ الكبيرين ، لكنه ــ فى الوقت ذاته ــ كان يقوم أيضا باجراء عمليات جراحية فى أمخاخ المصابين بالصرع ، ولكى يتوصل الى المناطق المسئولة عن أحداث هذا الصرع ، كان يتجسس علـى المخ بواسـطة أقطاب كهربية على هيئة أبر رفيعة للغاية ، وفيها تنسـاب نبضات كهربية ضعيفة لتؤثر على مناطق محددة فى المخ ، وعندما كانـت هذه المناطق تثار بالتيـار الكهربى الضيئل ، ظهرت على المرضى أمور غريبـة ، اذ كانوا يشعرون بأحاسيس عجيبـة ، ثم أن هذه الاحاسيس كانت تختلف باختلاف الجـزء المثار من المخ ، وكأنما هذه الذكريات تنطلق فجأة من مكامنها عـندما يمسـها القطب الكهربى ويثيرها .

ففى واحدة من هـذه التجـارب التى اجراها بنفيلد على سيدة صغيرة ، وبينمـا القطب الكهربى يمس نقطة فى أحـد صدغى المخ ، صرخت السيدة » اظن أننى الان أسمع نداء صبى صغير من مكان ما ، ويبدو أن هذا قد حدث منذ سنوات مضت ، وفى بيـت مجاور لبيتى « .. وبعد لحظات أخرى مس بنفيلد نفس هذه النقطة من جديد ، فقالت السيدة « نعم .. اننى أسمع هذه الاصوات المألوفة . انها تبدو لسيدة تنـادى . انهـا السيدة نفسها » ! .. وعندما انتقل بنفيلد بأقطابه الى منطقة أخرى ومسها ، قالـت السيدة « اننى أسمع أصوات صادرة فـى وقت متأخر من الليل ومن مدينة ملاهى فى مكان ما ، أو ربما من سيرك تنقل ، ثم اننى أرى الان عربات كبيرة من ذلك النوع الـذى يحمل حيوانات السيرك » (٤) .

لكن ماذا يعنى ذلك ؟ .. يعنى ببساطة أن الاحداث أو الذكريات ربمـا كانت مرتبة ومنظمة فى « سجلات » خاصة فى امخاخنا ، لكننا لا ندرى عن طبيعتها شيئا ، وانـه من الممكن استخراج هذه الاحـداث باثارتها من مكامنها التى رتبت فيهـا ، لكـن الذاكـرة والتذكر ــ كما اشار المؤلف وكما الحنا الى ذلك فى المقدمة ــ لا زالـت مـن التحديات الكبيرة التى يجابهها العلم فى وقتنا الحاضر .

---

(٣) انظر فى هذا العدد دراستنا « مستقبل المخ ومصيرالانسان » .. مجلة عالم الفكر. المجلد الرابع ــ العدد الاول.

(٤) الواقع ان بنفيلد قبل موته بعام واحد (اى فى عـام١٩٧٦ عن ٨٥ عاما) قد قدم لنا كتابا ممتعا عن أسرار المخ بعنوان « لغز العقل » The Mystery of the Mind ــ الناشر مطبعة جامعة برنستون ، ولقد تضمن هذا الكتاب كثيرا من الحقائق المثيرة التى توصل فى هذا المجال .

ويحاول المؤلف أن يعطى لعقولنا حقها عندما يقارن بينها وبين « العقول » أو الحاسبات الاليكترونية ، فهذه مهما أتقن الانسان فيها وأبدع ، فانها لا ترقى الى مخ الحيوان ، ودعك من الانسان .. صحيح ان هذه الحاسبات تتكون من خلايا أو دوائر كهربية تشبه « الدوائر » العصبية الموجودة فى خلايا أمخاخنا ، الا أن هذه الحاسبات ــ رغم كفاءتها ــ لا تعرف الانفعال ، ولا تحس بالجمال ، ولا تدرك الحب والخيال ، الى آخر هذه الصفات التى نراها فى الانسان .. ومن مثل هذه المقارنة غير العادلة ينطلق المؤلف الى مقارنة أخرى أكثر واقعية ، فيذكر أن الذاكرة الكيميائية ليست شططا ولا بدعة ، لان هذه الذاكرة ذاتها هى التى تمنحنا كل صفاتنا الوراثية ، وهى أساسا موجودة فى الخلية الجنسية ، او أية خلية جسدية ، وبالتحديد فى نواتها التى تحتفظ بالمادة النووية أو الوراثية التى نراها على هيئة سلاسل معقدة من جزيئات كيميائية ، وكانما هذه الجزيئات « تتذكر » دائما (ولكن بطريقة لسنا ندرى كل تفاصيلها بعد) كل صفة من صفات أي مخلوق فتمنحها اياه ، وربما كانت جزئيات الذاكرة تتكون أيضا بطريقة أو بأخرى ، ثم ان هناك تجارب كثيرة تشير الينا من طرف خفى أن الذاكرة ما هى الا عملية تخزين وترتيب كيميائى ، وانه يمكن التداخل فيها من خلال مواد كيميائية خاصة ويميل بعض العلماء كذلك الى الاعتقاد بأن الذاكرة تتأثر بفتح دوائر كهربية فى المخ واغلاقها ، وأن هذا العمل الرائع يتم بين ملايين الملايين من الالياف أو « الاسلاك » العصبية التى تربط خلايا المخ فى نسيج واحد ، وان ذلك يمكن تشبيهه ــ من حيث المبدأ ــ بعمل الدوائر الكهربية فى «العقول» الاليكترونية ، لكن ليس كل هذا الا من قبيل التكهنات التى لا يساندها دليل واضح ومتين .

وتحت عنوان « نار موقدة » يبدأ بليكمور فصله الخامس بتقديم محادثة مثيرة بين انثى صغيرة اسمها لوسى وبين انسان عالم ، فيقول للانثى : ما هذا ؟ ــ وتجيبه : مفتاح . ثم يلتقط مشطا ويسأل : وما ذاك ؟ .. فتشير الى أنه مشط ، ثم تأخذ المشط وتمشط شعرها ، وبعد هذا تتوقف وتطلب منه أن يمشط لها شعرها ، فيقول : حسنا هل تريدين أن نخرج ؟ . فتفكر قليلا وتشير ويبدأ فى تمشيطها .. ثم يسألها : لوسى .. نخرج .. لا . أريد طعاما .. تفاحة . فيرد: ليس عندى طعام .. آسف !!

لكن هذه المحادثة لم تكن فى الواقع كلاما كالذى نستخدمه فيما بيننا ، بل كانت محادثة بالرمز أو الاشارة أو الايماء ، وهى شبيهة بلغة الاشارة الامريكية التى تستخدم مع الصم ، لكن لوسى لم تكن صماء ، ولا هى انسانة ، بل كانت قردا من نوع الشمبانزى !

بعد هذه المقدمة الطويلة والجذابة يريد المؤلف أن ينفذ الى موضوع اللغة عامة ، والكلام خاصة ، وهل يمكن أن تتعلم الحيوانات بعض لغاتنا ، ولماذا كان النطق لنا دون غيرنا ، وهل له مكان فى امخاخنا من خلال عمليات التطور التى استمرت ملايين السنين .. ومن هنا يبدأ المؤلف فى الاشارة الى أن تعليم اللغة للقردة العليا يرجع الى أكثر من ٥٠ عاما ، ويذكر أسماء عدد من القردة تستطيع أن تكتب وتقرأ وتكون جملا مفيدة (٥) ، وانها قد تعلمت عشرات الكلمات بما فيها من صفات وأفعال وأسماء، وهى تستطيع أن تكتب جملة ذات معنى ،

(٥) سبق أن قدمنا دراسة مستفيضة عن هذا الموضوع بعنوان « قرود تقرأ وتكتب .. ومن البشر امة جاهلة » .. مجلة الهلال القاهرية : عدد نوفمبر ١٩٧٦ .

وقد تصل كلماتها الى اربعة أو خمسة ، لكن هذه الكلمات ليست مثل كلماتنا ، بل هى اشكال معينة تشبه أشكال اللغة عند قدماء المصريين .

والعلماء فى سعيهم الغريب فى ذلك المجال يريدون أن يعرفوا ان كان الانسان هو المخلوق الوحيد على هذا الكوكب الذى جاء بلغته دون سواه ، أو أن اللغة يمكن ان يتعلمها الحيوان . صحيح أن العلماء يكشفون كل يوم عن وجود لغات محددة تستخدمها الحيوانات المختلفة ، لكن ذلك لا يعنى أن للحيوان لغة متطورة ومعقدة كالتى يستخدمها البشر .. فاللغة — على اية حال — وسيلة من وسائل التخاطب ونقل الافكار والمعلومات والتعبير .. الخ ، لكن ليس أمرا محتوما أن تكون اللغة منطوقة لكى تصبح مفهومة ، بل يمكن احيانا ان تعبر عما يجول فى خاطرك بالاشارة أو بتغيير قسمات الوجه .

ويسوق المؤلف امثلة تؤيد ذلك ، فيذكر أن الطفل المعزول عن تعلم أو سماع اية لغة لا يستطيع أن يتكلم أو يتحدث ، بل تصدر منه أصوات قريبة من أصوات الحيوان ، اي أن اللغة تلقين واستيعاب ، وانها تتطور بتطور مدارك المخ ، وقد يعترض معترض على ذلك ويقول : ان الانسان وحيد بين الكائنات لانه متفوق عليها فكريا ، لكن بعض العلماء يقولون : ان لبعض الحيوانات افكارا ، وهى أحيانا تظهر فى بعض الذكاء ، ويسوق المؤلف امثلة من التجارب التى تمت فى هذا المجال ، وكيف أن بعض القردة العليا تستطيع أن « تفكر » فى مشاكلها ، وتجد لها حلولها .. طبعا على قدر ادراكها ، وهذا يعنى أنه لا توجد حدود فاصلة ، أو هوة سحيقة بين لغة الانسان ولغة الحيوان .

ويشير المؤلف الى أن الملاحظات التى جمعها العلماء عن سلوك بعض الحيوانات قد تكون المؤشر لوجود مبادىء لغة قريبة من لغاتنا ، فقبيل خروج كلاب البرارى للصيد فى جماعات ، فانها تتبادل بأفواهها ما يشبه القبل الحارة ، وكأنما هذه الكلاب — من خلال هذا السلوك ، وكما يضعها أمامنا العالم الطبيعى ادوارد ويلسون — تقول لبعضها : اننى وهبت نفسى معك للصيد الجماعى ، وسأقتسم مع المجموعة طعامى . دعنا ننطلق .. دعنا ننطلق » . وبعدها تنطلق الكلاب فى رحلة الصيد .. ويضيف بليكمور الى ذلك رقصة النحل التى تتخذها كلغة خاصة لتوجه بها قومها نحو الطعام (٦) ، وأ تحذرها من خطر قادم .. الخ .

لكن لغة الحيوان لا يمكن أن تقارن بلغة الانسان الناطق ، ولا شك أن النطق خطوة هامة جدا فى تطور المخ ، ومن أجل هذا انطلق العلماء فى البحث فى خفايا المخ عن امكان وجود منطقة خاصة بالكلام ، ولقد تحقق ذلك — كما يقول بليكمور — فى القرن الماضى عندما قدم الجراح والعالم الشهير بيير بول بروكا فى عام ١٨٦١ حالة مريض — فى احد المؤتمرات العلمية — فقد ملكة الكلام ، ولم يستطع أن ينطق الا كلمة « تان » .. وعند وفاته ، قام بتشريح مخه ، فلاحظ ضمور منطقة محددة واضحة فى الفص الايسر من المخ ، ثم تحقق من ذلك فى ثمانى حالات متتالية وغريبة ، ثم يقدم المؤلف حالات اخرى اغرب ، وهى التى درسها العلماء حديثا .

---

(٦) الواقع ان لغات الحيوانات تتخذ صورا كثيرة جدا ،فقد تكون بالاشارة او الحركة او الصوت او الضوء او الرائحة او الجزئيات الكيميائية العطرية ... الخ ... الخ،وهى بلا شك ذات فاعلية في توجيه الانواع المختلفة الى ما هو ميسر لحياتها .

وفى نهاية هذا الفصل يناقش المؤلف تطور الحياة ، والحقبة التى ظهرت فيها قدرة الانسان على النطق او الكلام (حوالى ١٠٠ الف عام قبل الميلاد) ، ويشير الى أن لغة الاشارة قد سبقت لغة الكلام ، فالطفل يعبر عن نفسه بالاشارة قبل أن يتكلم ، ثم يبدأ فى تعلم الكلام من والديه ومرافقيه ، لكننا قد لا نتخلى احيانا ـ ونحن كبار ـ عن لغة الاشارة (وهو ما تستخدمه أيضا بعض الحيوانات للتفاهم) ، ثم يعرض علينا قصصا او أساطير شارحة لنشأة الكلام عند الانسان فيذكر أن احد ملوك الفراعنة قد سلم راعى غنم اخرس طفلين وليدين ، وكان يرضعهما لبن الماعز ، ولم يتصلا أو يسمعا انسانا يتكلم ، ولما أصبحا صبيين ، وحضرا أمام الفرعون ، لم يستطيعا ان ينطقا الا كلمة « بيكوس » ، وتعنى الخبز .. ثم يحكى لنا قصة اخرى أغرب من الامبراطور المغولى اكبر خان ، ففى عاصمته اكرا ، وفى احدى القلاع ، وضع ١٢ وليدا مع مربيات خرساوات أصمات ، وبعد اثنى عشر عاما جىء بالصبيان الى بلاطه دون أن يعرفوا كلمة ، ولا ينطقوا كلمة ، ومع ذلك ، فلقد كانوا يتخاطبون مع بعضهم بسهولة من خلال لغة الاشارة أو الايماءة ، وهى اللغة التى يحاول العلماء تعليمها أيضا للقرود ، لتكون أداة للتخاطب ، وهو ما قدمه المؤلف حقا فى اول هذا الفصل من الكتاب .

ومن قديم الزمن عرف المهتمون بالعلوم التشريحية أن المخ يتكون من نصفين متماثلين ويصل بينهما ما يشبه القنطرة أو القناة التى تمتد فيها ملايين الالياف العصبية ، ولقد تساءل العالم النفسى جوستاف تيدور فيشر منذ بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر عما يمكن أن يحدث للوعى او العقل اذا ما قطعنا قناة الاتصال بين نصفى المخ ، ليستقل كل نصف بذاته ، ودون تعريض حياة الكائن الحى للخطر .

من هذا المنطلق يبدأ بليكمور فصله السادس والاخير بعنوان « الجنون والاخلاقيات » ، ويذكر أن عملية فصل نصفى المخ قد تمت أولا فى عالم الحيوان دون ان يحدث اخلال بوظائف الاعضاء ، وهذا ما شجع بعض جراحى المخ على اجراء العملية ذاتها على مخ الانسان ، وتحت حالات خاصة تستدعى ضرورة عملها ، ففى حالات الصرع الشديد والميئوس من علاجه تم قطع القنطرة الواصلة بين نصفى المخ وفصلهما تماما فى عدة حالات ، وبعدئذ خفت حدة الصرع الى أبعد الحدود ، ولم يبد على المرضى اية أعراض ظاهرة غير عادية ، لكن الدراسات الطويلة ، والملاحظات الدقيقة اثبتت أن كل نصف يشتغل دون الاعتماد او الاحساس بما يجرى فى النصف الاخر ، مما أدى الى عدم التناسق أو التوازن الطبيعى .

ولقد اتضحت من عملية فصل نصفى المخ بعض حقائق مثيرة ، فلقد تبين ان كل نصف وحدة قائمة ومتكاملة بذاتها ووظائفها وان كل نصف يخدم جانبا معاكسا من الجسم ، فنصف المخ الايمن يخدم النصف الايسر ، والعكس أيضا صحيح ، كما اتضح ايضا ان النصف الايسر يسود على النصف الايمن ، ففى الايسر يوجد مركز الكلام او النطق ، لكن المريض الذى فصل فيه نصفا مخه لا يستطيع أن ينطق اسم شىء يراه بعينه اليسرى ، فاذا ما نظر اليه بعينه اليمنى عرفه ونطقه ، كما انه لو امسك شيئا بيده اليسرى (كمفتاح مثلا) ، فانه لا يعرف عنه شيئا ، فاذا نقله الى اليمنى ، عرفه ونطقه (لان اليد اليمنى والعين اليمنى ترسل تعليماتها الى النصف الايسر الذى فيه مركز الكلام ، فى حين أن اليد اليسرى تنقل الاحاسيس الى الجزء الايمن ، وليس فى

هذا الجزء مركز للكلام ، ومن هنا لا يستطيع ان ينطق كلمة أو اسما او صفة ... الخ) .

ثم تتضح لنا ايضا امور أغرب ، فرغم ان الجانب الايمن من المخ لا يعرف شيئا عن النطق ، الا انه يستطيع أن يقرأ ، فلو أن كلمة « مشط » قد جاءت مضيئة على يسار شاشة واسعة ، وبحيث يستقبلها النصف الايمن فقط من المخ (أى تنتقل بالعين اليسرى فقط) ، فان المريض لا يستطيع أن ينطق كلمة مشط ، لكنه يعرف معناها ، يمد يده ليلتقط المشط من بين اشياء أخرى مبعثرة بدون نظام ! .. ومن التجارب الكثيرة التى أجريت فى هذا المجال يتضح أيضا أن النصف الايمن من المخ مختص بالصفات والاسماء ، لكنه ضعيف فى استيعاب الافعال أو معرفة معناها .. ومن مجمل التجارب التى اجراها العلماء وواردها المؤلف يمكن القول باختصار ان النصف الايسر من المخ هو الذى يتحكم اكثر فى عمليات الكلام والكتابة والحساب والرياضيات والتفكير المنطقى المرتب ، فى حين أن النصف الايمن هو الذى يتعرف أكثر على أوجه الناس ويحب الموسيقى ، ويهوى الفنون الجميلة ، ويعمل بطريقة بدهية او فطرية ... الخ ، ولهذا — وكما يقول المؤلف — يذهب البعض الى القول بأن أهل الشرق يعتمدون اكثر فى فنونهم وعواطفهم وحضاراتهم على النصف الايمن ، فى حين أن الغرب الان يشتغل اكثر بنصف رأسه اليسرى (٧) .

ومن خلال هذه الكشوفات المثيرة التى حققها العلماء فى ثنايا امخاخنا — والتى لم نتعرض لها هنا تفصيلا لضيق المجال — ينتقل المؤلف ليعرض علينا محاولات العلماء فى السيطرة على هذه المراكز فى عالم الانسان والحيوان ، ومن أهم ما حققه العلماء فى هذا المجال هو زرع أقطاب كهربية جد صغيرة فى مناطق محددة بالمخ ، ولقد ظهر أن أكثر المناطق استجابة للاثارة بهذه الاقطاب منطقة صغيرة فى قاع المخ يطلق عليها اسم تحت المهاد البصرى أو تحت سرير المخ Hypothanlamus .. ففى هذه المنطقة تكمن الدوافع التى تتحكم فى الجوع والعطش والجنس ، وبجوارها أيضا يوجد الجهاز الليمباوى Limbic System والذى يعتقد أنه يتحكم فى عواطفنا مثل الهياج والخوف والفرح .. الخ ، فاذا أمكن التلاعب فى هذه المناطق الحساسة من المخ ، فان الثور الهائج مثلا قد يتحول الى حمل وديع ، او أنها قد تضحك الباكى ، أو تبكى الضاحك ... الخ ، ثم يتساءل المؤلف : لكن .. هل يمكن ان يأتى اليوم الذى نتحكم فيه فى عقول البشر ونثيرهم — غضبا أو ارضاء — بتلك الوسائل العلمية ؟

ويجيب المؤلف على ذلك بتقديم أمثلة كثيرة ، منها الاثر الذى يتركه احد القواد فى تحريك جيش بأكمله ليأتمر بامره ، أو الاقناع الذى يمليه زعيم على الجموع البشرية فيرضيها أو يثيرها ، فهذا وغيره أعظم من كل ما قد نزرعه فى أمخاخ الناس لنصل الى الهدف ذاته ، وهو يعنى بذلك سيطرة عقل على عقل ، لا سيطرة الوسيلة العلمية — قطبا كان ذلك أو دواء — على العقل .

---

(٧) الواقع اننا لا نميل الى هذا الراى ، فهو مجرد تكهنات لا يقوم عليها دليل ، كما ان الانسان ابن بيئته التى نشا فيها ، وهو عادة ما يتاثر بها ، ويؤثر فيها .

وفى النهاية يناقش المؤلف ظاهرة الخلل التى تصيب بعض العقول بالجنون أو بعض الامراض النفسية ، ويذكر أن الذين يزورون مصحات الاطباء النفسانيين فى بريطانيا وحدها يصل الى أكثر من ٦٠٠ الف فرد سنويا ، ويشير الى عبارة وردت على لسان ر. د. لاينج « ان مرض العقل ليس الا نتيجة حتمية لاخطاء المجتمع (٨) .. ثم يذهب المؤلف الى القول بأن بعض الامراض النفسية فى المجتمعات البدائية والمتخلفة لا تعتبر امراضا ، بل هى نتيجة لقوى غيبية ، فتمتهن تلك الحالات أو تقدس ، وهذا يتوقف على مصدر هذه القوة التى حلت بالنفس البشرية وغيرتها ــ على حد اعتقاد الناس .

واخيرا يناقش دور الطب والدواء والعلاج الحديث فى السيطرة على أمراض العقل أو المخ ، وهو دور ليس فعالا حتى الان ، ولا بد من بحوث أعمق فى ثنايا أمخاخنا « فالمخ الذى يكافح لفهم المخ انما هو مجتمع يريد أن يفهم ذاته » ــ على حد تعبير بليكمور .

★ ★ ★

(٧) لكن ذلك ليس حتما ، فهناك عوامل كثيرة بيئيةوطبيعية وبيولوجية وسلوكية تتداخل فرادى او مجتمعة لتسبب الاجهاد والتوتر والانقباض وغير ذلك من امور تؤثرعلى العقل ــ وتصيبه باعراض شتى .

انشتين *

عرض وتحليل: د. محمود احمد الشربيني

مائة عام مضت على يوم أن ولد « **البرت اينشتين** » الذى قال عنه « برتراند رسل » انه لم يكن عالما عظيما فحسب ، بل كان قويا مع السلام فى دنيا على شفا حرب ، وصامدا مع العقل فى دنيا على حافة الجنون ، وداعيا الى التسامح فى دنيا تنادى بالتعصب .

وهكذا لم يكن غريبا على لجنة دولية لتدريس الفيزيقا وكنت أحد أعضائها لفترتين متتاليتين فور انشائها عام ١٩٦٠ لم يكن غريبا أن تجتمع هذه اللجنة عام ١٩٧٦ وتقرر الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد « البرت اينشتين » رجل الفيزيقا الذى يرى أن علم الفيزيقا جزء ضرورى فى حياة الانسان اليومية وحيوى للثقافة العامة .

أعود وأقول لقد قررت اللجنة احياء ذكراه باصدار كتاب عنوانه « **اينشتين ، مجلد الذكرى المئوية** » وكان طبيعيا ان يصبح الاستاذ « فرنش » رئيس اللجنة الحالي المحرر المسئول عن اخراج هذا الكتاب . وجاء الكتاب مجموعة من مختارات مأخوذة من كتب سبق نشرها أو مقالات ظهرت في مجلات ، وبذلك ساهم خمسة وعشرون كاتبا ، بين عالم وفيلسوف ومؤرخ ومصور ، فى اخراجه .

قرأت الكتاب بامعان ، فقد سبق أن قرأت كتبا كثيرة فى موضوعه ولكنى لمست فيه جديدا مع حسن اختيار . وهو يقع فى ٣٣٢ صحيفة ، وبه أربعة أبواب وثمانية وثلاثون شكلا بين رسم وصورة . واختص **الباب الوارد بالذكريات ، والباب الثانى بالسيرة والاعمال ، والباب الرابع بالمؤلفات** . وتتشابك الابواب فى انسيابية لاتشعرك ابدا بملل رغم عمق ودقة ما عمله « اينشتين » من تغيير فى التفكير العلمي تعداه الى الفلسفة والاجتماع والاقتصاد .

* A. P. French : Einste n, A Century Volume, Heinemann, 1976.

تمهيد

دفعتني أحاسيس مختلفة ، وقد استعرضت هذا الكتاب ، ان أمهد له فقد رأيت « اينشتين » في « لندن » عام ١٩٣٣ ، رأيته رؤية العين، وتنبىء النظرة العابرة اليه بأنه رجل ثائر . فشعره على رأسه ، وملابسه ثائرة على جسمه ، والكلمات الانجليزية تخرج من فمه كلمة اثر كلمة في صعوبة ، وكأن لسانه يبذل مجهودا فوق الطاقة يقذف الكلمة قوية متكسرة بين الحين والحين ، وتشعر انه لن يستطيع ان يتم محاضرته واذا به يقولها بتمامها دون أن ينقص منها شيئا .

ولم أعد أذكر من محاضرته غير نصيحة واحدة بوجوب العكوف على البحث العلمي والاخلاص له ، مع اختيار أحسن الوظائف ملاءمة كمرتزق للعالم واقتراح وظيفة حارس لفنار في وسط البحر وكان غريبا ان اسمع هذا من صاحب « النظرية النسبية الخاصة » وصاحب « النظرة النسبية العامة » وصاحب البحوث العدة في « الحركة البرونية » و « الديناميكيا الاحصائية » و « الميكانيكا الموجية » و « الكهرباء الضوئية » و « الحرارة النوعية » .

انى اعلم أنه لم يكن حارس فنار ، بل ان الحياة كانت قاسية عليه ، ومن يدرى لعله وهو قريب من الحياة بعيد عنها . ولعله يعاني من الوحدة النفسية ما يعاني ، لكن غاظني انى دفعت مالا لحضور هذه المحاضرة ، واشتد غيظى من رصد هذا المال لغير العلم ، وما كنت اظن أن عالما ينادى بالنسك العلمى بجمع المال لغير العلم وكان ان أردت أن أرجع الامور الى أصولها فاستقصيت تاريخ حياته .

فاذا به قد ولد في ١٤ مارس من عام ١٨٧٩ في مدينة « أولم » من جنوب المانيا من اسرة يهودية غير مستقرة انتقلت بعد عام من ميلاد الطفل الى ضاحية من ضواحي « ميونخ » وكان أبوه يملك مصنعا كيميائيا كهربيا صغيرا، وساعد الاب في ادارة المصنع أخ له مهندس وهو عم الطفل ، وكانت هواية أم الطفل الموسيقى ولا سيما موسيقى « بيتهوفن » . فكان من الطبيعي أن تجبره أمه على تلقى دروس على الكمان وهو في السادسة من عمرة وكان أن أقبل على هذه الدروس كارها ثم روض نفسه على ما يكره حتى انقلبت الكراهية حبا ، فأصبح يحب الموسيقى ، بل كان يفزع اليها طوال أيام حياته لتهدىء من نفسه وتسبغ عليه نعمة الرضا والطمأنينة وراحة البال بعد عناء العمل ، وكان الاثير عنده من الفنانين « موزارت » .

وكأن الله قد أراد له أن يتأمل قبل أن ينطق، وان يختزن في الوعى قبل أن يفيض في الحديث، فعجز عن أن يفصح عما في نفسه حتى موعد متأخر عن أترابه من الاطفال فتأخر في النطق حتى ظن به الشذوذ وخشى عليه من البله ، وقد أنف أن يشارك زملاءه العابهم وانطوى على نفسه ينعم بأحلام اليقظة وينأى عن اى مجهود عضلى ولو كان لعبا للتسلية ، وبان امتعاضه وعدم استساغته لما يتذوق الطفل العادى من مناظر مثيرة ، فقد كان يتألم عندما يرى التدريبات والاستعراضات العسكرية وما أكثرها وقتذاك في شوارع « ميونخ » وما كان يحتمل أن يرى الانسان يتصرف ولو في مشيته تصرفا آليا كالالة الميكانيكية الصماء .

ثم دخل « اينشتين » الطفل المدرسة وكانت مدرسة أولية كاثوليكية فقد كانت المدارس في « ميونخ » تحت اشراف هيئات دينية ولم تهتم اسرة « اينشتين » كثيرا بالدين فلم تجد

الاسرة غرابة وهي اليهودية دينا أن يكون ابنها كاثوليكيا تعليما .

وانتهى « اينشتين » من دراسته الاوليـة والتحق بمدرسة ثانوية وهو فى العاشرة مـن عمره ودرس في هذه المدرسة تعاليم الديانة اليهودية ، وتفاعلت تعاليم اليهود مع تعاليم الكاثوليك التي سبق أن تعلمها فى المدرســة الاولية ، وخرجت منه شابا ملحدا لايديـن بدين ، ويشعر بأن الاديـان معوقات تعـوق التفكير الحر الطليق ، وكفر بالقيم الروحية التي جاءت بها الاديان ، والانسان لا يفيق الى دينه حتى تأتيه القارعة ، والا استبـق الحوادث واقول قد جاءته القارعة على يد « هتلر » عام ١٩٣٣ فاذا بـ « اينشتين » العالم يعود يهوديا متعصبا لليهود ولكنى أفضل أن اساير الحـوادث خطـوة خطوة وأعود الـى المدارس الثانوية وأرى الطالب « اينشـتين » يخطو خطوات بطيئة فى دراسته ، فقد كـان يكره استذكار الدروس عن ظهر قلب دون فهم أو تفهم .

ويجمل ان اذكر الاثر الذى تركه عمــه فى نفسه وفى مستقبل حياته فقد حبب اليـه دراسة الرياضيات وكانت لعمه طريقة طريفة فى تقريب العلم الى ابن أخيه فكان يتحدث عن الجبر ، انه العلم الذى يقلل كمية العمل المطلوب لحل مسألة من المسائل ولقد فر حابن الاخ بهذا العلم واعتبره علما للتسلية ، كأن تخرج لصيد حيوان مجهول « س » حتى اذا وقع فى الفخ عرفت ما هو « س » ثم ملك عليه تفكيره علم الهندسة وشعر بأنه العلم الذى يرغبه ويريده فأخذ بلبه التسلسل فى المنطق والدقة في العبير ، والوصول بمعطيات معلومة الى الهدف المجهول ، وهو البرهان المطلوب .

وكثـيرا مـا كان يذكـر بـدء دراسته لهندســة (اقليدس) كأهـم اثـر مـر عليـه فـى شبابه ، وفـى عـامه الثـانى عشر وعلى وجه التحديد ، بل ذهب الى أبعد من ذلك بأن تنبأ بفشل الباحث النظرى الذى لم يشعر فى شبابه بأهمية هندسة «اقليدس» ويقدر ما كان «اينشتين» مميزا فى الرياضيات فقد كان متأخرا فى العلوم التي تعتمد فـي دراستها على الاستذكار . ثم زاد الطين بلة أن شعر أساتذته فى المدرسة الثانوية بعدم توقيره اياهم وخضوعه لهم خضوعا تاما مما ادى الى فصله من المدرسة . فصل وذهب ليلحق بأبيه في « ايطاليا » فقد اضطر أبـوه قبل فصلـه بعام الى أن يصفى أعمالـه فى « ميونخ » ويرحل الى «ميلانو» ليبدأ عمـلا جديدا تاركا ابنه وهو فى الخامسة عشرة من عمره فى « ميونخ » ليتم دراسته الثانوية وكان أن فصل وذهب الى « ميلانو » .

ثم أخذ يفكر فى مستقبل حياته وهو يرى اسرته وما وصلت اليه واستقر رايه على أن يتخذ من التدريس مهنة له قرر أن يؤهل نفسه ليكون مدرسا فى الفيزيقا النظرية ، واعتزم ان يلتحـق بمدرسة « البولتكنيـك الفيدرالية » السويسرية الشهيرة بـ «زيورخ» وتقدم الى الامتحان وخانه الحظ .

وقد استرعت اوراق اجابته اهتمام مدبر « البولتكنيك » اذ بانت له القدرة الفائقة فى الرياضيات والضعف الواضح في اللغات وعلوم الحياة .

فتطوع ليساعده وادخله مدرسة توطئـة فى «البولتكنيك » وكانت المدرسة على غـبر غرار مدرسة « ميونخ » فقد تركت الحـرية للطلاب فى أن يفكروا بأنفسهم ولا يعتمدوا على الاستذكار . وكان ايضا على اتصال مباشر بالمدرسين يناقشونه ويمحضونه النصـح ، وهناك شعر « اينشتين » بحياة أفضل تتفق وميوله وكـان ان نجح والتحق بمدرسـة (البولتكنيك الفيدراليـة) بـ « زيـورخ » والدراسة تحتاج الى مال وقد عجز أبوه عن القيام بأى مساعدة مالية ، ولكنه حصل على المال من قريب له ، وأخذ يؤهل نفسه لمهنة

التدريس فاكتسب الجنسية السويسرية ، واصبح مواطنا سويسريا ، حتى لا تمتنع عليه الوظيفة المرجوة وهو الرجل الممتاز والحاصل على خطابات توصية من أساتذة تشهد بأنه شخص من الطراز الاول .

ورغم كل هذا عزت عليه الوظيفة وقبل وظيفة فاحص في مكتب للتسجيل السويسرى فى « برن » وكان ذلك عام ١٩٠٢ ولم تمنعه مهام الوظيفة من أن ينظر فى العلم ويبحث عن المجهول فنال شهادة الدكتوراه عام ١٩٠٥ ، وقد كانت هذه السنة خصبة اذ انتج فيها «النظرية النسبية الخاصة» وابحاثا اخرى فى « الحركة البرونية » و «الديناميكاالاحصائية» و « الكهرباء الضوئية » . وبدأ يحتل مكانا مكينا بين العلماء ، وتهافتت عليه الجامعات تطلبه استاذا فكان استاذا فوق العادة فى جامعة « يورخ » عام ١٩٠٩ ثم استاذا ذا كرسي فى جامعة «براج» عام ١٩١١ واستعادته جامعة « زيورخ » عام ١٩٠٩ ثم استاذا ذا الاستاذية فى « البولتكنيك » حيث كان طالبا وذلك عام ١٩١٢ ، وحظيت به من بعد ذلك « برلين » استاذا متفرغا للابحاث عام ١٩١٤ فاصبح استاذا فى معهد القيصر « ولهلم » وعضوا فى الاكاديمية الملكية البروسية ، ولم يمض على تعيينه عام واحد حتى اذهل العالم بـ « النظرية النسبية العامة » عام ١٩١٥ .

وكان للعالم عليه حق فقام بجولة علمية لالقاء محاضرات فى « انجلترا » و « الولايات المتحدة الأمريكية » ثم جرى عليه ما جرى على يهود المانيا عام ١٩٣٣ فتحركت فيه النوازع الدينية الكامنة فاصبح عضوا للحركة اليهودية ، وان نادى بوجوب قيام حكومة عالمية واعتذر عن أن يكون رئيسا لـ « دولة اسرائيل » معلنا عجزه عن معالجة الطبائع البشرية وان نجح فى معالجةالمسائل الفيزيقية.

وقد احتضنته «الولايات المتحدةالامريكية» وعينته مديرا لمدرسة الرياضيات فى معهد الدراسات العليا فى « برنستين نيوجرسي » حيث أرسل خطابا الى الرئيس « فرانكلين روزفلت » فى خريف عام ١٩٣٩ ينبئه بامكانية عمل قنبلة يدخل فى تكوينها « اليورانيوم » ولها فاعلية قوية في الهدم والتدمير ... ثم ندم على ما فعل وذلك بعد أن القيت القنبلة الذرية على « هيروشيما » فى ٦ اغسطس عام ١٩٤٥ .

وقد قدره العلم والعلماء اذ منح عام١٩٢١ جائزة نوبل لاعماله فى «الفوتونات» و «النظرية الكمية » .

وقد حاول أن يذيب القوانين فى قانون واحد بأن نشر عام ١٩٥٠ محاولة لذلك سماها « نظرية المجال الموحد » ومات فى ١٨ ابريل عام ١٩٥٥ .

الباب الاول : ذكريات

أعود الان الى الكتاب الذى نحن بصدد عرضه لنرى تفاصيل ما اجملت ، والخطوات التي اتخذت ، والصعوبات التي أزيلت والجهد الذى بذل .. ونبدأ كما بدأ الكتاب بالذكريات : ذكريات ثمانية عشر عالما ومؤرخا وقدترددت كثيرا فى أن ابدأ كما بدأ الكتاب ، اذ أن بعض الذكريات تمس نظريات اينشتين وهي تحتاج الى شرح وتمهيد ، ولكنني استخرت الله أن اخطو خطوة خطوة وابدأ بذكريات المستشار العلمى للحكومة الانكليزية ((سنو)) وقد نشرها فى كتاب عنوانه « منوعات من الرجال » حيث استعرض تاريخ حياة « اينشتين » ونوه عن رباطة جاشه فقد كان معنيا بالابحاث العلمية والحرب العالمية على قدم وساق ، اذ ارسل عام ١٩١٥ خطابا الى العالم الفيزيقي ((ارنولد سومرفيلد)) يخبره عن توصله الى « نظرية التثاقل » وكيف أن أول تقريب لها يعطينا « نظرية نيوتن » للجاذبية الارضية ، وكيف انها نجحت في التنبؤ بخط سير الكوكب عطارد ثم انها بينت علة انحراف الاشعة الضوئية

الصادرة عن النجوم عند مرورها بجوار الكتلة الشمسية ، وأخذ « سنو » يقارن بين «نيوتن» و « اينشتين » ويعيب على « نيوتن » قبوله رئاسة دار لصك العملة النقدية وتفرغه للنظر فى الكتاب المقدس ، وعزوفه عن البحث العلمي الفيزيقى اراحة لنفسه فى أواخر ايام حياته وفى الوقت نفسه مدح « سنو » « اينشتين » لانه بقى مخلصا لعلم الفيزيقا حتى اخر نفس تردد فى صدره وكثيرا مـا ردد « اينشتين » قوله أن الشخص الذى يتاح له كشف الغطاء عن سر من أسرار الطبيعة فقد اوتي علماواعطى فضلا كبيرا ، وكثيرا ما ردد ايضا قوله ان الله ما خلق القوانين ليلهو ويجعل للمصادفة مجالا فى قدره .. ردد هذا القول وهو يجادل العلماء المتمسكين والمنادين بسيطرة الاحتمالات والاحصاء على القوانين وبقى طيلة حياته يحاول الوصول الى « نظرية المجال الموحد » حيث تبرز من صلبها القوانين الاساسية فى حتمية وصيرورة محددة .

والان يحسن بنا أن نسرع بالقاء نظرة على « مقتطفات من سيرة » للصديق « موريس سوليفين » وقد بدات معرفته بـ « انشتين » عام ١٩٠٢ وتوطدت الصداقة وتبودلت الرسائل بينهما بعد ان افترقا وكانت الرسائل موضوع كتاب عنوانه « خطابات الى موريس سوليفين »

والمقتطفات جزء من الكتاب اذ جاء فيه انه قرأ اعلانا في الصحف فى عام ١٩٠٢ يعلن ان « البرت اينشتين » طالب سابق فى البولتكنيك بـ « زيورخ » يعطى دروسا فى الفيزيقا ويتقاضى اجرا فى الساعة مقداره ثلاثة فرنكات .

وكان ان يمم شطر العنوان المذكور فى الاعلان وقابل « اينشتين » واخبره انه جاء الى « برن » لدراسة الفلسفة ويرغب فى أن يوصل معلوماته فى علم الفيزيقا حتى يعمق ويصل الى معرفة سليمة في هذا العلم ثم تجاذبا أطراف الحديث وظهر له أن رغبة اينشتين الاولى كانت دراسة الفلسفة ولكنه عف عنها لغموض رآه فيها ، ومعطيات تحكمية تسيطر عليها .

وما هي الا أسابيع حتى انضم اليهما ثالث هو « كونراد هابشت » جاء بدوره الى برن ليهيىء نفسه ليصبح مدرسا فى الرياضيات .

وكثيرا ما كان يقول « اينشتين » لهما ان أسهل سبيل لكسب لقمة العيش هو ارتياد الاماكن العامة عازفا على الكمان ، ولكن عندما يفغر عن مطالب الحياة يكثر الحديث عن أبحاثه المنشورة ، فقد نشر عام ١٩٠٣ بحثا عن « نظرية فى أسس الديناميكا الحرارية » ونشر عام ١٩٠٤ بحثا عن « النظرية الجزيئية العامة للحرارة » ونشر عام ١٩٠٥ بحثا عن « الديناميكا الكهربائية للاجسام المتحركة » ضمنها «نظريته الخاصة » وكان يفخر دائما أن الوحيد بين العلماء الذى استشعر أهمية « نظرية النسبية الخاصة » هو « ماكس بلانك » أول من نادى بأن الاشعاع يتصرف أحيانا كأنه حبيبات او كمات ، وبذلك حكم بالتقطع على الاشعاعات واصبح الضوء مصابا بازدواج الشخصية نصفه بالاستمرار احيانا ، لاننا نراه كذلك ، ونصفه بالتقطع أحيانا أخرى ، لانه يتصرف كذلك ، فهو موج أحيانا وحبيبات او كمات احيانا أخرى ، وعندما يظهر فى صورة تختفى الصورة الاخرى ، وهذا عرض أساسي من اعراض ازدواج الشخصية .

ويجمل ان اذكر « **ميشيل بسو** » زميل اينشتين اذ عمل معه فى مكتب تسجيل براءات الاختراعات الذى عين فيه اول ما عين ، اذكره لان الخطابات المتبادلة بينهما ظهرت فى كتاب عنوانه « مراسلات أينشتين ــ بسو ١٩٠٣ ــ ١٩٥٥ » ولعل القارىء يجد فيها متعة وتسلية ولكني أسرع لاسجل بعضا مما كتبه « لويس دى بروجلى » الذى كشف عن اصابة المادة بمرض ازدواج الشخصية كما أصيب الضوء من قبل ، فهي ذرات أحيانا وهي أمواج احيانا أخرى . وجاء عام ١٩٢٣ وحاز على درجة الدكتوراه نتيجة لهذا الكشف الذى فتح افاقا فى العلم جعلته جديرا بجائزة نوبل فيما بعد .

وكان طبيعيا وقد استخدم « دى بروجلى » النظرية النسبية الخاصة » في استنتاج علاقة بين طول موجة الالكترون ، باعتباره موجا ، وسرعتـه وكتلته باعتباره جسيما ، وهـذه العلاقة هي صلب رسالته للدكتـوراه مـن جامعة السربون . كان طبيعياان يرسل الرسالة الى « اينشتين » الذى نفذ بفكره الثاقب الى لباب الموضوع واعلن أهمية هذه الرسالـة . وقد ساهم **« دافسن » و « جيرمر »** وكذلـك **« طومسن »** عمليا فى أثبات صحة هذه العلاقة وبجانب كل ذلـك حرضـت « شرودنجـر » لاستنباط معادلة حركـة اصبحـت أساسـا للميكانيكا الموجبة » .

انتهز « دى بروجلى » الفرصة وقد دعا ، دعاة » لورنتز « لحضور مؤتمر «سولوفاى» عام ١٩٢٧ ليقابل « اينشتين » شخصيا وقد سبق ان استمع له محاضرا فى جامعة السربون حيث استقبل «اينشتين»«دى بروجلى»الذى غمره الاحساس بالبساطة والشعـور بعمـق النظرة والاخلاص بدفء الصداقة ، وقد رآه من الافذاذ القدامى الذين يتمسكون بآرائهـم لايحيدون عنها فما عجب ان وجده ينأى عـن تفسيرات تزعزع اليقين العلمى وتجرى وراء المصادفة والاحتمالات .

اخشى أن اتهم انى اهملت ذكريات « روبرت اوبنهيمر » مدير معهد الدراسات العليـا فى « برنستون » وعذرى ان ذكرياته تدخـل فى صميم أعمـال « اينشتين » وبالتالـي مـن اختصاص الباب الثانى من الكتاب ، وعلى كل فاننا نجدهاونجد غيرها فىمجموعة «اليونسكو» التي عنوانها « العلم والتركيب » وقد القيت عام ١٩٦٥ فى حفل بمناسبة الذكرى العاشرة لوفاة « اينشتين » .

الباب الثاني : « اينشتين واعماله »

جاء الفصل الاول من هذا الباب ليتحدث عن حياة « اينشتين » ، ثم جاء الفصل الثانـي ليتحدث عن « النظريةالنسبية الخاصة » ، والثالث والرابع عن « النظرية النسبيةالعامة» والخامس عن « اينشتين وتطور فيزيقا الكم » ويعـرض في بقية الفصـول آراءه فى الثقافـة والفلسفة والتدريس وغيرها .

التمهيد الثاني

أجد لزاما علي أن أمهد « للنظرية النسبية الخاصة » و « للنظرية النسبية العامة »وأقول انكرت النظرية النسبية مالا تحسه ، فهـي تتمسك بالواقعية ، تقبل الظواهر الطبيعية عـلى علاتهـا وان جـاءت عـلى خـلاف العـادة المتبعـة ، فالنـور يمر فى الفراغ الخلو من المادة بسرعة ثابتـة جامدة مطلقة لاتحتاج الى اسناد ، ولايختلف اثنان فى نتيجة قياس قيمتها مهما كان اختلاف ظروفهما أو ظروف تجربتهمـا ، والتسليـم بنتيجة هذهالتجربة هو تسليم بالواقعالتجريبى

ولحكمة واضحة ضاقت النظرية النسبية بالوجود وفضلت عليه العدم وذلك اذا تساوى الوجود وعدم الوجود، ولاعجباذناذا ضاقت النسبية بالاثير وسطا يحمل النور الينا وفـي امكان النور أن يصل فى غير وسط . ثم جعلت النسبية للنور مركز الامتياز فكانت سرعتـه فى الفراغ مطلقة ثابتة دائما حتى ولـو كـان للراصد سرعة تقارب سرعة النور ، وكذلـك أنكرت النسبية المركزية فى العالم وجعلت كل منطقة كفيلة بقوانينها وان تشابهت القوانـين فقد قدست شكل القوانين ، وحفظت للشكل هيكليته مهما كانت الاحوال . .

وبينت النظرية النسبية انه لا يصح ناستنتج سلوك الاجسام المتحركة بسرعات كبيرة مـن سلوكها عندما تتحرك بسرعة بطيئة ، ولكنهـا سلمت بالعكس ، فالعكس صحيح ، بمعنى ان الحركة البطيئة هى حالة خاصة من الحركة السريعة ... والزمن عندما يبطىء ويسـرع حسب الحركة ، والمكان ينكمش ويستطيـل

حسب الحركة والكتلة أيضا فقدت معناها اذ تزداد بازدياد السرعة .

ويحسن أن أقرر أن هذه الظواهر اتفقت والتجربة . واضيف ان **النسبية أنكرت وجود زمان بمفرده ووجود مكان مستقل بمفرده وبينت ان بساطة العلم فى تفسير الظواهر الطبيعيـة تحتم اندماج الزمان والمكان حيث لايمكن تمييز شقيه ....** وهناك اتحاد لايقل أهمية عـن الاندماج فاصبحنا نعجز عن التمييز بين الكتلة والطاقة ، حتى اننا وجدنا طاقة الجسم الساكن هو كتلته الساكنة لو اتخذنا سرعة الضـوء وحدة للسرعات وبذلك وضعت الكتلـة تحت وصاية الطاقة ... بل هناك اذابة لاتقل عـن الاندمـاج والاتحـاد وهى اذابـة الطبيعـة فى الشـكل الهنـدسـى فـأصـبح مجـال التجـاذب الطبيعـى أو مـا يسـمى بالتثاقل ليس مجال قوة فيزيقية بل هومجال هندسي غير منبسط وغير متزود بقوة ما .. والحيز الخلو من المادة والكهرباء والاشعاعات حيز منبسط لو اردت وصفه وتحديد مواقعه لاستعنت بهندسة « اقيليدس » ، ولكـن اذا ادخلت على الحيز اجساما مادية او كهرباء او اشعاعات التوى الحيز وأصبح جزء منه ملتويا لو اردت وصفه وتحديد مواقعه ما اسعفتـك هندسة « اقيليدس » ولكن تلجأ الى هندسة اخرى لاتعترف باستقامة أقصر خط يصل بين نقطتين ، وكما لاينبغي للمرء ان يجرى قياسات بالمسطرة على سطح غير منبسط كالكرة كذلك لاينبغي ان نستخدم هندسة « اقيليدس » فى حيز غير منبسط، ومن خصائص التواء الحيز ان المادة **تنحدر الى اسفل** ، ولا أقول تنجذب وعليه يصبح المجال هندسيا محضا لا علاقة له بقوى الطبيعة التثاقلية .. وبذلك أصبح لا معنى لقانون التربيع العكسي ، فكان فرضـا خداعا ناتجا عن انفصام الزمان عن المكـان ، اعنى كان حتما اختفاؤه ، وقد أصبح هنـاك اندماج بين الزمان والمكان ، فأصبح هناك زمكان .... ان جميع ماقيل ثبت بالتجربة تحقيقا .

الفصل الاول

أعود الى الكتاب الذى نحن بصدده واقول جمعت بعض كتابات اثنى عشر عالما ومؤرخا فى ثلاثة عشر فصلا فى الباب الثاني وكان الفصل الاول الذى كتبه « فرنش » محرر الكتاب عن سيرة حياة « اينشتين » وقد أعجبتني تعليقات مستخرجة من بعض المؤلفات امثـال كتـاب « اينشتـين الرجـل واعمالـه » تأليـف « هويتـرو » وكتـاب « اينشتين » تأليـف « برنشتين » وضعت على هوامش الصفحات كاستفادته من وظيفته فى مكتب التسجيل ، اذ كان من واجباته أن يضع الطلبات المقدمة فى صورة واضحة مستلخصا الافكار الاساسية من جمل غامضة كتبها المخترعون وبذلـك أصبح من طبيعته أن يضع اصبعه على لب الموضوع وسرعان ما يتنبأ بالنتائج .. وذكر « فرنش » ما حققه علماء مرصد « مونت ولسـن » بامـريكا بارصـادهم التى كشفت استطالة طول موجة الاشعاع الصادر من ذات لمروره فى مجال جاذبية قوية اقوى من جاذبية الارض عن طول موجة الاشعاع نفسه الصادر من ذرات على سطح الارض وهو ما تسميه «النظرية النسبية » بالزخرفة الحمراء .

كما انه ذكر ان منح » اينشتين « جائـزة نوبل عام ١٩٢١ لغير ابحاثه فى النسبية بـل لمعادلة له فسرت ظاهرة توليد الكهرباء بالضوء باعتباره جسيمات ضوئية « فوتونات » اعنى باستخدام فكرة ماكس بلانك ان الطاقة مؤلفة من جسيمات يقال لها الكم أو الكوانتم .

الفصل الثانى

ويأتى الفصل الثانى بحديث عن «اينشتين» ونشأة « النظرية النسبية الخاصة » كتبـه « سيلفيو برجيا » .. وقد سميت خاصة لانها تبحث القوانين الطبيعية المطبقة فى مناطق تتحرك بحركات منتظمة ، فخصصت الحركات بالانتظام او قيدت بالانتظام ، لذا فهى تسمى احيانا بـ « النظرية النسبية المقيدة » .

وحرصا من « سيلفيو برجيا » على ان يظهر الفضل الحقيقى لاينشتين فى اعلان « النظرية النسبية الخاصة » تحدث عن نشأة النظرية بل عما قيل قبل ظهورها.. ونوه بالعالم «جاليليو» الذى ذكر مبدأ النسبية ليثبت خطأ من يقول بعدم دوران الارض ، ونوه ايضا بـ العالمين « ديكارت » و « باخ » واحاديثهما عن النسبية.

اما « نيوتن » الذى ولد يوم وفاة « جاليليو » فقد كانت له نسبية اعلنها عام ١٦٨٧ وهى الا تغير فى حركة الاجسام بالنسبة لبعضها مع بعض فى مجال ما اذا تحرك المجال الذى يحوى الاجسام حركة منتظمة مستقيمة بعد ان كان ساكنا . ومعنى ذلك ان لا تتشكل القوانين التى تفسر الظواهر الميكانيكية تبعا لتغير منتظم للمكان . فما يطبق على مكان من قوانين ميكانيكية يطبق ايضا بنفس شكله على مكان اخر يتحرك حركة منتظمة بالنسبة للمكان الاول . ويجمل هنا ان اذكر الفرق بين نسبية « نيوتن » ونسبية « اينشتين » فقد ذهب « نيوتن » الى عدم تشكل القوانين الميكانيكية وقصر « اينشتين » عدم تشكل القوانين الفيزيقية اطلاقا ميكانيكيةاو ضوئيةاو كهربائية او مغنطيسية .

ويحوى هذا الفصل تفاصيل كثيرة جعلت العلماء يظنون ان الله خلق الخليقة وجعلها تسبح فى بحر ساكن لا يتحرك ، وسمى العلماء هذا البحر الاثير فهناك سكون مطلق هو سكون هذا البحر ، وهناك حركة مطلقة هى الحركة بالنسبة لهذا البحر .

هذا الاثير من تخيلات العلماء يتخلل جميع الاجسام ويملأ الفضاء ولا يمنع متحركا ولا يقف فى طريقه وكأن للاثير وظيفتين :

الوظيفة الاولى انه وسط يحمل الضوء من الشمس الينا . اما الوظيفة الثانية فيحكم سكونه وعدم تحركه أصبحت الحركة بالنسبة اليه مطلقة ، فهو المربط الذى يقاس منه الابعاد .. والارض التى تستقبل الضوء وتدور حول الشمس تخوض فى الاثير ، فطورا تقبل على الضوء وطورا تبتعد عنه ، فهل تختلف سرعة الضوء باختلاف اوضاع الارض من الاثير .
أجريت التجارب واهمها تجربة « ميكلسن » و « مودلى » وفى هذا الفصل وصف مستفيض لهذه التجارب التى لم تكشف عن اى اختلاف فى سرعة الضوء نتيجة لاختلاف سرعة الارض فى الاثير .. اذن فالقول باننا نتحرك فى اثير ساكن قول كانت تعوزه التجربة ، ومعنى هذا ان هناك شكا فى وجود مربط تبدأ منه القياسات فالقياس المطلق مشكوك فى وجوده .. ثم كان من فزع من هذه النتيجة فنادى العالم الايرلندى « فيتزجرالد » عام ١٨٩٢ انقاذا للموقف بانكماش الاطوال فى اتجاه حركة الجسم وبقائها كما هى فى اتجاه متعامد على الحركة ، وبذلك رأى أن عجز التجارب هو فى الواقع اثبات لاختلاف السرعة ، سرعة الضوء ، والمسئول عن عدم ظهورها هو الانكماش المفروض . ويسمى الانكماش انكماش «لورنتز ـ فيتزجرالد» وذلك لان «لورنتز» وهو على غير علم بما عمله زميله توصل الى الانكماش بمنطق اخر غير منطق زميله .

شعر العلماء باحتياج الى مزيد من البحث فى هذا الموضوع ونادى « بوانكريه » عام ١٩٠٤ بوجوب اعادة النظر فى القوانين .. وهنا استجاب « اينشتين » وكان ما كان كما قلنا فى التمهيد لهذا الفصل ، وتجد فى هذا الفصل استطرادا فى هذا الموضوع انصح بقراءته لمن يريد التعمق ويحلو له تتبع منطق العلم والعلماء .

الفصل الثالث

قصة « النظرية النسبية العامة »

كتب هذه القصة الاستاذ « فرنش » محرر هذا الكتاب وقد مهدنا لها مع «النظرية الخاصة» فى الفصل السابق فقد رأى « اينشتين » ان يحرر المناطق من قيد الانتظام فى الحركة ، ومعنى الانتظام فى الحركة ان المناطق لا تعمل

فيها قوى اذ لو عملت قوة ما فى منطقة لتسارعت هذه المنطقة وفقدت الانتظام فى الحركة .

وبهذا التحرر جاءت « النظرية النسبية العامة » عام ١٩١٥ بعد عشر سنوات من اعلان « النظرية النسبية الخاصة » وامكن بالنظرية العامة صياغة القوانين لتطبيقها على حد سواء فى أي من المناطق دون اعتبار لحركتها، وبذلك تحرر « اينشتين » من « نيوتن » اطلاقا فقد رأى « نيوتن » ان القوة التى تعمل فى جسم لتغير تحركه تساوى التغير فى كمية التحرك ، وهذا هو احد قوانين « نيوتن » للحركة ، وله قانون اخر يسمى بقانون التربيع العكسى للجاذبية التثاقلية ، اذ تتناسب قوة التجاذب عكسيا مع مربع المسافة بين مركزى ثقل الجسمين وتتناسب طرديا مع حاصل ضرب كتلتيهما .

قانونان مختلفان جد الاختلاف مع «نيوتن» جمعهما « اينشتين » فى نظرية واحدة هى النظرية العامة ، فسر بها ظاهرة الجاذبية الارضية ، وبين ان القانونين متكافئان .. وقد اهدى له فى عيد ميلاده جهاز طريف لاثبات هذا التكافؤ .. وفى هذا الفصل ايضا شرح لاثر التثاقل على انتشار الضوء ، وانصح من على معرفة بالرياضيات العالية بقراءة هذا الموضوع فى هذا الفصل اذ أراد أن يعرف كيف توصل الى النتيجة النهائية الموافقة للتجربة باستخدام اساليب « المرصوصات » .. ثم ذكرت التجارب الثلاث التى حققت النظرية العامة وهى حركة عطارد الزاحفة ، والزخرفة الحمراء واخيرا انحراف الاشعة عند مرورها بجوار الشمس ، وقد شرحت هذه التجارب باسهاب ، واستخدمت بعض الاساليب الرياضية، وحول الفصل حديثا عن الامواج التثاقلية والثقوب السوداء .

الفصل الرابع ـ النظرية النسبية والتثاقل

كتب هذا الفصل العالم « هرمان بوندى » وهو فصل ممتع حقا لمن يتقن الرياضيات العالية ولا يخل بالكتاب لو تغاضى عنه من لا يحسن الرياضيات ، وملحق بهذا الفصل وصف الهدية التى قدمها « اريك روجرز » وزوجته الى « اينشتين » يوم عيد ميلاده ، وكيف أمكن « اينشتين » بذكائه النفاذ ان يدخل الكرة التى فى الجهاز فى الفخ الذى اعد لها تطبيقا لمبدأ التكافؤ الذى سبق ان تحدثنا عنه .

تعمدت عدم وصف الجهاز لالهب خيال القارىء ليطلع على الكتاب ، وتقديرى ان وصف « اريك روجرز » لهويته وشرح «برنارد توهين » لكيفية قيام « اينشتين » بالتجربة امامه محرض كاف لاقتناء الكتاب .

الفصل الخامس
« اينشتين وتطور فيزيقا الكم »

صاحب هذا المقال هو العالم « مارتن كلين » وكان حديثه عن « نظرية الكم » ويذهب الغرض الذى هو اساس هذه النظرية الى ان الجسم يمتص الاشعة ويرسلها فى وحدات معينة ، والمميز بين شعاع وشعاع هو طاقة الشعاع ، وتتناسب طاقة الشعاع وعدد تذبذباته فى الثانية الواحدة .

وهكذا ادخل « ماكس بلانك » عام ١٩٠٠ فكرة غريبة عن المعتاد فى العلم ذلك الوقت وهى ان المادة تبعث اشعاعات وتمتصها فى كميات محددة تتناسب مع تذبذبات الاشعاعات وتذهب هذه الفكرة الى ان الطاقة مؤلفة من جسيمات يقال لها « الكم » او « الكوانتم » تكبر وتصغر حسب التذبذبات ، فالاحمر اكثر بلادة من الازرق ، ولذا كان جسيم الطاقة اصغر فى حالة الاحمر عنه فى حالة الازرق .

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

وهنا تبدأ فلسفة جديدة ادخلت الحبيبات على الطاقة ، وحل التقطع محل الاستمرار ، فأصبحت المادة من ذرات والطاقة من حبيبات، ولكن الطاقة لم تفقد موجيتها كلية فهى جسيمات حينا وموجات حينا اخر ، فأصبيت الطاقة فى عصرنا الحاضر بمرض الازدواج فى الشخصية واصبح هناك ازدواج فى التفكير العلمى بالنسبة للطاقة وهكذا ولدت «النظرية الكمية» على يد «ماكس بلانك» وطبقهابنجاح فى الوصول الى قانون الاشعاع المسمى باسمه، وطبقها من بعد ذلك بسنين «اينشتين» فى ميدان توليد الكهرباء من الضوء .

ضع قطعة من مادة امام اشعة ينبعث من المادة كهرباء على شكل الكترونات وطاقة الالكترونات تتناسب معمقدار تذبذباتالاشعة الساقطة ولكنها لا تتوقف على كثرتها، وعجزت القوانين الطبيعية عن تفسير ذلك بغيرالاستعانة «بالنظرية الكمية» فالضوء الازرق مهما خفتأقدر على اخراج الالكترونات من الضوء الاحمر مهما كثر،وقد توصل«اينشتين» الى قانون ليفسر هذه الظاهرة ومنح جائزة نوبل عام ١٩٢١ على قانونه هذا كما منح من قبل «ماكس بلانك» جائزة نوبل على قانونه الذى فسر السر فى اختلاف طاقات اشعاعات جمعها فرن ملتهب واحد محافظ على درجة حرارة واحدة ، ولم يقتصر جهود اينشتين فى «النظرية الكمية» على ذلك ، بل استخدم ايضا «النظرية الكمية» فى معرفة السر فى تناقص الحرارة الذرية لعنصر واحد مع برودة الجو المحيط به بل ذهب الى اكثر من ذلك . واستخدم النظرية الكمية فى استحداث احصائيات استخدمت فى الوصول الى قانون الاشعاع الذى سبق ان وصل اليه «ماكس بلانك» وسميت باحصائيات «بوز ـ اينشتين» وكان «بوز» شابا هنديا اشار بمعاملة الاشعاعات معاملة الغازات .

الفصل السادس

وماتلاه من فصول فى الباب الثانى

هى فصول تتضمن أحاديثا عن المعرفة والثقافة وطرق التدريس والفلسفة والسياسة والاقتصاد ، وظنى ان العلماء جزء من جهاز عام يتأثر بما يؤثر على هذا الجهاز وليس من الامور العابرة حدوث نهضة علمية مع نهضة اجتماعية، فالتفاعلبينكما أكثر عمقاوابعد اثرا فكثيرا ما ساهمت قوى المجتمع فى رسم الطريق الواجب ان يتخذه العلم ، بل ساهمت فى أسراعهوتطورهكما أن الاختراعاتوالكشوف العلمية بدورها اثرت على الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فقد توحدت الاغراض وتشابكت الاسباب والمسببات .

وانى اظلم هذه الفصول لو حاولت ان الخصها، بل يجب ان تقرأ بتمامها حتى لا تفقد رونقها ، ويقينى ان قارىء مقالى هذا لن يكتفى بهذا القدر ، بل سيرجع الى الكتاب ليروى ظمأه ، وهذه هى تعزيتى لضيق المجال عن الافاضة .

الباب الثالث والرابع

اختص البابان الاخيران من الكتاب بعينات من الرسائل العلمية واوراق البحث المنشورة والتى تهم فى الدرجة الاولى الباحثين والمتخصصين وظنى انها قرئت فى اصولها والتحدث عنها تكرار لا موجب له .

خاتمة

لقد حرص العالم «فرنش» رئيس اللجنة الدولية لتدريس الفيزيقا ان يبعد عن الكتاب بعض مقالات ناشزة لبعض العلماء .. وكم هو جميل لو حشر مقالا واحدا منها حيث يستحب كبح جماح الحماس الزائد فى ذكر المحاسن تنزيها للعلم وارتفاعا بالعلماء الى مكانهم الصحيح .

مطبعة حكومة الكويت

العدد التالى من المجلة

العدد الثالث - المجلد الحادى عشر
أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر
قسم خاص عن
"الادب المقارن"
بالإضافة الى الأبواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريالات
السعودية	٥	ريالات
البحرين	٤٠٠	فلس
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس
اليمن الشمالية	٤٫٥	ريال
العراق	٣٠٠	فلس
لبنان	٢٫٥	ليرة
الأردن	٢٥٠	فلسا
سوريا	٣	ليرات
القاهرة	٢٥٠	مليما
السودان	٢٥٠	مليما
ليبيا	٣٥	قرشا
مسقط	٤٠٠	بايس
الجزائر	٥	دنانير
تونس	٥٠٠	مليم
المغرب	٥	دراهم

الاشتراكات

للاشتراك في المجلة تكتب إلى: الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ بيروت

مطبعة حكومة الكويت

الثمن ٢٥٠